مكسيم غوركي



فى عام ١٩٨٨ ستعيد دار «رادوغا» للنشر اصدار «المؤلفـــات المختارة» لمؤسس الادب السوفييتى مكسيم غوركى (١٨٦٨-١٩٣٦) فى ستة مجلدات .

وكانت الطبعة الاولى قد صدرت فى اعوام ١٩٨١-١٩٨٣ .

ويضم المجلد الرابع مختارات مــن قصص غوركى التى كتبها فى الفترة منذ عام ١٩١٢ وحتى الاعوام الاخيرة مـــن حياته . ويجد القارئ بينها اقاصيص من سلسلتيــه الشهيرتين «حكايـــات عــن ايطاليا» و «فى ارجاء روسيا» وكذلــك الاقاصيص والبورتريهات الادبية للمرحلة الاخيرة والختامية من طريق الكاتـــب فى الابداع الادبـــى : («انطــون تشيخوف» و«ليف تولستوى» و«فلاديمير لينين») .

ISBN 5-05-001726-2
ISBN 5-05-001730-0

Qisas

Hsg

GORKIJ

Qisas

مكسيم غوركي

المؤلفات المختارة في ٦ مجلدات

المجلد ٤

قصص . عام ١٩١٢ ـ عام ١٩٣١

ترجمة المحامى سهيل ايوب

دار «رادوغا»
موسكو

М. ГОРЬКИЙ

Собрание сочинений
в 6-ти томах
Т. 4.

Рассказы. 1912—1931

На арабском языке

طبع في الاتحاد السوفييتي

Г $\frac{4702010200—334}{031(01)—88}$ 068—88

ISBN 5-05-001726-2
ISBN 5-05-001730-0

حكايات عن ايطاليا

(ست حكايات)

الاضراب

كان عمال الترام فى نابولي مضربين : شريط من العربات الفارغة يمتدّ على طول «الريفييرا دي شيايا» ، وحشد من الجباة والسائقين المرحين فصحاء اللسان من أهالى نابولي ، الرشيقين مثل الزئبق ، قد تجمع في ساحة النصر . وفوق رؤوسهم ، حول سياج الحديقة ، تلألأت نافورة ماء شبيهة بشفرة السيف الحادة ، وحواليهم جماعات غفيرة من الناس الغاضبين الذين وجب عليهم التوجه الى أعمالهم فى مختلف نواحي المدينة الضخمة ، وكلهم من موظفي الدكاكين ، والصناع ، والتجار الصغار ، والخياطات ، يؤنبون المضربين في حدة وصخب . وجرى تبادل كلمات خشنة وسخريات لاذعة ، وتلويح كثير بالأيدي ، فأهالي نابولي يفصحون عن أنفسم بأيديهم مثلما يفصحون بألسنتهم التي لا تعرف كَلَلاً .

وهبّت من البحر نسمة عليلة ، فتمايلت أغصان النخيل الداكنة الخضرة في حديقة المدينة تمايلاً رقيقاً ، وبدت جذوعها أشبه ما تكون بقوائم خرقاء لفيلة ضخمة . وتواثب هنا وهناك غلمان شوارع نابولي نصف العراة مالئين الفضاء بصخبهم وضحكهم أشبه بعصافير الدوري .

كانت المدينة التى تماثل صورة محفورة قديمة تستحمّ في أشعة الشمس الملتهبة وتبدو كأنها ترجّع أصواتها كالأرغن . وتلاطمت الأمواج الزرقاء في الخليج على الرصيف الحجري فأضافت نغمة مدوية مثل خفقات الدفّ الى دمدمة المدينة وصيحاتها .

انكمش المضربون على أنفسهم ، غير مبالين بالرد على صيحات الجماهير المثيرة . وتسلق بعضهم سياج الحديقة ، وراحوا ينظرون في لهفة من فوق رؤوس الناس على طول الشارع ، كأنهم مجموعة من الذئاب أحاطتها كلاب الصيد . كان واضحاً أن هؤلاء الناس المرتدين زياً موحداً تشدُّ بعضهم الى بعض إرادة لا تتزعزع تقضي عليهم بالثبات في مواقعهم ، وهذا ما كان يزيد من غيظ الجماهير . ولكن للجماهير فلاسفتها . كان هؤلاء يدخنون في هدوء ، ويخاطبون خصوم المضربين الأكثر حماسة على هذا الغرار :

– آه ، يا سينيور ! ماذا يصنع الانسان اذا لم يستطع أن يقدم المعكرونة لأطفاله ؟

كان عملاء شرطة البلدية بملابسهم الأنيقة يقفون فى جماعات من اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة ، للتيقن من أن الحشد لن يعوق حركة العربات . ظلوا محتفظين بحيادهم التام ، مراقبين بتساو اللائمين والملومين ، ناثرين نكاتهم على الجانبين كلما ازدادت حدة الصراخ والتلويح بالأيدي . وكانت فصيلة من جنود «الكارابينيري» تحمل بنادقها الخفيفة القصيرة مصطفة أمام جدران الأبنية في شارع فرعي ضيق ، ورجالها على أهبة الاستعداد للتدخل اذا حدث صدام جدي . وقد شكلوا ما يشبه جماعة مشؤومة بقبعاتهم مثلثة الزوايا ، ومعاطفهم القصيرة ، والشرائط القرمزية الشبيهة بخطي الدم ينسابان على جانبى سراويلهم .

وفجأة همد الصراخ واللوم والمناقشات . وغمرت الحشد روح جديدة ، روح مسالمة فيما يبدو . فالتصق المضربون

اكثر فاكثر ، صارمي الوجوه ، بينما تصاعدت صرخة من الحشد :

- الجنود !

واختلط صفير السخرية والابتهاج الموجه الى المضربين بصيحات الترحاب ، واختال رجل بدين يرتدي حلة رمادية فاتحة وقبعة من القش واثباً ، وهو يقرع بقدميه حجارة الشارع المرصوفة .

واتخذ سائقو الترام والجباة طريقهم متباطئين بين الحشد ناحية العربات . وتسلقها عدد منهم . فبدت وجوههم اكثر جهامة من قبل وهم يشقون طريقهم عبر الجماهير ، ويردون على صيحاتهم المنبعثة من كل حدب وصوب . وخفتت اصداء الصخب .

من ناحية كورنيش سانتا لوشيا جاء جنود يبدون صغارا بألبستهم الرمادية ، يسيرون فى خطوات رشيقة راقصة ، وأقدامهم تتحرك في ألحان متناغمة ، يلوحون بأياديهم اليسرى في حركة آلية . كانوا اشبه بجنود من الصفيح ، هشيمين مثل الدمى ، يقودهم ضابط وسيم طويل القامة عاقد الحاجبين ملوي الشفتين في احتقار ، والى جانبه رجل بدين قوي يتواثب في قبعة عالية يثرثر بلا توقف ويرسم في الهواء اشارات لا تعدّ ولا تحصى .

تراجع الحشد عن الحافلات ، وانتشر الجنود مثل حبات خرز رمادية كثيرة ، واتخذوا أمكنتهم قبالة فسحات الحافلات حيث المضربون يقفون .

حرك الرجل ذو القبعة العالية ، وبعض المواطنين

المحترمين مظهرا من الملتفين حوله ، سواعدهم بوحشية ، وهتفوا صارخين :

– للمرة الاخيرة . . . هل تسمعون ؟ !Ultima volta

انتصب الضابط ناكس الرأس يبرم شاربيه في ضجر . واندفع الرجل نحوه محركاً قبعته العالية ، وهو يصرخ بصوت أجش كلمات غير مفهومة . شزره الضابط بطرف عينه ، وشدّ من قامته ، ونفخ صدره ، واصدر اوامره في صوت رنان .

في حين شرع الجنود يثبون الى فسحات الحافلات ، اثنين على كل منصة ، جعل السائقون والجباة يثبون عنها واحدا بعد واحد .

لفت هذا المشهد أنظار الجماهير كشيء مضحك – فهدرت ، وصفرت ، وضحكت ، ولكن الضجة ما لبثت أن همدت على الفور وارتدّ الناس عن العربات في صمت ثقيل وقد توترت وجوههم واتسعت عيونهم ، واندفعوا ناحية العربة الاولى .

هناك ، على مبعدة قدمين من عجلاتها ، استلقى على الخط الحديد واحد من السائقين . كان رأسه الاشيب عارياً ، أما وجهه ، وجه جندي بشاربين منفوشين غضباً ، فينظر الى السماء محملقاً . وبينما الجموع في دهشتها ، القى صبي صغير رشيق الحركة كالقرد بنفسه الى جانب السائق ، وتبعه آخرون ، دون عجلة ، واستلقوا ارضاً واحداً واحداً .

بدت من الجماهير همهمة خفيضة ، وسمعت اصوات تستغيث بالعذراء مريم ، وشتم بعضهم في عبوس ، واخذت

النساء تئن وتولول ، وتواثب الغلمان صعوداً وهبوطـــاً ، وهم مستثارون ، مثل كرات من المطاط .

صاح الرجل ذو القبعة العالية بشيء مـا في صـــوت منتحب ، وتطلع اليه الضابط وهزّ كتفيه – كان قد ارسل جنوده لانتزاع العربات من أيدي العمال ، ولكنه لم يكن يحمل أمراً بالاصطدام مع المضربين .

ثم اندفع صاحب القبعة العالية ، وقد أحاطت به زمرة من الاشخاص المتزلفين ، صوب رجال الكارابنيـري ، فتقدموا وانحنوا على الرجال المستلقين على السكة الحديد بغية ابعادهم عنها .

وكان هنالك مشادة قصيرة . وما هي غير لحظـة حتى اخذت جماعات المتفرجين المغبّرة الرمادية تتمايل ، وتجأر ، وتولول واندفعت نحو القضبان الحديدية – وانتزع رجل القبعة القشية قبعته ، وألقى بها في الهواء ، وكان اول من استلقى الى جانب آخر مضرب ، مربتاً على كتفه موجهاً اليه كلمـــات التشجيع .

وطفق الناس يتساقطون واحداً واحداً على السكــــــة الحديد ، وكأن أقدامهم تراخت من تحتهم – جماعات مرحون صاخبون لم يكونوا هنالك قبل دقيقتين اثنتين . ألقوا أنفسهم على الأرض ، ضاحكين ينادي بعضهم بعضاً ، صائحين بالضابط الذي كان يخاطب الرجل ذا القبعة العالية هازاً قفازيه تحت أنفه وقد علت وجهه ابتسامة طفيفة ، محركاً رأسه الجميل من جانب الى آخر .

وتدفق على السكة الحديد أعداد متزايدة من الناس ،

واطرحت النساء سلالهن وصررهن ، وضج الأطفال بالضحك ، وأخذوا يتثنون مثل جراء مرتجفة ، وحتى الوجهاء من الناس تمرغوا في التراب ايضاً .

تطلع الجنود الخمسة الواقفون على منصة الحافلة الأمامية الى ركام الاجساد تحت العجلات وانفجروا ضاحكين ، وقد تشبثوا بقضبان العربة خشية من السقوط ، وقذفوا رؤوسهم الى الوراء وانحنوا الى الامام ، وقد زلزلهم الحبور . ولم يبق بينهم وبين دمى الصفيح وجه شبه على الاطلاق .

. . . بعيد نصف ساعة راحت عربات الترام ، مطنطنة مصلصلة ، تجوب شوارع نابولي ، وعلى المنصات وقف المنتصرون متألقي الوجوه بشراً ، ومشوا في أرجائها وهم يسألون في ادب :

- تذاكر ؟ !

فأعطاهم الركاب نقوداً حمراء وصفراء ، وهم يغمزون ويبتسمون ويهدرون في طيبة أ'نس .

اطفال بارما

في الساحة الصغيرة أمام محطة السكة الحديد في «جنوه» تجمع حشد كبير أكثريته من العمال ، ومن بينهم أناس كثيرون يرفلون في ثياب أنيقة ويبدو في سيماهم انهم يأكلون جيداً . وفي مقدمة هذا الحشد وقف أعضاء مجلس البلدية ، يرفرف فوق رؤوسهم علم المدينة الثقيل الموشى بالحرير ، والى جانبه أعلام المنظمات العمالية ذات الالوان المتعددة . وتألقت الأهداب المذهبة وحوافها وحبالها ، ولمعت اطراف الأعمدة المثبتة بها ، وخفّ الحرير ، وارتفع من الجمع المتحشد هدير خافت مثل جوقة تغني في صوت مهموس .

وفي الأعلى ، على قاعدة شامخة ، انتصب تمثال كولومبوس ، الحالم الذي تألم كثيراً في سبيل ما آمن به والذي انتصر بفضل ايمانه ولا يني الى اليوم يساقط نظره الى الناس في الأسفل وشفتاه الرخاميتان تبدوان وكأنهما تقولان :

«وحدهم الذين يؤمنون قادرون على النصر» .

كان الموسيقيون قد ألقوا ابواقهم حول قاعدة التمثال تحت قدميه ، فراح نحاسها يلتمع كالذهب تحت أشعة الشمس .

وكان بناء المحطة ، المتقلص على شكل نصف دائرة ، قد نشر جناحيه الرخاميين الثقيلين كمن يود أن يعانق الحشد المنتظر . ومن الميناء تصاعدت أنفاس البواخر المجهدة ،

وضجيج المحرك المكتوم تحت طيات الماء ، ورنين السلاسل ، وصفير وصراخ . ولكن الساحة كانت هادئة تتلظى تحت الشمس المحترقة . وعلى الشرفات وفي نوافذ البيوت وقفت النساء والأزهار في ايديهنّ ، والى جانبهن أطفال يبدون كالأزهار في ثياب العيد .

وبينا القاطرة تقترب صافرة من المحطة ، اضطرب الحشد ، وطارت في الهواء قبعات مسحوقة مثل طيور داكنة كثيرة . والتقط الموسيقييون آلاتهم ، وأصلح بعض الرجال المسنين هندامهم ، وخطوا الى الأمام في عجلة وأداروا وجوههم ناحية الحشد ، وهم يتكلمون في عصبية ويلوحون بأيديهم يميناً وشمالا .

وتفرق الحشد متباطئاً ، تاركاً ممراً عريضاً يؤدي الى الشارع .

– من جاؤوا يستقبلون ؟

– أطفال من بارما !

كان ثمة إضراب في بارما . فأصحاب العمل لا يستسلمون ، والعمال في ضائقة خانقة وأطفالهم بدأوا يمرضون جوعا فقرروا ان يبعثوا أطفالهم من بارما الى رفاقهم في جنوه .

ومن وراء أعمدة بناء المحطة ظهر موكب منظم من أناس صغار ، انصاف عراة ، كأنهم حيوانات صغيرة غريبة مشعثة في ملابسهم المهلهلة . كانوا يسيرون متشابكي الأيدي ، في صفوف خماسية ، صغاراً جداً ، مغبرين ، متعبين . كانت وجوههم رزينة ، لكن عيونهم تلمع تألقاً ، وحينما عزف

الموسيقيون نشيد غاريبالدي استقبالاً لهم ، تخايلت ابتسامة راضية على تلك الوجوه المعروقة التي نال منها الجوع .

رحب الحشد باناس المستقبل بصياح هادر ، وانحنت الرايات أمامهم ، وانطلقت الابواق النحاسية فأطربت الاطفال واذهلتهم . لقد أصعقهم هذا الاستقبال قليلاً ، فتراجعوا الى الوراء لحظة ثم شدوا قاماتهم فجأة كيما تبدو أكثر طولاً ، والتقوا في كتلة واحدة ، وارتفعت من مئات الحناجر صيحة واحدة :

— Viva Italia! *

فزمجر الحشد ، وهو يندفع نحوهم :

– عاشت بارما الفتية !

فصاح الأطفال ، وهم يشقون الحشد مثل إسفين رمادي ويختفون فيه :

— Evviva Garibaldi! **

في نوافذ الفنادق ومن فوق سطوح المنازل راحت المناديل ترفرف مثل طيور بيض ، وانهال غيث من الأزهار وصيحات عالية مدوية على رؤوس الحشد في الأسفل .

واتخذ كل شيء مظهر العيد ، ودبّت الحياة في كل شيء ، حتى الرخام الرمادي بدا مزهراً ببقع من ألوان ساطعة .

وخفقت الأعلام من جراء النسيم ، وطارت في الهواء قبعات

---

* عاشت ايطاليا ! (بالايطالية في الاصل) .

** عاش غاريبالدى ! (بالايطالية في الاصل) .

وأزهار ، وبرزت رؤوس الأطفال فوق رؤوس الحشد ، وامتدت مخالب صغيرة قذرة في انطلاقة محيية لالتقاط الزهور ، ودوى الهواء بصيحة هدارة موصولة :

— Viva il Socialismo! *

— Evviva Italia!

واختُطف جميع الأطفال تقريباً على الأيدي ، وجلس بعضهم على أكتاف الكبار ، وانضغط الآخرون على الصدور العريضة لرجال أشداء ذوي شوارب ، وكانت الموسيقى تسمع بالكاد في ذلك الهدير من الأصوات والضحكات .

واندفعت النساء يدخلن في الحشد ويخرجن منه ليلتقطن الوافدين الباقين ، وهن يتصايحن :

– أتأخذين اثنين ، يا أنيتا ؟

– أجل . وأنت ؟

– لا تنسى واحداً لمرغريت العرجاء . . .

وخيّم شعور من الانفعال المرح ، وفي كل مكان أشرقت وجوه وتغرغرت بالدمع عيون ، وشرع بعض أطفال المضربين يمضغون الخبز .

علّق رجل شيخ له أنف يشبه المنقار قائلاً ، وبين شفتيه سيكار أسود :

– في زماننا لم يفكر أحد في ذلك !

– ما أشدّ بساطته . . .

* عاشت الاشتراكية ! (بالايطالية في الاصل) .

1*

- أجل . هو بسيط ومعقول .

أخرج الشيخ السيكار من فمه ، وحملق في طرفه ، وتنهد وهو ينثر الرماد . وعندما لمح بالقرب منه طفلين صغيرين من بارما - أخوين فيما يبدو - اكتسى وجهه جهمة ، وبينما الطفلان يلقيان اليه نظرات جادة دفع قبعته فوق عينيه ، ونشر ذراعيه ، وانكمش الطفلان متراجعين في عبوس ، فإذا هو يتقرفص على غير انتظار ويطلق صيحة تشبه صياح الديك . وانفجر الطفلان ضاحكين ، وضربا الحصى بعقبي قدميهما الحافيتين . ونهض الرجل ، وعدّل وضع قبعته ، ومشى متقلقلاً وهو يحسُّ أنه أدى واجبه .

وهذه امرأة حدباء شيباء ، لها وجه ساحرة وشعر رمادي خشن في ذقنها المتعظمة ، قد وقفت عند قاعدة تمثال كولومبوس وأرسلت الدمع ، وهي تمسح عينيها الحمراوين بطرف شالها الحائل لونه . كانت سمراء قبيحة بدت وحيدة بشكل غير مألوف وسط ذلك الحشد المنفعل . . .

وجاءت صبية من جنوه فاحمة الشعر رشيقة الخطوات ، تجر بيدها شاباً صغيراً في حدود السابعة من العمر يرتدي قبقاباً خشبياً وقبعة رمادية تصل حافتها الى كتفيه تقريباً . هزّ رأسه الصغير كيما يزيح القبعة عن عينيه ، ولكنها ظلت تنزلق على وجهه الى ان أنتزعتها المرأة ولوّحت بها في الهواء ضاحكة مغنية . ورمى الطفل ، وقد انعصر وجهه ابتساماً ، رأسه الى الوراء كيما يتمكن من الرؤية ، ووثب عالياً لالتقاط القبعة ، فيما الاثنان يختفيان عن مسرح الرؤية .

وهذا رجل مديد العود ذو ساعدين عاريين قويين يلبس مئزراً جلدياً ويحمل على كتفه طفلة في السادسة من عمرها تشبه فأرة صغيرة رمادية اللون .

قال يخاطب المرأة التي تسير الى جانبه ممسكة بيد صبي صغير أحمر الشعر :

– هل تفهمين ما أعني ؟ اذا استمرّ الأمر على هذا الغرار . . . فلن يكون من السهل التغلب علينا . أليس كذلك ؟

واطلق ضحكة منتصرة عميقة ، وهو يقذف حمله الصغير الى الهواء الأزرق صائحاً :

— Evviva Parma ! *

وتبدّد شمل الناس تدريجياً ، وهم يحملون الأطفال او يقودونهم من أيديهم ، وخلت الساحة من كل شيء فيما عدا الأزهار المدعوسة ، وأوراق السكاكر ، وجماعة من الحمالين المرحين يطل عليهم من علٍ التمثال النبيل للرجل الذي اكتشف العالم الجديد .

وظلت الصيحات المرحة للناس المنطلقين الى حياة جديدة تسيل سيلاً جميلاً من الشوارع كانما من ابواق جبارة .

---

* عاشت بارما ! (بالايطالية) .

النفق

البحيرة الزرقاء الساكنة قابعة في إطار من جبال عالية متوجة بثلوج أزلية . والحواشي الداكنة للحدائق تتماوج في ثنيات مترفة متحدرة حتى حافة المياه . وبيوت بيضاء تبدو وكأنها بنيت من السكر تحدّق في المياه . والسكينة تشبه تهويمة وادعة لطفل صغير .

انه الصباح . وعبير الأزهار يهبُّ من الجبال رخياً عذباً . والشمس نهضت من نومها قبيل لحظات ، وقطرات الندى لا تبرح تتألق على أوراق الأشجار وسوق العشب . والدرب شريطة رمادية ملقاة في فج الجبل الصامت ، وهي مرصوفة بالحجارة ولكنها تبدو ناعمة الملمس كالمخمل اذا نازعتك نفسك الى لمسها .

الى جانب كومة من الحجارة جلس عامل اسود اللون كالخنفساء ، ينمُّ وجهه عن جرأة ورقة ، ويعلق على صدره مدالية .

كان يريح يديه البرونزيتين على ركبتيه ، ويحدّق في وجه أحد السابلة وقد وقف تحت شجرة كستناء .

كان يقول :

— هذه المدالية ، يا سنيور ، احرزتها من جراء العمل في نفق سيمبلون .

وخفض بصره ، وتبسم في عذوبة للقطعة المعدنية المتألقة على صدره .

— اجل . كل عمل شاق حتى تألفه عظامك وتتعلم أن

تهواه . وعندئذ يشوقك ويكفُّ عن أن يكون شاقاً . ولكنه ، من دون ريب ، لم يكن سهلاً !

وهزّ رأسه هزة خفيفة مبتسما للشمس . وانتعش فجأة ولوّح بيده ، والتمعت عيناه الفاحمتان .

– كان الامر احيانا على شيء من الرهبة . حتى إن الارض لا بدّ أن تحسّ شيئاً . ألا تظن ذلك ؟ حين توغلنا فيها ، ونحن نقطع في الجبل شدخاً عظيماً ، قابلتنا الأرض في الداخل غاضبة . كانت أنفاسها حارة ، ففرقت قلوبنا ، وثقلت رؤوسنا ، وانوجعت عظامنا . وعاني الكثيرون منا هذا الأمر ! ثم راحت تقذفنا بالحجارة وتدفق علينا ماء حاراً . وكان ذلك رهيباً حقاً ! أحياناً كانت المياه ، حين ينصب عليها الضوء ، تغدو حمراء حمراء ، وكان والدي يقول إننا جرحنا الأرض ، وانها ستغرقنا وتحرقنا جميعاً بدمائها ! كان ذلك مجرد خيال بطبيعة الحال ، لكن عندما تسمع مثل هذا الكلام هنالك في أعماق الأرض ، في الظلمة الخانقة والمياه تتقاطر محزونة والحديد يطرق على الصخر ، فانك تنسى عن الخيالات . كان كل شيء هنالك خيالياً ، يا سنيور . وكنا ، نحن الرجال ، نبدو أقزاماً الى جانب ذلك الجبل الشامخ حتى السحب ، الجبل الذي نبقر له بطنه . . . كان يمكن أن تستوعب ما أعني لو أنك رأيته ، رأيت الثغرة السوداء التي احتفرناها في جانب الجبل ، ورأيتنا نحن ، الرجال الصغار ، ندلف في تلك الثغرة صباحاً والشمس تنظر الينا حزينة ونحن نُغرّق في تجاويف الأرض ، ورأيت الآلات ، ووجه الجبل العابس ،

وسمعت الزمجرة الغامضة في عمقه وصدى الانفجارات يتردد مثل قهقهة رجل مجنون .

وتفحص يديه ، وأصلح من وضع المدالية على سترة العمل الزرقاء ، وزفر زفرة خافتة .

واسترسل يقول في فخار :

– الرجال يعرفون كيف يعملون ! آه ، يا سنيور ، الانسان ، مهما يكن صغيراً ، قادر على أن يغدو قوة لا تقهر حين يرغب في العمل ! صدقني أن الانسان ، مهما يكن ضعيفاً ، قادر أن يفعل كل شيء يتوق الى أن يفعله . لم يكن والدي يصدّق ذلك أول الأمر .

كان قد ألف أن يقول : «أن تثقب الجبل من بلد الى بلد معناه أنك تتحدى الله الذي فصل بين الأرض بجدران من الجبال . لسوف ترى أن العذراء ستتخلى عنا !» . وكان مخطئاً ، فألعذراء لا تتخلى عن الرجال الذين يحبونها . وفيما بعد بدأ أبي يفكر مثلي لأنه شعر أنه أكبر من الجبل وأقوى ؛ لكن كانت تأتي فترات يجلس فيها الى المائدة في أيام الأعياد وأمامه زجاجة من الخمر ، ويروح يعظني ويعظ الآخرين قائلاً :

– «يا أولاد الله» .

تلك كانت العبارة الأثيرة لديه ، فقد كان رجلا طيبا يتقي الله . كان يقول : «يا أولاد الله ، لايجوز محاربة الأرض على هذا الغرار ، فلسوف تثأر لجراحها ، وتبقى منتصرة أبداً ! لسوف ترون : سوف نشقُّ لأنفسنا طريقاً الى قلب الجبل وعندما نمسّه سيحرقنا ويلقي بنا في النار ،

ذلك ان قلب الجبل نار ، والجميع يعرفون ذلك ! أن نحرث الأرض شيء ، وان تساعد الطبيعة في عملية ولادتها واجب اوصينا به ، أما نحن فنشوّه وجهها وشكلها . أنظر . كلما توغلنا في الجبل ازداد الهواء حرارة والتنفس صعوبة . . .»

ضحك الرجل ضحكة خافتة ، وهو يفتل شاربه بأصابعه .

– لم يكن والدي الرجل الوحيد الذي يفكر على هذا الغرار . ولقد كان ذلك في الحقيقة صحيحاً : فكلما انطلقنا قدماً تفاقمت الحرارة شدة ، وازداد عدد المرضى والموتى في صفوفنا . وتدفقت الينابيع الحارة في جداول متدافعة ، وتمزقت قشور الأرض ، وأصيب اثنان من أهالي لوغانو بالجنون . وفي الليل ، في المعسكرات ، شرع كثيرون يهرفون من الحمى ، ويئنون ويقفزون من أسرّتهم في نوبات من الفزع . . .

– قال والدي : «ألم أكن على حق ؟» . وكان ثمة هلع في عينيه ، وتفاقم سعاله من سيىء الى أسوأ . . . وقال : «ألم اكن على حق ؟ انه شيء لايقهر ، انه الارض !»

– وأخيراً رقد في فراشه ولم ينهض منه أبداً . كان شيخاً متين البنيان ، والدي ، وقد صارع الموت أكثر من ثلاثة اسابيع في عناد ، ودونما شكوى ، مثل رجل يعرف قيمة نفسه .

– قال لي ذات ليلة : «لقد انتهى عملي ، يا باولو . انتبه لنفسك وارجع الى البيت ، ولتحرسك العذراء !» – وأغرق في الصمت فترة طويلة ، واستلقى هنالك يتنفس في ثقل وقد أغلق عينيه .

هبَّ الرجل على قدميـه ، ورنا الى الجبال ، وتمطى حتى طقطقت عظامه .

– ثم أخذني من يدي وقربني منه ، وقال – وأنا أروي لك الحقيقة الصادقة ، يا سنيور ! – قال : «أتعلـم ، يا باولو ، يا بنيَّ ، أني أظن أن ذلك سيحدث على أي حال : نحن وأولئك الذين يحفرون من الجانب الآخر سنلتقي داخل الجبل ، سنلتقي ، أتصدق هذا ، يا باولو ؟» بلى ، لقـد صدَّقتُ ذلك .

«هذا حسن ، يا بنيَّ ! فالمرء ينبغي أن يؤمن دائماً بما يفعل ، أن يكون واثقاً من النجاح ومؤمناً بالله الذي ، بفضل صلوات العذراء ، يعين الأعمال الطيبة . أضرع اليك ، بنيَّ ، أنه إذا حدث ذلـك ، إذا التقى الرجال داخـل الجبـل ، فتعال الى قبري ، وقل : أبتاه ، لقد تم ذلك ! وعندهـا أعرف !»

– كان ذلك طيباً ، يا سنيور ، ووعدته . توفي بعـد خمسة ايام . وقبيل يومين من وفاته طلب اليَّ والى الآخرين أن ندفنه في المكان الذي عمل فيه داخل النفق ، وترجى منا ان نفعل ذلك ، فاعتقدت أنه كان يهرف . . .

– والتقينا والآخرين الذين كانوا يتحركون صوبنا مـن الجانب الآخر في الجبل بعد وفاة والدي بثلاثة عشر أسبوعاً . أوه ، كان ذلك يوماً مجنوناً ، يا سنيور ، ذلك اليوم الذي كنا ، هنالك تحت الأرض المظلمة ، نسمع فيه أول الأصداء عن العمل الآخر ، الأصوات التي يطلقهـا أولئك القادمون لمقابلتنا في احشاء الأرض ، يا سنيور ، تحت هذا الركام

الضخم من التراب الذي يمكن أن يسحقنا نحن الأقزام جميعاً بضربة واحدة !

– ظللنا أياماً عديدة نسمع هذه الأصوات ، الأصوات الجوفاء التي تزداد علواً وضجيجاً يوماً بعد يوم ، والفرح الوحشي الذي يشعر به المنتصرون ، ونحن نشتغل كالشياطين ، كالأرواح الشريرة ، كانما لا اجساد لنا ، لا نحس" تعباً ، ولا حاجة الى من يستنهض همّتنا . آه ، ما كان أحلى ذلك ، فهو يشبه الرقص في يوم مشمس . لقد كان ذلك حقاً ، أقسم لك ! وصرنا جميعاً عطوفين ولطفاء كالأطفال . آه ، لو أنك عرفت قوة الرغبة وتدفقها للقاء الرجال الآخرين في الظلمة تحت الأرض حيث كنا نحفر مثل الخلدان شهوراً طويلة .

توهج وجهه انفعالاً عندما عاودته الذكرى . دنا مقتربا وحدّق بعينيه الانسانيتين المتعمقتين فى عيني مستمعه ، واسترسل في صوت سعيد رقيق :

– وحين تداعى أخيراً آخر حاجز من الأرض ، وأضاء لهب الشعلة الأحمر البراق فوهة الثغرة ، ورأينا وجهاً أسود تغطيه دموع الفرحة ، وشاهدنا مزيداً من الشعلات والوجوه وراءها ، هدرت هتافات النصر ، هتافات الفرح – أوه ، كان ذلك أسعد يوم في حياتي ، وكلما استعدته في ذاكرتي أشعر أن حياتي لم تذهب سدى" ! كان ذلك عملاً" ، عملى ، عملاً" مقدساً ، يا سنيور ، أقول لك ! وحينما خرجنا الى ضوء الشمس سقط كثيرون منا على الأرض وضغطنا شفاهنا عليها ونحن نبكي . كان ذلك رائعاً فكأنه أسطورة خرافية ! اجل ،

قبّلنا الجبل المغلوب ، قبّلنا الأرض . وشعرت في ذلـــك اليوم أني قريب من الأرض أكثر مما كنت في أي وقت آخر ، يا سنيور ، وأحببتها مثلما يحب الرجل امرأة !

– ومما لا مرية فيه أني ذهبت الى قبر والدي . أنـــا أعرف أن الموتى لا يسمعون شيئاً ، ولكنني ذهبت ، لأن على الانسان أن يحترم رغبات اولئك الذين عملوا من اجلنا ولم يتعذبوا أقل من عذابنا ، أليس كذلك ؟

– أجل ، أجل ، ذهبت الى قبره ، ودققت على الأرض بقدمي ، وقلت كما كان أمرنى :

– «أبتاه ، لقد تم ذلك ! لقد انتصرنا نحن البشر . لقد تم ، يا ابى !»

الأم

فلنرفعنّ أصواتنا تمجيدا للمرأة ، الأم ، ينبوع الحياة المنتصرة على الدوام ، الينبوع الذي لا ينضب له معين .

هذه هى قصة تيمورلنـــك ، الصوانى القلب ، النمر الأعرج كما يلقبه الكفار ، قصة «صاحب كيرانى» ، الفاتـح المحظوظ ، والرجل الذى نَشَدَ تدمير العالم بأسره .

لقد جاب الأرض طوال خمسين عاماً ، ساحقـــاً المدن والدول بعقب رجله الحديدية مثلما تسحق قدم الفيل قرية من قرى النمل ، فتدفقت فى طريقه أنهار من الدم الأحمر فى كل حدب وصوب ، وشيَّد أبراجاً سامقة من عظام الشعوب المغلوبة . لقد دمَّر الحياة . لقد نافس بقوته قوة الموت ، لأنه كان يثأر منه لوفاة ابنه جهانجير .

كان رجلاً شاحب الوجـه رهيبـــاً ، وكان ينتـوى أن يسلب المنيَّة غنائمها جميعاً كيما يهلكها آخر الأمر جوعـــاً ويأساً .

ومن ذلك اليوم الذي توفي فيه ابنه جهانجير ، وقابـل سكانُ سمرقند قاهرَ «الجوت» الأشرار المرتدون ثيابـــــاً سوداء وزرقاء وقد ذرُّوا الغبار والرماد على رؤوسهم ؛ من ذلك اليوم إلى تلك الساعة التي قهرته فيها المنيَّة أخيراً في «أوتراف» بعد ثلاثين عاماً ، لم يبتسم تيمور ابتسامة واحدة . عاش مطبق الشفتين ، شامخ الرأس ، موصد القلب تجاه كل عاطفة –طوال ثلاثين عاماً !

فلننشدنّ تسابيح التمجيد للمرأة ، الام ، القوة الوحيدة

التي يحني الموت رأسه امامها في اتضاع ! فلنروين هنا النبأ اليقين عن الأم وكيف حنى خادم الموت وعبده تيمورلنك ، الصوانى القلب ولعنة الأرض الدموية ، رأسه لها .

كان تيمورلنك قد اقام احتفالاً في وادى «كانيغـــــولا» الظريف المتوّج بسحب من الورد والياسمين ، الوادي الذي أطلق عليه شعراء سمرقند اسم «وهدة الازهار» ، وكانت منائر المدينة الكبيرة الزرقاء ، وقباب المساجد الزرقاء أيضاً تلوح للناظر من هناك .

ان خمسة عشر ألف خيمة دائرية انتشرت في ذلك الوادي على شكل مروحة كأنها خمسة عشر ألف زهرة خزامى . وخفقت فوق كل خيمة ، مثل زهور حية ، مئات الرايات الحريرية في مهب النسيم .

في الوسط نهضت خيمة «غوروغان تيمور» أشبه بملكة بين افراد حاشيتها . كانت مربعة الزوايا ، طول كل جانب منها مائة خطوة ، وارتفاعها ثلاثة رماح ، ووسطها مدعوم باثنـــى عشر عموداً من الذهب كل واحد منها يبلغ ثخانة رجل مـــن المحاربين . وكانت قبة زرقاء شاحبة تتوّج تلك الخيمة ، في حين كانت جنباتها مصنوعة من حرير مقلـــم بالألوان السوداء والصفراء والزرقاء . وكان يثبت الخيمة إلى الأرض خمسمائة حبل قرمزى لمنعها من الانطلاق الى السماء ، وقد انتصبت عند زواياها الأربع أربعة نسور من الفضة . وتحت القبة ، على دكة نصبت وسط الخيمة ، جلس النسر الخامس ، ملك الملوك القهّار ، تيمور غوروغان ، أو تيمورلنك .

كان مرتدياً ثوباً حريريا فضفاضـــــاً سماوى اللون ،

مرصعاً باللآلئ ، بخمسة آلاف لؤلؤة كبيرة ولا اكثر ! وتستريح فوق حاجبيه المروعين الاشيبين قلنسوة بيضاء مستدقة ، في قمتها ياقوتة تتمايل إلى الأمام والخلف مثل عين محتقنة بالدم تراقب العالم .

وكان وجه الفاتح الأعرج أشبه بسكين عريضة الشفرة أصدأها الدم الذى أُغمدت فيه آلاف المرات . وكانت عيناه فتحتين ضيقتين لا تخطئان شيئاً ، بريقهما أشبه ببريق الزمرد البارد ، أحبّ الجواهر الى قلب العرب . وهو يشفى الامراض التي لا شفاء لها . وكان يتدلى من أذنيه قرطان من ياقوت رومانى يضارعان في اللون شفتى عذراء بارعة الجمال .

في أرض الخيمة ، على سجاد رائع الروعة كلها ، انتصبت ثلاثمائة جرة ذهبية ملأى بالخمور ، وكل ما يليق باحتفال ملكى . وجلس الموسيقيون وراء تيمور . ولم يجلس أحد الى جانبه . وأما عند قدميه فجلس أنسباؤه وجماعة من الملوك والامراء والزعماء . وكان أقربهم اليه جميعا كيرمانى المخمور ، الشاعر ، الذي سأله تيمور ذات يوم :

– يا كيرماني ! بكم تشترينى ، يا كيرماني ، لو عرضتُ في سوق للبيع ؟

فأجابه قائلاً :

– بخمسة وعشرين محاربا .

فقال تيمور مشدوها :

– ولكن حزامي وحده يساوي هذه القيمة !

فردّ عليه كيرماني مجيباً :

- انما كنت أفكر فى حزامك ، فى حزامك وحده . فأنت نفسك لا تساوى قرشاً واحداً .

هكذا خاطب كيرمانى ، الشاعرُ ، ملكَ الملوك ، رجلَ الهول والشرّ . الا فليرفعنّ مجد الشاعر ، صديق الحقيقة ، فوق مجد تيمورلنك ، أبد الدهر !

الا فلنسبحنّ بمجـــد الشعراء الذين يعرفون غير إلـه واحد ، كلمة الحقيقة الجميلة التى لا تهاب أحداً . ذلك هــو إلههم الى آخر الدهور !

وهكذا ، فيما كان المرح وذكريات المعارك والانتصارات قائمة على قدم وساق ، وفى غمرة الموسيقى الصاخبة والألعاب الشعبية الجارية تجاه خيمة الملـــك ، حيث جماعة لا يحصى عددهــــا من المُجّان مختلفى الألوان يقفزون الى الأعـــلى والأسفـــل ، وحيث الرياضيون يصطرعون ويتلاكمـــون ، والبهلوانيون ينثنون ويتقلبون بصورة توقع فى روع المرء ان أجسادهـــم خلو من عظـــام ، وحيث سيوف المقاتلين المتصالبة تتكشف عن براعة لا تضارع في فن القتل ، وحيث كانت تمثل مشاهد مع الفيلة المصبوغة بالأحمر والأخضر ، بعضها يصب الرعب في القلب وبعضهـــا الآخر يبعث عـــلى الضحك - في تلك الساعة البهيجة التي زجاها تيمور مع رجاله الذين أسكرهم الخوف منه ، والتفاخر بأمجاده ، وأهلكهـــم الكلال من الانتصارات والاسراف في معاقرة الخمرة - فى تلك الساعة الضارية انطلقت صيحة امرأة مدوية ، وسط الجلبة والفوضى على حين فجأة ، مثلما ينطلق خط من البرق فى ملء ركام من السحب ، وبلغت أذنى قاهر السلطان بايزيد . . .

كانت صرخة مألوفة لديه ، متناغمة الجرس مع روحه الجريح ، روحه التى أثخنها الموت فهى قاسية على الأحياء .

أصدر أمره الى رجاله بالتحرى عن مصدر ذلك الصوت الحزين ، فأخبروه أن امرأة ، مخلوقاً مجنوناً ، تتسربل بالغبار والأسمال أقبلت تطلب ، باللسان العربى ، أجل تطلب ، أن تراه هو ، المهيمن على ثلاثة من أطراف المعمورة .

أمر الملك :

– جيئونى بها !

وهكذا وقفت أمامه امرأة ، حافية القدمين ، ثيابها الممزقة المهترئة نصلت ألوانها بفعل الشمس ، وشعرها الأسود مرخى الضفائر يغطى صدرها العارى ، ووجهها بلون البرونز ، وعيناها تشعان صلفاً وكبرياء . لم ترتجف يدها السمراء الممدودة إلى الفاتح الأعرج .

نبرت مستفسرة :

– أأنت من قهر السلطان بايزيد ؟

– اجل . قهرته وقهرت كثيرين سواه ايضاً ، ولما تملّ نفسى الفتوح إلى الآن . فماذا تخبريننى عن نفسك ، يا امرأة ؟

قالت :

– أعرنى سمعك ! فمهما قدّر لك ان تفعل لن تعدو ان تكون رجلاً . اما أنا فأم ! أنت تخدم الموت ، وأنا أخدم الحياة ، وقد أثمتَ فى حقى ، ومن أجل ذلك جئت أسألك التكفير عن جريمتك . أخبرونى أن شعارك هو «في العدل تكمن

القوة» ، ولست أصدّق هذا . يتعيّن عليك أن تكون عادلاً معى لأننى أم !
كان الملك من الحكمة بحيث استشفّ القوة الكامنة وراء هذه الكلمات الجريئة . فخاطب المرأة قائلا :
– استريحى وتكلمى ، وسأصغى لك .
اتخذت المرأة لنفسها مجلسا على السجادة بين حلقـــة الملوك الخاصة ، وانثالت تروى حكايتها :
– أنا من مقاطعة ساليرنو ، من أحد أصقاع ايطاليـــا البعيدة : انت لا تعرف تلك الديار ! كان والدي صيادا ، وكان زوجي صيادا هو الآخر . كان جميلا الجمال كله مثل الرجال السعداء جميعا ، وكنت انا َمنْ منحه تلك السعادة ! وكان لي ولد ايضا هو أروع الصبيان فى العالم كله !
فتمتم المحارب العجوز :
– مثل ولدى جهانجير !
واستطردت المرأة :
– ولدي اجمل الاولاد واكثرهم براعة ! كان فى السادسة من عمره عندما هبط جماعة من قراصنة الشرق على شواطئنا فقتلوا والدي وزوجى وعديدا من الرجال الآخرين ، وحملوا ولدى معهم . فأنا ابحث عنه منذ اربع سنوات كاملة . وها هوذا الآن عندك . انا اعرف ذلك جيدا ، لان رجال بايزيـــد أسروا القراصنة وقهرت انت بايزيد ، واستوليت على جميع ممتلكاته . يجب ان تعرف أين ولدى . يجب ان تردّه إلىّ !
ضحك القوم جميعا . وقال الملوك الذين يعتبرون انفسهم حكماء على الدوام :

– هى مجنونة !

وهذا ما قاله ايضاً أخدان تيمور من أمراء وزعماء ، وقد غلب عليهم الضحك .

وحده كيرمانى الشاعر حدّق في المرأة مكتئبا ، في حين رنا تيمورلنك اليها مشدوها .

قال كيرماني المخمور فى رفق :

– هى مجنونة مثلما تكون الأم مجنونة !

وقال الملك عدوُ السلام :

– يا امرأة ! كيف جئت الى هنا من تلك البلاد المجهولة ، عبر البحار ، والأنهار ، والجبال ، وعبر الغابات والادغال ؟ كيف ان الوحوش والرجال – الاشدّ ضراوة فى اغلب الاحيان من اكثر الوحوش ضراوة – لم يتعرضوا لك ؟ كيف استطعت ان تضربى فى الارض وحيـــدة من غير سلاح ، والسلاح هو الصديق الأوحد للضعيف ، الصديق الأوحد الذى لا يخون صاحبه ما دام يجد القوة التى تمكنه من استخدامه ؟ ينبغى أن أعرف ذلك كيما اصدقك ، وكيما لا يحول عجبـــى دون فهمى ما تقولين !

الا فلنرفعنّ اصواتنا تمجيدا للمرأة ، الأم ، هذه التى لا يعرف حبها العقبات ، والتي غذّى ثدياها العالم بأسره ! فكل ما هو جميل فى الانسان لا يعدو أن يكون مستمداً مـن أشعة الشمس ومن حليب أمه ! وذلك هو ما يُشرب نفوسنا حبَّ الحياة !

أجابت المرأة :

– لم أجد فى تجوابى غير بحر واحد ، فيه جزر كثيرة

وسفن صيــــد . وحين يسعى الإنسان وراء مخلوق حبيب الى قلبه تنقاد له الريح دائما . ومن يبصر النور ويكبر على ساحل البحر يستهن السباحة فى الأنهار . والجبال ؟ أنا لم أصادف شيئاً منها .

فقال كيرمانى المخمور فى طرب :

– الجبل ينقلب وادياً فى عين من يعمر الحبُ قلبه .

واستتلت المرأة قائلة :

– كان ثمة غابات . أجل ، ولقيتُ خنازير برية ودببة ، وثيراناً مخيفة أحنت رؤوسها . وتطلعت النمور إلىّ مرتين بعيون مثل عينيك . ولكن لكل حيوان قلباً . وتحدثــت الىّ الوحوش مثلما أتحدث إليك ، وصدقتنى حين أخبرتها أننى كنت أماً ، فمضت فى سبيلها ترسل الزفرات رثاء لي . أفلا تعلم أن الحيوانات أيضاً تحب أولادها وتعرف كيف تقاتل من أجل حياتها وحريتها مثلما يقاتل البشر تماماً ؟

فقال تيمور :

– جميل كلامك ، يا امرأة . وغالباً ما تحبُ الحيوانات – وأنا أعرف ذلك جيداً – تحبُ في قوة وتقاتل فى عناد لا يرقى الرجال إليها !

فأردفت المرأة تقول – وكأنها طفل – ذلك أن كل أم هى ، فى الحقيقة ، طفل كبير ، طفل مضاعف مائة مرة في حنوّ القلب :

– الاناس . . . الاناس ، دائماً ، أطفال في نظر أمهاتهم . ذلك أن لكل انسان أماً ، وكل انسان هو ولد أم من الأمهات ، حتى أنت ، أيها الرجل الشيخ ، والدتك امرأة . في استطاعتك

ان تنكر الآله ، إنما ليس في استطاعتك أن تنكر هذه الحقيقة أبد الدهر !

فهتف كيرماني الشاعر الذى لا يهاب :

– قول رائع ، يا امرأة ! قول رائع ! فالثيران لا يمكن أن تنجب عجولاً ، والورد لا يزهر من دون الشمس ، وليس ثمة سعادة من غير حب ، ولا حب من غير امرأة ، ولا شعراء أو أبطال من غير أمهات !

وعقّبت المرأة قائلة :

– ردّ لي ولدي ، فأنا أمه ، وانا أحبه !

ألا فلننحنِ للمرأة التى انجبت موسى ، ومحمداً ، ويسوع النبي العظيم !

فلننحنِ لها ، هى التي تنجب ، من دون ما تعب ، عظماء الرجال ! فأرسطو ابنها ، والفردوسى ، وسعـــدى الحلو كالشهد ، وعمر الخيام الشبيه بالخمرة الممزوجة بالسم ، والاسكندر ، وهوميروس الأعمى – هؤلاء جميعاً ابناؤها ، رضعوا حليبها ، فقادت كلاً منهم ، ممسكة بيده ، إلى العالم حينما كانوا صغاراً كأزهار الخزامى . ان فخر العالم بأسره منبثق عن الأمهات !

واستغرق مدمر المـــدن الأشيب ، النمر الأعرج تيمور غوروغان ، تيمورلنك ، في تفكير عميق . وبعد صمت طويل قال للذين التفوا حوله :

– أيها الرجال اسمعوا قول تيمور ! أنا ، خادم الله تيمور ، أقول ما ينبغى أن يقال ! هكذا قضيت حياتى ، تئن الأرض تحت قدمي طوال سنين عديدة . وقد سلخت ثلاثين

عاماً وأنا أدمر حصة الموت ثأراً منه بوفاة ولدي جهانجير واطفائه شمس قلبي ! لقد قاتل الرجال ضدي في سبيل الممالك والمدن ، ولكن أياً منهم لم يقاتلني يوماً في سبيل الإنسان ! ولم يكن للإنسان في نظري أية قيمة في يوم من الأيام ، ولم أدر قط من هو ولماذا يقف في سبيلي . لقد كنت ، أنا تيمور ، من قال لبايزيد حينما هزمته : «أوه ، يا بايزيد ، ينبغي أن تكون البلاد والمخلوقات لا شيء في نظر الله ، لانه – كما ترى جيدا – يسمح لأمثالنا ، انا الاعرج وأنت الأعور ، ان نهيمن عليها !» هذا ما قلتُ له وأنا أرنو إليه مسربلاً بالبلاء . لقد بدت الحياة ، في تلك اللحظة ، مريرة مثل الشيح ، عشب الدمار والخراب !

– أنا ، خادم الله تيمور ، أقول ما ينبغي أن يقال ! ههنا ، أمامي ، تجلس امرأة ، واحدة من عشرات الآلاف ، استطاعت ان توقظ في روحي مشاعر تقدّر لي معرفتها من قبل قط . إنها تتحدث الىّ حديث الند للند ، فلا تتوسل أو تترجى ، ولكنها تأمر . وأنا أرى الآن ، أنا أفهم الآن سرّ قوة هذه المرأة الجبارة – إنها تحب ، ولقد علمها الحب أن طفلها هو شرارة الحياة التى تستطيع ان تلهب شعلة مدى أجيال عديدة . ألم يكن الأنبياء جميعاً أطفالاً ؟ ألم يكن الأبطال جميعاً ضعافاً ؟ إيه ، يا جهانجير ، يا ضوء عيني ، لعله كان مقدرا لك ان تنير الارض ، ان تزرعها سعادة . أما أنا ، والدك ، فقد اغرقتها بالدم ، فغدت سمينة سمينة .

وران الصمت مرة أخرى على جلاّد الشعوب ، ثم عاود الكلام قائلاً :

– أنا ، خادم الله تيمور ، أقول ما ينبغى أن يقال ! يجب أن ينطلق فى الحال ثلاثمائة فارس إلى أطراف ملكي ، ويجب أن يعثروا على ولد هذه المرأة . وسوف تنتظر هى هنا ، وأنتظر أنا معها . والفارس الذي يعود أدراجه حاملاً ولدها على ظهر حصانه يحظى بفوز عظيم . أنا ، تيمور ، اقول ذلك ! هل تكلمت جيداً ، يا امرأة ؟

فردّت المرأة رأسها إلى الوراء مبعدة شعرها الأسود عن وجهها ، وابتسمت قائلة :

– لقد احسنت الكلام ، أيها الملك !

ونهض ذلك الشيخ المهول ، وانحنى لها في صمت . وهنا أنشد كيرماني ، الشاعر المرح ، في ابتهاج عظيم :

أي شيء أجمل من أنشودة النجوم والأزهار ؟
جميعنا نعرف الجواب : إنها أغنية الحب !
أي شيء أنضر من أشعة شمس الظهيرة فى أيار ؟
إن المحب يجيب : إنها الفتاة التى أُحب !
آه ، حلوة ، هي النجوم في سماء منتصف الليل ،
وجميلة هى شمس ظهيرة الصيف ،
لكنّ عيني حبيبتي أبهى من الأزهار جميعاً ،
وابتسامتها أرق من شعاعات الشمس وألطف !

إن أجمل الأغنيات لمّا تُنشد ،
أغنية بداية كل شيء على وجه الأرض ،
أغنية قلب العالم ، ذلك القلب السحري ،
الخافق في صدر من نسميها ، على هذه الأرض ، أماً !

وقال تيمور لشاعره :

– أحسنت ، يا كيرماني ! الله لم يخطئ حينما اختار شفتيك لتمجيد حكمته .

فأجابه الشاعر النشوان :

– الله نفسه شاعر عظيم !

وابتسمت المرأة ، وابتسم الملوك والأمراء والزعماء . كانوا جميعاً أطفالاً ، وهم يحدقون إليها – الى الأم .

هذا كله حقيقي . كل كلمة وردت هنا هي الحقيقة ، فأمهاتنا يعرفنه . اسألوهن يجبنكن :

– بلى ، هذا كله حقيقة خالدة . نحن أقوى من الموت ، نحن اللواتى نأتى الى العالم – أبد الدهر – بحكماء وشعراء وأبطال ، نحن اللواتي نبذر فيه كل ما يجعله عظيماً !

نونشيا

حي سان جياكومو يعتزُّ بينبوعه حقاً . فلقد أحب الخالد جيوفاني بوكاشيو ان يتمشى ويرتاح الى جانبه ، وقد رسمت صورته أكثر من مرة على القماش العريض لسلفاتور روزا العظيم ، صديق توماسو أنييلو ، أو مازانييلو كما يسميه الفقراء الذين ناضل في سبيل حريتهـــم حتى الموت . وان مازانييلو أيضاً أبصر النور في حيّنا .

في الحقيقـــة أن عدداً كبيراً مـــن مشاهير الناس ولدوا وترعرعوا هنا . في الأيام القديمة كان مشاهير الناس يولدون أكثر منهم الآن ، وكانوا أكثر شهرة . في أيامنا الراهنة ، حين يروح كل انسان يتخطّر في معطفه وينخرط فى السياسة ، فمن الصعب على المرء ان يتعالى على رفاقه ، وفضلاً عن ذلـك ، فالروح لا يمكن ان تنمو كما ينبغـــي حين تتقمط بأوراق الصحف .

كانت نونشيا ، حتى الصيف الماضي ، مفخرة أخرى لحينا ونونشيا بائعة خضار ، وأسعد مخلوق في العالم ، والأكثر فتنة في ركننا ، حيث تشرق الشمس ابداً فترة أطول منها في اي من اطراف البلدة الأخرى . ولا يبرح الينبوع ، من دون ريب ، مثله من قبل ؛ فهو يزداد اصفراراً مع مرور الأيام ، ولكنه سيوالي اهراق الغبطة في نفوس الأجانب بروعتـــه الغريبة ، ذلك أن الأطفال المنحوتين من الرخام لا يكبرون ، ومن لهوٍ لا يملّون .

لكن نونشيا الحلوة ماتت في الصيف الماضي . ماتت في

الشارع في منتصف احدى الرقصات ، وباعتبار أن الناس لا يموتون مثل هذه الميتة دائماً فان قصتها جديرة أن تُروى .

كانت امرأة متناهية المرح كريمة الوداد الى حد أنها لم تستطع أن تعيش في سلام مع من اتخذها زوجة . ولـــم يفطن بعلها الى ذلك فترة طويلـــة من الزمن ، فهو يصرخ ويشتم ، ويطوّح بيديه ويهدّد الناس بسكّينه ، بل لقد غرز ذات يوم هذا السكين في خاصرة أحد الناس . والشرطة لا تحبُ مثل هذه الأمور ، وهكذا ارتحل ستيفانو ، بعدمـــا أمضى مدة عقوبته سجيناً ، الى الأرجنتين : ان تبديل الهواء يفيد أصحاب الدم الفوّار .

وهكذا بقيت نونشيا ، وهي في الثالثة والعشرين مـــن عمرها ، أرملة مع ابنتها البالغة خمس سنوات ، وحمارين ، وحديقة للخضراوات ، وعربة صغيرة . ولما كانت خلية الفؤاد فهي لم تكن في حاجة الى أكثر من ذلك ، كانت تعرف كيف تؤدي عملها ، وكان هنالك كثيرون على أهبة الاستعداد دائماً لمعونتها ، وحين لا يتوفر لديها مال فهي تسدد أجورهـــم ضحكات ، أو أغنيات ، أو أشياء أخرى أكثر من المال قيمة على الدوام .

لم توافق جميع النساء على أسلوبها في الحياة ، ولـــم يوافق جميع الرجال ايضاً . وهذا شيء بديهي . ولكنها كانت مخلصة صادقة ، تترك الرجال المتزوجين وشأنهم ، بل توفق بينهم وبين زوجاتهم في أغلب الأحيان . كانت تقول :

– الرجل الذي يخيب في حب زوجته لا يعرف كيف يحب ابداً . . .

وكان أرتورو لانو ، الصياد الذي درس وهو صغير في مدرسة لاهوتية وتدرب لحمل أعباء وظيفة كاهن ولكنه ضلّ سواء السبيل وغرق في البحر ، والحانات ، وأماكن اللهو – لانو الأستاذ في فن ابتداع الأغنيات الخليعة ، قد عالنها ذات مرة : – يبدو انك تعتقدين أن الحب هو علم معقد مثل علم اللاهوت ؟

فأجابت :

– أنا لا أعرف شيئاً من العلم ، ولكني أعرف أغانيك جميعاً .

وراحت تغني لارتورو ، السمين مثل البرميل :

لا تقل انك ضعتَ ،
في الورى لست تضيعْ
مريم العذراء جاءَ
طفلها قبلَ الربيعْ .

زمجر ضاحكاً من دون ريب ، وعيناه الصغيرتان الماكرتان تختفيان بين طيات وجنتيه الحمراوين السمينتين .

على هذه الوتيرة كانت تحيا ، تعجُّ سعادة وتغدقها على الآخرين ، وترضي جميع الناس ، حتى صديقاتها اللواتي فهمن في آخر المطاف ان المرء لا يمكن ان يبدل نفسه ، وان القديسين أنفسهم لم يقدروا على الدوام أن يتغلبوا على شهواتهم . وفضلاً عن هذا ان الرجل ليس هو الله ، ووحده الله من لا تجوز خيانته .

ظلت نونشيا طوال عشر سنوات تتلألأ مثل نجمة ، والجميع يعرفون أنها المرأة الأكثر بهجة والراقصة الأكثر

مهارة في الحيّ ، ولو أنها كانت عذراء لاختاروها ملكة للسوق من دون ريب ، وقد كانت ملكة في عيون الجميع .

ولشدّ ما كانت تلفت أنظار الأجانب ، وكثيرون كانوا لا يبخلون بشيء للتحدث اليها في خلوة ، الأمر الذي يثير حموّة ضحكاتها دائماً .

- بأية لغة يبغي ذلك السنيور الناصل اللون ان يخاطبني ؟

ويؤكد لها الناس المحترمون :

- بلغة النقود الذهبية ، أيتها الغبية الصغيرة .

فتردُّ عليهم قائلة :

- ليس عندي ما أبيع الغرباء غير البصل ، والثوم ، والبندورة . . .

وكان الناس الذين يرغبون في سعادتها حقاً يلاحقونها بقولهم بين حين وحين :

- في غضون شهر أو أكثر ، يا نونشيا ، ستصيرين امرأة غنية ! فكري في الأمر ملياً ، وتذكري أن لديك ابنة . . .

وتقول في صلابة :

- كلا . أنا مفتونة بجسدي ولا أريد أن أهينه . أعرف أنه يكفيك أن ترتكب شيئا لا ترغبين فيه ولو مرة لكيما تفقد احترامك لنفسك الى الأبد .

- ولكنك لا ترفضين أشخاصاً آخرين ؟

- لا ، أنا لا أرفض أشخاصاً من أمثالي ، وحين يطيب لي ذلك .

– ماذا تقصدين بأشخاص من أمثالك ؟

– أقصد أناساً نمت روحي بينهم ، ويفهمونها . . .

هذا كان جوابها الأبدي .

ورغم ذلك كانت لها علاقة برجل اجنبي ، من انكلترا ، رجل غريب صموت ، مع انه يجيد التحدث بلغتنا . كان يافعاً ، ولكن شعره وخطه المشيب ، وكانت هنالك ندبة على وجهه ، وجه سفّاحٍ بعيني قديس . قال بعضهم انه يؤلف كتباً ، وقال آخرون أنه مجرد مقامر . وقد رحلت معه الى صقلية ورجعت يلوح عليها الهزال والضنى . ولا يمكن أن يكون غنيا ، فنونشيا لم تحمل معها نقوداً ولا هدايا . وراحت من جديد تعيش بيننا ، تتدفق مرحاً وتتوق الى السعادة مثل ما هي عليه ابداً .

وذات يوم ، في أحد الأعياد ، والناس يخرجون من الكنيسة ، قال أحدهم ملاحظاً وقد بغتته الدهشة :

– أنظروا ! فقد بدأت نينا تبدو على غرار أمها تماماً !

وكان ذلك صحيحاً ، واضحاً ، مثل أحد أيام أيار : فقد نضجت ابنة نونشيا ، نجمة متألقة مثل أمها . كانت تغازل الرابعة عشرة ، لكن فارعة القد ، لها شعر مترف وعينان تباهتان وتبدو أكبر سناً تدرج في ملاوي الأنوثة .

وكانت نونشيا نفسها تَنْشَدِه وهي تترنّى اليها .

– أيتها العذراء المقدسة ! أتودين أن تفوقيني جمالاً ، يا نينا ؟

افترّ ثغر الفتاة عن ابتسامة ، وأجابت :

– كلا . أريد أن أجاريك فتنةً ، وهذا يكفيني .

للمرة الأولى ارتسم ظل على وجه المرأة الممراح ، وقالت لصديقاتها في تلك العشية :

– يا لها من حياة ! قبل أن ترشف نصف ما في قدحك تمتدُّ يد أخرى اليه . . .

لا ريب أن أحداً لم يلحظ شيئاً من المنافسة بين الأم وابنتها باديء الأمر . فقد كانت الفتـــاة تتصرف في اتضاع واحتراس ، وتمدُّ نظرها الى العالم عبر أهدابها الطوال ولا تفتح فمها في حضرة الرجال الا فيما ندر . وكانت عينا الأم تحترقان في مزايد من الشره ، وصوتها يرنُّ أكثر اغراء من قبل . وراح الناس يتوردون أمامها مثل أشرعة عند بلجـــة الفجر ، حين تمسّها أولى شعاعات الشمس . وكانت نونشيا ، بالنسبة الى الكثيرين ، أول شعاع من أشعة نهار الحب ؛ وكان كثيرون يراقبونها ممتنين في صمت وهي تجتاز الشارع الى جانب عربتها الصغيرة ، مشدودة الجذع هيفـاء القامـــة كالصاري ، يتردد صدى صوتها فوق سطوح البيوت . وكانت جميلة حين يشخصون اليها في ساحة السوق أيضاً ، منتصبة قرب كومة طازجة من الخضراوات من شتى الأصناف مثـــــل لوحة رسمها فنان عظيم وجعل خلفيتها جدار الكنيســـــــة الأبيض – كان مكانها الى جانب كنيسة سان جياكومو ، عـن يسار الدرَج ، وقد ماتت على مبعدة ثلاث خطوات منه . حلوة كانت وهي تقف هنالك مثل شعلة متوهجـــة ، توزع نكاتها وتنثر ضحكاتها وأغنياتها – وكانت تجيد آلافاً منها – مثل شرارات مرحة فوق رؤوس الحشد .

كانت تعرف كيف تلبس بطريقة تجعل ثيابها تبرز فتنتها

مثل قدح زجاجي من خمرة طيبة : كلما ازدادت شفافية البلور برزت روح الخمرة صافية ، فاللون دائماً يضاف الى النكهة والعبير ، وينشد حتى آخر نغمة تلك الأغنية البهية التي لا كلمات لها ، والتي نترشفها كيما نسبغ على روحنا شيئاً من دماء الشمس . الخمرة ! يا إلهي العزيز ، ما كان الوجود بكل صخبه وعجيجه ليساوي حافر حمار لو لم يكن يتاح للمرء فرصة حلوة لانعاش روحه المسكينة بقدح طيب من خمرة حمراء تطهرنا ، مثل العشاء الرباني ، من خطايانا وتعلمنا أن نحب هذا العالم الذي يعج بالقباحات ونصفح عنه . . . أنظر فحسب الى الشمس عبر قدحك وستنبئك الخمرة بأقاصيص لم تخطر لك يوماً في بال . . .

هنالك تقف نونشيا في اشعة الشمس تلهم أولئك الذين يحيطون بها أفكاراً سعيدة ورغبة في اكتساب رضاها – لم يكن هنالك رجل يجرؤ على البقاء بعيداً حيث امرأة حلوة في الجوار ، وهكذا فهو يحاول ان يتفوق نفسه . أعمال كثيرة طيبة أدتها نونشيا ، وأغلبها القوى التي أيقظتها الى الحياة . الطيب دائماً يولد الرغبة في الأكثر طيبة .

وهكذا ، غدت الابنة تظهر أكثر فأكثر الى جانب أمها ، محتشمة مثل راهبة ، أو مثل خنجر في غمده . وكان الرجال يتطلعون ويقارنون ، ولعلّ بعضهم بدأ يفهم كيف تشعر المرأة أحياناً ، وكم هي الحياة قاسية بالنسبة اليها .

وكانت الأيام تمرُّ ، مسارعة من خطواتها الرشيقة ، وفيما يتعلق بالزمن فالناس أشبه بذرات من الغبار في اشعة الشمس . كان حاجبا نونشيا الكثيفان مقطبين في أغلب

الأوقات ، وبين حين وحين تروح تعض شفتيها ، وتطيل نظرها الى ابنتها مثلما يطيل المقامر النظر الى خصمه محاولاً ان يخمن ماهية الورق الذي يحمل في يديه . . .

ومرّت سنة ، ثم سنة أخرى ، واقتربت الابنة أقرب فأقرب من أمها ونأت أكثر فأكثر عنها . وبدا واضحاً الآن للجميع أن الشبان لا يعرفون الى أية ناحية يلقون أنظارهم الحنونة – الى هذه أم الى تلك . وشرعت صديقات نونشيا ، والاصدقاء يودون دائما ان يجرحوا في موضع أشد ايلاماً – يسخرن منها قائلات :

– يا نونشيا ، هل ستكسف ابنتك أشعة بهاك ؟

وكانت نونشيا تضحك وتجيب :

– تبقى النجوم الكبيرة متلألئة حتى حينما يطلع القمر .

باعتبارها أماً كانت فخوراً بابنتها ، وباعتبارها امرأة كان الحسد يتأكلها من صبا نينا ، فقد كانت نينا تقف بينها وبين الشمس ، وكانت الأم تكره أن تعيش في الظلال .

ونظم لانو أغنية جديدة يبدأ مطلعها على النحو التالي :

ولو رجلاً كنتُ
لانجبت بنتي
حسناء
مثل التي انجبتها في صباي .

لم تشأ نونشيا أن تغني تلك الأغنية . حتى انه قد قيل بان نينا قالت لأمها أكثر من مرة :

– لو كنتِ أكثر معقولية ففي مقدورنا ان نحيا بصورة أفضل .

وجاء يوم قالت فيه الابنة لأمها :

– أماه ، أنت تحبسينني كثيراً في الظـــل . لم أَبْقَ صغيرة ، وأريد أن أعيش . لقد قضيت أنت زمناً زاهياً ، أفلم يحن الوقت كيما اعيش أنا الآن ؟

استفسرت الأم :

– ما الامر ؟

وخفضت عينيها وقد أحست بالاثم لأنها أدركت ما قصدت اليه ابنتها .

في تلك الفترة آب انريكو بوربونى من أوستراليا . كان حطاباً في تلك البلاد الجميلة حيث يجمع المرء مالاً كثيراً قدر ما يتمنى . رجع الى الوطن يدفئ نفسه فترة تحت شمس بلاده عازماً على العودة الى البلد الذي يعيش فيه المرء حراً أكثر منه في وطنه . كان في السادسة والثلاثين ، عملاقاً مرحـــاً ملتحياً منبسط الأسارير ، وروى قصصاً مذهلة عن مغامراته وعن الحياة في الغابات الكثيفة . وتراءى للجميع أنه يروي قصصاً خرافية ، لكن الأم وابنتها صدقتا كل كلمة مما قال .

قالت نينا :

– أستطيع أن أرى أن انريكو يهوانـــي ، ولكنـــك تغازلينه ، وهذا يجعله يطيش ، وتفسدين نصيبي معه .

فقالت نونشيا :

– أفهم ما تقصدين . حسناً ، لن يكون لديك ما تشكين من أمك في حضرة العذراء . . .

وتخلت عن ذلك الرجل الذي كان الجميع يعرفون أنه كان يعجبها أكثر من الآخرين .

من المعروف أن للانتصارات السهلة أسلوباً في حشو رؤوس المنتصرين بالغرور ، خاصـــة اذا كان المنتصرون صغاراً لا يبرحون .

وشرعت نينا تخاطب أمها بما لا تستحق . وذات يوم ، في عيد سان جياكومو ، وهو عطلة لدينا ، وحين كان الجميع يمرحون ويلغطون ، وكانت نونشيا قد رقصت «التارانتيلا» بصورة رائعة ، أبدت ابنتها هذه الملحوظة بصوت عال سمعه الجميع :

– ألست ترقصين كثيراً ، يا أماه ؟ قد يسيىء ذلك الى قلبك وأنت في مثل هذه السن . . .

ركن جميع من سمع تلك الكلمات المهينة تُقال في صوت لطيف الى الصمت برهة من الزمن ؛ وصاحت نونشيا في فورة من الغضب ، وقد وضعت يديها على خاصرتيها الرقيقتين :

– قلبي ؟ أيشغلـّنك أمر قلبي ؟ حسناً ، يا بنيتي ، شكرى لك ! ولكننا سنرى من هي أقوى قلباً بيننا !

روّت في الأمر قليلاً ، واقترحت تقول :

– سأسابقك من هنا الى الينبوع ثلاث مرات جيئـــــة وذهاباً دون توقف . . .

حسب كثيرون الأمر دعابة ، واعتبره آخرون مخزيـــاً ، ولكن الأكثرية دعموا اقتراح نونشيا بوقار ساخر ، بدافع احترامهم لها ، ملحّين على نينا أن تقبل تحدي أمها .

اختاروا حكاماً وحددوا زمناً – آخذين بعين الاعتبار جميع

قواعد السباق . كان هنالك كثرة من الرجال والنساء الذين ترجوا صادقين أن تفوز الأم بالسباق ، فمنحوها بركتهم وتوسلوا الى العذراء أن تساعدها وتمدها بالقوة .

وقفت الأم وابنتها جنباً الى جنب ، دون ان تنظر احدهما الى الأخرى . ورنّ الجرس ، فأسرعتا منطلقتين على طول الشارع الى الساحة مثل طيرين أبيضين كبيرين ، الأم مرتدية منديلاً أحمر اللون في رأسها ، والابنة منديلا أزرق اللون شاحبه .

بدا واضحاً منذ اللحظة الأولى للسباق أن الأم أكثر قوة ورشاقة من ابنتها . ركضت نونشيا في هينة وطلاوة وكأن الأرض ذاتها حملتها مثلما تحمل الأم طفلتها . والقى الناس في النوافذ الازهار على الارصفة عند قدميها ، وصفقوا لها ، وهتفوا مشجعين . بعيد المرحلة الثانية سبقت ابنتها بأكثر من أربع دقائق ؛ وتهاوت نينا ، وقد سحقتها هزيمتها وأدبّت فيها الاضطراب ، لاهثة باكية على درج الكنيسة ، عاجزة عن الاستمرار في المرحلة الثالثة .

انحنت نونشيا فوقها ، رشيقة مثل هرة ، تضحك مثلما يضحك الآخرون .

قالت ، وهي تمسّد شعر فتاتها الأشعث بيدها القوية :

– يا ابنتي ، يجب أن تعرفي أن القلب الأكثر قوة في اللهو والعمل والحب هو قلب المرأة التي عركتها الحياة ، وهذا يأتي بعد بلوغك الثلاثين . فلا تحزني ، يا ابنتي .

وأمرت نونشيا أن تعزف موسيقى التارانتيلا من جديد ، دون أن تأخذ قسطاً من راحة بعد السباق :

– من يراقصني ؟

اقترب انريكو منها ، وخلع قبعته ، وانحنى أمام هذه المرأة الرائعة ، وأحنى رأسه امامها في وقار وتبجيل .

وبدأ الدف يضرب ، مرسلاً اللحن لرقصة نارية ، أشبه ما تكون بخمرة معتقة داكنة عتيقة مسكرة . وانطلقت نونشيا ، مدوّمة محوّمة ، متثنية مثل أفعى : كانت تتقن بروعةٍ هذه الرقصة من رقصات الهوى ، وكان ينشرح القلب لمرأى هاتيك الحركات اللدنة يتخذها جسدها الفاتن الذي لا يقهره شيء .

رقصت طويلاً ، ورقصت مع كثيرين . كان مراقصوها يتعبون ، ولم تكن هي ترتوى ، وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل حين هتفت صائحة :

– تعال ، تعال مرة أخرى ، يا انريكو ، المرة الأخيرة !

وجعلت تراقصه في هدوء . واتسعت عيناها ، وتوهجتا بوعد حنون . ثم اطلقت على حين فجأة صرخة مقتضبة ، وطوّحت ذراعيها ، وسقطت على الأرض كمن صعقت .

قال الطبيب انها ماتت من وهن في قلبها .

من يدري . . .

بيب

بيب فى العاشرة من العمر ، واهن القوى ، مهزول البنية ، رشيق الحركة مثل عظاءة ، تتدلى ثيابه الممزقة عن كتفيه الضيقتين ، وبشرته التي سوّدتها الشمس والأقذار توصوص من خلال المزق التى لا حصر لها .

إنه يبدو أشبه بساق عشبة جفّ ماؤها ، تذروهـــا نسائم البحر هنا وهناك . وبيب يتواثب من طلة الفجر حتى الغروب من حجر إلى حجر فوق الجزيرة ، وعلى الدوام يسمع المرء صوته النحيل الذى لا يغالبه التعب يرندح باستمرار :

إيطاليا الجميلة ،
إيطاليا بلادى !

كل شيء يثير تشوقه : الازهار التي تنمو في وفرة فوضوية فوق الارض الطيبة ، والعظايـــا التي تنطلـــق بين الصخور الأرجوانية ، والطيور وسط أوراق شجر الزيتون المنحوتــة بصورة لا أحلى منها ، والزخارف الموشاة التى تزدان بهـــا العرائش ، والأسماك فى الجنائن المظلمـــة فى قاع البحر ، والاجانب فى شوارع البلدة الضيقة المتعرّجة : الألمانى السمين بوجهه المطرز بندوب السيوف ، والانكليزي الذي لا يني يذكرّ المـــرء دائماً بممثـــل يؤدي دور مبغض البشر ، والأميركي الذي يسعى عبثاً للظهور بمظهـــر الانكليزي ، والفرنسي الذي لا يضاهى في تصخابه وجلجلته .

– يا له من وجه !

كان بيب يعالن أترابـــه ، وعيناه الثاقبتان تلاحقان الألماني المنتفخ كبرياء الى درجة جعلت شعره يبدو وكأنه قفّ عن آخره .

– يا عجباً ، ان له وجهاً كبيراً مثل بطني !

لم يكن بيب يحب الألمان . وهو يتبنى الآراء والعواطف فى الشوارع ، والساحات والحانات الصغيرة المظلمـــة حيث يحتسى أهل البلـــــدة الخمور ، ويلعبون الورق ، ويقرأون الصحف ، ويناقشون السياسة .

كانوا يقولون :

– سلافيو البلقان أقرب إلينـــــا ، نحن أبناء الجنوب الفقراء ، من حلفائنا الطيبين الذين أهدوا الينا رمال أفريقيا مكافأة لقاء صداقتنا لهم .

وان بسطاء الناس من أهل الجنوب يرددون ذلك اكثـر فأكثر ، وبيب يتنصّت لكل شيء ولا ينسى شيئاً .

هذا رجل انكليزي عبوس يوسع الخطـــى بساقيـــــه الشبيهتين بمقص . وبيب أمامه يهمهم لحناً اشبه بنشيد جنائزى او ترنيمة فاجعة :

قد ماتَ صديقي اليَوْمْ
فبكتْ زوجي . . وَبكَتْ
وأنا لا أفهم
لماذا بكت .

وينطلق أتراب بيب وراءهما يتلوون من الضحـــك ، يركضون كالفئران للاختباء في الأجمات او وراء الجدران كلما رقعهم الأجنبي في هدوء بعينيه الخابيتين .

فى مقدور المرء أن يروي عن بيب حكايات مسليـــة .

أرسلته سيدة ذات يوم الى صديقتها بسلة من تفـــاح حديقتها .

قالت : – سأعطيك سولدو ! فى مقدورك أن تشترى به ما تشاء .

حمل بيب السلة فى الحال ، ووازنها على رأسه ، ومضى . ولم يرجع حتى العشية ليتقاضى السولدو .

قالت المرأة :

– أنت لم تستعجل كثيراً .

فأجاب بيب ، وهو يزفر متنهداً :

– آه ، أيتها السنيورا العزيزة ، أنا منهك تعباً . كان هنالك أكثر من عشرة منهم !

– كيف ، طبيعي أنه كان هنالك أكثر من عشرة ! كانت السلة ملأى !

– ليس التفاح ، يا سنيورا ، بل الصبيان .

– ماذا حلّ بتفاحي ؟

– اولا الصبيان ، يا سنيورا : ميتشيل ، وجيوفانى ...

غضبت المرأة . قبضت على بيب من كتفه ، وهزته صائحة :

– أجبني . هل أوصلت التفاح ؟

– لقد حملته طول الطريق الى الساحة ، يـــا سنيورا !

إسمعي كيف تصرفت بصورة حسنة . لم ألْقِ أول الأمر بالاً إلى سخريتهم . فتركتهم يشبهونني بالحمار ، وقلت في نفسي : سأصبر على ذلك كله احتراماً للسنيورا ، احتراماً لك أنت ، يا سنيورا . لكن حين شرعوا يهزأون بأمي ، فقد قررت أني احتملت كفاية . وضعت السلة على الأرض ، وكان بودى أن تري ، أيتها السنيورا الطيبة ، كيف أمطرت أولئك الشياطين الصغار بتلك التفاحات . إذن كنت وجدت فى ذلك أروع متعة !

صاحت المرأة :

– لقد سرقوا ثماري !

فأجاب متنهدا باكتئاب :

– اوه ، أبداً . التفاحات التي اخطأت الهدف انسحقت على الجدار ، أما ما تبقى منها فالتهمناه بعدما هزمت أعدائي وعقدت معهم صلحاً . . .

أهرقت المرأة سيلاً من الإهانات على رأس بيب الصغير الحليق . أصغى فى انتباه واتضاع ، وهو يتمطق بلسانه بين فينة وفينة إعجاباً ببعض التعابير المنتقاة :

– أوهو ، هذا جميل ! يالها من لغة !

حين انفثأ غضبها أخيرا من تلقاء ذاته تركته ، فناداها :

– ما كان يراودك مثل هذا الشعور لو رأيت روعة سحقي هاتيك الرؤوس القذرة لأولئك الذين لا يساوون شيئاً بتفاحاتك الرائعات . لو قـدّر لك رؤية ذلك كنت وهبت لي سولدووين بدلاً من سولدو واحد !

لم تستوعب المرأة الغليظة غرور المنتصر القنوع ، فهزت قبضتها الحديدية فى وجهه .

ذهبت شقيقة بيب ، وكانت تكبره سناً وتقصر عنه ذكاء ، للعمل خادماً في فيلا يملكها أميركي موسر . وتبدل مظهرها على الفور . صارت نظيفة مرتبة ، وتورد خداها ، وشرعت تُزهر وتنضج مثل اجاصة فى شهر آب .

سألها شقيقها مرة :

– أتأكلين كل يوم حقاً ؟

فأجابت في زهو :

– آكل مرتين او ثلاث مرات فى اليوم اذا رغبتُ .

فنصح لها بيب قائلاً :

– حذار أن تتهرأ اسنانك .

واستعلم بعد صمت قصير :

– هل سيدك واسع الثراء ؟

– أوه ، أجل . أعتقد أنه أغنى من الملك !

– اتركي الحماقة جانباً ، كم بنطالاً لديه ؟

– يصعب أن أعرف .

– عشرة ؟

– ربما أكثر . . .

فقال بيب :

– جيئيني بواحد إذن ، على ألا يكون طويلاً ، ولكن أكثر دفئاً .

– لماذا ؟

– حسناً . أنظري بنطالي !

لم يكن هنالك ما يمكن رؤيته حقاً ، فلم يكن قد بقي من بنطال بيب شيء يذكر .

وافقت شقيقته :

– بلى ، أنت في حاجة إلى بعض الثياب فعلاً ! لكن ، ألن يخطر له أننا سرقناه ؟

طمأنها بيب :

– لا تظني أن الناس أكثر منا غباء ! حين تأخذين شيئاً قليلاً من شخص يملك شيئاً كثيراً ، فهذا ليس سرقة ، بل هو مشاركة .

اعترضت شقيقته :

– أنت تهرف .

وما أسرع أن تغلب بيب على شكوكها . حين دلفت الى المطهى تحمل بنطالاً جيداً لونه رمادى فاتح كان ، من دون ريب ، فضفاضاً على بيب ، فقد عرف بيب فى الحال كيف يتغلب على تلك العقبة . قال :

– أعطيني سكيناً !

تعاونا سريعاً على تحويل البنطال الأميركي إلى ثوب ملائم للصبي . تمخضت جهودهما عن سترة عريضة قليلاً ، لكن مريحة ، تُشَدُّ إلى الكتفين بأشرطة يمكن ربطها حول العنق ، أما جيوب البنطال فتمّ استخدامها ردنين للسترة .

كان يمكن أن يصنعا من ذلك البنطال ثوباً أفضل وأكثر ملاءمة لولم تعترض زوجة صاحبه عملهما . فقد دلفت إلى المطهى وهبّت تطلق فيضاً من كلمات قبيحة بشتى اللغات ،

تلفظهـــا فى مستوى واحد من الرداءة ، عـــلى مألوف عادة الأميركيين .

لم يستطع بيب أن يحول دون تدفق طلاقـــة اللسان . عبس ، وضغط قلبه بيده ، وأمسك رأسه يائساً ، وأرسل زفرة عالية ، ولكنها لم تهدأ إلا حينما ظهر زوجها على مسرح الحادثة .

استوضح :

– ماذا هنالك ؟

فتكلم بيب قائلاً :

– سنيور . أدهشتنى كثيراً الضجة التي أثارتهـــــا السنيورا ، والحقيقة أنني أوذيت نوعاً ما من أجلك . يخيَّل إليَّ بقدر ما أرى انها تظن أننا أتلفنا البنطال ، ولكنني أؤكد لك أنه على مقاسي تماماً ! ويبدو أنها تظن أنني أخذت آخـر بنطال لديك ، وأنك عاجز عن أن تشترى واحداً غيره . . .

قال الأميركي بعد أن أصغى إلى كلام الصبي في رباطة جأش :

– وأظن ، أيها الشاب ، أنه ينبغي أن أستدعـــى الشرطة .

فاستفهم بيب فى انشداه :

– حقاً ؟ لماذا ؟

– لتسوقك الى السجن . . .

انزعج بيب تماماً . كاد أن يبكي ، ولكنه ابتلع دموعه وقال في وقار مهيب :

– إذا كان يرضيك ، يا سنيور ، أن ترسل الناس إلى

السجن ، فاستدعه ! اما أنا فما كنت أفعل ذلك لو كنت أملك عدة بنطالات ، وكنت أنت لا تملك واحداً منها ! كنت أعطيك اثنين إذن ، او ربما ثلاثة . رغم أنه يستحيل أن تلبس ثلاثة بنطالات مرة واحدة ! وخاصة في الجو الحار . . .

انفجر الأميركي ضاحكاً ، فالأغنياء انفسهم يمكن أن يستملحوا النكتة . وقدم لبيب عندها شيئاً من الشكولاته ونفحه بفرنك واحد . عضّ بيب على القطعة النقدية ، وشكر الواهب :

- الشكر لك ، يا سنيور ! إنها قطعة غير زائفة فيما أعتقد ؟

يكون بيب فى أحسن احواله عندما ينتصب وحيداً فى مكان ما بين الصخور يتفحص شقوقها ملياً كمن يقرأ التاريخ المظلم لحياة الصخور . في مثل هاتيك اللحظات تنبسط عيناه المتألقتان ويغشاهما التساؤل ، وتتشابك يداه النحيلتان وراء ظهره ، ويتمايل رأسه المنحني قليلاً في رفق من جانب إلى آخر مثل زهرة يداعبها النسيم . ويهمهم بينه وبين نفسه لحناً خافتاً لانه يسترسل في الغناء أبد الدهر .

وكان من الروعة حقاً أن تراقبه وهو يطيل النظر إلى الأزهار ، إلى براعم الوستاريا المتناثرة على الجدران فى وفرة أرجوانية . إنه يقف متوفزاً مثل وتر الكمان ، وكأنه يصيخ السمع إلى اهتزاز البتلات الحريرية الرقيق وقد اثارتها تنفسات نسيم البحر .

ويتأمل ، وهو يغني :

– فيورينو . . . فيورينو . . .

ومن بعيد ، مثل صوت دف ضخم ، تدف تنهدات البحر المكبوحة . وتطارد الفراشات بعضها بعضاً فوق الأزهار . فيرفع بيب رأسه ويتابع طيرانها ، غامزا بعينيه في ضوء الشمس ، وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة مشربة بقليل من الحسد والحزن ، ولكنها مع ذلك ابتسامة كريمة لكائن أسمى على الارض .

ويصرخ ، مصفقاً بيديه لإخافة عظاءة زمردية اللون :

– كو !

وحين ينبسط البحر صافياً كالمرآة ، وتتعرى الصخور من رغوة المد البيضاء ، يقتعد بيب حجراً ، ويرنو بعينيه المتألقتين إلى المياه الشفافة حيث تنزلق الأسماك في رشاقة وسط الأعشاب البحرية الضاربة إلى الحمرة ، وحيث ينطلق الجمبرى روحة رجعة ، ويزحف السرطان بصورة جانبية . وينصب صوت الصبي الصافي فى تلك السكينة لطيف النبرات فوق المياه اللازوردية :

– يا بحر ، أوه ، يا بحر . . .

وما أكثر ما كان الكبار يهزون رؤوسهم مستنكرين عندما يرون بيب ، ويقولون :

– سيغدونّ هذا فوضوياً !

أما اللطفاء ، الأكثر فطنة ، فيخالفونهم الرأى :

– سيغدونّ بيب شاعرنا . . .

أما باسكالينـــو ، النجار وهو شيـــخ له رأس يبدو كأنه مفرغ من فضة ، ووجه يشبه الوجوه المنقوشة عـــلى قطع النقد الرومانية – باسكالينو الحكيم المحترم . . . فكان له رأيه الخاص :

– أولادنا سيكونون أفضل منا كثيراً . وستكون حياتهم أفضل ايضاً !

وكان كثيرون يقرّونه على هذا الرأي .

اقاصيص

(فى ارجاء روسيا)

مولد انسان

كان ذلك عام ٢٠٩٢ ، عام الجدب والمجاعة ، والمشهد رقعة من الأرض تمتد بين سخوم وأوتشمشيري ، على ضفة نهر الكودور ، غير بعيد عن شاطئ البحر . كان يترامى إلى سمعي ، فوق الخرير المرح لمياه النهر الجبلي اللامعة ، صدى أصوات مكتومة تتمزج بهدير البحر العذب .

كان الزمن خريفاً ، وأوراق شجر الغار الصغيرة الصفراء تضطرب هنا وهناك فوق زبد نهر الكودور الأبيض ، أشبه ما تكون بسمك سليمان الرشيق . وكنت أقتعد الضفة الصخرية المرتفعة أطل على النهر من العلياء ، اهامس نفسي ان السبب الذي يحدو النوارس وغربان الماء الى الصياح بمثل هذا الأسى ، وهي تحلق بعيداً الى اليمين وراء الأشجار ، حيث الأمواج تحتضن الشاطئ ، هو خيبة آمالها بعدما تنقض على هاتيك الأوراق وهي تحسبها صيداً لها ، ولكنها تؤوب أبداً خائبة وقد أدركت مدى خطئها .

كانت أشجار الجوز المنتشرة فوقي متشحة بلون ذهبي براق . وعند قدمي تتبعثر مجموعة أخرى من الأوراق تشبه أكفاً مفصولة عن أرساغها . وكانت أغصان الشبور ، المترامية على طول الضفة الثانية ، معراة تماما ومعلقة في الهواء مثل شبكة ممزقة ينطّ بين حبالها ، كما لو حُبس فيها ، نقّار خشب جبلي يجمع لونه بين حمرة زاهية وصفرة براقة . كان صاحبنا يقفز جذلان على أطراف الفروع ، ينقض بمنقاره الأسود الفاحم فيصطاد بعض الحشرات الهائمة ، حشرات كانت

فى الوقت ذاته صيداً هيناً في فم طيور انحدرت من أقصى الشمال – طيور سنّ المنجل سريعة الحركة ، وطيور خازن الجوز باللون الازرق القاتم .

عن يساري شرعت سحب سود تكلـّل قمة الجبل منذرة بمطر غزير ، وهي تلقى ظلالاً طويلة تنزلق على طول بعض المنحدرات الخضراء حيث تشبّ أشجار خشب البقس ، وحيث يستطيع المرء أن يجد في أجواف أشجار الزان العجوز كثيراً من «العسل الشهي» . كان هذا العسل ، فى الأيام الغابرة ، يكاد يقرر مصير جيش بومبايوس العظيم ، اذ حرم ، ذات مرة ، فرقة كاملة من الرومانيين الصامدين من استعمال أرجلهم لعذوبة حلاوته المسكرة . وجدير بالذكر أن النحل البرى يصنع العسل من غبار طلع زهور الغاب فيقتطفه المسافرون من أجواف الشجر ، ويأكلونه دون أن يلقوا بالاً الى انسكابه على ذقونهم وصدورهم ، مع رغيف رقيق شهي مصنوع من دقيق الحنطة .

كنت إذن أقتعد الصخور تحت إحدى شجرات الجوز وقد لسعتني نحلة غاضبة ، أغمس ما حملت من خبز لافطاري في قصعة شاي ملأتها عسلاً ، ثم ألتهمه وأنا أُمتّع ناظري في الوقت ذاته بتلك التمثيلية التي كانت تؤديها أشعة شمس الخريف المتعبة متكاسلة .

كانت بلاد القفقاس ، في فصل الخريف ، تشبه قلب كاتدرائية فخمة بناها بعض حكماء كانوا آثمين عظاماً – ليخفوا رجس ماضيهم الدنس عن عين الضمير اليقظة . لقد بنوا هيكلاً ضخماً من الذهب والفيروز والزمرد ، وعلقوا على

جدرانه العالية سجاداً فخماً موشى بالحرير نسجه التركمان فى شيماخ وسمرقند . لقد نهبوا العالم كله ، وحملوا ما نهبوا الى هنا هدية للشمس ، ولسان حالهم يقول : «كل شيء هنا منك واليك !» .

. . . ورأيت ، فيما يرى الحالم ، مشهداً يمثل عمالقة طويلي اللحى ، واسعي العيون ، اشبه بأطفال سعداء ينحدرون من الجبال ، ويجمّلون الأرض ، ويبذّرون كنوزهم متعددة الألوان بإسراف ، ويغطون قمم الجبال بطبقات كثيفة من الفضة ، والمنحدرات بنسيج حي من الأشجار المختلفة العظيمة ، فإذا تلك الرقعة من الأرض المباركة تمتلئ ، بين أيديهم ، بجمال يخلب الألباب ويفتن العيون .

حقاً ، ما أروع أن تكون إنسانا في خضم هذا الوجود ! هذه المناظر الساحرة تتلاحق أمام ناظريك ، فيثير تأمل هذا الجمال فى القلب شعوراً قاسياً بالغبطة ، يعتصر القلب بقسوة تُداني قسوة الألم !

أجل ، صحيح أنك تجد في ذلك صعوبة أحياناً . فيمتلئ صدرك ببغض ملتهب ، وتمتّص الوحشة دمك من قلبك بشراهة – ولكن هذا لن يدوم الى الأبد ، حتى أن الشمس يمكن أن تحزن وهي تنعم النظر في الانسان . لقد جهدت كثيراً من أجلهم ، ولكنهم ظلوا أقزاما مساكين !

والعالم من دون ريب يعج بكثير من الناس الطيبين . ولكنهم يحتاجون الى ترميم . أو قل يحتاجون الى أن يعاد صنعهم من جديد .

وبدت لي فوق الأدغال الممتدة عن يساري رؤوس

سوداء تتمايل ذات اليمين وذات اليسار . . . وطرق سمعي أصوات انسانية لا تكاد تطغى على خرخرة النهر وهدير امواج البحر . أولئك هم «الجائعون» يؤوبون من سوخوم حيث يعبّدون طريقاً ، وهم يتجهون الآن الى أوتشمشيرى يداعب فؤادهم أمل العثور على عمل آخر .

أعرفهم أنا ، فهم من أوريل ، شاركتهم جميعاً العمل فى سوخوم وقبضنا مساء البارحة اجرنا جميعاً ، ولكننى سبقتهم فى المسير ليلاً كيما أبلغ شاطئ البحر باكراً وامتع ناظرىّ بشروق الشمس .

كانوا أربعة من الريفيين وفلاحة صبية برزت عظام وجهها . كانت حاملاً ، يندفع بطنها الضخم الى العلاء – عيناها ضاربتان الى الزرقة ببدوان مائجتين رعباً . كنت أستطيع أن أرى رأسها يعلو الدغل أيضاً وعليه وشاح أصفر اللون ، وقد انحنى مثل زهرة ملأى براعم صغيرة تمايلها الريح . كان عمر زوجها قد انطوى فى سوخوم متخماً بأكلة كبيرة من الثمار . لقد عشت فى ذات الكوخ الذي يسكنه هؤلاء القوم الذين يتشكون كثيراً ، كعادة جميع الروسيين الشيوخ ، من مصائبهم عال بصوت ، حتى إن عويلهم يُسمع جلياً على بعد خمسة فراسخ .

كانوا أشقياء سحقتهم التعاسة وأجلاهم الفقر عن ارضهم العزيزة العقيم ، وحملهم الى هنا مثل أوراق الخريف ، فأدهشهم هذا المناخ الخصب الوافر وأجهزت عليهم ظروف العمل المضني . فهم يتطلعون إلى كل شيء يحيط بهم ، يحدثون

عن بؤسهم بعيون ذابلة مرتبكة ، ويبتسم واحدهم للآخر في عطف وحنان ، ويرددون في صوت خافت :

– آى . . . يا للتربة الخصبة !

– كل شيء ينمو في سرعة !

– نعم ولكنها إلى حدّ ما . . صخرية . . .

– انها ليست طيبة إلى حد بعيد . يجب أن نعترف بذلك . . .

وعندئذ يتذكرون قراهم الأصلية كوبيلي لوجوك ، وسخوى جون وموكرنكوي ، حيث كل شبر من الأرض يضم شيئاً من تراب أجدادهم الأقدمين . إنهم يذكرون ذلك كله ، وهو أليف لديهم ، محبب الى قلوبهم . أفلم يسقوه من عرق جباههم ؟

كانت ترافقهم امرأة أخرى حولاء طويلة مستقيمة الظهر ، صدرها مسطح كاللوح ؛ وكانت عيناها مثقلتين ، مليئتين ، سوداوين كالفحم .

كانت تذهب مساء مع صاحبتها ذات الوشاح الأصفر الى ما وراء الكوخ . وهنالك تجلس القرفصاء فوق كومة من الصخور ، تسند ذقنها إلى راحتها ، وتعطف رأسها جانبا ، وتأخذ تغني في صوت غاضب عالي النبرات :

فى تلك المقبرة البيضاءْ
وراء الأدغال الخضراءْ
ما بين الرمل المصفرِّ
ألقيتُ بشالى المحمرِّ

وجلستُ أعدُّ الساعاتِ
فحبيبي قالَ : أنا آتي . . .

كانت ذات الوشاح الأصفر تجلس صامتة فى أغلب الأحيان تتطلع الى بطنها . ولكنها تشدُّ بيدها عليه أحياناً أخرى ، وتشرع تغني في صوت مبحوح عميق وبطيء هذه الكلمات من مقطوعة حزينة :

هبط الليلُ كئيباً فادْنِ مني ، يا حبيبي ،
فأنا وحديَ أبكي في دجى الليل الكئيبِ . . .

وفى ظلمة ليل الجنوب السوداء الخانقة كانت تلك الأصوات النائحة توقظ فيّ ذكرى صحارى الشمال الوحشية المغطاة بالثلوج ، المدوية بالعواصف وعواء الذئاب . . .

تلك المرأة المتصالبة العينين أصيبت أخيراً بالحمى ، ونقلت إلى المدينة على نقالة للجرحى - وفي الطريق أخذت ترتعش وتئن ، فيرن الأنين كما لو كانت تتابع أغنيتها عن الكون ، والمقبرة ، والرمل .

. . . وغاص الرأس الملتف بالوشاح الأصفر تحت الدغل ، واختفى .

انهيت فطوري ، وغطيت العسل في قصعة الشاي بأوراق الشجر ، وربطت حقيبتي ، ومشيت الهوينا متتبعاً أثر اصحابي ، ضارباً الأرض الصلدة بعصاي الخشبية .

هكذا كنت أسير الهوينا فى شق الطريق الرمادي

الضيق . عن يميني يلهث البحر الأزرق العميق . كان يبدو كما لو أن آلافا من النجارين غير المنظورين يسوونه بمساحجهم ، والنجارة البيضاء تخشخش على الشاطئ ، وهي تتطاير هناك بمداعبات ريح حارة ، ندية ، ذكية الرائحة ، أشبه بأنفاس امرأة قوية . وراح زورق تركى ينزلق في اتجاه سوخوم ، وهو يتحرك متثاقلاً صوب البر ، وشراعه منتفخ مثل خدي مهندس الطرق السمينين في سوخوم – وهو شاب ذو شأن عظيم يقول دائماً ، ولسبب ما ، «خراس» بدلاً من «اخرس» و«ربوما» بدلاً من «ربما» .

– خراس ! ربوما تفكر أنك تستطيع القتال ، ولكنني سأجرك بخبطتين اثنتين الى مركز الشرطة .

اعتاد أن ينشرح كثيراً كلما جر شخصاً الى مركز الشرطة . ما أحسن التفكير الآن بأن الدود فى قبره التهم ، من دون ريب ، جسده حتى العظام .

ما احلى . . . هذا المسير ! ما لو كنت أسبح فى الهواء ! أفكار سارة وذكريات متعددة الألوان تتغنى برقة وعذوبة فى مخيلتي . وهذه الأصوات في نفسي تشبه ثنايا أمواج البحر البيضاء السطحية . أما في الأعماق فكانت هادئة عميقة على أية حال ، آمال الشباب البراقة المرنة تسبح على مهلة وتشبه سمكة فضية فى أعماق البحر .

كانت الطريق تؤدي إلى الشاطئ ، وهي تتعرّج وتقترب شيئاً فشيئاً من الشق الرملى الذي تحتضنه الأمواج – والأدغال تبدو كأنها تكافح لالقاء نظرة على اليمّ ، وتتأرجح

فوق شريط الطريق كما لو كانت تومىء بالترحاب لذلك المدى الازرق .

والريح تهب من الجبال منذرة بالمطر .

. . . وترتفع أنّة خافتة فى الأدغال ، أنّة بشرية من تلك الأنات التي تخترق القلب حتى أعماقه .

باعدت بين الأغصان فلمحت المرأة ذات الوشاح الأصفر تقتعد الأرض مسندة ظهرها الى جذع شجرة جوز ، ورأسها يتدلى على كتفها ، وقد التوى فمها وانتفخت عيناها بنظرة مجنونة ، تشدّ بطنها الضخم بيديها ، وتتنفس تنفساً غير طبيعي شرع بطنها معه يرتجّ في عنف . وراحت المرأة تئن فى وهن ، وهي تكشر عن أسنانها الصفر الشبيهة بأسنان الذئاب .

سألتها ، وقد انحنيت عليها :

— ما الأمر ؟ هل ضربك أحد ؟

حكّت إحدى قدميها الحافيتين بالأخرى في الغبار الرمادي ، مثل ذبابة تنظف نفسها ، ولهثت ، وهي تهز رأسها الثقيل :

— ابتعد . . ألا تخجل ؟ . . . ابتعد ! . . .

وضح الأمر لي . . فقد سبق أن شاهدت مثل هذا من قبل . ذعرتُ وتراجعتُ إلى الوراء ، إلى الطريق . بيد أن المرأة اطلقت صرخة مستفيضة مدوية ، وبدت عيناها المنتفختان كأنهما انفجرتا ، وانحدرت الدموع على وجنتيها المتوردتين المتورمتين .

اضطرني ذلك الى أن أنكفىء نحوها ثانية . . . ألقيت

حقيبتي وغلايتي وقصعة الشاي على الأرض ، ومدّدت المرأة مستوية على ظهرها ، وكنت على وشك أن اثني ساقيهـــا على فخذيها عندما دفعتني عنها . ضربتني على وجهي وصدري ، واستدارت وزحفت على اربع وتوغلت في الدغل ، وهي تهدر وتزمجر مثل دبة :

– يا للشيطان ! . . . يا للوحش ! . . .

خانتها ذراعاها فسقطت واصطـدم وجههـا بالأرض . صرختْ مرة أخرى ، ثم مددتْ ساقيها فى اضطراب .

تذكرت فجأة ، في غمرة انفعالي ، كل ما تعـلّمتُـه في هذا الشأن . أدرت المرأة على ظهرها ، وثنيت ساقيها – كان كيس الجنين قد ظهر تماماً .

قلت :

– استلقي بهدوء ، ها هو ذا آت !

ركضتُ الى الشاطئ ، وشمرت كمّي ، وغسلت يدي ، ورجعت متأهباً للقيام بدور القابلة .

راحت المرأة تتلوى كقشرة شجرة البتولا يلقى بهـا في لهب النار . أخذت تضرب الأرض حولها براحتي يديهـا ، وتمزق مقادير كبيرة من العشب الجاف تريـد ان تزدرده . وفيما هي تفعل ذلك شرعت تنثر التراب على وجهها المرتعـب القاسي بعينيه الواسعتين الحمراوين . واندفع كيس الجنين ، وظهر رأس الطفل . كان عليّ أن أثبت ارتعاش ساقيها ، وأساعد المولود على الخروج ، وأحذر ألا تدفع العشب في فمها الملتوى . . .

جعلنا نتبادل السباب فترة من زمن – هي مـن خلال

أسنانها المنقبضة وأنا في صوت خفيض . هي من الألم والخجل ، وأنا من اضطرابي وشفقتي عليها . ثم صاحت في صوت أجش :

– أوه ، يا الهي ! أوه ، يا الهي !

كانت شفتاها الزرقاوان معضوضتين كثيراً ، والزبد الأبيض يعلو زاويتي فمها ، وتيار من العبرات الغزيرة التي يطلق ألم الأم عنانها يتدفق من عينيها اللتين خبا نورهما وكأن حر الشمس اذبلهما فجأة . كان جسدها كله متوتراً في قسوة فكأنه سيتمزق قطعتين بعد قليل .

– امضِ . . . بعيداً . . . أنت . . . يا شيطان !

ظلت تدفعني عنها بذراعيها الضعيفتين ، فصرخت بها مستغيثاً :

– لا تكوني حمقاء . حاولي ، حاولي بشدة . وينتهي كل شيء سريعاً .

كان قلبي يتمزق شفقة عليها ، وبدا لي أن دموعها تنصبُ من عينيَّ . شعرت أن قلبي سينفجر . فأردت أن أصيح . وقد صحت فعلاً :

– هيا ! أسرعي !

. . . وأخيراً – هذا مخلوق بشرى واهن يتكي على ذراعي . . . أحمر اللون كرأس الشوندر . انهمرت العبرات من عينيَّ ، ولكنني شاهدت ، من خلالها ، ذلك المخلوق الأحمر الضعيف غير راض عن الوجود ، فهو يرفس بقدميه ، ويجاهد وينوح ، مع أنه لما يزل مربوطاً بأمه . كانت عيناه زرقاوين ، وأنفه المضحك الصغير يبدو منسحقاً

في وجهه الأحمر المتجعد ، وشفتاه تتحركان ، وهو يصيح :
- وا . . وا . . آه ! وا . . ا . . آه !
كان جسده أملس جداً ، فخفت أن ينزلق عن ذراعي ، كنت جاثياً على ركبتي أرنو إلى وجهه وأضحك - أضحك فرحاً لرؤيته . . . وقد نسيت ما كان عليّ أن أفعل بعد ذلك .
- اقطع الحبل .
همست الأم بالكلمتين مغلقة عينيها . وشحب وجهها وارمدّ . أما شفتاها الزرقاوان ، وقد اضحتا اشبه بشفتي إحدى الجثث ، فطفقتا تتحركان بالكاد ، وهي تقول :
- إقطعه . . . بسكينك .
لكن أحدهم سرق سكيني في الكوخ . . . فقطعت حبل السرة بأسناني ، بينا الصغير ينوح في صوت يشبه أصوات أهل اوريل الخشنة . ابتسمت الأم ، ورأيت عينيها تنتعشان بأعجوبة ، ولهباً أزرق يحترق في غوريهما . وتلمستْ بيدها السوداء قميصها تفتش عن جيبها ، وشفتاها المعضوضتان الداميتان تتحركان . قالت :
- أ ز . . . ا . . . لا . . . قوة لي . . . قطعة شريط . . . في جيبي . . . اربط بها . . . السّرة .
وجدت قطعة الشريط ، وربطت سرّة الصغير . فابتسمت الأم في كثير من السعادة - وكانت الابتسامة من الإشراق بحيث اذهلتني .
- اريحي نفسك ، ريثما أذهب واغسله .

فغمغمت قائلة :

– حذار . إعمل ذلك في لطف . إحذر ، أقول لك .

لكن ذلك العملاق الأحمر لم يكن يحتاج الى شيء من اللطف . حرك قبضتيه ، وناح وكأنه يدعوني الى القتال .

– وا . . آ . . آ . . . ه ! وا . . آ . . آ . . . ه !

شجعته قائلاً :

– هيا ، أيها الأخ ! ثب إلى نفسك . سيقطع لك الجيران رأسك ان لم تفعل ذلك .

فبعث صرخة خاصة شرسة اصطدمت ، بادىء الأمر ، بما يرتطم بالشاطىء من الأمواج التي ترشدنا معاً . وحينما شرعت ألطم صدره وظهره لوى عينيه ، وأخذ يجاهد ويصيح كلما غسلت جسده موجة تقتفي أثرها موجة أخرى .

صحت مشجعاً :

– هيا ، تابع عويلك ! إصرخ من قمة رئتيك ! وليرَ الناس أنك جئت من اوريل .

عندما عدت به إلى أمه كانت مضطجعة على الأرض مغلقة عينيها مرة أخرى ، تعض شفتيها كلما انتابتها نوبات أخيرة من الألم . ولكنني سمعت ، خلال أنينها وهمهمتها ، صوتها يهمس :

– أعط . . . أعطنيه . . .

– إنه يستطيع الانتظار !

– كلا ! أعط . . . أعط . . . نيه . . . ه !

حلتّت أزرار قميصها بيدين مرتجفتين . وساعدتُها على كشف صدرها الذي وهبت له الطبيعة قوة تكفي لتغذية

عشرين طفلاً . ثم وضعتُ ذلك الطفل الأوريلي على جسدها الدافئ . ففهم سريعاً ، وكفّ عن العويل .

غمغمت الأم ، وهي تتنهّد ، وتحرك رأسها الاشعث من طرف إلى آخر على الحقيبة :

– أيتها العذراء الطاهرة ، يا والدة الاله !

وفجأة ، بعثت صرخة خافتة ، ثم صمتت ثانية . وعندها فتحت عينيها الجميلتين الفاتنتين – عينين طاهرتين لأم أنجبت ، قبل لحظات ، مخلوقاً جديداً . كانتا زرقاوين شخصتا ناحية السماء الزرقاء . وضوأت فيهما ابتسامة فرح وامتنان ذائبة . رسمت الأم ، وهي ترفع ذراعها المتعبة ، إشارة الصليب على صدرها ، وفوق ولدها . . .

– مباركة أنت ، أيتها العذراء الطاهرة ، يا أم الاله . . . أوه . . . مباركة أنت . . .

خمد النور في عينيها ثانية . وبدا على وجهها ، مرة اخرى ، ذلك اللون الشاحب . ظلت صامتة مدة طويلة ، تتنفس في صعوبة ؛ وقالت فجأة في صوت رزين مألوف :

– أيها الشاب ، فك حقيبتي . . .

فعلت ذلك وهي تحدق فيّ ثم ابتسمت في وهن ، فبدا لي أنني رأيت تورُّد خجلٍ ، باهت باهت ، يمر على وجنتيها المجوفتين وجبهتها المتصببة عرقاً . قالت :

– ابتعد قليلاً .

فقلت لها محذراً :

– انتبهي . حذار أن تزعجي نفسك كثيراً .

– حسناً . . . حسناً . . . ابتعد !

ابتعدت عنها إلى قرب الأدغال وأنا أشعر بالتعب الشديد ، وخيل الي ّ أن طيوراً جميلة تزقزق بعذوبة في قلبي - كانت تلك الزقزقة التي يصاحبها خرير البحر المستمر تغرد بقوة حتى بدا لي أنني سأسمعها طوال عام كامل . .

وفي مكان ما ، غير بعيد منا ، جدول صغير يغرغر - كان يصوّت مثل فتاة تقص على صديقتها أخبار عشيقها . . .

وانتصب رأس فوق الأدغال ، مغطى بوشاح أصفر عقد بطريقة متقنة ، فهتفت مشدوهاً :

- هيه ! ما هذا ؟ نهضتِ سريعاً ، أليس كذلك ؟

جلست المرأة على الأرض ، وقد أمسكت بالأغصان تعتمد عليها ، فلاحت وكأن قوتها بأسرها تسربت منها . وغاض اللون تماماً من وجهها الرمادي ، سوى عينيها اللتين بدتا أشبه ببحيرتين واسعتين زرقاوين . وبسمت بسمة حنوناً ، وهمست :

- أنظر . . . كيف ينام !

أجل ، كان ينام في هدوء . ولكنه لا يختلف عن أى طفل آخر في نظري . وإن كان هنالك فرق فهو فيما يحيط به . كان يستلقي على كومة من أوراق الخريف المشرقة ، تحت الأدغال التي لا تنمو في مقاطعة اوريل .

قلت :

- يجب أن تضطجعي قليلاً ، يا أماه !

فأجابت ، وهي تهز رأسها :

- كلا . . . عليّ أن أجمع حاجاتى وامضي إلى ذلك المكان . . . ماذا تسمونه ؟

– أوتشمشيرى ؟
– نعم ، إنه هو ! أظن أن عشيرتى قد ابتعدت فراسخ كثيرة عن هذا المكان .
– لكن ، هل تقوين على السير ؟
– أنسيت العذراء الطاهرة ؟ أفلن تمدني بالعون ؟
حسناً . ما دامت العذراء مريم بصحبتها ، فليس لديّ ما أقول !
رمقت ذلك الوجه الصغير ، المتغضن ، المتبرم ، بشعاعات دافئة من النور اللطيف الذي تشعه عيناها . ولعقت شفتيها ، وراحت تمسح على صدرها ببطء .
أضرمتُ ناراً ، ووضعت بعض الأحجار قريباً منها لاضع عليها الغلاية ، وقلت :
– سأجهز لك قليلاً من الشاي في لحظة وجيزة ، يا أماه .
فأجابت :
– أوه سيكون ذلك رائعاً . . . إن صدري يكاد يجفّ .
– هل هجرتك عشيرتك ؟
– كلا ! وفيم تفعل ذلك ؟ أنا تأخرت . فقد تجرعوا من الخمرة جرعة او جرعتين . . . وهكذا أفضل . ولم أكن أدرى ما كنت أفعل لو كانوا يحيطون بي . . .
شخصت إليّ ، وغطت وجهها بذراعها ، وبصقت شيئاً كالدم ، ثم ابتسمت في استحياء .
قلت :
– أهو طفلك الأول ؟

– نعم ، هو طفلي الاول . . . من أنت ؟
– أبدو كأنني رجل . . .
– رجل بالطبع ! أمتزوج أنت ؟
– لم يحصل لي هذا الشرف .
– هل تكذب ؟
– كلا ، فيم أكذب ؟
خفضت عينيها متأملة . . وقالت :
– من أين لك العلم بأمور النساء هذا ؟
هنا كذبت ، فقلت :
– درستها ، فأنا طالب . أتدركين معنى هذا ؟
– من دون ريب أدرك . إن بكر كاهننا طالب أيضاً . وهو يدرس ليصير كاهناً .
– حسناً ، أنا واحد منهم . يحسن أن أذهب وأملأ الغلاية .
عطفت المرأة رأسها نحو الصبي تستمع إلى تنفسه ، ثم رمت ببصرها ناحية البحر . . . وقالت :
– أود أن أغتسل ، ولكنني لا أدرى ماهية الماء . . . أي نوع من المياه هذه ؟ أهي مالحة وقاسية كثيراً ؟
– حسناً ، اذهبي واغتسلي ، فهي مياه صحية !
– ماذا ؟
– أنا لا أكذب . إنها أدفأ من مياه ذلك الجدول ، فالجدول هنا بارد كالجليد .
– أنت أعلم . . .
مرَّ بنا ابخازي يلبس قبعة خشنة من جلد الماعز

ويسير ببطء ، راكباً حصاناً ، وقد دلى رأسه ناحية صدره . كان وسنان ، وكان حصانه الصغير الصلب يتطلع إلينا شزراً بعينيه السوداوين المدورتين وهو يهز أذنيه وينفخ بمنخريه . فرفع صاحبه رأسه باضطراب ، ورنا إلينا بدوره ، ثم ترك رأسه يتدلى ثانية ، فقالت المرأة الأوريلية في عذوبة :

– ههنا كثيرون من الناس المضحكين . وهم يبدون مرعبي المظهر .

مضيت إلى الجدول ، فإذا مياهه ، وهي تشرق وتتصعّد كالزئبق ، تغرغر وتزمجر فوق الحجارة ، وأوراق الخريف تتهاوى فوقها جذلى . كان ذلك رائعاً . غسلت يدي ووجهي وملأت الغلاية . ورأيت من خلال الأغصان ، أثناء عودتي ، تلك المرأة تدب على الأرض فوق الحجارة ، وهي تتطلع إلى الخلف في قلق كثير .

سألتها :

– ما بالك ؟

توقفت قليلاً كالمذعورة ، وازداد لون وجهها الرمادي وضوحا ، وحاولت أن تخفي شيئاً تحت جسدها . عرفت ذلك الشيء ، فقلت :

– هاتيه . سأدفنه .

– أوه ، يا عزيزي ! عم تتحدث ؟ يجب أن يحمل إلى حمام ويدفن تحت الأرض . . .

– أتظنين أنهم سيبنون حماماً هنا عما قريب ؟

– أنت تمزح ، ولكنني خائفة . لنفرض أن حيواناً

ضارياً التهمه . . إسمع ، يجب ان يدفن . . .

قالت هذا وادارت وجهها المتورد خجلاً ، وهى تناولني حزمة ندية ثقيلة ، في صوت متوسل ناعم :

– ستفعل ذلك . حسناً ، أليس كذلك ؟ احفر ما استطعت ، محبة بالمسيح . . . وبصغيري . ستفعل ، أرجوك . . .

. . . عندما رجعتُ رأيتها تسير قادمة من الشاطىء بخطوات متلجلجة وذراعها ممدودة إلى الأمام . وتنورتها مبلولة حتى الخصر ، وقد تلوّن وجهها وبدا مشعاً بنور باطني . ساعدتها على الاقتراب من النار ، وأنا أقول في نفسي حائراً : إن لها قوة ثور !

استوضحتني في هدوء أثناء تناولنا الشاي والعسل :

– هل انقطعت عن الدراسة ؟

– نعم .

– لمَ ؟ هل اسرفت فى شرب الخمرة ؟

– كلياً ، يا أماه !

– ما افظع ذلك ! أنا اتذكرك الآن . فلقد رأيتك في سوخوم عندما تشاجرت مع الرئيس من أجل الطعام . قلت في نفسي آنذاك : يجب أن يكون ثملاً ، فهو لا يخاف شيئاً . . .

راحت ، وهي تلعق العسل عن شفتيها المرتعشتين ، تجيل عينيها الزرقاوين في الدغل ، حيث كان ذلك الأوريلى الجديد ينام في سلام .

تنهدت ، ونظرت في وجهي ، وقالت :

– كيف تراه سيعيش ؟ انت ساعدتني . وأنا أشكرك . ولكني لا أدرى أهذا أفضل له أم لا . . .

رسمت إشارة الصليب عندما انتهت من أكلتها . وبينما أنا أجمع متاعي جلست هي متكاسلة تؤرجح جسدها ، وتحملق في الأرض بعينين بدتا وكأن الذبول يجتاحهما ثانية ، فهما تغرقان سريعاً في لجة من الأفكار . ونهضتْ بعد قليل . . .

فسألتها :

– أتذهبين حقاً ؟

– نعم .

– إعني بنفسك ، يا أماه ؟

– أنسيت العذراء الطاهرة ؟ . . . احمله ، وناولنيه .

– سأظل أحمله .

تجادلنا في ذلك حتى اذعنتْ أخيراً . ومشينا جنباً إلى جنب ، كتفاً إلى كتف .

قالت ، وهي تضحك في خجل ، واضعة ذراعها على كتفي :

– أرجو ألا أتهاوى على الأرض . . .

كان ذلك المواطن الجديد للأرض الروسية ، ورجل المستقبل المجهول ، متكئاً على ذراعي يشخر في تثاقل . والبحر ، وقد غطته زركشة بيضاء ، يردُّ ويموج على الشاطىء والأدغال يهمس بعضها لبعض ، والشمس تشع وقد تكبدت السماء .

مشينا متمهلين . . . والأم بين حين وآخر تتوقف وتبعث تنهيدة عميقة ، وترمي رأسها إلى الخلف . وترنو حولها إلى

البحر ، والغابات والجبال ، ثم إلى وجه ولدها – وعيناها المغتسلتان بدموع الألم عادتا إلى الصفاء الجميل ، وشعتا بنور أزرق ، نور حب لا ينتهي . . .

توقفت مرة ، وقالت :

– رباه ! يا إلهى ! يا الله الطيب ! يا للروعة ! يا للروعة ! أوه ، لو كان يمكنني أن أسير هكذا . . . هكذا . . . الوقت كله . . . وحتى الى آخر هذا العالم . . . وهو . . . ولدي الصغير . . . ينمو . . . وينمو بحرية بالقرب من صدر أمه . عزيزي الطفل الصغير . . .

وكان البحر يهمس ويهمس دون انقطاع . . .

انزلاق الجليد

على ضفة النهر ، قبالة البلدة ، ثمة سبعة من النجارين يصلحون على عجل ركائز حول دعامة جسر عمد سكان ضواحي المدينة خلال فصل الشتاء الى انتزاع الالواح الخشبية منها لاستخدامها وقوداً .

أطلّ الربيع متأخراً ذلك العام – فقد ارتسمت على سيماء آذار الفتيّ النابض حيوية طلعة أشد جهمة من طلعة تشرين الاول . وعند حدود انتصاف النهار فحسب ، وليس كل نهار على أية حال ، تطلُّ في سماء موشحة بضوء شاحب شمس شتوية بيضاء ، وتروح تغطس وتبرز في الانفساحات الصافية الزرقاء بين السحب ، شازرة الأرض بأشعتها الشحيحة .

كنا في «الجمعة الحزينة» ، وقطرات الماء الذائبة المتجمدة في الليل على شكل دلاة زرقاء طول كل منها قدم واحدة ، والجليد في النهر ، وقد تعرى من الثلج ، مزرق اللون ايضاً ، مثله مثل السحب الشتوية .

كان النجارون يعملون ، في حين هبّت الأجراس النحاسية في البلدة ترندح ألحاناً حزينة . وكان العمال يرفعون رؤوسهم الى الاعلى ، وعيونهم مستغرقة في التفكير في ذلك الغسق الرمادى الذي يغلّف المدينة ، وتتوقف الفأس المرفوعة لتنهال في ضربة ثانية مترددة في منتصف الهواء فكأنها تخشى أن تقطع صوت الأجراس اللطيف .

هنا وهنالك على شريط النهر العريض اغصان أشجار الصنوبر مغروزة بصورة ملتوية في الجليد للدلالة على الطريق

وعلى أية حفر أو شقوق في الجليد . وقد برزت مثل ذراعي رجل يغرق وهي تتلوى متشنجة .

كان النهر يزفر كآبة موجعـــة : فهو مهجور ، مفروش جروحاً نفيذة ، ويستلقي مثل طريق مستقيمة لا أمل له ولا رجاء في عزاء ، ينتهي بمنطقة مضبة تهبّ منها ريح باردة في ضعف واكتئاب .

. . . وهذا رئيس العمال أوسيب ، رجل مهذب الخصال ، متين البنية ، صغير القد ، له لحية فضية انيقة تلتف ببراعة في حلقات محكمة على وجنتيه الورديتين وعنقه اللدنة . . . وهو الذي تنصبُ عليـــه الاضواء في كل آن ومكان . . . يصيح :

– هيا ، تحركوا !

التفت اليّ ، وأضاف في نبرة تحذير ساخرة :

– ايها المفتش ، فيم تراك تدسُ انفك الفظ في السماء على هذا الغرار ؟ ما هو العمل الذي حصلت عليه عندنا ؟ أنا أسألك أنت ؟ أجئت من قبل المتعهد فاسيلي سيرغييفيتش ؟ في هذه الحال – الأمر متروك لك أن تستحثنا – أرنا همتك في هذا المضمار ، أنت أيها المهزول الشاحب ، أنت ! لقد خصصت بعمل عظيم ، وهذا أنت تغمض عينيـــك عن أداء واجبك ، يا صاح ، أنت أيها القطعة المتعفنة من شجرة على قدمين . لا يحق لك أن تغمض عينيك ، بل عليك أن تبقيهما مفتوحتين ، وان تصب على الفتيان شواظ لسانك إن كانوا بعثوا بك لاستنهاض همتنا . . . استخدم سلطانك ، يـــا بيضة الوقواق !

وصاح بالفتيان مرة اخرى :

– تابعوا العمل ، أيهـــا الشياطين – هل سننهي هذا العمل اليوم ، أم لا ؟

كان ، هو نفسه ، أكبر متهرب من العمل في الفريـــق كله . كان ملماً بخفايا العمل على أروع صورة ، ويجيد القيام به على أروع ما يرام ، وأسرع ما يرام ، في حيوية لا نظير لها واهتمام دؤوب ، ولكنه لا يرغب في أن يستحث نفسه إليه ، وما أكثر ما يختلق قصصاً تعج بالفتنة ! وحينمـــا يروح العمل يدور بصورة شبه كاملة ، وحينما يروح الرجال ينهمكون فيه في استغراق وقد ركنوا إلى الصمت ، واستقطبوا جهودهم ، وقد ألهمتهم على حين غرة رغبة جارفة في القيام بما كلفوا به من عمل على أفضل صورة ، يشرع أوسيب يقول في صوت رخيم النبرة :

– وتعلمون ، يا رفاق ، أنه حدث ذات مرة . . .

وتمر دقيقتان أو ثلاث دقائق يتراءى فيها أن الرجال لم يعيروه سمعاً ، بل هم يوالون ، في غيرّية ، القيام بالحفر والسحج واستخدام فؤوسيهم . ولكن صوته الصادح الرقيق اللطيف يسبح حالماً ، وما أسرع أن يستلفت انتباههم شيئاً فشيئاً . وتضيق فرجتا عيني أوسيب الصافيتين الزرقاوين في عذوبة ، ويلوي لحيته الجعدة بأصابعه ، ويمصمص شفتيه في لذة ، ويرسل كلمة بعد كلمة :

– . . . وهكذا قبض على سمكة الشبوط تلك ، وألقى بها في سلته ، وأخذ يجتاز الغابة هامساً في نفسه : حسناً ، لسوف يصيبني منها حساء لذيذ . . . حينما ، وعلى حين

فجأة ، ودون أن يعرف من أين ، نادى صوت انثوي خفيض وصاخب : يليسيا ، يليسيا . . .

في هذه الأثناء كان ليونكا الموردوفي الفارع القامة المهزول البنية الملقب بالوطني – وهو شاب في طراوة العمر لـــه عينان صغيرتان مذهلتان – قد اخفض فأسه وانصب دون حراك فاغراً فمه .

– وأجاب من السلة صوت جهير ثرى : هذ . . .ا ! وفي هاتيك اللحظة انفتح غطاء السلة بعنف ، ووثبت السمكـــة وثبة واحدة ، وراحت تنأى وتنأى حتى رجعت الى أعماق . . .

فأعلن الجندى الشيخ سانيافين ، وهو سكير مدمن يعانى من داء الربو ولا بدّ أنه تعرض مرة الأذية تركت في نفسه ضغينة مستديمة ضد الحياة بصورة عامة ، قائلاً في صوت خشن :

– كيف استطاعت تلك السمكة النهرية أن تتواثب على الأرض الجافة طالما أنها سمكة ؟

واستفهم أوسيب في عذوبة :

– وهل من عادة السمك أن يتكلم ؟

فأعلن موكى بوديرين ، وهو فلاح مكتئب له وجـــه شبيه بوجه كلب – عظام وجنتيه وفكيه مندفعة إلى أمام ، والجبهة مرتدة إلى وراء – وكان رجلاً صموتاً مغموراً ،قائلاً في صوت متوان مـــن خلال منخريـــه هذه الكلمات الثلاث المفضلة لديه :

– أنت محق هناك .

وفي كل مرة يعلن أحدهم شيئاً رائعاً أو رهيباً ، قذراً

أو شريراً ، يرد موكى بوديرين بهذه الجملة القانعة الهادئة المفضلة لديه :

– أنت محق هناك .

كنت أشبه من تلقى منه ثلاث لطمات تحت القلب من قبضته الثقيلة الوحشية .

توقف العمل بأسره لأن ياكوف بوييف ، الأخرق اللسان والمنحني البنية ، تحفَّز لرواية قصة سمكية قطع شوطاً في سردها دون أن يصدقه أحد ، بل جعل حديثه الأخرق الجميع ينفجرون ضاحكين . أقسم الأيمان المغلظة واستنجد بشهادة العليّ القدير ، وطعن الهواء بفأسه غاضباً ، وأطلق من فمه رذاذاً من لعاب حاقد ، وأرغى وأزبد ، الأمر الذى بعث الغبطة في قلوب الجميع :

– يروي المرء كذبة كبيرة بحيث لا . . . وهم يصدقونه . وهذا أنا أروي لكم حقيقة من حقائق الله فتضحكون مثل المغفلين ، لتحلنّ عليكم اللعنة وتنفجرن أجسادكم . . .

ترك الرجال جميعاً أعمالهم وشاركوا في الجلبة العامة ملوحين بأذرعهم في الهواء . في هذه اللحظة خلع أوسيب قبعته ، معريا رأسه الفضي الموقر بصلعته المكشوفة ، وصرخ في صوت ثاقب :

– هذا يكفي الآن ! لقد لهوتم كفاية ، ونلتم نصيباً من الراحة و . . . هذا يكفي !

أزّ الجندي ، وهو يبصق في راحتيه :

– أنت بدأت ذلك .

كان أوسيب في مثل هذه اللحظات يستدير اليّ :
– أيها المفتشد . . . ش ! . . .

كان يخيّل إليّ أن له هدفاً معينا حين يبعـــد انتباه الرجال عن عملهم بحكاياته ، ولكنني لم أستطع أن أكتشف ما إذا كان يعمد إلى إخفاء كسله باللجوء إلى ثرثرة لسانه ، أم أنه ينتوي اعطاءهم فترة من راحة . كانت معاملة أوسيب للمتعهد معاملة خنوع مداهن ، فقد كان «يغش» لمصلحته ، وفي كل يوم سبت ينجح في استقطار شيء يكفي فريقه في العمل «لتناول قدح من الشاي» .

كان ، على العموم ، عضواً رائعاً في فريق العمل ، ولكن الشيوخ يبغضونه ، يعتبرونه مهرجاً وغشاشاً ، ويعاملونه في احترام قليل ؛ كما أن الشبان أيضاً ، رغم استمتاعهـــم بالإصغاء إلى حكاياته ، ما كانوا ينظرون إليه بعين الاعتبار ويرمقونه في نفرة ، وأحياناً في ارتياب ممتعض .

وكان الموردوفي ، وهو شاب مثقف كنت أنهمك معه في أحاديث ودية ، يردُّ عليّ مكشراً حين استوضحه عن رأيه في أوسيب :

– لست أدري . . . وحده الشيطان يعرف . . . حسناً ، أفترض . . . أنه ليس سيئاً . . .

ويضيف بعد استغراق قصير في التفكير :

– ميخايلو الذي مات كان حاد اللسان ، ذكيا – وقد تخاصم معه مرة ، اقصد مع أوسيب ، فقال : «هل تظن» – هو قال – «أنك رجل حقيقي ؟ العامل فيك قضى نحبه والمعلّم لم يبصر النور بعد ، وهكذا» – هو قال – «سوف تبقـــى

معلقاً طوال حياتك في إحدى الزوايا مثل فادن منسي يتدلى من الحبل . . .» ولربما كان ذلك على ما يكفي من الصحة .

غير أن الموردوفي أضاف ، بعد استغراقة قصيرة أخرى في التفكير ، في صوت مضطرب :

– وعلى العموم ، فهو رجل لطيف لا يعيبه شيء . . .

كان مركزي بين أولئك الرجال يبعث على السخرية الى أبعد حد : أقامني المتعهد ، وأنا في الخامسة عشرة من عمري ، لمراقبة حسابات الإنفاق على المواد ، ومراقبة النجارين كيلا يسرقوا المسامير أو يتاجروا بألواح الخشب في الحانة . لم يكفوا عن سرقة المسامير ، دون أن يبعث فيهم وجودي شيئاً من الاضطراب ، وقد دأبوا جميعاً على محاولة إفهامي أنـــي شخص زائد غير مرغوب فيه في شركتهم . ولو وجد أحدهم فرصة ينهال فيها على رأسي بضربة مركزة من لوح خشبي أو يسبب لي إغاظة مهما كانت تافهة – فقـــد كانوا يستغلون ذلك في براعة لا نظير لها .

كنت أشعر بالاضطراب والخجل . وأردت أن أقول شيئاً يستميلهم إليّ ، ولكنني لم أعثر على الكلمات المناسبـــة ، وسحقني اقتناع موحش بعدم جدواي .

وكلما سجلت في دفتري كمية المواد التي استلمتُ ، كان أوسيب يتمشى الهويناء مقترباً مني ، ويسألني :

– هل تقوم برسومك ؟ تعال بنـــا الآن ، واطلعنـــا على . . .

وينظر إلى ما سجّلت بعينين متضيقتين ، ويتمتـــم في غموض :

– لقد دوّنت بخط دقيق . . .

لم يكن يستطيع أن يقرأ سوى الكلمات المطبوعة ، وأن يكتب بغير الحروف اللاهوتية * – أما الحروف العاديـــة المتصلة ببعضها فأبعد عن أن يميز بينها .

– هذه . . . هذه الخربشـــة هنا . . . ما هي هذه الكلمة ؟

– بضاعة .

– بضا . . عة ! انها تبدو في عينيّ مثل الوهق ** . . . وما هو هذا السطر ؟

– ألواح خشبية سماكة إنش وثلاثة أرباع الإنش ، و بطول عشرين قدماً – العدد خمسة .

– ستة .

– خمسة .

– ما معنى قولك خمسة ؟ الجندى هناك نشر لوحاً الى نصفين . . .

– ما كان ينبغي أن يفعل ذلـــك . لم تكن الحاجـــة تدعو . . .

– ما معنى قولك لم تكن الحاجة تدعو ؟ فقد أخذ نصف لوح يتاجر به في الخمارة . . .

---

* الحروف السلافية القديمة . وقد ابتكر بطرس الأول في عامي ١٧٠٨–١٧١٠ طرازاً خاصاً من الحروف بدلاً من الحروف السلافية القديمة التي لم تكن تستخدم في غير الكتب الدينية . **المترجم** .

** حبل في طرفه أنشوطـــة يستخدم لاقتناص الخيل والبقر . **المترجم** .

ويروح ينظر إلى وجهي في هدوء بعينين زرقاوين تختبىء في أعماقهما أومضة خبيثة ماكرة ، ويفتل شعر لحيتـــه في حلقات متعددة حول إصبعه ، ويقول في صوت راسخ لا يعرف خجلاً :

– أ'كتب ستة ألواح ، اكتب ! حذار ، يـــا بيضـــة الوقواق ، فالعمل قاس ، بارد ، رطب . . . وينبغي عـــلى الناس أن يبهجوا قلوبهم بين حين وحين ، ويدفئوا قلوبهـم بقليل من الخمرة . فلا تكن شديد الصرامة ، فلن ترش الله إذا أبديت صرامة . . .

أطال الحديث ملاطفا متأنقا ، وراحت كلماته تنهمر عليّ في سحابة تشبـــــه نشارة الخشب ، أما أنا فأشبهت' من عمِيَتْ باصرتا ضميره ، فأطلعته في صمت على الرقم الذي صحّحته .

– هكذا هي الأمور الآن . . . هذا صحيح ! والرقم يبدو أفضل أيضا ، وقد تربع هنا مثل زوجة أحد التجار ، سمينة سمحة الطبع . . .

ورأيت كيف روى للنجارين قصـــة نجاحه في كلمات ظافرة ، عارفاً أنهم سيحتقرونني جميعاً لاستسلامي ، وقلبي الذي له من العمر خمس عشرة سنة يبكي من ذلك خزياً ، وأفكار رمادية متبلدة تئز محوّمة مدومة حول رأسي :

– ما أغرب وأحمق هذا كله ! فيم وثوقه من أني لن أبدل الرقم ستة وأجعله خمسة مرة أخرى ، وأ'خبر المتعهد أنهم شربوا ما ثمنه لوحاً من الخشب ؟

سرقوا مرة رطلين من مسامير خشبية قياس ٣/٤ إنشاً وكلابات حديدية .

حذرت أوسيب قائلاً :

– إسمع . لن أدع هذه السرقة تمرّ .

فوافق ، وحاجباه الأشيبان يتحركان :

– حسناً . الحقيقة أن الأمور ذهبت قليلاً أبعد من مداها ، أليس كذلك ؟ هيا ، دوّن ذلك لديك ، فهم قد أساؤوا قليلاً . . .

وصاح بالرجال قائلاً :

– هاي ، أيها الاشقياء ، لقد سجلت المسامير والكلابات كغرامة .

فاستفسر الجندى في بلادة :

– لماذا ؟

فاوضح أوسيب فى هدوء :

– لا ريبة أنكم ارتكبتم شيئاً لتستحقوا ذلك .

شرع النجارون يزمجرون ، ويرموننى بنظرات شرسة ، فى حين لم اكن واثقا ، أنا نفسي ، أني سأنفذ ما هدّدتهم به ، وما إذا كان ذلك ، لو فعلته ، هو عين الصواب .

قلت لأوسيب :

– سأترك المتعهد . فلتذهبوا الى الجحيم جميعاً ! لسوف تجعلون مني لصاً .

أغرق أوسيب في التفكير برهة ، وهو يمسّد لحيته ، وجلس الى جانبي وقد التصقت كتفه بكتفي ، وقال في هدوء :

– هذا صحيح !

– ماذا ؟

– يجب أن تترك العمل . اي طراز من المفتشين تظن نفسك ، أي صنف من المراقبين ؟ في مثل هذه الأعمال يتعين عليك أن تفهم معنى الملكية ، ويقتضي أن تكون فيك طبيعة كلب الحراسة كيما تحرس ممتلكات معلمك مثلما تحرس جلد جسدك ، هذا الذى تركته لك أمك عن طواعية . . . ولمثل هذا العمل . . فأنت لست أكثر من جرو صغير صغير ، لا تملك الإحساس بقيمة الملكية أو ما يرتبط بها . لو أن أحدهم روى لفاسيلي سيرغييفيتش مقدار تساهلك معنا فقد كان يطوّح بك من أذنيك على الفور دون تردد ! ولأنك لا توفر له نقوده فأنت تضيّع له نقوده ومن واجب المستخدم ان يسبغ على معلمه نفعاً . أتفهم ؟

لفّ دخينة ، وناولنيها .

– دخّن ، فيصفو دماغك ، لو لم تكن شخصيتك فضولية مولعة بالجدل لنصحت لك أن تذهب وتصير راهباً . لكن . . . شخصيتك لا تصلح لذلك ، فهي شخصية فظة ، لم تشذب أو تصقل ، حتى لأنت على استعداد للثورة حتى ضد رئيس الدير . والراهب اليوم أشبه بغراب الزيتون : لا يبالي بالحبوب التي يلتقطها ، وجذور القضية لا تهمه على الاطلاق ، فهو شبعان من الحبوب وليس من الجذور . أخبرك بهذه الأمور من أعمق أعماق قلبي ، كيما أبيّن لك فقط أنك لست من ذلك الصنف من الشبان الذين ينخرطون في مثل هذه الأعمال ، فأنت بيضة وقواق سقطت في غير عشها . . .

خلع قبعته -وهو أمر يفعله على الدوام حينما يرغب في أن يقول شيئاً وقوراً بشكل خاص - وتطلع الى السماء الرمادية ونبر في صوت عال وكلمات متواضعة :

- نحن في نظر الرب لصوص حقاً ، وقد لا نستطيع أن نترجى منه الخلاص . . .

فأصدى موكى بوديرين ، وصوته يجلجل مثل المزمار :

- أنت محق هناك .

منذ ذلك الحين فرض أوسيب الفضي الشعر الأجعد الرأس ، الصافي العينين الضبابي الروح ، نوعاً من فتنة خلابة عليّ ، ونشأ بيننا شيء يماثل الصداقة ، ولكنني كنت أرى أن اللطف الذي يبديه نحوي يربكه لسبب أو آخر . فهو لا يلقي إليّ بالاً حينما يتواجد الجميع ، وتشحب عيناه الزرقاوان الخرزيتان وتفقدان كل لون ، وتتمايلان هنا وهناك ، وتتجعد شفته بصورة خداعة مقرفة حينما يقترب مني ويقول ساخراً :

- هاي ، أنت ، أبق عينيك مفتوحتين ، واكسب خبزك ، والق نظرة هنالك . . . فإن الجندي يمضغ المسامير ، الخنزير هذا . . .

وحين ينفرد بي يروح يتحدث مثل ناصح مخلص لطيف ، فيلتمع في عينيه وميض حكيم من سخرية صغيرة ، ويوجه أشعتها الزرق إلى عينيّ مباشرة . وكنت أعير أذناً صاغية إلى كلمات ذلك الرجل ، فهي تبدو لي عامرة بالصدق ،

موزونة في ذهنه باخلاص ، رغم أن ما يقوله أحيانا يتراءى غريباً .

قلت له مرة :

– أن تكون رجلا طيباً . . . في هذا تكمن القضية بأسرها !

فوافق قائلاً :

– آه . . . من دون ريب !

وسرعان ما انعصرت شفتاه بصورة ساخرة ، واخفض عينيه ، وقال في هدوء :

– لكن . . . ماذا تقصد بالرجل الطيب ؟ يتراءى لي أن الرجال لا يبالون من قريب أو بعيد بطيبتك أو عدالتك . . . ما لم يقع أن يستفيدوا منهما . كلا ، فأنت تبدي لهم اهتماماً ، وتغدو أشبه بالحنان لكل قلب ، وتدلل الناس قليلاً ، وتؤاسيهم . . . وقد تجد ، في وقت أو آخر ، شيئاً مقابل ذلك ! مما لا ريبة فيه أنه ليس هنالك من يجادل أن ذلك صنعة تبعث على التسلية حقاً ، فيما إذا كنت رجلاً طيباً ، ورحت تجلس وتنظر الى نفسك في المرآة . لكن الناس الآخرين – صدقني – لا يبالون البتة فيما إذا كنت مخادعاً أم قديساً – طالما أنك تفتح للناس قلبك وتعاملهم في رفق . . . هذا ما يريدونه حقاً !

كنت واعياً في مراقبتي للناس ، ويخيّل اليّ أن كل امرئ ينبغي أن يساعدني ويساعدني في استيعاب معنى هذه الحياة المبهمة المشوّشة المؤلمة ، كما كان لديّ ذلك السؤال الأبدي المزعج الذي أطرحه على كل إنسان :

– ما هي روح الإنسان ؟

يخيل إليّ أن بعض الأرواح مصنوعة على غرار كرات نحاسية : مثبتة برسوخ في الصدر وتعكس كل الأشياء التي تمسّها من وجهة نظرها الخاصة فقط – ويأتي الانعكاس مشوهاً ، بشعاً ، وقاتماً . بينا الأرواح الأخرى مسطحة وسطحية ، مثل المرايا ؛ قد لا يكون لها مجرد وجود على الإطلاق .

كانت أغلبية الأرواح البشرية ، على أية حال ، تبدو لي مفتقرة الى الشكل جميعاً ، أشبه بالسحب ، موشحة بعديد من الألوان المعتمة ، مثل ذلك الحجر المزيف ، الأوبال ، على أهبة الاستعداد دائماً للتبدل طواعية بحسب اللون الذي يهيمن على ما يحيط به مباشرة .

لم أكن أعرف ، أو أستطيع أن أكتشف ، ماهية روح أوسيب الوقور بمظهره – كان عقلي عاجزاً عن استيعابها .

كنت أفكر في هذه الأمور جميعاً وأنا أحدّق من فوق النهر إلى حيث كانت البلدة ، ملتصقة بجانب هضبتها ، ترن أجراس أبراجها جميعاً ، وتنهض صوب السماء مثل الأنابيب البيض للأرغن المحبوب لي في الكنيسة الكاثوليكية البولونية . وكانت الصلبان على الكنائس أشبه بنجم غبشاء مأسورة في سماء رمادية ، تومض وترتعش في توقها الى الشموخ فوق الحجاب الرمادي للسحب التي تبعثرها الريح كي تصل الى السماوات الصافية ؛ غير أن السحب توالي اندفاعها صعُداً ، وخيالاتها تمسح الألوان البراقة للبلدة – وفي كل حين تنفسح بضع شعاعات من الشمس فوق البلدة منصبة من الانفساحات

الزرقاء الشاحبة العميقة بين السحب فتزركشها بألوان مفرحة ؛ وما أسرع ان تقترب السحب برشاقة لتغطي الشمس ، وتزداد خيالاتها الرطبة ثقلا ، وتسحب الألوان كلها ولا تفعل غير تنبيه شهيتنا لاغتراف قليل من المسرات .

كانت بيوتات البلدة أشبه بأكوام من الثلج المتسخ ، والأرض تحتها سوداء عارية ، والأشجار في الحدائق تشبه أكواماً من التراب ، ووميض النوافذ العاتم في الجدران الرمادية يذكر المرء بالشتاء ، وكل المنطقة مسَّتها في رقة كآبة الربيع الشمالي الشاحب .

بذل ميشوك دياتلوف ، وهو شاب أشقر الشعر ، أشرم الشفة ، عريض المنكبين ، أخرق الحركات ، جهداً للبدء بإنشاد أغنية :

جاءت إليه في الصباحْ
فإذا به مات . . وراحْ .

صرخ الجندي به :

– هاي ، يا ابن الكلبة ! هل نسيت اي نهار هو هذا النهار ؟

كان بوييف غاضباً بدوره ، فهزّ قبضتيه في وجه دياتلوف ، وهس قائلاً :

– يا رووح الكلب !

قال أوسيب موجهاً حديثه الى بوديرين ، وهو يباعد بين الركائز الخشبية ويضيق عينيه لحساب انحدارها :

– الناس حيث قدمتُ أناس غابات ، عاشوا طويلاً وعركتهم المحن . أبعد نهاية تلك الدعامة إنشاً أو إنشين ناحية اليسار – هكذا ! . . . أو لنقل ذلك ببساطة أكثر – أناس متوحشون ! ذات مرة ، جاء مطران لزيارة أبرشيتنا خلال قيامه بجولة على رعاياها – فركض الناس إليه ، وأحاطوا به ، وسقطوا على ركبهم ، ونفثوا ما في صدورهم من أحزان : نرجوك ، يا صاحب القداسة ، علمنا تعويذة ضد الذئاب ، فالذئاب تجعل الحياة لا تطاق بالنسبة إلينا ! أوي ، أوي ، أوي ، لكم صب عليهم لعناته . . . جعل يقول : «آه ،أيها الهراطقة ، تسمون أنفسكم مسيحيين ارثوذكسيين ، أليس كذلك ؟ لأحاسبنّكم على هرطقتكم !» لكم انفعل غضباً حتى إنه بصق فى وجوههم . كان رجلاً عجوزاً صغيراً ، روحاً لطيفة ، والعبرات في عينيه . . .

على مبعدة أربعين خطوة من الركائز حول دعامة الجسر ، كان بحارة وصعاليك يحطمون الجليد حول مركب لنقل البضائع . كانت المثاقب تسحق جلد النهر الازرق الرمادي المتفتت ، والخطاطيف النحيلة تتأرجح في الهواء وتدفع قطع الجليد المتحطمة تحت السطح الذي لم يتحطم بعد ، والمياه تتدفق ، وخرير الجداول يصافح الآذان منسرباً من الضفة الرملية . وحيث كنا نعمل كان ثمة صريف مساحج ، وصفير مناشير ، ورنين فؤوس وهي تدق الكلابات الحديدية فى الخشب الأصفر الناعم – وهذه الاصوات بأسرها تخترقها جلجلة الأجراس التي يلطف البعد من صداها ، والتى تقلق الروح . كان يبدو وكأن ذلك النهار الرمادي ، فى شيء كثير

من الرصانة ، يشارك في قداس ابتهالى للربيع ، ويغريه بالعودة إلى الارض ، هذه التى تحررت من الثلج ولكنها بقيت عارية خاوية . . .

صاح أحدهم في صوت خشن :

– نادوا على الألما . . ني ! فليس لديهم كفاية . . .

فجاء الجواب عن الضفة مستفسراً :

– أين هو ؟

– في الخمارة ، إذهبوا وألقوا نظرة . . .

تخبطت الاصوات متثاقلة في الهواء الرطب ، وسبحت مغمومة فوق النهر الوسيع .

كان الرجال يعملون في سرعة ، وحماسة ، لكن بصورة سيئة وغير مبالية . كانوا يريدون جميعاً الوصول الى البلدة ، الى حمامات البخار والكنيسة . وكان ساشوك دياتلوف الأكثر استعجالا ، وهو أشقر الشعر مثل أخيه ، كانما غسل في مادة قلوية ، ولكنه أجعد الرأس ، متين البنية ، رشيق الحركة . وكان يجيل أبصاره بين حين وحين في أرجاء النهر ، ويقول في هدوء مخاطباً شقيقه :

– ما رأيك ، أتراه يتصدع ؟

في تلك الليلة كان ثمة «تحرك» في الجليد ، وكان الشرطي على النهر يمنع الخيول من السير على سطحه منذ الصباح . وكان بعض المشاة العرضيين ، وقد اندفعوا مثل حبات الخرز على طول خطوط الأماكن المحددة للعبور ، يسارعون الخطا من ضفة الى أخرى ، وكنت تستطيع أن تسمع

الألواح الخشبية تصفع المياه بقوة وهى تنحنى تحت ثقـــل أجسادهم .

أجاب ميشوك ، وهو يطرف بأهدابه البيضاء :

– إنه يتصدّع .

وتدخل أوسيب قائلاً ، وقد ظلل عينيه براحـة يده وراح يمدّ أنظاره فوق النهر :

– إنها القشارة في رأسك تجفُّ وتقعقع ! تابع عملك ، يا بذرة الساحرات ! أيها المفتش – أرغمهم على العمل ، فيم دفنت أنفك في كتابك ؟

كان قد بقى أمامنا عمل لفترة ساعة أو ساعتين لا أكثر ، فقد غطّى سطح الركائز بأكمله بألواح خشبية صفراء اللون ولم يتبق سوى تثبيت أربطة حديدية ثقيلة . وكان بوييف وسانيافين قد أحدثا أثلاماً لاستلام هذه الأربطة ولكنهمـــا أخطآ الحساب إذ كانت الأثلام ضيقة ضيقة فلم تدخـــل الأربطة الحديد في الألواح الخشبية .

صاح أوسيب ، وهو يضرب قبعته بيده :

– يا للحمقى العميان ! أتسمون هذا عملاً ؟

وعلى حين غرة ، رنّ صوت فرح من مكان ما على الضفة :

– إنه ينزلق . . . أنتم هناك !

وسبح فوق النهر ، فكأنه متزامن مع هذه الصيحـة ، همس بطــيء ، صوت مصرصر هادئ ؛ وارتعشـت الأذرع المخلبية المتخذة علامات للطرق والمصنوعـة من اغصان الصنوبر ، كمن يحاول التشبث بشيء ما في الهواء فوقها ؛

وجعل البحارة ومساعدوهم يلوحون بخطاطيفهم ويرفعون في صخب سلالم الحبال الى ظهر القارب .

كان غريباً أن ترى ذلك الحشد الكبير من الناس الذين بدوا على النهر . بدا وكأنهم يهبون من تحت الجليد ذاته ، ويتمايلون روحة رجعة مثل سرب من الطيور أخافته طلقة بندقية ، يتراكضون هنا وهنالك ، يحملون ألواحاً خشبية وساريات قوارب ، ويلقون بها على الأرض ثم يحملونها من جديد .

صرخ أوسيب :

– إجمعوا أدواتكم ! عجلوا ! وأنتم . . . انطلقوا إلى الشاطئ .

فأعلن ساشوك في نبرة حزينة :

– ها هو انزلاق الجليد قد افسد يوم العيد !

بدا كأن النهر بقي على ما كان عليه ، وأن البلدة هي التي ارتعدت على غير انتظار ، وتماوجت ، وشرعت هي والهضبة القائمة تحتها تسبحان ضد التيار على مهلة . وتحركت المنحدرات الرملية الرمادية القائمة على مسافة عشرين متراً تقريباً إلى الأمام منا على حين فجأة ، وشرعت تطوف مبتعدة .

صاح أوسيب ، وهو يدفعني بكتفه :

– أركض . فيم وقوفك هنا فاغراً شدقيك ؟

عصفت بي موجة من رعب . فانشالت ساقاي ، وقد شعرتا بالجليد يتحرك تحتهما ، تتواثبان في قفزات عظيمة وكأنهما تندفعان من تلقاء ذاتهما وتحملان جسدي الى الرمال بين الاغصان العارية للصفصاف التي حطمتها عواصف

الشتاء ، وحيث كان بوييف والجندي ، وبوديرين والأخوان دياتلوف قد ارتموا على الأرض . كان الموردوفي يركض الى جانبي يطلق شتائمه في غضب ، وأوسيب يركض وراءنا ، وهو يصيح :

– لا تتذمر ، يا مواطني . . .

– لكن ، أيها العم أوسيب . . .

– لم يصل العالم الى نهايته !

– لقد أقمنا هنا يومين أو ثلاثة أيام . . .

– وستنال استراحة جميلة . . .

– وعيد الفصح ؟

– لسوف يحتفلون بعيد الفصح من دونك هذه السنة . . .

أشعل الجندي الجالس على الرمل غليونه ، ونخر قائلاً :

– قتلكم الرعب . . . أنتم لا تبعدون عن الشاطىء أكثر من ثلاثين متراً وهربتم جميعاً وكأن حيواتكم مرهونة بذلك .

وقال موكي :

– أنت أول من أطلق للريح ساقيه .

لكن الجندي استرسل يقول :

– وما الذي أدبّ الذعر في قلبك على هذا الغرار ؟ ان السيد المسيح نفسه ذاق الموت . . .

تمتم الموردوفي في فظاظة :

– كل ما تقول حسن ، ولكنه قام من الموت بعد ذلك .

غير أن بوييف أخرسه بقوله :

– سدٌ بوزك ، أيها الجرو ! ماذا تراك تعرف عن مثل هذه الأمور ؟ قام من الموت ! اليوم هو الجمعة ، وليس أَحَدَ البعث !

أطلقت شمس آذار أشعتها على حين فجأة من صدع أزرق اللون فى الغيوم ، فتألق الجليد ملتمعاً ، ساخراً منا . وظلل أوسيب عينيه براحة يده ، وأطال النظر فوق النهر المقفر ، وقال :

– لقد توقف . . . ولكن توقفه لن يطول . . .

وقال ساشوك في اكتئاب :

– لقد ضاعت علينا الاحتفالات .

تغضن وجه الموردوفي الأسود الناتئ العظام والخالى من لحية أو شاربين والشبيه برأس من البطاطا غير المقشورة ، في غضب ، وطرف بعينيه في سرعة ، وزمجر :

– وهؤلاء نحن قد حُجزنا هنا . . . لا خبز ولا مال . . . والكل يبتهجون ونحن نخدم شيطان الجشع ، ولا نتميّز عن الكلاب . . .

لا ريب أن أوسيب كان يفكر في أمر ما دون أن يرفع عينيه عن النهر ، فقال وكأنه يتحدث من مسافة بعيدة :

– أنت لا تخدم شيطان الجشع على الاطلاق ، بل أنت تخدم الضرورة ! فيم توضع هذه الكسارات والدعامات ؟ إنها توضع في سبيل حماية مراكب النقل وما شابه ذلك من الجليد . فالجليد أحمق ، يساقط ويسحق قافلة كاملة من السفن و . . . سلاماً على البضائع . . .

– وما علاقة هذا بنا ؟ فالبضائع ليست بضائعنـــا ، أليس كذلك ؟
– تجادل الأمور مع أحمق . . .
– كان ينبغي أن يعالجوا هذا الأمر من قبل . . .
لوى الجندي وجهه في تكشيرة مرعبة ، وصاح :
– إخرس ، أيها المواطن الدموي !
فكرّر أوسيب :
– لقد توقف . أوهو !
كان البحارة في صف مراكب النقل يطلقون صيحاتهم ، وهبّ من النهر نسيم بارد وهدوء حاقد شرير . وتبدلـــت أشكال قطع أغصان شجر الصنوبر المبعثرة على الجليد ، وبدا كل شيء وكأنه تغير وأثقل عليه ارتقاب متوتر .
استفسر أحد الزملاء الشبان في هدوء وحذر :
– أيها العم أوسيب . . . ماذا نحن فاعلون ؟
فأجابه حالماً :
– ماذا قلت ؟
– هل سنبقى جالسين هنا ؟
فرنّم بوييف في مكر من خلال منخريه :
– لقد رأى الرب مناسباً أن يحرمكم ، أنتـم الخطاة ، من مائدته المقدسة !
ساند الجندي رفيقه ، وأشار بيده إشارة حاسمـــة ناحية النهر ، وتمتم في عصفة من الضحك :
– أترغب في الذهاب الى البلدة ؟ إذهب ! وسيذهـب الجليد معك أيضاً . إن كنت محظوظاً ستغرق ، وإن لـــم

تكن محظوظاً سيقبض عليك الشرطي ويقدم لك إجازة لطيفة في السجن – هذا شيء رائع في يوم العيد !

فقال موكي :

– أنت محق هناك !

اختبأت الشمس وراء سحابة ، وازداد النهر ظلمة ، وغدت البلدة أكثر وضوحاً للعيان – فادار الشبان أنظارهم اليها بعيون غاضبة مكتئبة ، وركنوا الى الصمت .

شعرت في قلبي بالغم والقرف ، مثلما يشعر المرء حينما يرى أن جميع الناس حواليه ينشدّون في مختلف الاتجاهات ، وأنه ليس هنالك من هدف وحيد لتوحيد الناس في قوة عنيدة متراصة . رغبت في الرحيل عنهم والانطلاق على الجليد وحيداً .

وثب أوسيب على قدميه كمن استيقظ من توّه ، واختطف قبعته ، واتخذ سمته ناحية البلدة ، قائلاً في نبرة بسيطة هادئة لكن آمرة :

– هيا ، يا شباب ، وليكن الله نصيرنا . . .

استوضح ساشوك ، وهو يقفز على قدميه :

– الى البلدة ؟

أعلن الجندي في قناعة دون أن يأتي حركة :

– سوف نغرق !

– إبقَ هنا . . . إذن .

وأجال أوسيب نظرة على الجميع ، وصاح :

– هيا تحركوا ، يا شباب ، وأسرعوا !

نهضوا جميعاً واحتشدوا . وشرع بوييف يشكـــو ، وهو يرتب عدته في السلة :

– هو يقول «اذهبوا !» ، والذهاب هو ما يتعين علينـا أن نفعل ! فليأذن ، هذا الذي يصدر الأوامر ، التبعة عـــلى عاتقه . . .

بدا أوسيب وكأنه ازداد فتوة وقوة : امحى سيمـــاء التثعلب المتملق عن وجهه المتورد ، وظهرت عيناه أكثـــر قتامة وصرامة وجداً ، واختفت مشيته الكسلى المتوانيـــة أيضاً . . . وغدت خطوته ثابتة واثقة .

– سيحمل كل رجل لوحاً من الخشب يوازن به جسده ، في حال ما إذا – لا سمح الله بذلك – سقط أحدهم ، فإن طرفي اللوح سيقعان عـلى الجليـد ويقدمان له العـــون ! وللمساعدة في اجتياز الصدوع . . . حبال – هل هنالك شيء منها ؟ يا مواطني ، ناولني قضيب القياس . . . أمتأهبون أنتم ؟ حسناً – سأمضى في الطليعة ، ويمضي ورائي – من هو أكثر وزنا ؟ أنت أيها الجندي ! ومن بعد – موكـــي ، والموردوفي ، وبوييف ، وميشوك ، وساشوك . ومكسيمتش هو الأخف وزنا ، وفي مقدوره أن يأتي وراءنا . . . انزعوا قبعاتكم ، وارفعوا صلواتكم للعذراء القديسة ! وهـــا هي الشمس الطيبة قد ظهرت لملاقاتنا . . .

دفعة واحدة تعرت الرؤوس الشعثاء الشيباء والشقراء ، وشعت الشمس عليها عبر سحابة لطيفة بيضـــــاء ، ثـم خبأت نفسها مرة أخرى كمن ليست لديها رغبة فى إثارة آمال كاذبة .

قال أوسيب في صوت جاف منتعش :
– هيا بنا الآن ، وليكن الله نصيرنا ! راقبوا خطواتي ، ولا تحتشدوا وراء بعضكم بعضاً ، بل اتركوا بين الواحد والآخر مسافة مترين تقريباً ، وكلما بعدت المسافة كان ذلك أفضل ! هيا بنا ، يا صغاري !

دسّ أوسيب قبعته في معطفه ، وحمل قضيب القياس في إحدى يديه ، وانزلق في حذر على الجليد في تثاقل محترس متأن ، وسرعان ما انطلقت على الضفة وراءنا صيحة يائسة :
– أين تظنون أنكم ذاهبون ، أيها الحمقى الدمويون ؟ . . .

أمر قائدنا في نبرات رنانة :
– تابعوا المسير ، ولا تنظروا الى الوراء !
– ارجعوا أدراجكم ، أيها الشياطين . . .
– هيا بنا ، يا شباب ، واذكروا الرب ! فنحن الذين لن ندعى الى الاحتفال . . .

ورنت صفارة شرطي ، فزمجر الجندي في صوت عال :
– أبطال ، هذا ما نحن عليه ، اللعنة على جلودنا . . . لقد أقحمنا انفسنا في شيء مهم هذه المرة ! سيحذّرون الآونة الشرطة على الضفة الأخرى . . . فإذا لم نغرق ، فسنكون طعاماً للبق في الزنزانات . . . أنا لا اتحمل المسؤولية . . .

قاد صوت أوسيب الفرح الرجال وراءه كما لو كانوا قافلة واحدة .
– انتبهوا الى خطواتكم الآن ! واخفضوا عيونكم على الدوام !

كنا نخطو بصورة منحرفة ضد التيار ، فيما أنا ، الأخير في القافلة ، أرى كيف راح أوسيب الصغير الأنيق ، برأسه الأبيض الشبيه بالأرنب ، ينزلق على الجليد ، وهو لا يكاد يرفع قدميه البتة . ووراءه ، في رتل واحد ، تسير ستة أشكال سوداء كأنما ينظمها خيط غير مرئي ، في خطوات مقلقلة ، تطير أخيلتها أحياناً عن جانبيها وتستلقي تحت أقدامها ثم تنبسط ممدودة على الجليد . وكانت الرؤوس جميعاً منخفضة فكأن الرجال يهبطون من قمة جبل ترعبهم الخشية من أن أي خطوة خاطئة قد تؤدي بهم الى السقوط .

من الوراء كانت تدف صيحات أشد ارتفاعاً — ليبدونّ أن حشداً عظيماً من الناس اجتمع هنالك . ولم يعد في مقدور المرء أن يميز الكلمات ، لكن زمجرة مزعجة تصافح الآذان بكل وضوح .

وما أسرع أن غدا هذا التقدم الحذر بالنسبة إليّ تدريباً آلياً مضجراً . كنت قد ألفت السير في خطوات سريعة ، وها أنا الآن أحس نفسي تغرق في تلك الحال بين النوم واليقظة حين يغدو الذهن خاوياً ، وتكفّ أنت عن التفكير بنفسك ، وتبدو وكأنك تعيش خارج إطارك النفسي ، ومع هذا فأنت ، في الوقت ذاته ، ترى وتسمع كل شيء بوضوحٍ وتميزٍ غريبين . تحت قدمي ينبسط الجليد الرصاصي الأزرق الشاحب ، وقد تأكلته المياه ، ولمعانه المبعثر يعمي الأبصار . وهنا وهنالك يتحطم الجليد ، فيرتفع في تحدبات ، ويتجزأ في قطع صغيرة بفعل حركة النهر ، ويسترخى في أكوام نفيذة كحجر الخفان وحادة كالزجاج المكسور . وكانت شقوق

زرقاء ، تكشّر في برودة ، تتوالى تحت أقدامنا . ونعال أحذيتنا العريضة تطرطش صعوداً ، وهبوطاً ، وأصوات بوييـف والجندي لا يكفّ لها ضجيج – كانا أشبه بمزمارين مزدوجين تنفخ فيهما شفتان وحيدتان .

– لن آخذ على نفسي أية تبعة . . .

– ولا أنا . . .

– المرء الذي يتخذ القرارات لا يفترض أن يكون صاحب دماغ . . .

– أتحسب أن الأدمغة هي التي توصل الناس الى أي مكان في هذه البلاد ؟ من يوصلهم هو الفم الأكثر صراخاً .

كان أوسيب قد دسّ طرف معطفه المصنوع من جلد الخراف تحت حزامه ، وراحت ساقاه بسروالهما الرمادى المصنوع من قماش ملابس الجنود تدوسان بخفة وليونة فكأنه يسير على نوابض . كان يخطو كمن رأى وحده شخصاً يدوم حول نفسه أمامه ، ويقف في طريقه معترضاً بحيث يمنعه من المضي قدماً على أقصر طريق ، بينا هو ، أوسيب ، يناضل ضده ، ويحاول أن يلتف عن طريقه لينزلق بعيداً عنه ، فيميل مرة ناحية اليمين ومرة ناحية اليسار ، ويستدير أحياناً بحدة ويرجع من الطريق التي جاء منها ، وهو لا يبرح يراقص على الدوام ، فيجتاز انعطافات وأنصاف دورات على الجليد . ورنّ صوته فى لحن مطرد ، وكان يبعث على الغبطة أن يسمع المرء روعة اختلاط هذا الصوت بجلجلة الأجراس . . .

كنا نقترب من مركز الثمانيمائة ياردة ، أو ما يقاربها ،

التي تشكل قطعة الجليد حين دفتّ من أعلى النهــر قرقعــة وهمسات فجائية تنذر بالخطر . وفي اللحظة ذاتها طاف الجليد سابحاً من تحتي ، فترنّحت ، وفشلــت في الاحتفاظ بوقوفي على قدميّ ، فهويــت عــلى احــدى ركبتى في ذهــــول . وعلى الفور ، في اللحظة التي رفعت فيها نظري الى أعلى النهر ، تملكنى الخوف وضغط على عنقي ، وخنق صوتي ، وأظلــم عينيّ - هذه قشرة الجليد العظيمــة تدب فيهــــا الحياة ، فتتقوس في أكمات ، بينا انبثقت من السطح الأملس زوايــا حادة ، وفرقع في الهواء صخب انسحاق غريب - فكأن أحدهم يخطو في جزمة ثقيلة فوق زجاج مكسور .

وراح الماء يتسرب عن جانبيّ في صوت صافر ساكن ، وقرقعت شجرة مطلقة صرخة تشبه صوت كائن حي ، وهبَّ الرجال يتصايحون ، ويتراصون ، في حين رنّ صوت أوسيــب مثل جرس وسط هذا الضجيج المرعب المكتوم :

- تفرقوا . . . ابتعدوا عن بعضكم بعضــاً - ابقوا متباعدين ، أيها الصبيان . . . إنه ينطلق ، ينطلق ! عجلوا الآن ، يا شباب ! هذا هو ينطلق . . .

وراح يتواثب في المقدمة كأن زنبوراً يلاحقــه ، متشبثاً بقضيب القياس الذي يبلغ طوله ياردتين مثل بندقيــة ، وينخس الجليد المحدق به كمن يصارع عدواً ، بينا سبحت البلدة أمامه مرتجفة . وشرع الجليد تحت قدمي يقعقع عــلى الفور ، متكسراً الى قطع صغيرة ، وجعلت المياه تفيض فوق عقبيّ ، فقفزت واندفعت كالأعمى ناحية أوسيب .

صرخ ، وهو يهددني بقضيب القياس :

– أين تحسب أنك تسير ؟ إرجع ، أيها الشيطان !

بدا أن أوسيب لم يعد أوسيب على الاطلاق – فقد ازداد وجهه فتوة ، وامحى كل ما كان مألوفاً فيه ، وغدت عيناه الزرقاوان رماديتين وتراءى أنه ازداد نصف متر طولاً . استقام مثل مسمار جديد ، وانضغطت ساقاه على بعضهما بعضاً ، وانتصب جسده صعداً ، وصاح وقد فتح فمه عن آخره :

– لا تتحركوا كيفما كان ، لا تحتشدوا سوية . . . سأحطمنّ أعناقكم !

ومرة أخرى جعل يتوعدني بقضيب القياس :

– أين تحسب أنك تسير ؟

قلت بصوت خافت :

– سوف نغرق .

– صه ! هذا يكفي . . .

وتطلع من فوقي ، وأضاف في صوت أكثر لطفاً وهدوءاً :

– أي أحمق يمكن أن يغرق ، ولكن القضية في ان تخرج . . . هيا !

ومرة اخرى رنّ صوته متساوقاً ، مرسلاً كلمات تشجيعية من حيث انتصب وقد ألقى رأسه الى الوراء ونفخ صدره .

قرقع الجليد قليلاً وانسحق ، متحطماً على مهل إلى قطع متصاغرة وهو يجتاز البلدة . واستيقظت قوة جبارة في الأرض وجعلت توسع الضفة . وكان جزء منها – إلى الوراء حيث كنا نحن – لا يبرح راسخ الأركان ، في حين أن الجزء الذي يقابلنا

لا يني يسبح مع التيار وما أسرع أن تتحطم الأرض ارباً .

تلك الحركة التدريجية المرعبة امتصت منا كل احساسنا بأننا من أهل الأرض الصلدة الجافة : فكل شيء يزول ، يمزق القلب ويضعف الساقين . وفي السماء شرعت غيمات حمر تسبح متباطئة ، والجليد المتكسر يعكس ضوءها فيتورد لونه كما لو أن هذا التورد مرده الجهد الذي يبذله للنيل مني . ودبّت الحياة في أرجاء الأرض الوسيعة من جراء ولادة الربيع ، فأخذت تتمدّد ، مقوسة صدرها الأشعث الريان ، وعظامها تقرقع ، والنهر غدا مثل وريد زاخر بدماء كثيفة تغلي في جسد الأرض الجبّار .

موهناً للعزيمة كان ذلك الإحساس المخزي من التفاهة والضعف في خضم تلك الحركة الهادئة المستفحلة . واحترق ذلك الخزي في داخلي وتلظى في حلم جريء : أن أمدّ احدى يديّ ، وأضعها بقوة على التلة ، وعلى ضفة النهر ، وأن أقول :

– اثبتا ، وانتظرا ، فأنا قادم !

كان نحاس الأجراس المصدي يتنفس في اكتئاب ، ولكنني تذكرت أنه في خلال أربع وعشرين ساعة ، في منتصف الليل ، سيتبدل هذا القرع إلى أنغام من البهجة والسرور ، معلناً عن بعث المسيح !

وأردت أن أحيا لأسمع ذلك اللحن ! . . .

. . . سبعة أشكال سوداء تتأرجح أمام عينيّ ، متواثبة على الجليد . كانت تماوج الألواح الخشبية التي تحملها وكأنها تجذف في الهواء ، وإلى الأمام منها ، مثل سراب ، يتراقص رجل

عجوز صغير يشبه نيكولا صانع العجائب ، وصوته الآمر لا يكفُّ عن الحديث :

– انتبهوا ! . . .

وغدا النهر خشناً ، تنحني عظام ظهره الحية وترتجف تحت أقدامنا مثل ذلك الحوت في حكاية الحصان الأحدب الصغير * ، وجسد النهر السائل يطرطش ويطرطش من تحت مخبئه الجليدي – ومياه منتفخة باردة تلمس سيقان الرجال في نهم .

كان الرجال يجتازون جسراً خشبياً ضيقاً فوق صدع عميق . وخلق ارتطام المياه الإكراهي الهادىء شعوراً بأعماق لا يسبر غورها ، وولّد أفكاراً عن كيف يغرق الجسد في بطء وبشكل لانهائي في ذلك الخضم البارد المتصادم ، وكيف أنه يعمي العيون ويخنق القلب . أنه يستحضر صور الرجال الغرقى ، والجماجم الراشحة ، والوجوه المنتفخة بعيونها الزجاجية المحملقة ، والأصابع المبسوطة والايدي المتورمة ، والجلد الذي تندى وتغضن على راحات اليدين مثل أسمال عتيقة . . .

كان موكي بوديرين أول من هوى تحت الجليد . كان يسير قبل الموردوفي ، صامتاً مثله أبداً ، يكاد ان يكون لا مبالياً ، وأكثر هدوءاً من أي منا ، حين اختفى ، على غير انتظار ، وكأن شيئاً شدّه من ساقيه . ولم يبق فوق الجليد غير رأسه وكتفيه ، وذراعاه تتشبثان باللوح الخشبي .

---

* حكاية شعرية بقلم ب . يرشوف (١٨١٥–١٨٦٩) كتبت على غرار الاساطير الشعبية . **المترجم** .

صرخ أوسيب : – النج . . . دة ! لا تتجمعوا جميعاً ، فليأت واحد أو اثنان منكم – النجدة !

لكن موكي هتف بي وبالموردوفي ، وهو يشخر ويبصق :

– لا تتحركا ، يا صديقيَّ . . . سأتدبر أمري . . . لا بأس . .

وعقّب قائلاً ، وهو يتسلق الجليد وينفض نفسه :

– يا للجحيم ! المرء يغرق هنا حقاً ، كما تعلمون . . .

كانت أسنانه تصطك ، وهو يلمس شاربيه بلسانه فأشبه ، أكثر من أي وقت مضى ، كلباً ضخماً لطيف المعشر .

تذكرت على الفور كيف قطع ذروة إبهامه الأيسر بالفأس قبل شهر من الزمن ، فالتقط الجَدَعَةَ الشاحبة التي ازرقَّ ظفرها على الفور ، وألقى نظرة طويلة عليها من عينيه السوداوين الغامضتين ، وقال همساً في صوت مقتضب شاعر بالإثم :

– كم مرة أفسدت هذه الآفة المسكينة ، لست أعرف عددها . . . لقد انتزعت من مكانها على أية حال ، وهي لا تعمل كما ينبغي . . . لسوف أدفنها الآن . . .

ولفَّ ذروة إبهامه في عناية بقليل من النُجارة ووضعها في جيبه . وبعد ذلك ربط يده المجروحة .

أما ثاني رجل غطس في الماء فهو بوييف – بدا وكأنه غطس تحت الجليد بإرادته الخاصة ، وما أسرع أن أطلق على الفور صرخة هستيرية :

– هاي ، لتحفظنا السماء ، أنا أغرق حتى الموت ، يا إخواني ، أنجدوني . . .

هبّ يضرب بيديه من خوفه بحيث صعب العمل على إنقاذه . وكاد الموردوفي أن يفقد حياته في ذلك النضال ، فقد انغلقت المياه فوق رأسه .

قال ، وهو يتدافع في الجليد ويكشر في ارتباك ، وقد بدا أكثر غولاً وضموراً :

– يبدو أني تهيأت لصلاة الفصح في الدار الآخرة .

بعيد دقيقة سقط بوييف مرة أخرى ، ومرة أخرى هبّ يصيح .

صرخ أوسيب ، مهدداً إياه بقضيب القياس :

– لا تصرخ ، يا ياشكا ، أيها التيس العجوز الأحمق ! لسوف تثير الرعب في النفوس ! سألقنك درساً ! إنزعوا احزمتكم ، يا شباب ، واقلبوا جيوبكم ، فذلك يجعل الأمور أكثر سهولة . . .

بعيد كل عشر خطوات كانت أشداق عامرة بالأسنان تنفغر أمامنا وقد غسلها لعاب ضبابي ، في حين أمسكت بسيقاننا اسنان زرقاء . وبدا أن النهر عازم على ابتلاع الرجال مثلما تبتلع الافعى الضفادع الصغيرة . وجعلت أحذيتنا وثيابنا المبللة من العسير علينا أن نثب كما أثقلتنا كثيراً . كنا زلقين جميعاً كما لولحسنا أحد . . . فأخذنا نتحرك في ثقل وبطء وإذعان ، وقد سيطرت علينا الخراقة وران علينا الصمت .

وحده أوسيب بدا يعمل بمهارة في المقدمة حيث تظهر المهاوي في الجليد ، ويتواثب وقد بلله الماء مثلنا من طوف جليدي إلى طوف مثل الأرنب . وما أن يثب حتى يتوقف

برهة ويرجّع بصره إلى الوراء ، وينادي في صوت رنان :
– هاي ، أنتم هناك ، حاذروا أثناء خطوكم !
كان يلهو مع النهر : النهر يحاول الإمساك به أما هو ، الصغير الرشيق ، فينزلق أبداً من بين مخالبه ، ويضيّع عليه كل مناورة ، ويتفادى في خفة كل شرك فجائي . وقد بدا أنه ، هو نفسه ، من يوجه طوفان الجليد ، ويرفس ناحيتنا قطعاً ضخمة وطيدة الأركان من تحت قدميه .
– انطلقوا فوقها ، يا أبنائي ، ولا تخشوا شيئاً !
تمتم الموردوفي في حماسة مكتومة الأنفاس :
– فعلة طيبة ، أيها العم أوسيب ! هذا رجل رائع ! رجل حقيقي . . .
كنا كلما اقتربنا من الضفة يزداد الجليد انسحاقاً وتكسراً ، والرجال يتوالى سقوطهم فيه مراراً وتكراراً . كانت البلدة قد غدت وراءنا ، وسرعان ما سيحملنا النهر إلى الفولغا ، وهنالك يكفُّ الجليد عن الحركة ويحتجزنا تحته .
قال الموردوفي بصوت خافت ، وهو ينظر عن يساره إلى ضباب العشية الأزرق :
– لعلنا سنغرق آخر المطاف .
وعلى غير انتظار ، وكأن الرحمة حلّت علينا ، شدّت بقعة ضخمة من الجليد نفسها بقوة صوب الضفة ، وتسلقت الشاطئ ، وتحطمت وانسحقت ، وتوقفت هنالك !
صرخ أوسيب في نبرة مهتاجة :
– اررركضوا ! انجوا بأنفسكم !
قفز ، فانزلق ، وسقط ، وجلس على حافة قطعة

الجليد والماء يرزّز فوقه ، وتركنـــا نجتازه راكضين – خمسة منا ركضوا إلى الشاطئ يتدافعون ويتأثرون بعضهم بعضاً ، وتوقفت أنا والموردوفي وقد عقدنا العزم على مساعدة أوسيب .

– اركضا ، أيها الجروان ، أيها الحماران !

كان وجهه أزرق اللون يرتعش ، وعيناه مظلمتين ، وفمه مفغوراً بصورة غريبة .

– أنهض ، يا عماه . . .

فخفض رأسه .

– كسرت ساقي ، وأظنني . . . عاجزاً . . .

رفعناه وحملناه فراح يزمجر وأسنانه تصطك ، وقد لفّ ذراعاً حول عنق كل منا .

– لسوف تغرقان ، أيها الشيطانان . حسنـــاً ، شكراً للمولى ، لأبينا . لم يسمح بذلك . . . حذار ، فهي لن تحمل ثلاثة منا ، فلتكن خطواتكما على حذر ! اختارا الأمكنة التي تحرر فيها الجليد من الثلج ، فهي تكون أكثر ثباتاً . . . كان ينبغي ان تتركاني وشأني ! . . .

تطلع في وجهي ، وعيناه متغضنتان في زاويتيهمـــا ، واستوضح :

– وسجل خطايانا . . . هل ابتلّ الآن ، ولا فائدة منه على الإطلاق ، أليس كذلك ؟

وبينا نحن نهبط عن قطعة الجليد التي علـت الشاطىء وحطمت بعض القوارب في طريقها ، قرقع الجزء المتبقى منها في

الماء مرسلاً صوتاً عالياً ، تأرجح وغطس ، وانقذف سائراً مع التيار .

قال الموردوفي مستحسناً :

- أنظروا إلى ذلك ! لقد عرف النهر ما نحن في حاجة اليه !

هؤلاء نحن الآونة ، مجمدين برداً لكن ارواحنا عالية ، على الضفة بين حشد من السكان المحليين . وكان بوييف والجندي منهمكين معهم في نقاش قارص . وضعنا أوسيب على بعض الالواح الخشبية . فأرعد جذلان :

- هاي ، أيها الأولاد ، هذه نهاية الكتاب ، فقد أفسده البلل .

كنت أحس ذلك الكتاب وكأنه قرميدة تحت معطفي ، فأخرجته خفية ، وقذفته بعيداً ناحية النهر ، فغطس في المياه السوداء مثل ضفدعة .

وانطلق الأخوان دياتلوف يرقيان في الهضبة قاصدين الحانة للحصول على الفودكا ، يتضاربان بقبضتيهما وهما يركضان ويزعقان :

- إليك هـ . . . ذه !

- انتظر . . . ني !

همسَ شيخ له لحية حواري وعينا لص في أذني في نبرة مفعمة ثقة :

- لإزعاجكم الناس الطيبين ، أيها الهراطقة ، تستحقون جلدة طيبة . . .

هتف بوييف ، وكان يبدل حذاءه :

– كيف ترانا أزعجناكم ؟

وزمجر الجندي في صوت لم نألف خشونته :

– أناس مسيحيون يغرقون أمام عيونكم ، فماذا فعلتم لنجدتهم ؟

– حسناً ، ماذا كان يمكن أن نفعل ؟

استلقى أوسيب على الأرض ، وقد مدّ ساقيه أمامه ، وهو يتحسس ما عليه من جلد خروف بيدين مرتعشتين ، ويشكو في هدوء :

– آه ، يا للجحيم ، تبلل كل شيء . . . وبلليت ثيابي كلها . . . يمرّ على ارتدائي لها عام واحد !

كان قد تضاءل وتغضن فكأنه يذوب أمام عيوننا فيما هو مضطجع هنالك على الأرض .

أنهض نفسه فجأة على مرفقه ، وبذل جهداً ليتخذ وضع الجلوس ، وزفر ، وصرخ في صوت غاضب رنان :

– ماذا حشر الشيطان في نفوسكم ، أيها الحمقى ؟ . . . اردتم أن تستحموا وتذهبوا إلى الكنيسة ، يا لكم ! أيها النوتيون الشياطين ! . . . لسوف تنتهون جميعاً إلى خاتمة سيئة . . . لكأن المسيح يعجز عن الاحتفال ببعثه من دونكم . . كان يمكن أن تهلكوا . . . لقد أفسدتم ثيابكم جميعاً ، صوّحتكم الريح ! . . .

كنا نبدل أحذيتنا ، ونعصر ثيابنا ، ونتنفس في وهن ، ونزمجر ، ونتبادل كلمات مرحة مع الرجال من هاتيك الضواحي ، ولكنه استرسل يسلقنا بصوته الغاضب :

– ومن بعد ماذا أدخلوا في رؤوسهم ، أولئك الحمقى الدمويون ؟ إنهم يريدون الاستحمام . . . هؤلاء أنتم ، وما تريدونه حقاً هو ان تنطلق الشرطة فى أعقابكم ، وأفرادها يقدمون لكم حماماتكم . . .

قال احد الواقفين في صوت ملطف :

– لقد أرسلوا في طلب الشرطة . . .

صاح بوييف بأوسيب :

– ما هي لعبتك ؟ ما الذي تبغيه ؟

– أنا ؟

– أنت !

– رويدك برهة ! ماذا تقصد ؟

– من دفع الرجال إلى العبور ، من ؟

– من ؟

– أنت !

– أنا ؟

انعصر وجه أوسيب وكأنما تعرض لنوبة تشنجية ، وكرّر في صوت محطم :

– أ ن . . . نا ؟

فأعلن بوديرين في هدوء ووضوح :

– أنت محق هنالك .

ودعمه الموردوفي في هدوء واسىً :

– بلى ، أيها العم أوسيب ، أنت فعلت ذلك ، حقاً أنت فعلت ذلك ! . . . لقد نسيت . . .

وتجشأ الجندي في نبرة آمرة قاسية :

– لا ريبة أنك الشخص الذي بدأ ذلك كله .
وصاح بوييف في حنق :
– لقد نسد . . يَ ! كيف يتأتـــى له أن ينسى ! أوه أبداً ! إنه يحاول أن يلقي التبعة على سواه ! إنه راغب في ذلك !
جنح أوسيب إلى الصمت ، وضيّق عينيه ، والقى نظرة على الرجال المبللين نصف العراة . . .
وهزّ من بعد كتفيه ، وقد حبس انفاسه قليلاً – من الضحك او البكاء – وبسط يديه وشرع يغمغم :
– هذا ما فعلت . . . هذا صحيح تماماً . . . هذا ما كان . . . تلك هي فكرتي . من كان يخطر له ذلك في بال !
هتف الجندي في صوت منتصر :
– إنه أشبه بذلك حقاً !
ألقى أوسيب نظرة على النهر ، وكان يفور مثل عصيدة من الدخن تغلي ، واستمر يغضن وجهه ويتهرب من أنظارنا في شيء من الإثم :
– لقد كان ذلك فقداناً مفاجئاً للوعي . . . آه ، يـــا إلهي ، يا إلهي ! وكيف حصل أننا لم نغرق ؟ أنا لا أفهـــم ذلك . . . شكراً لله ، شكراً لله ! . . . يا شباب . . . أنتم ، لا تغضبوا ، إنه عيد الفصح ، رغـــم كل شيء . . . أرجوكم ان تصفحوا عني ! . . . لا ريب أن ثمة شيئا انزلق من ذهني ، فيما يلوح لي . . . هذا صحيح ! لقد دفعت بكم إلى ذلك . . . أنا الشيخ الأبله . . .
استوضح بوييف :

- آها ؟ ولو كنتُ غرقتُ ، فماذا كنت تقول إذن ؟

هُيِّـــئ لي أن أوسيب انهزم تماماً من جراء جنون وعـــدم ضرورة العمل الذي أقدم عليه - كان جالســـاً على الارض زلقاً ، فكأن أحدهم لحسه مثلما يلحس العجل الوليد ، يهزُّ رأسه ، ويدفع يديه خلال الرمال تحته ، ويجمجم كلمـــات الصبر ، ولا يرفع بصره إلى أي منا .

راقبته ، وتساءلت عما أصاب قائد الرجال المناضل ، ذلك الذي قادنا ، وقد انطلق في مقدمتنا ، بكل رعاية ومهارة وسلطة آمرة .

عجت روحي بفراغ لا يبعث على الارتياح ، فتقرفصت إلى جانب أوسيب ، وخاطبته في عذوبـــة وفي نيتي أن أصون شيئاً :

- لا تبال ، أيها العم أوسيب . . .

شزرني بنظره ، وأمرّ اصابعه في لحيته ، واجاب في صوت هادئ :

- هل رأيت مثل هذا ؟ هؤلاء أنتم . . .

وجعل ينوح من جديد على نحو يسمعه الجميع :

- يا لهذا الذي حدث . . . أليس كذلك ؟

. . . فوق ذروة التلة ، على ظلال السماء التي أقتمت ، هبت أجمة سوداء من الأشجار ، وربضت التلة فوق النهر مثل حيوان ضخم الجثة . وظهرت ظلال العشية الزرقاء ، بارزة من وراء سقوف المنازل ، متشبثة بجسد التلة الأسود مثـــل كدمات ، مفعمة النظر من الاشداق الرطبـــة الحمراء للوادي

الطيني الذي انفتــح على النهر كمن ينحني على الماء ليعبّ منه .

وتفاقمت ظلمة النهر ، وازدادت همسات الجليد وتحطمه انخماداً واطراداً ، في حين كانت قطعة من الجليد تطعن الشاطىء احياناً مثل فنطيسة خنزير تنقب في الأرض ، وتجمد برهــة من الزمن دون حراك ، وتهتز ، وتشد نفسها منفصلـــة ، وتسبح مع التيار كيما تحلُّ أخرى محلها .

كانت المياه ترتفع في سرعة ، ترش الضفتين ، وتغسل الأقذار – وتذوب هذه الأقذار مثل دخان فاحم فى الانتفاضة الزرقاء للمياه . وكان الهواء مشبعاً بصوت غريب ، يطحن بأسنانه ويبلع ، فكأن حيواناً ضخماً يلتهم شيئاً ويمسح شفتيه بلسان طويل .

وسبح من البلدة الرنين الحزين الحلو للأجراس ، يلطفه البعد المترامي .

ومن قمة التلـــة راح الأخوان دياتلوف ، مثــل جرويــن صاخبين ، ينحدران حاملين زجاجات في ايديهما ، وجاء عبر طريقهما – الموازي لضفـــة النهر – ضابط شرطة أشيب ونفران أسودان .

زمجر أوسيب ، وهو يمسد ركبته في لطف :

– آه ، يا رب !

تراجع المتفرجون إلى الوراء قليلاً لدى رؤويتهم رجال الشرطة ، وخيم صمت مترقّب ، واقترب الضابط ، وهو رجل قصير ذابل العود ، له وجه صغير وشاربان بنيان مدببان ، اقترب منا وقال في صرامة في صوت جهير خشن متكلف :

– وهكذا كنتم أنتم ، أيها الشياطين . . .

استلقى أوسيب على ظهره من جديد ، وانثال يتحدث في نبرات مستعجلة :

– كنت أنا ، يا صاحب السعادة ، أنا من استحثهم على ذلك ! غفرانك ، محبة بهذا العيد المبارك ، يا صاحب السعادة . . .

شرع الضابط يقول في صوت عال . . .

– ماذا أصابك ، أيها الشيطان العجوز . . .

لكن صيحته تبددت ، غارقة في فيضان سريع من كلمات لطيفة حلوة :

– بيوتنا هنا ، في البلدة . وعلى الضفة هنالك ليس ثمة ما نفعله ، كما أننا لم نكن نملك دراهم لشراء الخبز ، وبعد غد ، يا صاحب السعادة ، هو أحد الفصح – ونحن في حاجة إلى حمام ، ونحن راغبون في حضور القداس في الكنيسة ، باعتبارنا مسيحيين ، وهكذا قلت : انهضوا وسيروا ، يا شباب ، إذا كانت تلك هي مشيئة المولى – لم يكن الأمر كما لو كنا سنرتكب خطأ . ولقد قاسيت ، فعلاً ، من تهوري وطيشي – أنظر – لقد سحقت ساقي المسكينة فتاتاً !

– أجل ! وماذا لو كنتم غرقتم ، ماذا كان يحدث عندئذ ؟

أطلق أوسيب زفرة عميقة موهنة :

– ماذا كان يحدث ، يا صاحب السعادة ؟ لا شيء ، إن كنت تعذرني على هذا التعبير . . .

سبَّنا رجل الشرطة ، فألقينا إليه أسماعنا في صمت وانتباه ، كما لو أن ذلك الرجل لم يكن يهين أمهاتنا بصورة

بذيئة ساخرة ، بل يحدثنا في موضوع له شأنه وينبغي ان نكتنزه في قلوبنا .

وبعد أن سجل اسماءنا تركنا ورحل . وشرعنا نحن ، وقد أنعشتنا الفودكا وأدفأتنا ، نتهيأ للذهاب كل إلى بيته . ألقى أوسيب نظرة مكشرة على رجال الشرطـة المبتعديـن ، ونهض على قدميه فجأة ، وبسهولة تامـــة ، ورسم إشارة الصليب على صدره في حمية :

– وهذه هي نهاية القصة ، فليكن اسم الرب ممجداً !

ورن صوت بوييف الثاقب مذهولاً خائباً :

– وهكذا ، وهكذا فإن ساقك – كانت سليمة ؟ أنت لم تكسرها إذن ؟

– وهل كنت تتمنى لو كسرتها ؟

– آه ، أيها الكوميدي ! أنت مهرج بائس . . .

أمر أوسيب ، وهو يدفع قبعتـــه الرطبـــة إلى مؤخرة رأسه :

– هيا بنا ، يا شباب !

. . . مشيت إلى جانبه وراء الآخرين جميعاً . كان يخاطبني في هدوء ، ووداد ، فكأنه يطلعني على سر لا يعرفه أحـــد سواه :

– ومهما فعلت ، ومهما بذلت من جهـــد ، حسناً . . . دونما مكر ، ودونما خداع ، فإن من المستحيل أن تعيش . الحياة هكذا ، متعفنة . . . رائع أن تصعد إلى القمة ، لكن الشيطان يتشبث على الدوام بعقبي الإنسان . . .

هبط الليـــل . وراحت أضواء حمراء وصفراء تتراقص

بصورة مغرية في الظلمة وكانما تقول :

– تعال إلى هنا .

كنا نسير في اتجاه موسيقى الأجراس على التلة ، وكانت هنالك جداول تخرخر تحت أقدامنا ، وصوت أوسيب العذب يختلط بخرخرتها .

– لقد سخرت بالشرطي بصورة رائعة ، ألم أفعل ذلك ؟ هكذا يجب أن تحلّ الامور – على ألا يفهم المرء شيئاً ، ويحسب كل واحد أنه ملك الفهم ،بلى . . . فليظنن كل امرئٍ أن ذهنه وحده هو الذي يرسم الأحداث . . .

أرهفت سمعي الى ما كان يقول ، ولم أفهم منه شيئاً كثيراً . ولكننى لم أكن أرغب ان افهم هذا ، فقد كان فؤادي هانئاً ، وذهني خالياً . لم أعرف إن كنت أحببت أوسيب أم لا ، ولكنني أعرف انني على اهبة اللحاق به إلى كل مكان ، إلى أي مكان نجد ضرورة للذهاب اليه – حتى ولو رجعنا أدراجنا على النهر حيث ينزلق الجليد تحت أقدامنا .

كانت الأجراس ترن وتصدح ، وكان من الروعة أن تفكر :

– كم مرة أخرى سأوجد هنا للترحيب بقدوم الربيع !

أعلن أوسيب متنهدا :

– لكن روح الإنسان – فللروح جناحان – تطير عندما يستغرق في النوم . . .

جناحان ؟ يا للروعة !

١٩١٢

الاحازين الغليظة

في ليلة صيفية خانقـــة ، في شارع منفرد في ضاحيـــة المدينة ، كنت شاهداً على منظر غريب : امرأة واقفة في وسط بركة ماء موحلة عريضة ، تضرب بقدميها الأرض وتناثر الطين حواليها على ما يفعل الأولاد – تضرب الأرض وتطلق حنجرتها بأغنية فاجرة في صوت أخنّ .

كانت عاصفة رعدية جبارة قد انزلقت فوق المدينة خلال النهار ، فأغرق تهطال المطر الوافر تربة الشارع الصلصالية . والبركة عميقة ، غرقت ساقا المرأة فيها الى الركبتين تقريباً . والمغنية سكرى على ما يستدلُ من صوتها ، فإذا أتعبهـــا الرقص فقد تسقط في الوحل ، ولا ريبة في أنه يخنقها على الفور .

شددتُ ذروتي جزمتي الطويلة وفى البركـة خوّضـت ، وأخذتُ الراقصة من ذراعيها ، وجررتهـــا الى حيث الأرض جافة . بدا للوهلة الأولى ان الذعر شلّ حركتها لأنها تبعتني في طواعية ، ولكنها لم تلبث أن حررت ذراعها اليمنى من يدي بانتفاضة من جسدها كله ، وضربتني في صدري ، وزعقت :

– النجدة !

وما أسرع أن رجعت أدراجها إلى البركة ، وقد جرتني معها .

زمزمت قائلة : – لتذهبنّ إلى جهنم ! انا لن اذهـــب ! سأحيا من دونك . . . حاول أنت أن تعيش من دوني . . . إليّ ، النجدة !

انبثق من قلب الظلمة خفير ليلي ، وقف على مبعدة خمس خطوات منا ، وقال في خشونة :

– فيمَ تشتجران ؟

اخبرته أني خشيت أن تغرق المرأة في الوحل ، وأني كنت أبذل جهدي في اخراجها . ألقى الخفير نظرة مركّزة على المرأة الثملى ، وبصق بصقة تردّدت لها رنةٌ ، وأمر :

– ماشكا ، هيا اخرجي !

– لا أريد !

– أخرجي ، أقول لك !

– لن أخرج .

قال الخفير في نبرة لطيفة :

– أتودين أن أجلدك جلدة طيبة ، أيتها اللعينة ؟

والتفت إليّ ، وأضاف في وداد وأُنس :

– إنها من أهل الحيّ ، جامعة خرق ، واسمها ماشكا فروليخا . هل معك دخينة ؟

أشعلنا دخينتين . خوّضت المرأة في البركة ، وهي تصيح :

– معلمون ! أنا معلمة نفسي . ان طاب لي ، فلسوف أغطس . . .

حذّرها الخفير ، وهو شيخ ملتح متين البنيان :

– سأعطها ضربةً تحت ظهرها ! إنها تثير مثل هذه الفضيحة في كل ليلة مباركة . ولديها في البيت ابن مقعد . . .

– هل تعيش بعيداً عن هذا المكان ؟

قال الخفير ، دون أن يعطيني جواباً :

- يحسن أن تموت قتلاً .

فاقترحتُ قائلاً :

- يحسن أن ينقلها أحد الى بيتها .

شخر الخفير في لحيته ، وأطال النظر في وجهي على ضوء دخينته ، ومشى مبتعداً وهو يدوس الوحل بخطوات ثقيلة :

- خذها ! لكن ، ألق نظرة جيدة على وجهها أولاً .

جلست المرأة في الوحل ، وهبت تجرجر فيه ذراعيها ، وتصرخ في صوت أخن مخيف :

- كالتجذيف . . . في عباب البحر . . .

من الكوة السوداء للسماء انعكست نجمة كبيرة في الماء الزيتي القذر . وحين غطت التموجات البركة اختفى ذلك الانعكاس . خوّضتُ في البركة مرة أخرى ، وأمسكت المغنية من تحت إبطيها ، ورفعتها ، ودفعتها الى السير أمامي بركبتيّ ، وأخرجتها إلى ناحية السياج . قاومتني ، ولوّحت بذراعيها ، وتحدّت صارخة :

- اضربني ، هيا ، اضربني ! من يبالي ! أوه ، يا حيوان . . . أوه ، يا طاغية . هيا ، اضربني !

اسندتها إلى السياج ، واستوضحتها أين تعيش . رفعت رأسها السكران ، وشخصت اليّ بعينيها العمشاوين الداكنتين . فرأيت جسر أنفها غائراً ، وقد برز ما تبقى منه منفتلاً الى الأعلى مثل الزر ، وشفتها العليا المشدودة بندبة تكشف عن صف من أسنان صغيرة ، وعلى وجهها الصغير المنتفخ ترتسم ابتسامة منفرة . قالت :

- حسن . هيا بنا .

انطلقنا مرتطمين بالسياج ، وذيل تنورتها المبلل يسوط ساقيّ .

نبرت في صوت خشن ، وقد تراءى أنهـــا تصحو من سكرتها :

– هيا بنا ، يا عزيزى . سأكون لطيفة معك . وأعطيك السلوى .

قادتني إلى منزل كبير من طابقين ينهض في ساحـــة . وشقت طريقها في حذر ، كالعمياء ، بين عربات ، وبراميل ، وصناديق ، وأكوام حطب مبعثرة في الساحة ، وتوقفت أمام حفرة في أساس ذلك المنزل . قالت :

– إنزل .

استندت إلى الجدار اللزج ، ولففت ذراعي حـول خصر المرأة أسند جسدها المترنّح ، ونزلت على الدرجات الزلقة . وتلمست فعثرت على الغطاء اللبادي ومقبض الباب ، وفتحته ووقفت عند وصيد حفرة قاتمة ، متردداً في الدخول .

سبح من الظلمة صوت مهموس :

– أماه ، أهذا أنت ؟

– أنا .

صفعت وجهي رائحة عفونـــة دافئة مختلطة بقطران . واشتعل عود ثقاب ، فلمحت على وجهه الرقيق ، لثانيـــة واحدة ، طلعة طفولية شاحبة .

كررت المرأة قائلة ، وقد استندت بثقلها عليّ :

– من يمكن أن يكون ؟ أنا !

واشتعل عود ثقاب آخر ، وأصدى رنين زجاج ، وأشعلت يد عجفاء مضحكة مصباحاً صغيراً معدنيا .

قالت المرأة ، مترنّحة ، وقد تهاوت فى ركن الغرفة :

– يا سلوتي .

كان في الركن سرير عريض أُعِدَّ كيفما اتفق لا يكاد ينهض عن الأرض القرميدية .

أدار الطفل فتيلة المصباح ، وهو يراقب اللهب المنبعث منه ، وكانت قد اشتعلت وجعلت ترسل دخاناً . كان له وجه رزين ، مدبب الأنف ، شفتاه الممتلئتان مثل شفتي فتاة – وجه رسمته ريشة صَنَاع ، يتناقض التناقض كله مع هذه الحفرة الرطبة المظلمة . وبعدما احكم ضوء المصباح رماني بنظرة من عينين شعثاوين ، واستفهم :

– هي سكرى ؟

اضطجعت أمه على السرير ، ناشجة شاخرة .

قلت :

– يجب أن نخلع ثيابها .

أجاب الصبي ، وهو يخفض بصره :

– إخلعها .

حينما شرعت أسحب تنورة المرأة المبللة سألني في صوت خفيض وقور :

– هل أطفىء المصباح ؟

– لماذا ؟

لم يعطني جواباً . جعلت أراقبه وأنا مشغول بأمه ، أمسكها كما يمسك المرء كيساً من الطحين . كان يجلس في

صندوق على الأرض تحت النافذة . وكان الصندوق مصنوعاً من ألواح خشبية سميكة كُتِبَ عليها بأحرف طباعية سوداء :

احترس
ن . ر . وشركاه

كانت حافة النافذة المربعة في مستوى كتف الطفل . وعلى طول الجدار امتدت صفوف عدة من رفوف ضيقة ملأى بأكداس من علب الكبريت وعلب الدخان . وإلى جانب الصندوق الذي جلس الصبي فيه ثمة صندوق آخر مغطى بورق أصفر يلوح أنه يستخدم منضدة . ألقى ذراعيه البائستين وراء رقبته ومدّ بصره إلى الأعلى ، إلى زجاج النافذة المعتم .

بعد أن خلعت ثياب المرأة رميتُ ما تبلل منها على الموقد ، وغسلت يدي في الزاوية في وعاء من الفخار ، وقلت للطفل وأنا أمسحهما بمنديلي :

– حسن ، وداعاً !

رنا اليّ ، وقال متلعثماً :

– هل أطفىء المصباح الآونة ؟

– كما تبغي .

– أذاهب أنت ؟ ألن تستلقي ؟

ومدّ ذراعاً عجفاء ناحية أمه :

– معها .

قلت في انشداه :

– لماذا ؟

KMH

قال في بساطة رهيبة :

– أنت تعرف بنفسك .

وأضاف :

– الجميع يفعلون ذلك .

تطلعت حولي في ارتباك . عن يميني هنالك الموقـــد الناتيء الكريـــه المنظر ؛ وفوق مدفأة أطباق قذرة ؛ وفي الزاوية ، وراء الصندوق ، قطع من حبل مقطرن ، وكومة من نسالة حبل القنب ، وحطب مكسّر ، وشظايا صغيرة ، وحمّالة الجرادل .

وكان يتمدّد عند قدميّ جسد أصفر يشخر . سألت الصبى :

– هل يمكن أن أجالسك قليلاً ؟

رماني بنظرة شزراء ، وقال :

– إنها لن تستيقظ حتى الصباح .

– أوه ، لست في حاجة إليها .

تقرفصتُ إلى جانب صندوقه ، ورويت له كيف التقيتُ أمه . حاولت أن أخاطبه في نبرة مازحة :

– جلستْ في الوحل ، وشرعتْ تجذف ، وكأنها تستخدم مجذافين ، وتغني . . .

هزّ رأسه ، مبتسماً ابتسامة مقتضبة شاحبـــة ، وهو يحكُّ صدره الضيّق .

– هذا لأنها سكرى . فهي تمرح وتلهو حتى حين تكون صاحية . مثلها مثل فتاة صغيرة . . .

استطعت أن أرى عينيه بصورة واضحـــة – كانتـــا

شعثاوين حقاً ، لهما رموش طويلة بصورة مدهشة ، وشعيرات كثيفة نمت على جفنيه أيضاً . وارتسمت تحت عينيه ظلال ضاربة الى الزرقة تفاقم من شحوب بشرته ، وجبهته العالية بتغضنها القائم فوق جسر أنفه متوجة بلمّةٍ من شعر أحمر جعد . وكان التعبير المرتسم في عينيه اليقظتين الهادئتين أبعد من أن يوصف . كنتُ أستطيع بالكاد أن أتحمل نظرتهما الغريبة غير البشرية .

– ماذا أصاب ساقيك ؟

نبش بين الخرق الممزقة وأبدى ساقاً جافة أشبه بمحراك النار . رفعها بيده ووضعها على حافة الصندوق .

– أترى كيف شكلهما ؟ كلتاهما رأتا النور على هذا الغرار . وإنهما لا تسيران ، فهما ميتتان – لا فائدة منهما . . .

– وماذا تحوى هذه العلب الصغيرة ؟

أجاب ، وهو يلتقط ساقه بيده كمن يمسك عصاً ، ويدسُّها بين الخرق الممزقة في قعر الصندوق :

– هذه مجموعة حيواناتى .

وعقب قائلاً ، وقد ابتسم ابتسامة ودية مشرقة :

– أتحب أن تراها ؟ إجلس ، إذن ، كما ينبغي . أنت لم ترَ في حياتك مثلها قط .

أنهض نفسه بحركات حاذقة من ذراعيه النحيلتين المتفاوتتين في الطول ، وشرع يلتقط العلب عن الرفوف ، ويناولنيها واحدة بعد الاخرى .

– حذارِ ، لا تفتحها ، وإلا هربت ! قرِّبها من أذنك ، وأرهف سمعك . حسناً ؟

– ثمة شيء يتحرك داخلها .

– آها . هذا عنكب ، المؤوف ! ويدعى الطبّال . ماكر الى أبعد حدود المكر !

شعّت العينان الجميلتان ، وترقّصت ابتسامة على الوجه المزرقّ . تناول العلب عن الرفوف بيدين ماهرتين ، ووضعها قريباً من أذنه ، ثم قرّبها من أذني ، وأعلن في حيوية :

– وهذا الصرصار أنيسيم ، وهو مزهو بنفسه كالجندي . وهذه ذبابة ، وتدعى السيدة الموظفة ، وهي شيء مقرف . تئز النهار بطوله ، وتشتم كل الناس ، حتى لقد شدّت مرة أمي من شعرها . لم تفعل الذبابة هذا – بل السيدة التي تعيش عبر الشارع ، والتي تشبهها الذبابة تماماً . وهذا صرصار أسود ، صرصار جبار – إنه المعلّم . لا بأس به ، ولكنه سكّير لا يعرف للحياء معنى . حين يسكر ، ينفلت يزحف في الساحة عريان ، غزير الشعر مثل كلب أسود . وهذا خنفس الدمن ، العم نيكوديم . أمسكته في الساحة . انه متشرد ، من اللصوص ، يدّعى أنه يجمع التبرعات لإحدى الكنائس . وأمي تلقبه البخيل . وهو واحد من عشاقها أيضاً . ان لديها عدداً كبيراً من العشاق ، يطنون حولها كالذباب ، رغم أنها من دون أنف .

– أتضربك ؟

– مَنْ ، هي ؟ ما أحلى هذا السؤال ! هي لا تستطيع أن تحيا من دوني . هي طيبة القلب ، ولكنها سكيرة – والجميع في شارعنا سكيرون . وهي جميلة ومرحة أيضاً . . . سكيرة متمرّسة ، وعاهر ! أقول لها : كفي عن السكر ، ايتها

الحمقاء ، تصيرى ثرية . . . ولكنها تضحك . إنها امرأة ، ولذلك حمقاء ! ولكنها طيبة . وسترى أنت ذلك عندما تصحو .

وأتلع ابتسامة فاتنة ، ابتسامة ساحرة أحسست معها أني أنفطر باكياً ، وأني أهتف بالمدينة بأسرها كيما تسمعني . كان قلبي عامراً بشفقة عميقة نحوه . اهتز رأسه الجميل فوق عنقه النحيلة مثل وردة غريبة ، وأسرتنى عيناه اللتان راحتا تتوهجان وتتوهجان حياة بصورة لا تقاوم .

وأنا أصغي إلى ثرثرته الطفولية ، لكن المروّعة ، نسيت طوال لحظة أين أنا . وما أسرع أن رأيت من جديد النافذة الأشبه بنافذة السجن ، الملطخة بالوحل من الخارج ؛ وفوهة الموقد السوداء ؛ وكومة نسالة القنب في الزاوية ؛ وعند الباب ، على كومة من الخرق الممزقة ، الجسد الاصفر مثل الزيت ، جسد المرأة الأم .

سألنى الطفل متباهياً :

– مجموعة حيوانات لطيفة ، أليس كذلك ؟

– لطيفة جداً .

– ليس لديّ فراشات ، لا فرشات ولا حشرات مجنحة .

– ما اسمك ؟

– ليونكا .

– مثل اسمى .

– صحيح ؟ أى صنف من البشر أنت ؟

– أوه ، مجرد إنسان عادي .

– أنت تكذب ! لكل إنسان طباعه . أعرف ذلك . فأنت طيب .
– قد أكون كما تقول .
– أستطيع أن أرى ذلك . وأنت جبان أيضاً .
– جبان ؟
– أنا أعرف !
ابتسم بمكر ، وغمز لي .
– ما الذى يجعلك تظن أنى جبان ؟
– حسناً ، أنت تجلس معي هنا ، وهذا يدل أنك تخاف أن تخرج في الليل !
– ولكن النهار يطلُ .
– وأنت ستذهب .
– سأعود لرؤيتك مرة أخرى .
لم يصدقني . غطى عينيه الشعثاوين الجميلتين بأهدابهما ،وقال بعد فترة من صمت :
– لماذا ؟
– للجلوس برفقتك . انت ظريف جداً . هل يمكن أن أعود ؟
– تعال . فالجميع يأتون إلى هنا . . .
وتنهّد ، وأضاف :
– تخدعني .
– لن أخدع ! سآتي ، من دون ريب !
– حسناً إذن . تعال إلىّ أنا ، وليس من أجل أمي . . . لتذهب للشيطان ! فلنكن صديقين ، أنت وأنا !

– حسن .

– حسن . لا يهمُّ أنك كبير . كم هو عمرك ؟

– سأبلغ الحادية والعشرين .

– وأنا سأبلغ الثانية عشرة . ليس لديَّ رفيق ، ليس غير كاتكا ابنة السقّاء . ولكن أمها تضربها لأنها تأتي لرؤيتي . هل أنت لص ؟

– كلا . لماذا لص ؟

– لأن لك وجهاً بشعاً هزيلاً وفيه أنف طويل ، مثل أنوف اللصوص تماماً . لدينا لصان يحضران إلى هنا ، أحدهما ساشكا ، وهو أحمق خبيث . والآخر فانيتشكا . . . طيب القلب مثل الكلب . هل عندك شيء من العلب الصغيرة ؟

– سأحضر لك بعضاً منها .

– أحضرْ . لن أخبر أمي أنك ستجيء .

– لماذا ؟

– هكذا . هي تفرح دائماً عندما يحضر الرجال مرة أخرى . هي تحب الرجال ، تلك الخرقاء – تحبهم تماماً . هي فتاة مضحكة ، هذه التي هي أمي . وجدت لنفسها رجلاً وولدتني وهي في الخامسة عشرة ، دون أن تدري ، هي نفسها ، كيف حدث ذلك . متى ستجيء ؟

– غداً مساء .

– عند المساء تكون سكرتْ . كيف تدبر أمور معيشتك إن لم تكن تسرق ؟

– أنا أبيع الكفاس البافاري .

– صحيح ؟ أحضر لي زجاجة . هل تفعل ؟

– طبعاً ، طبعاً . حسناً ، أنا ذاهب .
– إذهب . هل تأتي مرة اخرى ؟
– من دون ريب .

مدّ لي ذراعيه الطويلتين ، فأخذتُ تلك العظام الرقيقة الباردة في يديّ وهززتها . تسلقت خارجاً إلى الساحة مثل رجل سكران دون أن ألتفت اليه .

كان النهار يبزغ . و«الزهرة» المحتضرة المرتعشة معلقة فوق كومة رطبة من الأبنية المتداعية . والعيون المربعة لنوافذ القبو ، المكتئبة القذرة مثل عيون السكارى ، تحدّق فيّ من تلك الحفرة الموحلة تحت جدار البيت . ورجل أحمر الوجه يضطجع نائماً في عربة عند البوابة ، وساقاه الكبيرتان العاريتان منفرجتان ، ولحيته الخشنة الكثة بارزة صوب السماء – تلمع فيها أسنان بيض فكأن ذلك الرجل ، وقد أغمض عينيه ، انهمر يضحك في خبث وسخرية . واقترب مني كلب هرم على ظهره رقعة عارية من الشعر كأنما سقعها ماء مغلي ، وتشمم ساقي ونبح جائعاً فملأ قلبي شفقة عليه من دون ضرورة .

كانت برك الماء في الشوارع ، وقد سكنت اثناء الليل ، تعكس سماء الصباح ، والانعكاسات الزرقاء الوردية تخلع على البرك الموحلة جمالاً كريهاً ، زائداً ، يبلبل الروح .

في اليوم التالي طلبت من الاولاد في شارعنا أن يصطادوا لي عدداً من الخنافس والفراشات . وابتعت من الصيدلية عدداً من العلب الصغيرة الجميلة ، وانطلقت لرؤية ليونكا ،

حاملاً معي زجاجتين من الكفاس ، وبعض الكعك المحلى بالعسل ، والسكاكر ، والزلابية .

تلقى ليونكا هداياي في حيرة عظيمة ، وقد اتسعت عيناه وزاد جمالهما أكثر منه قبلاً في ضوء النهار .

قال في صوت عميق لا يمتُ الى الطفولة بصلة :

– يا الله ! أنظر إلى هذه الاشياء كلها ! هل أنت رجل غنى ، أم ماذا ؟ كيف يمكن أن يكون ذلك – رجل غني ، يلبس ثياباً مهترئة ، وتقول إنك لست لصاً ؟ آه ، يا للعلب الجميلة ! أنا خائف من لمسها . فأنا لم أغسل يديّ . ماذا في داخلها ؟ أو . . و . . و – يا للخنفس الهدار ! كلها نحاسية ، وحتى خضراء – أوه ، يا الله ! لعلها تهرب أو تطير بعيداً ؟ ليس باليد حيلة !

وعلى حين فجأة صاح في صوت مرح :

– أماه ! هيا أيتها المومس ، انزلى واغسلى يدىّ . أنظري ماذا جلب . أنت تعرفينه ، هو الرجل الذي جاء ليلة البارحة واوصلك إلى البيت كخفير يقوم بواجبه . ويدعى ليونكا أيضاً .

سمعت صوتاً يدفُ من ورائي خافتاً بصورة غريبة :

– ينبغي أن تقول له شكراً .

فهزّ الصبي رأسه في عنف :

– شكراً ، شكراً !

سبحت في القبو سحابة كثيفة من غبار أشعث تبينت من خلالها في صعوبة ، عند حافة الموقد ، الرأس المنفوش والوجه

المشوّه لامرأة ، ولمعان أسنانها المكشّرة عن ابتسامة مغتصبة لا يمكن أن تمحى .

– صباحكِ سعيد !

أجابت المرأة :

– صباحكَ أَسعد .

كان صوتها الأخنُ خفيضاً لكنه طلق جذلان . رمقتني بعينيها المتضيقتين كمن يسخر مني .

نسي ليونكا كل شيء عني ، وأسرع يلتهم كعكة بالعسل ، مهمهماً بينه وبين نفسه وهو يفتح العلب في حذر . وألقت أهدابه ظلاً على وجنتيه ، فكشفت الزرقة تحت عينيه . وأطلت الشمس ، كابية مثل وجه رجل هرّمته السنون ، من خلال زجاج النافذة القذر . وأراقت ضوءا لطيفاً على شعر الصبي المحمر . كان قميصه مفتوحاً على صدره ، وكنت أستطيع رؤية قلبه يخفق وراء عظامه الرقيقة ، رافعاً الجلد والحلمة التي لا تكاد تبين .

نزلت أمه عن الموقد ، وبللت منشفة تحت المغسلة ، وخطت ناحية ليونكا وأمسكت يده اليسرى .

هتف ، وهو يتحرك في الصندوق ، عاصراً جسده بأسره ، مبعثراً الخرق الممزقة تحته ، كاشفاً عن ساقيه المزرقتين الهامدتين :

– لقد هرب ، قفي ، لقد هرب !

ضحكت المرأة ، وهي تنبش بين الخرق ، وصاحت :

– أمسكه !

أمسكت الخنفس ، ووضعته في راحة يدها ، وتفحصته

بعينيها الطروبتين المصبوغتين بلون ازرق فاتح ، وخاطبتني بنبرة من يخاطب صديقاً قديماً :

– لدينا الكثير من أمثال هذا .

حذّرها ولدها قائلاً :

– لا تخمدي أنفاسه . لقد جلست مرة على مجموعة حيواناتي وهي سكرى ، فأخمدت أنفاس كمية منها .

– إنس ذلك ، يا ثروتي .

– وقد دفنتها ، كمية كبيرة منها .

– ولكنني اصطدت لك بنفسي مزيداً منها فيما بعد ، أليس كذلك ؟

– وما الفائدة ! تلك التي سحقتِ كانت خنافس مدرّبة ، أيتها الغبية ! عندما تموت فأنا أدفنها تحت الموقد – أزحف وأدفنها – فإن لديّ مقبرة هناك . أتعلم أنه كان لديّ عنكب ذات مرة ، يدعى مينكا ، يشبه واحداً من عشاق أمي – واحداً من العشاق القدامى هو الآن في السجن ، وهو شاب سمين مرح . .

قالت المرأة ، وهي تُمسِّدُ شعر الصبي الجعد بيدها الصغيرة الداكنة غليظة الأصابيع :

– أوه ، يا عزيزي الغالي .

ولكزتني بمرفقها ، وقالت باسمة العينين :

– صبي رائع ؟ يا لعينيه ! أليس كذلك ؟

اقترح ليونكا مكشراً ، وهو يتفحص الخنفساء :

– تستطعين أن تأخذي عيناً وتعطيني ساقين . تبدو مثل الحديد . سمينة . أشبه بذلك الراهب ، يا أمّ –

الراهب الذي جدلتِ له سلماً . . . أتذكرين ؟
– لا بدَّ أنني أذكر .
وجعلت تسرد القصة عليَّ ، ضاحكة :
– جاءني راهب مرة ، كبير ضخم الجثة ، وقال : «باعتبار أنك تنسلين القنب . . . أتقدرين أن تصنعي لي سلماً من حبال ؟» لم أكن قد سمعت بمثل هذه السلالم في حياتي . فأجبت : «كلا ، لا أقدر» . فقال : «إذن أعلّمك» . وفتح معطفه و . . . هل تصدق ذلك . . . كان هنالك حبل رفيع ملفوف حول كرشه ، لفة طويلة من حبل متين . وعلمني كيف أصنع السلّم . فعقدت له واحداً وجعلت أتساءل : ترى ، ما هي حاجته إليه ؟ لعله ينتوي سرقة الكنيسة ؟
وضحكت ، ولفت ذراعها حول كتف ولدها ، وظلت تمسّده .
– هم عصبة ظريفة ! جاءني في الموعد المضروب ، فقلت له : «إذا كنت ترغب في هذا من أجل السرقة ، يا صاحبي ، فما عندي لك أي سلم !» فضحك في شيء من المكر ، وقال : «كلا . نريده للتسلق فوق الجدار . عندنا جدار كبير عال ، ونحن رجال خطاة ، والخطيئة تعيش في الطرف الآخر من الجدار . . . هل فهمت ؟» وفهمت عندئذ . كان يريده للذهاب الى المومسات في الليل . ولكم ضحكنا ، هو وأنا !
قال الصبي بنبرة رجل كبير :
– أنت تحبين الضحك كثيراً ، أنت . . . ما رأيك لو هيأت السماور ؟
– ليس لدينا سكر .

– اذهبى واشترى قليلاً منه .
– وليس لدينا نقود أيضاً .
– آه ، سكرك سيدمرّنا ! خذي منه .
والتفت اليّ :
– ألديك نقود ؟
أعطيت المرأة نقوداً . فوثبت على قدميها في خفة ، وتناولت سماوراً صغيراً ملتوياً ملوثاً عن الموقد ، وخرجت ، وهي تدندن بينها وبين نفسها .
هتف الصبي وراءها :
– أماه ! اغسلى النافذة ، فأنا لا أستطيع رؤية شيء !
واسترسل يقول ، وهو يضـــع في حذر العلب المملوءة بحشرات على الرفوف :
– دعني أخبرك أنها امرأة على شيء من الحذق !
كانت الرفوف مصنوعة من الورق المقوى ، معلقة بخيوط مربوطة بمسامير مغروزة بين قرميد الجدار الرطب .
– وهي تكدُ في العمل أيضا . حين تبدأ تنسل القنب تكاد أن تختنق . يعجُ المكان بالغبار . فاصيح : «أماه ، أخرجينى الى الساحة ، ناشدتك الله ، فلسوف أختنق هنا» . ولكنها تقول : «إصبرْ . وسلّني» . إنها تحبني دون ريب ! وهي تعمل وتغني ، فهي تجيد آلاف الأغنيات . حقاً ، إنها تجيد آلاف الأغنيات .
وشرع يغني في صوت خشن عال ، وقد انفعل نشاطاً ، وراحت عيناه الحلوتان تلمعان ، وحاجباه الكثان يرتفعان :

على الكنبة تضطجع صوبي . . .

بعد أن أصغيت اليه قليلاً ، قلت :

– ليست الأغنية لطيفة .

فأكّد لي ليونكا مطمئناً ، وقد انتفض فجأة :

– كل الأغاني على هذا الغرار . أصغِ ، فقد جاءت الموسيقى ! أسرع ، ارفعني .

رفعت عظامه الناحلة الخفيفة المعبأة في كيس من الجلد الرمادي الرقيق . فدسَّ رأسه متلهفاً في النافذة المفتوحة ، وأبقاه معلقاً هنالك ، وساقاه الجافتان تتأرجحان عجزتين على الجدار . وفي الخارج راح أرغن مما يستخدم في الشوارع يرسل قطعاً من ألحان مختلفة في أصداء جشاء ، وصوت جهير لأحد الأطفال يصيح فرحاناً ، وكلب ينبح في هدوء . اصغى ليونكا الى الموسيقى ، ودندن معها في صوت خافت .

ترسب الغبار في القبو ، فزاد المكان نوراً . كانت معلقة فوق فراش الأم ساعة رخيصة ، وبندولها ، وهو بحجم قطعة نقد نحاسية ، يزحف ظالعاً على الجدار الرمادى . والأطباق على الموقد باقية دون غسيل ، وفوق كل شيء تستلقي طبقة سميكة من الغبار ، تزداد سماكة بصورة خاصة على أنسجة العناكب في زوايا الغرفة ، هذه الأنسجة المتدلية كخرق قذرة . ومسكن ليونكا يشبه حفرة للنفاية ، وبشاعة البؤس المتنوعة فيه تحدق في وجه المرء بوقاحة من كل بوصة في تلك الحفرة .

شرع السماور يهمهم بصوته الموحش ، وأرغن الشارع قد ركن إلى الصمت فجأة كأنما خوفاً منـــه . وبحّ صـوت خشن قائلاً : «إمش ، يا وبش !» .

قال ليونكا زافراً : – أنزلني . لقد طردوه .

أجلسته على الصندوق ، فعبس وحك صدره بيديه ، وسعل في حذر .

– صدري يوجعني . يسيئ إليّ أن أتنفس هواء طلقاً لمدة طويلة . إسمع ، هل رأيت شياطين مرة ؟

– كلا .

– وأنا أيضاً . أظل أنظر تحت الموقد في الليل لعلهم يخرجون . ولكنهم لا يفعلون . الشياطين تظهر في المقابر ، أليس كذلك ؟

– ما شأنك بها ؟

– إنها تبعث على الاهتمام . ما قولك لو كان أحد هذه الشياطين طيباً ؟ رأت كاتكا ابنة السقاء في القبو شيطانـــاً صغيراً – فأخذتها الرعشة . ولكنني ، أنا ، لا تخيفني الأشياء المرعبة .

ولفّ الخرق حول ساقيه ، وتابع في حيوية :

– بل أنا أحبها . . . أحب الأحلام المرعبة : أحبها . حلمت ذات مرة بشجرة نمت جذورها من فوق . . . أوراقها في الأرض وجذورها ممتدة إلى السماء . فتصببت عرقاً ، وهببت من نومي فزعاً . ومرة رأيت أمي . . . كانت تستلقي عارية وكلب يأكل معدتها . كان يقتطع قطعة ويبصقها ، ويقتطع أخرى ويبصقهـــا . ومرة اهتزّ بيتنا وانطلق يركض في

الشارع ، وقد راحت أبوابه ونوافذه تصطفق ، وقطة المرأة الموظفة تركض وراءه . . .

اختلجت كتفاه النحيلتان ارتعاشاً ، وأخذ سكّرة ، وحلّ الورقة الملونة ، وبسطها في عناية ، ووضعها على حافة النافذة .

– سأصنع مختلف الأشكال اللطيفة من هذه الأوراق . أو لعلي أعطيها إلى كاتكا . فهي تحب الأشياء اللطيفة أيضاً – قطع الزجاج ، والشظايا ، والأوراق ، وما شابه . إسمع . إذا أنا رحت أغذى وأغذى الخنفس ، فهل يكبر بحجم الحصان ؟

كان واضحاً أنه يؤمن بذلك ، فأجبته :

– إذا أنت غذيته جيداً يكبر .

فهتف في فرحة :

– طبعا ، هذا صحيح ! ولكن أمي لا تفعل غير الضحك ، تلك البلهاء الحمقاء !

وأضاف كلمة بذيئة .

– هي حمقاء . أنت تستطيع أن تغذي قطة لتصبح بحجم الحصان بسرعة أكثر ، أليس كذلك ؟

– ذلك ممكن .

– ولكنني لا أملك طعاماً ، من سوء الحظ . وإلا كان الأمر هيناً !

وارتجف انفعالاً ، وقبضت يده على صدره بقوة .

– وسيطير الذباب بحجم الكلب . وتستطيع أن تستخدم الخنافس لحمل القرميد – إذا صار واحدها بحجم الحصان . لسوف يكون قوياً ، أليس كذلك ؟

– المشكلة هي أن لها شوارب !

– ليس لهذا شأن ، فأنت تستطيع أن تستخدم الشوارب كأعنَّة . أو لنأخذ عنكباً زاحفاً ، وليكن – ضخماً مثل . . . مثل ماذا ؟ لن يكون أكبر من قط ، وإلا فهو يبعث على الرعب ! أتمنى لو كنت أملك ساقين ، وعندها كنت أريتهم ماذا أفعل ! كنت أشتغل مثل المجنون ، وأغذى جميع حيواناتي . كنت فتحت مخزناً ، وبعدها أشتري لأمى بيتاً في حقل فسيح . هل كنت مرة في حقل فسيح ؟

– أجل ، كنت .

– أخبرني ، كيف هو ؟

شرعت أحدثه عن الحقول والمروج ، فأعارني سمعه في انتباه ولم يقاطعني . وانطلقت أهدابه فوق عينيه ، وانفغر فمه في بطء فكأنه يستغرق في النوم . وحين رأيت ذلك أخفضت صوتي ، ولكن أمه جاءت تحمل السماور الذي يغلي ، وتحت ذراعها كيس من الورق وزجاجة من الفودكا تبرز من عبها .

– هؤلاء نحن هنا !

زفر الصبي ، وقد اتسعت عيناه :

– ما أروع ذلك ! لاشيء غير العشب والورد . أماه ، ألا تجدين عربة يدوية أينما كان فتنقلينى فيها الى حقل فسيح ! سأموت دون أن اشاهد ذلك .

وأنهى كلامه في صوت حزين مؤلم :

– أنت خنزيرة ، يا أماه . خنزيرة حقاً !

فقالت أمه في عذوبة :

– لا ينبغي أن تشتم . فأنت صغير بعد .
– سهل عليك أن تقولي «لا تشتم» . . . فأنت تذهبين حيث تشائين ، مثل اي كلب . أنت سعيدة الحظ .
واسترسل قائلاً ، وقد التفت إليّ :
– إسمع . أهو الله الذى صنع الحقل ؟
– أعتقد ذلك .
– لماذا ؟
– كيما يتنزه الناس فيه .
قال الصبى مبتسما في شيء من التفكير :
– الحقل الفسيح ! كنت أخذت مجموعة حيواناتى اليه واطلقت سبيلها فيه . كنت فعلت ذلك . فلتستمتع بوقتها ، حيواناتي البيتية . إسمع . هل يصنعون الله في بيت الإحسان ؟
صرخت أمه ، وقد تلوّت من الضحك . ألقت نفسها على الفراش ، وهي ترفس بساقيها وتزعق :
– أوه ، احملوني إلى فوق ، فليحملني أحدكم ! أوه ، يا كنزي ! أوه ، يا لها من صرخة !
رماها ليونكا بنظرة مبتسماً ، وشتمها في حنان شتيمة بذيئة .
– تتشقلب على نفسها مثل فتاة صغيرة ! انها تحب الضحك ، تحبّه .
وشتمها من جديد .
قلت :
– دعها تضحك . فضحكها لا يؤذيك ، أليس كذلك ؟

وافق ليونكا :

– نعم ، انا لا ازعل منها . تغضبنى حين لا تغسل النافذة . اظل أرجوها أن تغسل النافذة . فأنا لا أستطيع رؤية ضوء النهار المبارك . ولكنها تنسى ذلك دائماً .

ضحكت المرأة وهي تغسل آنية الشاي ، وتغمـــز لى بعينها الزرقاء المشرقة .

– أليس هو جوهرة ، بارك الله في قلبه ؟ لولاه كنت أغرقت نفسي من زمن بعيد وربي ! أو كنت شنقت نفسي !

قالت ذلك مبتسمة .

سألني ليونكا فجأة :

– أأنت أبله ؟

– لست أدرى . لماذا ؟

– أمي تقول إنك أبله .

صاحت المرأة من غير أن تضطرب على الإطلاق :

– أجل ، لكن لماذا ؟ يجيئ بامرأة سكرى من الشارع ، ويوسّدها الفراش ، ويذهب ، وهكذا فحسب ! أنا لم أقصـــد بذلك شيئاً من الحقد . يا لك من نمّام ، أنت !

تكلمت ، هي الأخرى ، مثل طفل ، فجاء أسلوبهـــا في الحديث أشبه بأسلوب فتاة صغيرة . وكانت عيناها ، أيضا ، صافيتين مثل عيني فتاة – أما الشيء الأكثر قبحاً في ذلـــك الجمال فهو وجهها. أفطس الأنف بشفته المرفوعة وأسنانـــه المكشوفة . إنه نوع من السخرية المشؤومة المشخصة ، من سخرية مرحة في آن واحد .

قالت في صوت مهيب :

– حسناً . لنشرب الشاي .

كان السماور موضوعاً على صندوق إلى جانب ليونكا ، ونفثة متلاعبة من البخار تنطلق من تحت الغطاء الملويّ وتمسُّ كتفه . وضع يده فوقها ، وحين تندت راحته بالبخار مسح بها شعره ، وفي عينيه نظرة حالمة . قال :

– عندما أشبُّ كبيراً ستصنع لى أمي عربة يدوية ، وسأزحف في الشوارع ، وأستعطي الناس . وحينما يتجمع لديّ ما يكفي من المال سأزحف إلى حقل فسيح .

تنهدت الأم :

– أوهو – هو .

وسرعان ما ضحكت في رقة :

– إنه يحسب الحقل جنة ، عزيزى هذا ! ليس غير معسكرات هناك ، وجنود وقحون ، وسكارى .

أوقفها ليونكا عابساً :

– كلا ، هذا ليس صحيحاً . اسأليه عنه ، فهو قد شاهده .

– وأنا شاهدته .

– عندما كنتِ سكرى .

شرعا يتجادلان مثل طفلين . في حموة وهراء . في هذه الأثناء كانت العشية الدافئة نشرت ظلالها ، وسحابة كثيفة زرقاء شائبة تنتصب في السماء المحمرة . وأظلم الجو في القبو .

رشف الصبى قدح الشاي ، وعرق . نظر اليّ ، ثم إلى أمه ، وقال :

– لقد شبعت ، وأنا أشعر بالنعاس حقاً . . .

نصحت له أمه :

– نم إذن .

– وهو سيذهب ! هل ستذهب ؟

قالت المرأة ، وقد لكزتني بركبتها :

– لا تقلق . فلن أتركه يذهب .

قال ليونكا :

– لا تذهب .

وأغمض عينيه ، وتمطى متلذذاً ، وسقط في صندوقه . ثم رفع رأسه فجأة ، وخاطب أمه في نبرة زاجرة :

– لم لا تتزوجينه مثلما تفعل بقية النساء ، بدلا من التورط مع زيد وعبيد وسواهما . . . فهم لا يفعلون غير ضربك . وهو رجل لطيف ، هو . . .

قالت المرأة في حنان ، وقد انحنت على الطبق الذى تشرب منه الشاي :

– إلجأ إلى النوم .

– وهو غني . . .

صمتت المرأة لحظة ، وهي تحتسي الشاي بشفتين مرتبكتين ، ثم عالنتني وكأنها تحدث صديقاً قديماً :

– على هذا الغرار نعيش ، ندافع أيامنا ، هو وأنا ، ولا أحد سوانا . يعنفنى الناس في الساحة . . . وينعتونني أننى امرأة خليعة . وماذا ؟ ليس هنالك من أستحي منه . وفضلاً عن هذا فأنا مشوهة المنظر كما ترى . وكل امرىء يستطيع أن يرى على الفور لاي شيء أنا أصلح . بلى . لقد

غطّ في النوم ، كنزي هذا . هل هو ولد طيب ؟
– أجل . طيب الطيبة كلها !
– أنا لا اكتفي من الترنّي إليه . هو ذكي أيضا ، أليس كذلك ؟
– إن له رأسا حكيماً .
– أنت قلت . كان أبوه نبيلاً ، سيداً عجوزاً ، واحداً من أولئك . . . ماذا تسمونهم ؟ إن لهم مكتباً . . . كما تعلم ويكتبون أوراقاً .
– كاتب بالعدل ؟
– هذا صحيح ! كان سيداً عجوزاً . كان لطيفاً . احبني ، وكنت أعمل خادماً في بيته .
غطت ساقي ولدها العاريتين بالخرق ، ورتبت ذلك الشيء الأسود المستعمل وسادة تحت رأسه ، ثم أكملت حديثها في نبرة هينة :
– مات على غير انتظار . حدث ذلك ليلاً ، بعيد خروجي من عنده . هوى على الأرض ، وسقط ميتاً . لديك عمل – فأنت تبيع الكفاس ؟
– أجل .
– لحسابك ؟
– لصاحب عمل .
فاقتربت مني قائلة :
– لا حاجة بك إلى القرف مني ، أيها الشاب . فأنا لا أنقل العدوى الآن . إسأل إي رجل في الشارع ، فهم يعرفون جميعاً .

– أنا لست قرفان .

وضعت يدها الصغيرة بأصابعها الخشنة وأظافرها المهشمة على ركبتي ، وتابعت حديثها بحنان :

– أنا ممتنة لك كثيراً من أجل ليونكا – كان هذا النهار عيداً حقيقياً بالنسبة إليه . لقد فعلت شيئاً رائعاً . . .

قلت :

– يجب أن أنصرف .

فاستفهمت مشدوهة :

– إلى أين ؟

– لدى عمل أؤديه .

– إبق هنا !

– لا أستطيع . . .

تطلعت إلى ولدها ، ثم الى النافذة والسماء ، وقالت بصوت خافت :

– لم لا تبقى ؟ سأغطي وجهي بمنديل . أريد أن أشكرك من أجل ولدي . سأغطي نفسي ، ما رأيك ؟

تحدثت في حرارة إنسانية رائعة ، في إحساس طيب . وعيناها – العينان الطفوليتان في وجه مشوه – افترتا عن ابتسام ، لا ابتسام متسوّل ، بل ابتسام رجل ميسور يستطيع أن يسدد ديناً من عرفان الجميل .

هتف الصبى فجأة ، وقد استوى جالساً في جفول :

– أماه ! إنها تزحف ! عجلي ، يا أماه !

خاطبتنى قائلة ، وهي تنحني على ولدها :

– لقد كان يحلم .

خرجت الى الساحة ، ووقفت هنالك غارقاً في بحران من التفكير . ومن نافذة القبو المفتوحة تدفقت أغنية صاخبة ، تهويمة أم لولدها . غَنَّيَتْ في صوت أخن مرح ، وترددت كلماتها الغريبة في نبرات واضحة جلية :

مرة أخرى تجيء اليومَ زحفا
تحملُ الحسرةَ والآلامَ كثرا
زاحفات في الثرى ألفاً وألفا
مزقَّت قلبى ، وألقتْ فيه جمرا
واعذابى . . أسبلتْ عينايَ وكفا
وامصابي . . لم أجدْ منه مفرّا .

تركت الساحة مسرعاً ، وأنا أطحن أسنانى لأمنع نفسي عن الولولة .

١٩١٧

الحب الاول

. . . في هاتيك الفترة جعلني القدر ، ومأربه الوحيد اكمال تثقيفي ، أجتاز تجربة مريرة للحب الأول ، حب اتسم بسيماء السخرية والمأساة معاً .

اتفق بعض أصدقائي على القيام برحلــة في القوارب على سبيل المتعة في نهر أوكا ، وانتدبوني لدعوة س . . . وزوجته ، وهما زوجان آبا من فرنسا مؤخراً ولم تتح لــي معرفتهما بعد . فزرتهما في العشية .

كانا يقطنان قبواً في بيت قديم ، تقوم أمامه ، من أحــد طرفي الشارع الى الطرف الآخر ، بركة موحلــة لا تحول ولا تزول طوال فصل الربيع وأكثر فصل الصيف ، تتخذ منهــا الغربان والكلاب مرآة ، والخنازير حمّاماً .

كان التفكير قد استغرقني الى حدّ أني انزلقت الى شقة أناس لا أعرفهم ، مثل كومة من تراب انهالت من تل ، فأثرت هلعاً غريباً . واستقبلني رجل سمين أنبس الوجه ، ربعة في القامة ، له لحية شقراء كثة وعينان زرقاوان لطيفتان ، انتصب في طريقي فحجب بجسمه مدخل الغرفة المجاورة .

أصلح من وضع ثيابه ، ونبر في اقتضاب :

– ماذا عساني أفعل لك ؟

وأضاف موبخاً :

– قبل أن يدخل المرء بيتاً يقرع الباب عادة .

استطعت أن أرى في ظلال الغرفة وراءه شيئاً يماثــل

طيراً كبيراً أبيض اللون يهوّم هنا وهنالك ، وجاءني صوت مشرق النبرة واضح الرنة يقول :

– وبخاصة اذا أتيت تزور زوجين .

استوضحت في شيء من الاستياء عما اذا كانا من أسعى الى رؤيتهما ؛ وما أن أكّد لي الرجل الذي بدا مثل تاجر رخي العيش ذلك ، شرحت له هدف زيارتي .

كرّر الرجل قائلاً ، وهو يمسّد لحيته في وقار :

– تقول ان كلارك أرسلك ؟

وانتفض فجأة وصاح بألم :

– أواه ! أولغا !

واستدار ، وأمسك ذلك الجزء من جسده الذي لا يأتي الناس على ذكره في المجتمع المؤدب لوقوعه أسفل بقليل من الظهر . ورنّ في خلدي أنه نال قرصة .

أخذت مكانه عند المدخل فتاة نحيلة القوام زنّرت اليّ عينين زرقاوين باسمتين :

– من أنت ؟ شرطي ؟

فأجبتُ متأدباً :

– أوه ، كلا . سروالي لا غير .

ضحكتْ ، ولم أغضب أنا لأن البريق في عينيها كان الشيء الذي حننت طويلاً الى رؤيته . وبدا أن ثيابي استثارت ضحكها . فقد كنت أرتدي سروالاً أزرق من سراويل الشرطة وسترة بيضاء من سترات الطهاة . وكانت هذه الأخيرة الجزء الأكثر ملاءمة في لباسي ، تقوم مقام سترة عادية ومزررة حتى العنق فلا يستدعي ارتداء قميص تحتها .

وكانت استعارتي لحذاء مما يلبسه القنّاصون وقبعة عريضة الحواف يرتديها قطاع الطرق الايطاليون اللمسات الأخيرة الفعالة فى موضوع ذلك اللباس .

شدتني من يدي الى الغرفة ، ودفعتني ناحية المنضدة ، وسألت :

– فيم تراك ترتدي مثل هذه الثياب الغريبة ؟

– ولماذا تسمينها غريبة ؟

فردت تسترضيني :

– تعال ، لا يفعمنّك الغضب .

يا للفتاة الغريبة ! كيف يمكن ان يغضب المرء منها ؟

كان الرجل الملتحي جالساً على السرير يلف دخينة .

أنحيته بصري ، واستفسرتُ :

– هل هو والدك أم شقيقك ؟

فأجاب متأنياً :

– زوجها !

وسألتنى هي ضاحكة :

– لم سؤالك ؟

قلت بُعَيد أن ترنّيتها بنظري :

– سامحيني .

استمررنا نبدي مثل هذه الملحوظات القصيرة قرابة خمس دقائق ، وغادرت المكان مطمئناً تحدوني الرغبة الى البقاء في ذلك القبو طوال خمس ساعات ، أو خمسة أيام ، أو خمس سنوات حيث أعبُ من متعة الترنّي الى وجهها البيضوي الوسيم وعينيها الوديعتين . كانت الشفة السفلى فى ثغرها

الصغير أكثر امتلاء من العليا ، يخال المرء معها أنها منتفخة قليلاً . وكانت قد قصّت شعرها البني الكثيف قصيراً بحيث شكّل قبعة من زغب حول رأسها ، وتجعّد حول أذنيها الشبيهتين بالصدفة وخديها المورّدين . وكانت يداها وذراعاها في القمة من الفتنة . وقد رأيتهما عاريتين حتى المرفقين حين انتصبت عند المدخل وقد اعتمدت عضادة الباب . كانت ثيابها بسيطة بسيطة ، فهي ترتدي بلوزة بيضاء ذات ردنين كاملين ونهاية مطرزة ، وتنورة ناصعة تلف جسدها لفاً . وأروع ما كان يميز ملامحها هما عيناها . يا للفرحة ، والعطف ، والفضول الودي الذي تشعانه ! وأكثر من ذلك أنهما تضيئان بنوع من الابتسام (وليس في ذلك ذُرارة من ريب !) يتوق اليه شاب في العشرين من عمره ، وبخاصة اذا كانت الظروف الخشنة سحقت قلبه سحقاً .

أعلن زوجها ، وقد نفث سحابة من الدخان في لحيته :

– السماء توشك أن ترسل غيثها .

مددت نظري من النافذة . كانت السماء صافية مرصعة بالنجوم . فهمت انني زائد في عين هذا الرجل وارتحلت ، وكنت مفعماً بذلك السرور الرخي الذي يطغي على امرئ عثر على ما كان يفتش عنه طويلاً .

قضيت الليل بطوله أضرب في الحقول ، أطيل التفكير في ذلك الاشعاع الحنون لتينك العينين الزرقاوين . وأقنعت نفسي عند الصباح أن ذلك المخلوق الضخم البنية ، صاحب اللحية والطلعة الراضية الشبيهة بطلعة قط حسن التغذية ، ليس جديراً بهذه السيدة الصغيرة كزوج . وأحسست بالرثاء

لها حقاً ، تلك الغالية المسكينة ! ما أبأس فكرة أن تعيش مع زوج يحمل في لحيته كسراً من الخبز !

انطلقنا في اليوم التالي في رحلة بالقوارب على نهر أوكا المضبّ تحت ضفة عالية مخططة بطبقات من الطين المتعـدد الألوان . وكان النهار من أروع النهارات منذ خليقة العالم . فالشمس تلتهب في سماء مهرجانية ، وشذى التوت البري الناضج يسبح فوق النهر ، والناس عارفون ما في نفوسهم من طيبة تملؤني غبطة وحباً لهم . حتى زوج معبودتي بدا شاباً رائعاً – لم يركب القارب الذي جلست فيه زوجته والذي كنت أجذّف فيه . وكان تصرفه مثار الاعجاب النهار بطوله . روى لنا أول الأمر قصصاً شائقة عن غلادستون ، ثم نهل جرة من الحليب الفاخر ، واضطجع تحت شجرة ، وأغفى مثل طفل صغير حتى حلول المساء .

بالطبع كان قاربنا الأول في الوصول الى مكان النزهة . وحين حملت سيدتي خارج القارب عالنتني قائلة :

– لكم أنت قوى !

شعرت أنني مقتدر على قلب أعلى برج كنيسـة ، وأخبرتها انني قادر على حملها في طريق العودة الى البلدة (وتبعد سبعة فراسخ كاملة *) ولا يكلفني شيئاً من جهد . ضحكتْ ضحكة رقيقة ، وهدهدتني بعينيها . وعيت النهار بطوله وميض عينيها ، وكنت على ثقة ، مـن دون ريب ، أنهما تومضان لي وحدي .

* أغلب الظن انني كنت فشلت لو فعلت ذلك . **المؤلف** .

تطورت الأمور بسرعة طبيعية تماماً لامرأة صبية التقت حيواناً لم تشاهد مثله من قبل ، ولصبى قوي يستحوذ عليه التوق الى ملاطفات امرأة .

وما أسرع أن تناهى اليّ أنها ، على الرغم من طلعتها الغضة ، تكبرني عشر سنوات ، وأنها تخرجت من مدرسة الشابات النبيلات في بيلوستوك ، وكانت مخطوبة الى آمر القصر الشتوي في بطرسبورج ، وعاشت في باريس ، ودرست الرسم وألمت بفن التوليد . وتبين فيما بعد أن والدتها ، أيضاً ، كانت تمارس القبالة ومسؤولة عن خروجي الى هذا العالم . واعتبرتُ ذلك نذيراً طيباً ، واغتبطت به .

كانت مزاملتها للبوهيميين واللاجئين السياسيين ، والصلة الوثيقة التي ربطتها بواحد من هؤلاء الأخيرين ، والحياة نصف الساغبة نصف المتشردة التي عاشاها في الأقبية والعلّيات في باريس ، وبطرسبورج ، وفيينا ، قد خلعت عليها شخصية متنافرة مضحكة ، ولكنها تبعث على الاهتمام بصورة غريبة . كانت أنيقة مثل طائر القرقف ، ترى الحياة والناس بعيني تلميذة ذكية فضولية ، وتغني أغنيات فرنسية تفيض بهجة ، وتدخن برشاقة ، وترسم بمهارة ، وتبدي شيئاً من الموهبة في التمثيل ، وتبدي خبرة في صنع الثياب والقبعات . والأمر الوحيد الذي لم تمارسه هو التوليد .

قالت :

– مرّ في حياتي اربع ولادات ، انتهت ثلاثة ارباعها بالموت .

كان ذلك كافياً ليفقدها كل رغبة في تقديم المعونة

المباشرة لزيادة السكان . أما بالنسبة الى الاشتراك المباشر فقد شهدت لها ابنة فاتنة في الرابعة من عمرها بكفاءتها العالية في هذا الميدان . كانت تتحدث عن نفسها كمن تتحدث عن شخص تعرفه معرفة حميمة ولكنها بدأت تضجر منه قليلاً . وبين حين وآخر تبدو أشبه بمن أثارت دهشة نفسها : تزداد عيناها ظلمة محببة ، وتومض في أعماقهما ابتسامة مرتبكة خفيفة . ان الأطفال الذين يتملكهم الخجل يبتسمون مثل هذه الابتسامة .

كنت عارفاً بذهنها الوقّاد السريع ، وتأكد لي أنها أكثر مني ثقافة ، وشدهتني الكياسة المحببة التي تعامل بها أمثالها من الناس . فقد كانت تثير اهتماماً أكثر بكثير من أي فتاة أو امرأة لقيتُ في حياتي . وكان الأسلوب العرضي الذي تروي به قصة من القصص يفعل فعله فيّ ويقودنى الى الأيمان أنها ، بالاضافة الى معرفة جميع ما كان يعرفه رفاقي أصحاب الأفكار الثورية ، كانت هي تملك معرفة أخرى ، أسمى وأكثر قيمة ، ولكنها تراقب كل شيء من بعيد ، فكأنها متفرجة ، وعلى سيماها ابتسامة يخلعها الكبار على ملامحهم حين يروحون يراقبون لعب الأطفال المعروف لهم ، اللطيف والخطير احياناً .

كان القبو الذي تقطنه مؤلفاً من غرفتين : مطبخ صغير يستخدم مدخلاً أيضاً ، وحجرة وسيعة ذات ثلاث نوافذ قبالة الطريق ، ونافذتين تطلان على باحة قذرة تعج بنفايات . ومما لا ريبة فيه أن ذلك القبو يمكن أن يكون منزلاً ملائماً لاسكافي ، وليس لسيدة أنيقة عاشت في باريس ،

العاصمة المقدسة للثورة العظمى ، لموليير وبومارشيه وهوغو وآخرين من أمثالهم . وكان هنالك تنافر آخر كثير بين الصورة والاطار ، الأمر الذي أزعجني وأثار ، فيما أثار من عواطف وجدانية ، شعوراً بالحنو على تلك المرأة . فقد بدت ، وكانها ، هي نفسها لا تلاحظ ما كانت اهانة مؤكدة لها في رأيي .

كانت تنهمك في العمل منذ طلة الصباح حتى عسعسة الليل ، بصفة طاهية وخادم ، ثم تجلس الى المنضدة الكبيرة تحت النوافذ وتنقل صوراً قلمية عن صور ضوئية لسكان واسعي الثراء ، أو ترسم خرائط وتلوّنها ، أو تساعد زوجها في تصنيف كتب عن الاحصاءات القروية . وكان غبار الشارع يساقط عبر النافذة المفتوحة على رأسها وعلى المنضدة ، وأرجل السابلة تلقي ظلالاً كثيفة على أوراقها . وكانت ترسل أغانيها وهي تعمل ، وحين ينهكها التعب من جراء جلوسها تنهض وترقص الفالس برفقة أحد المقاعد أو تلاعب طفلتها . ومهما يكن العمل الذي تنجزه قذراً فهي تظل على الدوام حسنة الهندام نظيفة مثل قطة .

كان زوجها كسولاً طيب السريرة ، ألف قراءة الروايات الفرنسية المترجمة الى الروسية وهو مضطجع في سريره ، وبخاصة روايات دوماس الأب . وكان يقول : «انها تكنس الغبار من خلايا مخك» . وكان ينظر الى الحياة «من وجهة نظر علمية محضة» ، ويطلق على طعام الغداء تعبير «امتصاص القوت» ، وما أن ينتهي من تناول الطعام حتى يعلن :

– كيما تدفع الطعام من المعدة الى خلايا الجسد ينبغي

أن تكون الأعضاء في حال من الاسترخاء التام .

وهكذا فهو يتسلق سريره دون أن يبالي بازالة كسرات الخبز من لحيته ، ويقرأ دوماس أو ده مونتبان عدة دقائق ، ثم يروح يشخر في منتهى السعادة طوال ساعتين كاملتين ، تاركاً شاربيه الدقيقين يتحركان فكأن حشرات غير منظورة تزحف فيهما . وحين يهب من نومه يحملق متسائلاً في شقوق السقف برهة من الزمن ، ويقول من بعد :

– لقد أعطى كوزما ترجمة خاطئة لأفكار بارنيل الليلة الماضية .

وسرعان ما يسرع خطواته بعد ذلك الى بيت كوزما على أمل افهامه الحقيقة ، ويخاطب زوجه عند الفراق قائلاً :

– أنهي عني حساب عدد الفلاحين ممن لا خيول لهم في مقاطعة ميدان . وسوف أعود سريعاً .

ويرجع أدراجه عند انتصاف الليل أو بعد ذلك الى البيت جذلان :

– أفلم أجعلها ورطة بالنسبة الى كوزما ! ان له ذاكرة طيبة للحقائق ، فلتصبه اللعنة ، ولكن لي ذاكرة طيبة أنا الآخر . وبالمناسبة ، فهو لا يفهم أول شيء عن السياسة الشرقية لغلادستون .

كان يتحدث على الدوام عن بينيه ، وريشيه ، والصحة الذهنية ، وحين يحجزه المطر عن الخروج من البيت يأخذ على عاتقه مهمة تدريس ابنة زوجته الصغيرة التي أبصرت النور مصادفة على الدرب بين قضيتين من قضايا الحب :

– يجب أن تمضغي طعامك جيداً ، يا لوليا ، فذلك

يساعد على الهضم بوساطة تسارع تحويل الطعام الى خليط من العناصر الكيماوية السهلة الامتصاص .

وبعد الغداء ، حين يكون قد حوّل اعضاءه الى حال من «الاسترخاء المطلق» ، يحمل الصغيرة الى الفراش ويقول على سبيل رواية قصة على مسمعها :

– وهكذا حين عمد نابليون المتغطرس المتعطش للدماء الى اغتصاب السلطة . . .

كانت محاضراته تثير في زوجته عاصفة متشنجة من الضحك ، ولكنه لا يبالى بذلك – فهو يستغرق في النوم قبل أن يجد متسعاً من الوقت للانفعال غضباً . وبعد أن تلهو الفتاة الصغيرة بلحيته الحريرية فترة من زمن تنطوي على نفسها وتستغرق في النوم بدورها . وقد غدوت صديقها الحميم . فهي تستلطف الأقاصيص التي أرويها لها أكثر من محاضرات بولسلاف عن مغتصب السلطة المتعطش للدماء وتعيسته جوزيفين . وأثار نجاحي غيرة بولسلاف الأكول :

– اني أعترض ، يا بشكوف ! قبل أن نتيح للصغيرة الاحتكاك بالحياة ذاتها ينبغي أن نعلمها المبادئ الأساسية التي تحدد مفهومها الضمني . من سيئاتك الكبرى أنك لا تعرف اللغة الانكليزية لتقرأ كتاب «علم الصحة الذهنية للأطفال» . . .

وكنت أشك في أنه ، هو نفسه ، يعرف من اللغة الانكليزية غير كلمتين : «غود باي» .

كان عمره ضعف عمري ، ولكنه فضولي مثل بودل *

* كلب ذكي كثيف الشعر أجعد . **المترجم** .

صغير ، يتعشق الثرثرة وأن يخلق لدى المرء انطباعاً عن أنه يعرف جميع أسرار الحلقات الثورية الأجنبية مثلما يعرف الحلقات الروسية تماماً . ولعله يعرفها حقاً ، فقد كان يزوره على الدوام غرباء يتصرفون مثل ممثلين تراجيديين عظام أرغموا في هذه اللحظة على القيام بأدوار المغفليين . وفي منزله التقيت الثوري سابونايف الذي كان يرتدي ، بسبب من اختبائه من الشرطة ، جمّة حمراء بشعة وحلة مبهرجة ضيقة عليه بصورة ساخرة .

رأيت ذات يوم عند وصولي اليه رجلاً صغيراً عجولاً له رأس صغير وطلعة حلاق . كان يلبس سروالاً مخططاً ، وسترة رمادية وحذاء مصرصراً . دفعني بولسلاف الى المطهى ، وهمس قائلاً :

— جاء من باريس لتوّه حاملاً معلومات على جانب من الخطورة . وينبغي أن يجتمع بكورولينكو . فتلطّف بتدبير ذلك . . .

بذلت جهدي ، لكنه تبين أن كورولينكو رأى ذلك الرجل بعدما أشاروا اليه في الشارع ، فعالنني في ثقة :

— كلا ، شكراً لك ، فليس لديّ ما أفعله مع هذا الغندور !

وكان بولسلاف يعتبر ذلك اهانة للباريسي و«قضية الثورة» على حد سواء . فأمضى اليومين التاليين ينشئ رسالة الى كورولينكو ، يصوغ احتجاجه آونة في ألفاظ من الشجب الغاضب ، وآونة في عبارة من التوبيخ اللطيف ، وأخيراً أرسل جميع جهوده التي بذلها في تدبيج الرسائل الى الفرن .

وما أسرع أن أعقب ذلك سلسلة من الاعتقالات في موسكو ، ونيجني نوفجورود ، وفلاديمير ، وتبين أن الرجل المرتدي سروالاً مخططاً لم يكن سوى لانديزن – غارتن الشهير ، أول عميل للشرطة وقعت عليه عيناي .

وعلى أية حال ، فقد كان زوج محبوبتي من طراز طيب ، عاطفي نوعاً ما ، له مسحة ساخرة زودته بها «الأمتعة العلمية» التي ألقت عبأها على كتفيه . وقد اعتاد ، هو نفسه ، أن يقول :

– المسوّغ الوحيد للمثقف في الحياة هو أن يجمع المعرفة العلمية التي يستطيع الحصول عليها ، ثم يوزعها بين الجماهير دون أن يفكر في اجتناء ربح شخصي . . .

تعمقت مودتي وسببت لي آلاماً مبرحة . ففيما أنا جالس يوماً في القبو أراقب محبوبتي منحنية على منضدة عملها وقعتُ تحت سيطرة تشوّف قاتم الى أخذها بين ذراعيّ وحملها بعيداً عن تلك الغرفة اللعينة الخانقة بالمتاع – السرير المزدوج الكبير ، والمتكأ الثقيل عتيق الطراز الذي تنام الطفلة عليه ، والمناضد المزدحمة بكتب وأوراق علاها الغبار . وكانت أرجل السابلة تومض عند النوافذ على نحو مضحك ، وبين حين وحين يمدّ كلب شريد بوزه . وهبات الرياح تحمل نتانة التراب الذي سفعته الشمس بشواظها . وفي داخل الغرفة – هواء خانق ، والملامح الطفولية عند المنضدة ، وغناؤها الهادئ ، وخربشة ريشتها أو قلمها ، وابتسامة

عينيها الزرقاوين اللتين ترفعهما لحظة فتلاقيان عينيّ . . .
أحببتها الى حدود الخبل ورثيت لها الى درجة اليأس .

قالت لي مرة :

– أخبرنى مزيداً من التفصيلات عن نفسك .

بدأت أروي لها ، ولكنها لم تلبث أن قاطعتني بعيد لحظات :

– انت لا تتحدث عن نفسك .

تيقنت عندها أني لم أكن أتحدث عن نفسي ، بل عن شخص آخر مزجت به شخصيتي .

كان عليّ بالتالي أن أعثر على نفسي الحقيقية في هيولى انطباعاتي ومغامراتي . ولقد كنت عاجزاً الى حدّ بعيد ، بله خائفاً ، أن أفعل ذلك . من تراني أكون وما ماهيتي ؟ أربكني هذا السؤال . كنت مرّاً في وجه الحياة ، حتى انها جرتني الى محاولة مخزية للانتحار . لم أفهم الناس ، ووجدت الحياة التي يعيشونها غبية ، وضيعة ، لا معنى لها . واستحثني فضول مهذب أن أدسّ أنفي في جميع الزوايا القاتمة للوجود ، في جميع ألغاز الحياة ومعمياتها ، وشعرت بنفسي أحياناً قادراً على اقتراف جريمة بدافع من الفضول – قادراً على اقتراف جريمة قتل لمجرد معرفة الأحاسيس التي تنتابني بعد ذلك .

خشيت أنني اذا عثرت على نفسي الحقيقية فقد تعثر محبوبتي على مخلوق كريه أُخذ في شرك متين من الأفكار والأحاسيس المنافية للطبيعة أو العقل ، مخلوق خرافي شرير قد يثير في نفسها الرعب والنفور . شعرت أنني يجب أفعل بنفسي شيئاً . كنت على ثقة أنها قادرة على نجدتي ، بل

حتى على نسج رقية سحرية يمكن أن تحررني من الانطباعات السوداء عن الحياة المحدقة بي . وعندها تنفجر نفسي في شعلة فائقة من القوة والسرور .

كانت النغمة العرضية التي تتحدث بها عن نفسها ، والموقف المتلطف الذي تبديه للآخرين ، يقودانني الى الأيمان أنها تحوز معرفة غير طبيعية ، وأنها تمسك في يدها مفتاح جميع معميات الحياة ، وهذا هو السبب الذي يجعلها على الدوام مبتهجة واثقة من نفسها . لعلني فاقمت من حبي لها نتيجة لما لم أفهمه فيها ، ولكن الحقيقة كانت أني أحببتها بكل ما في شبابي من سلطان وهوىً . كان يؤلمني أن أكتم هوىً أذواني وأضناني جسدياً . ولوكنت اخشن وأبسط لكان ذلك أفضل لي ، غير أنني آمنت أن العلاقة بين الرجل والمرأة شيء أعظم من مجرد الرباط الجسدي الذي عرفته في أكثر أشكاله وحشية . على ذلك الغرار كان ينفخ فيّ اشمئزازاً ، على الرغم من أنني كنت شاباً قوي البنية متين الجسد ، صاحب مخيلة سهلة القياد والانطلاق .

كيف يجب أن أمتلك مثل هذا الحلم الرومانطيقي أمر أعجز عن الافصاح عنه ، ولكن ايماني كان ثابتاً بخصوص شيء أبعد من كل ما كنت أعرف ، شيء يضم في جوانحه المعنى النبيل والخفي لصلات الرجل بالمرأة ، شيء عظيم ، مفرح ، بل مرعب ، يمكن الكشف عنه من العناق الأول . وآمنت أن ذلك الذي اختبر هذا الفرح العظيم سيتحوّل كلياً .

ليخيّل اليّ أني لم أستخلص هذه التصورات من الكتب

التي قرأت : لقد تعهدتها بالرعاية كيما تنشأ على الشرّ ؛ ذلك أني ، كما قيل ، «جئت الى هذا العالم كيما أختلف معه» .

وفضلاً عن ذلك كانت لي ذكرى غريبة غامضة : ففى مكان ما وراء حدود الواقع ، في زمن مبكر من وجودي ، تعرضت لتشوش روحي عظيم ، خوف حلو ، أو لعله – نذير انسجام ، فرح أكثر اشراقاً من الشمس ابان شروقها . لربما حدث وأنا لا أزال في رحم أمي أن الطاقة العصبية لفرح عظيم تعرضت هي له انتقل اليّ في ومضة نارية خلقت روحي ، وأشعلت فيها الحياة ؛ وربما كانت تلك اللحظة من لحظات ذهول نشوة أمي قد قذفت بي الى الحياة أحمل توقعاً كامناً وعاطفيا بشيء غير مألوف أحصل عليه من امرأة .

ما لا يعرفه المرء فهو يتصوّره . والأكثر حكمة بين الأمور التي تعلم أن يفعلها هو أن يحبَ امرأة ويعبد فتنتها . وكل ما هو جميل في الوجود ولد من حبه للمرأة .

ذات يوم ، وأنا أستحم في النهر ، غطست تحت كوثل قارب لنقل البضائع ، وصدمت صدري بسلسلة المرساة حيث علقت بها قدمي . وهنالك تعلقت ، ورأسي في الماء ، الى أن سحبني سائق عربة للنقل . أخرجوا الماء من صدري ، وفركوا جلدي بشدة . مرضت وبصقت دماً ، ووضعوني في الفراش وجعلوني أمص جليداً .

جاءت سيدتي لرؤيتي . جلست الى جانب سريري واستوضحتني كيف حدث ذلك ، وفركت جبهتي بيدها الغالية وترنّت اليّ بعينيها القلقتين السوداوين .

سألتها ما اذا كانت عاجزة عن رؤية حبي لها .

أجابت في ابتسامة محترسة :

– بلى ، أنا أراه ، وهذا سيىء جداً ، رغم أني أحبك أيضاً .

وثبت الأرضُ حين تفوهت هي بتلك الكلمات ، وترنحت الأشجار في الحديقة طرباً . خرس لساني نشوة وانشداهاً . دفنت رأسي في حجرها ، ولو لم أمسك بها بشدة لكنت قميناً أن أسبح عبر النافذة مثل فقاعة من الصابون .

نبرت في حدة ، وهي تحاول اعادة رأسي الى الوسادة :

– كفّ عن الحركة فهي تسيىء اليك . وان لم تجنح الى هدوء أرحل الى بيتي . يا لك من شاب مجنون ! أبداً لم أعرف لك مثيلاً ! أما بالنسبة الينا والى أحاسيسنا – فلسوف نتحدث عنها عندما تتحسن صحتك .

كانت تتحدث في رباطة جأش تامة ، والبسمة في عينيها المتألقتين تفيض حناناً لا وصف له . وما أسرع أن ذهبت ، وتركتني ألتظي أملاً وأفيض ثقة من أنني ، بعون منها ، سأحلق في عالم من الأفكار والمشاعر الجديدة .

بعيد عدة أيام كنا نجلس في حقل على حدود أخدود في ضواحي البلدة . والريح تحفحف الأدغال الصغيرة تحتنا . وسماء شاحبة تنذر بالمطر . وأشارت اليّ بكلمات عملية رتيبة موضحة الفارق في عمرينا ، قائلة ان عليّ أن أشرع في الدراسة ، وان الاوان لم يأت لأثقل كاهلي بزوجة وولد . ونجحت تلك الحقائق الموحشة ، المترسّلة بنغمات أم تخاطب ابنها ، في اغداق مزيد من حبي واحترامي لها . كان الاصغاء

الى صوتها وكلماتها الحنون يحزنني ويسعدني معاً . أبداً من قبل لم يحدثني أحد على هذا الغرار .

ألقيت بصري الى الاخدود المتثائب حيث الأدغال ، وقد مسحتها الريح ، تشبه نهراً أخضر اللون سريع الجريان ، وأقسمت في صميم فؤادي أن أعوّضها عن عاطفتها التي أبدتها نحوي بأن أهب لها روحي بأسرها .

سمعت اليها تقول في عذوبة :

– ينبغي أن نفكر جيداً قبل اتخاذ أي قرار .

كانت تصفع ركبتيها بقضيب من شجر الجوزية وقد جلست تحدّق في اتجاه البلدة المدفونة تحت خضرة بساتينها .

– طبيعي أنني يجب أن أحدث بولسلاف . فهو يرتاب في أمر من الأمور وينتابه القلق . وأنا لا أحب المآسي .

كان ذلك بالغ الحزن والجمال ، وبدا من بعد أن فيه مسحة من السخر والخشونة أيضاً .

كان سروالي عريضاً بالنسبة اليّ عند الخصر ، وكنت قد جمعت أطرافه بدبوس من النحاس طوله قرابة ثلاثة انشات (مثل الدبابيس لم يبق تصنيعها قائماً ، وذلك من حسن حظ العشاق المفلسين) . وظل الدبوس يخزني ، وما أن آتيت حركة عابثة حتى انغرز في جنبي . استطعت أن أنتزعه ، وأذعرني أني شعرت بالدماء تتدفق من جرحي وتبلل سروالي . لم أكن أرتدي شيئاً من الملابس الداخلية ، وكانت سترة الطاهي تصل الى خصري . فكيف يتسنى لي أن أنهض وأسير بسروال مبلل ملتصق بساقيّ ؟

انطلقت ، وقد أدركت مقدار سخافة ذلك الحادث

وغضبت لشكله الهزلي هذا ، أتحدث مستثاراً في صوت غير طبيعي لممثل نسي كلمات دوره .

أصغت اليّ فترة ، في انتباه أول الأمر ، ثم فى ارتباك واضح .

قالت :

– يا للجمل الطنانة ! أنت لا تشبه نفسك على الاطلاق .

تلك كانت القشة الأخيرة . فخرست مثل المخنوق .

– حان أوان العودة الى البيت . فلسوف تمطر السماء .

– سأبقى هنا .

– لماذا ؟

ماذا كان يمكنني أن أقول ؟

استفسرت ، وهي تنظر بحنان في عينيّ :

– هل أنت غاضب مني ؟

– أوه ، أبداً ! أنا غاضب من نفسي .

قالت ، وهي تنهض :

– ولا ينبغي أن تغضب من نفسك أيضاً .

لم أستطع أن آتي حركة . وبينا أنا جالس في تلك البحيرة الدافئة تخيلت أن الدماء تنصبّ من جنبي مطلقة صوتاً لا يمكن الا أنها سمعته ، وأنها سرعان ما تسألني :

– ما هذا ؟

تضرّعت اليها في ذهني قائلاً :

– اذهبي .

خلعت عليّ بسخاء بعض كلمات أخرى لطيفة ، واستدارت وسارت مبتعدة على طول حافة الأخدود ، تتغايد

برقة على ساقيها الجميلتين . راقبت جسدها النحيل وهو يتصاغر الى أن غابت عن بصري . وعندها طوّحت نفسي على الأرض ، وقد سحقتني حقيقة أن هذا الحب ، حبي الأول ، سيكون تعسا .

وهذا ما حدث . ذرف زوجها دموعاً وغمغم طوفاناً من الهراء العاطفي والشكاوة ، فما استطاعت أن تتخذ قرارها بالسباحة الى جانبي عبر ذلك التيار الدبق .

عالنتني والعبرات في عينيها :

– هو يائس وأنت قوي ! وهو يقول انني اذا هجرته فسيشحب مثل وردة لا ترى الشمس . . .

قهقهت وأنا أذكر الساقين القصيرتين البدينتين ، والوركين المخنثين ، والبطن الشبيهة بالبطيخ لتلك «الوردة» . كان ثمة ذباب في لحيته – فالذباب يعثر فيها دائماً على شيء يطعمه .

ابتسمتْ ، واعترفت قائلة :

– صحيح ، انه كلام مضحك . ولكن الأمر صعب جداً بالنسبة اليه حقاً .

– وهو صعب بالنسبة اليّ أيضاً .

– أوه ، ولكنك شاب وقوي . . .

للمرة الأولى في حياتي أحسست أني عدو لرجل ضعيف . وغالباً ما كنت ألاحظ مؤخراً ، في مناسبات أكثر جداً ، مقدار اليأس الفاجع الذي يصيب الأقوياء حين يطوقهم الضعفاء ، ومقدار الطاقة الثمينة للقلب والعقل التي تضيع على صيانة الوجود العقيم لأولئك الذين انتوت الطبيعة هلاكهم .

بعيد ذلك بفترة قصيرة ، وأنا نصف مريض وعلى وشك

أن أصاب بالجنون ، رحلت عن البلدة وجعلت طوال سنتين تقريباً أجوب طرقات روسيا. فاجتزت وديان الفولغا والدون، وهمت على وجهي عبر أوكرانيا ، والقرم ، والقوقاز ، واختزنت انطباعات لا يحصرها حدّ ، وشاركت في مختلف أشكال المغامرات ، وغدوت أكثر خشونة وأشد امتعاضاً مني قبلاً ، ومع هذا فقد حفظت في أعماقي صورة تلك المرأة رغم أني التقيت كثيرات كن أفضل منها وأكثر حكمة .

وحين أنبئت ذات يوم خريفي وأنا في تيفليس ، بعيد مرور أكثر من عامين ، أنها رجعت ادراجها مرة أخرى من باريس ، واغتبطت لدن سماعها أني مقيم في البلدة ذاتها ، فقد أغمي عليّ للمرة الاولى في حياتي ، وأنا ذلك الشاب القوي الذي يغازل الثالثة والعشرين من عمره .

لعلني كنت لا أجد ما يكفي من شجاعة فأمضي اليها وأراها لو لم ترسل هي اليّ دعوة عن طريق احدى صديقاتها .

وجدتها ابهى جمالاً وفتنة منها قبلاً . كانت لها ذات الملامح الطفولية ، وذات اللون الشهي ، وذات الوميض الحنون المنبعث من عينيها . وكان زوجها قد تخلّف في فرنسا ، وجاءت وحدها برفقة ابنتها ، الفتاة الجميلة الحلوة مثل أنثى الأيل .

كان ثمة عاصفة في عنفوان ثورتها حين ذهبت لرؤيتها ، والهواء يصخبه تهطال المطر ، وأنهار منه تتدفق عن جبل القديس داود ، وتندفع عبر الشوارع في قوة تقتلع الحصى . وكان المنزل يهتز بفعل الرياح ، وانصباب المياه الغاضب ، وعنفوان الدمار وتصخابه . وكان زجاج النوافذ يهتز ،

والغرفة تضيئها على الدوام ومضات زرقاء ، وبدا كل شيء وكأنه يتهاوى في حفرة لا قاع لها .

دفنت الابنة المذعورة رأسها تحت ملاءة السرير ، ووقفنا نحن الى النافذة يعشي عيوننا البرق ، نتهامس دون أن نعرف لتهامسنا سبباً .

جاءني صوت محبوبتي يقول :

– لم أر من قبل مثل هذه العاصفة .

سألت هي على حين فجأة :

– حسناً ، هل تغلبت على مشاعرك نحوي !

– كلا .

أبدت دهشتها ، وقالت في صوت هامس ايضا :

– يا الهي ، لكم تغيرت ! أنت شخص مختلف كلياً !

غرقت على مهلة في مقعد وثير الى جانب النافذة ، تجفل مقطبة حينما تومض صفحة حية من البرق ، وتهمس :

– ثمة أحاديث كثيرة عنك . ما الذي جاء بك الى هنا ؟ حدثني عن نفسك .

يا الله ! لكم كانت صغيرة جذابة !

ظللت أتحدث حتى انتصف الليل وكأنني أعترف لها . كانت الطبيعة في سماتها الشرسة تستفزني على الدوام وتجعلني اتهلل الى درجة التوحش . لا ريبة أني كنت أتحدث بصورة جيدة ، وقد اقتنعت بذلك من الانتباه المتوتر الذي أصغت اليّ به والنظرة الجامدة في عينيها المفتوحتين عن آخرهما . كانت تكتفي بأن تهمس بين حين وحين :

– هذا فظيع !

حين انصرفت لم يفتنني أنها ودعتني مـــن دون تلـــك الابتسامة المشجعة التي يبديها الكبار للصغار والتي كانت تخلعها عليّ في مواضي الأيام . سرت في الشوارع المبللة أراقب منجل الهلال الرهيف يجزّ السحب ، ورأسي تدوّم به السعادة . أرسلت اليها في اليوم التالي القصيدة التاليـــة بالبريد (ظلت تكثر من تردادها بعيد ذلـــك حتى انطبعت سطورها في ذاكرتي) :

سيدتي !
كلمة حنون ، ونظرة عطوف
تكفيان لتجعلا عبداً خنوعاً
من هذا الساحر ،
الصنّاع في فن تحويل
التوافه وصغار الأمور
الى أفراح قليلة .
فلتقبلن نفسك هذا العبد !
فلعله يحول الأفراح الصغيرة
الى سعادة غامرة .
أفما خلق العالم العظيم
من أجزاء صغيرة صغيرة ؟
أنا لا أعترف بعالم يغمره المرح ،
عالم من الأفراح النادرة الضئيلة ؛
ومع هذا تكون له ناحية ساخرة :

عبدك الخنوع ، على سبيل المثال ؛
وله ناحية جميلة أيضاً :
وهل هنالك من هو أجمل منك ؟
لكن ، مهلاً !
أتستطيع مسامير الكلمات الكليلة
أن تثبت حلاوتك السماوية . . .
يا أجمل زهرات الأرض القليلة ؟

لا ريب أن هذا لا يمكن أن يسمى شعراً ، ولكنه كتب باخلاص مرح .

وهكذا فأنا أجلس ، مرة أخرى ، قبالة الكائن الأكثر روعة في العالم ، الكائن الذي لا أستطيع حياة من دونه . كانت ترتدي فستاناً أزرق اللون يتهدل حواليها في ثنيات رقيقة ولا يخفي تقاطيع جسدها الرشيق . وهي تتحدث بكلمات فريدة من حيث جلست تلهو بشُرابات حزامها ، وقعدت أنا أراقب حركات أصابعها الرقيقة المنتهية بأظافر وردية اللون وأتخيلني مثل كمان يداعبه موسيقي ماهر وحنون . كنت أتوق أن أموت ، أتوق أن انشق هذه المرأة في روحي لكي تلازمني الى الأبد . كان جسدي يترنم متوتراً ويؤلمني الى أبعد الحدود ، ويتراءى لي أن قلبي يجب أن ينفجر .

قرأت عليها قصتي الأولى (وكانت قد نشرت لتوّها) ولكنني لا أذكر رأيها فيها . ويبدو أني أتذكر قولها في انشداه :

– وهكذا فقد جعلت تكتب النثر !

وسمعتها ، كالحالم ، تسترسل :

– لقد شغلني التفكير فيك كثيراً خلال هاتين السنتين . أحقاً انني سبب تحملك لهذه الويلات كلها ؟

همهمت شيئاً عن أنه ليس ثمة شيء من الويلات في عالم تعيش هي فيه .

– ما ألطفك . . .

غلبنى التوق إلى عناقها ، وكنت أملك ذراعين طويلتين ويدين كبيرتين إلى درجة حمقاء ، فما جرؤت على لمسها خشية من إيذائها . وهكذا انتصبت هنالك ، أتأرجح مع خفقان قلبى وأتمتم :

–تعالى وعيشى معي . أتوسل اليك أن تعيشي معى !

ضحكت فى عذوبة وشيء من ارتباك ، كما بدا لي ، وتألقت عيناها الغاليتان بصورة تعشى البصر . انسحبت إلى إحدى الزوايا فى الغرفة ، وقالت من هناك :

– إليك ما سنفعل : ترجع إلى نيجني نوفجورود وأبقى أنا هنا أفكّر في الأمر . ثم أكتب إليك . . .

انحنيت في احترام ، مثل بطل إحدى الروايات التي قرأتها ، وانصرفت . . . على متن الهواء .

في ذلك الشتاء انتقلت وابنتها اليّ في نيجني نوفجورود . «حتى الليالي تغدو قصيرة حينما يتزوج الفقير» . هذه

هى الحكمة الكئيبة الساخرة لمثل شعبي روسي . وقد دلتني تجربتي الخاصة على صدق هذا القول .

استأجرنا منزلاً كاملاً لقاء روبلين اثنين في الشهر – حمام في بستان دار الكاهن . أشغلت أنا المدخل وانتقلت زوجتي إلى الحمام ذاته الذي صرنا نستخدمه غرفة استقبال أيضاً . لم يكن البناء يليق بحياة زوجية – فالجليد يتشكل في زواياه وعلى طول الشقوق فيه . وكنت أعمل ليلاً في أغلب الأوقات ، وقد تدثرت بجميع الثياب التي لديّ فضلا عن سجادة فوقها ، ورغم هذا أصبت اصابة بالغة بداء الروماتزم – وهو شيء لم يكن متوقعاً على الإطلاق إذا اعتبرنا صحتي وطاقتي على الاحتمال التي كنت أُفخر بها في ذلك الحين .

كان الحمام نفسه دافئاً ، لكنني ما أن أشعل النار في الفرن حتى يعج مسكننا برائحة الصابون واوراق البتولا والخشب المتعفن . وكان ذلك يجعل الفتاة الصغيرة (الدمية البورسلانية صاحبة العينين الجميلتين) تزداد عصبية وينتابها الصداع .

فى الربيع تروح العناكب ودويبات الخشب تتخذ من الحمام مسكناً . وتصاب الأم وابنتها باغماء لدى رؤيتهما هذه الحشرات ، فأضطر أنا الى قتلها «بالكلوش المطاطى» . وكانت تعلو نوافذنا الصغيرة أكداس من الشجيرات وأدغال توت العليق التي تبقي الغرفة في حال من الغسق ، لكن الكاهن النزوى السكّير لا يسمح لى باجتثاثها أو حتى تشذيبها .

لا ريبة أنه كان في مقدورنا العثور على منزل أكثر ملاءمة ،

لكننا كنا مدينين للكاهن بمبلغ من المال ، كما كنت موضع اعجابه إلى حدّ أنه لا يأذن لى بالرحيل .

كان يقول :

– لسوف تألف ذلك . وإذا لم يكن كذلك ، فادفع لي مالي وارحل حيثما يطيب لك – وحتى الى الانكليز ، فذلك لا يهمني .

كان يكره الانكليز . فيؤكد قائلاً :

– هم كسالى ، ولم يخترعوا شيئاً سوى لعب الورق ولا يجيدون القتال .

كان مخلوقاً ضخم الجثة له وجه مدور أحمر اللون ولحية مسترسلة حمراء ، ويعبُّ من الخمرة عباً حتى يعجز عن تقديم الصلوات في الكنيسة . وكان يعاني كثيراً من هوى خياطة قميئة البنية ، مستدقة الأنف ، فاحمة الشعر تشبه غراب الزيتون .

كان يلطم العبرات عن لحيته براحة يده ، وهو يروي لى أخبار الحيل التي يخدعها بها :

– أعرف أنها مستهترة ، ولكنها تذكرنى بالشهيدة فيمياما ، وهذا ما يجعلني أحبها .

فتشت عن هذه الشهيدة فى سجل القديسين ، ولم أعثر لها على أثر .

أسخطه أني سأشبُّ غير مؤمن ، فحاول أن يثير روحي بما كان يحذرنى منه على المنوال التالى :

– أنظر إلى ذلك من وجهة نظر عملية ، يا بنيّ : هنالك ملايين من المؤمنين ، وبضع عشرات أو قرابة ذلك من غير

المؤمنين . ففيم هذا ؟ لأن روحاً من دون كنيسة أشبه بسمكة من دون ماء . أتفهم ؟ فلنشرب قليلاً نخب ذلك .

— أنا لا أشرب . . . فالشراب يضرّ المصاب بالروماتزم .

ويشك قطعة من سمك الرنكة بشوكته ، ويلوّح بها فوق رأسه ، ويقول متوعداً :

— وهذا أيضاً لأنك من دون إيمان .

لم أكن أستطيع النوم في الليالي بسبب من خجلي لأنني أسكن محبوبتي في ذلك الحمام ، ولأنني لم يكن يتوفر لديّ في أغلب الأوقات مال أبتاع به لحماً للغداء أو دمية للطفلة ، ولانني اغرقتها في هذا البؤس اللعين الساخر . لم يكن الفقر يربكني شخصياً ، ولكنه كان مذلاً فاجعاً لأن تلك المرأة الانيقة المهذبة ، وبخاصة ابنتها ، تضطران لاحتماله .

في الليالي كنت أجلس إلى منضدتي في الزاوية أنسخ وثائق قانونية أو أكتب قصصاً وأطحن أسناني وأصب اللعنات على نفسي ، وحبي ، وقدري ، والناس جميعاً .

وكانت محبوبتي على كثير من رحابة الصدر ، فهي أشبه بأم تأنف أن يرى ولدها مبلغ قساوة الحياة بالنسبة إليها . فلم تفلت من بين شفتيها أية شكوى من هذه الحياة المبتذلة ، وكلما زادت ظروفنا قسوة زاد صوتها إشراقاً وضحكتها سعادة . وكانت ترسم صوراً للكهنة وزوجاتهم اللواتي انتقلن إلى الحياة الأخرى ، منذ الصباح حتى المساء ، كما تنشىء خرائط للمنطقة . وقد نالت مرة الادارة المحلية ميدالية ذهبية عن هذه الخرائط في أحد المعارض . وحين لا تتوالى عليها طلبات الرسوم فهي تقوم بصنع قبعات باريسية عصرية

للنساء في شارعنا من قصاصات من الحرير والقش والأسلاك المعدنية . لم أكن خبيراً بقبعات النساء ، لكن ابتكاراتها الغريبة كانت هزلية على درجة كبيرة ، حتى ان صانعتها تنفجر ضحكا كلما جربت واحدة منها أمام المرآة . وكان لهذه القبعات الخيالية تأثير غريب على كل من ترتديها ، فتنفخ أوداجها في فخار غريب وهي تتبختر في الشارع وعش العصافير جاثم على رأسها .

عملتُ كاتباً لدى أحد المحامين ، وكنت أكتب قصصاً للصحف المحلية ، وأقبض كوبيكين اثنين عن كل سطر من أسطر جهودي الخلاقة . وحين لا يكون لدينا ضيوف على الشاي عشية فإن زوجتي تسليني برواية أقاصيص من أيامها الدراسية وحين قام القيصر ألكسندر الثاني بعدة زيارات إلى المدرسة الداخلية في بيلوستوك . ودعا الفتيات النبيلات على نوع من السكاكر جعل من بعضهن حاملات بوسيلة عجائبية ، ومن وقت لآخر كانت واحدة من أروع الفتيات بهاء ترافقه في رحلات للصيد إلى أرض محظور فيها الصيد في الغابة بيلوفيجسكايا ، ومن بعد تذهب إلى بطرسبورغ مباشرة ليعقد قرانها .

روت سيدتي لي كثيراً من الأمور الممتعة عن باريس . كنت قد عرفت عنها أشياء كثيرة من خلال مطالعاتي ، وبخاصة من المجلد المعتبر الذي كتبه مكسيم دو كان . لقد تعرفت على باريس في مقاهي مونمارتر وفي هرجلة الحي اللاتينى . وجدت أقاصيصها أكثر إثارة من الخمرة ، فكتبت أناشيد

تسبيح بالمرأة وأنا مقتنع أن الجمال كله في العالم أوحـــاه حب نحوها .

كنت أكثر استمتاعاً بالاصغاء الى قضايـــا غرامهـــا الشخصية - كانت تحدثني عنها في أسلوب أخاذ وفي صراحة مطلقة تثير ارتباكي في كثير من الأحيان . كانت ترســم لي ضاحكة ، وكلماتها تشبه ضربات قلــم رشيــق ، صورة للجنرال الذي خُطبت له . حدث مرة خلال حفلة صيد ملكية أن أطلق رصاصاً الى ثور بري دون أن يفسح المجال للقيصر أن يقوم بذلك أولاً ، ثم راح يهتف بالحيوان الجريـــح : «اصفح عنى ، يا صاحب الجلالة !» .

حدثتنى عن المهاجرين السياسيين الروسيين ، وفيمـــا كانت تتحدث كنت أنا أتخيّل تراقص ابتسامة من الكياســة واللطف على شفتيها . كان اخلاصها فى بعض الأحيان يجعلها ساخرة بصورة ساذجة ، فتروح تمرّر ذروة لسانها الوردية على شفتيها مثل قطة صغيرة ، ويومض فى عينيها نور غريب . وأحياناً بدا لي انه تومض فيهما شعلة من القرف . ولكنها تبدو في غالب الأحيان مثل طفلة صغيرة مستغرقة في اللعب بدُماها .

قالت لي ذات يوم :

- عندما يستغرق الحب روسيا فهو يغدو ثرثاراً يبعث على الضجر - وأحياناً يصير فصيحاً إلى حدٍّ بغيض . وحدهم الفرنسيون يعرفون كيف يفعلون الحب . فالحب بالنسبة إليهم يكاد أن يكون ديناً .

غدوت بعد ذلك ، رغماً عني ، أكثر انكماشاً وجزعـــاً معها .

قالت عن النساء الفرنسيات :

– ليست قلوبهنّ على الدوام عامرة بالحنان ، ولكنهنّ بدلاً من ذلك يعوضن انغماساً في الشهوات الجنسية تعهدنه بالتهذيب إلى أقصى حدود الرعاية . فالحب بالنسبة إليهن فن من الفنون .

كانت نغمة صوتها وقورة مضيئة وهي تروي لي تلك الأمور . ولم أكن في مسيس حاجة إلى مثل هذه المعرفـــة ، ولكنها معرفة على أية حال ، فنهلتها على شره .

قالت لي ذات ليلة مقمرة :

– الفارق بين النساء الروسيات والفرنسيات قد يكون ذاته كالفارق بين الفاكهة وكراملا الفاكهة المطيبة .

هي نفسها كانت كراملا . أدهشتهـــا كثيراً خلال الأيام الأولى من حياتنا معاً حين بسطت لها في حماسة وجهات نظري الرومانطيقية عن العلاقات بين الرجال والنساء .

سألتني ، وهي تستلقي بين ذراعي مستحمة بنور القمر الأزرق :

– أتتحدث جاداً ؟ أتظن هذا حقاً ؟

كان جسدها الشاحب شفافاً يعبق بشذى اللوز المسكر . وأصابعها الرشيقـــة تلهو شاردة الذهن بشعري ، وثمـــة ابتسامة مرتابة على شفتيها وهي ترنو إليّ بعينين متسعتين قلقتين .

هتفت ، وقد وثبت إلى الأرض وجعلت تراوح وتغادي بين الضوء والظلال :

– أيتها السموات الطيبة !

كان جسدها الوسيم يومض مثـــل الساتان حين تنصب عليه أشعة القمر ، وقدماهــــا الحافيتان تلمسان عوارض الأرض الخشبية دون أن يندّ عنهمـــا أدنى صوت ، رجعت إليّ ، ووضعت يديهـــا على وجنتيّ ، وهي تعلن في صوت أمومي :

– لا بدّ أن تبدأ حياتك الزوجية مع فتاة بريئـــة –

اجل ، لا ريب في ذلك ! ما كان ينبغي أن تكون معي . . .

حين أخذتها بين ذراعي شرعت تنوح وتسألني في عذوبة :

– أنت تعرف حقاً مقدار ما أكنّ لك من الحب ، أليس كذلك ؟ أبداً لم أعرف السعادة مع أي كان مثلما عرفتهـــا معك – هذه هي الحقيقة ، وعليك أن تصدقني . أبداً لم أحبّ أحداً غيرك بمثل هذا الحنوّ وهذا القلب الجذلان . ولا تستطيع أن تتصور روعة وجودي معك ! ومع هذا أقول اننا ارتكبنا خطأ – فأنا لست المرأة المناسبة لك والتي تحتاج اليها . انا التي اخطأت .

لم أفهمها . أرعبتني كلماتها ، فأسرعت أخنق اكتئابها في ملاطفات مفرحة . لكن كلماتها الغريبة التصقت بذاكرتي . بعيد عدة أيام قالت لي من جديـــــد ، في فيض من عبرات الوجد :

– آه لو كنت فتاة بريئة !

أذكر أن الليلة كانت عاصفـــة ، وأغصان الشجيرات

تضرب على زجاج النوافذ ، والرياح تعول في المدخنة ، والحجرة مظلمة باردة تعجّ بخشخشة ورق الجدران الممزق .

كلما توفرت لدينا بعض روبلات فائضة كنا ندعو أصدقاءنا الى عشاء لذيذ : لحم ، وفودكا ، وبيرة ، ومعجنات ، ومختلف الأصناف الجيدة الأخرى . وكانت لفرنسيتي شهية منفتحة وضعف أمام الطعام الروسي . السيشوك (معدة بقرة محشوة بالحنطة السوداء ودهن الأوز) ، وفطائر مملوءة بسمك القرموط ، وحساء من لحم الضأن والبطاطا .

عملت على تأسيس «أخوية البطون النهمة» وانضمّ اليها قرابة عشرة اعضاء من الاصدقاء الذين يستمتعون بتناول وجبات مشبعة من الطعام ويغتبقون أطيب الشراب ، وكانت لهم معرفة ممتازة بفن الطهو ، ويستطيعون أن يلقوا فيه محاضرات بليغة لا يتطرق التعب اليهم . وكنت منصرفاً الى فن من نوع آخر ، فآكل قليلاً وأجد قليلاً من المتعة في مجال الغذاء – فهو لم يكن مندرجاً ضمن متطلباتي المتعلقة بعلم الجمال .

«أكياس فارغة» ، هذا هو الاسم الذي أطلقته مرة على اخوان البطوان النهمة .

فأجابتني :

– كل انسان يفرغ اذا هززته جيداً . فقد قال هايني مرة : جميعنا عراة تحت ثيابنا .

كانت لها معرفة وافية بالاقتباسات الساخرة ، وبدا لي أنها لا تستخدمها دائماً على نحو ملائم .

كانت مغرمة بأن «تهز جيداً» أعضاء الأخوية من الذكور ، ولها في ذلك براعة لا تخيب . وكان ذكاؤها ومرحها يتيحان لها اغداق الحيوية على كل الأمور حيثما كانت ، وتثير مشاعر لم يكن سموها رفيعاً . كانت أذنا المرء تحمران بعد حديث قصير يجريه معها ، ثم تتقرمزان ، ويطوف سديم في عينيه ، فيروح يحدق فيها مثلما تحدق معزاة بحقل من الملفوف .

أعلن مساعد الكاتب بالعدل ، وهو نبيل رث الثياب طفح وجهه بالثآليل وكبرت بطنه حتى أشبهت قبة كنيسة :

– يا لها من امرأة مغناطيسية !

وكتب لها طالب أشقر الشعر من ياروسلافل شعراً – منظوما بالتفاعيل . وجدت ذلك الشعر كريها تعافه النفس ، ولكنه يضحكها حتى تفيض عيناها بالعبرات .

سألتها مرة :

– فيم تثيرين مشاعر هؤلاء الرجال ؟

فقالت :

– انها رياضة حلوة مثل صيد السمك . يطلق عليها اسم الغزل بقصد العبث . وليس هنالك امرأة تحترم نفسها في هذا العالم لا تطربها هذه الأمور .

كانت تنعم النظر في عيني متخابثة ، وتستوضح :

– تتأكلك الغيرة ؟

أبداً ، لم تكن الغيرة تتأكلني ، ولكنني كنت متضايقاً . فأنا لا أطيق السوقية . كنت بطبيعتي مرحاً ، وتيقنت أن قابلية الضحك موهبة من مواهب المرء الأكثر سمواً . وقد احتقرت مهرجي السيرك وكوميديي المسرح لأن في مقدوري

التغلب عليهم في هذا الميدان . وما اكثر ما جعلتُ ضيوفنا يغرقون في الضحك حتى تؤلمهم خواصرهم .

قالت لي مرة :

– كان في مقدورك ان تكون كوميدياً رائعاً . ينبغي أن تمثل على المسرح . حقاً ينبغي أن تفعل ذلك !

هي نفسها كانت تمثل بصورة ناجحة في حلقات للهواة حتى انها تلقت عروضاً من منتجين محترفين .

قالت :

– أنا أحب المسرح ، ولكنني أخاف مما وراء الكواليس .

وكانت صادقة في تفكيرها ، وكلماتها ، ورغباتها .

كانت تخاطبني قائلة :

– أنت تتفلسف كثيراً . الحياة في جوهرها خشنة بسيطة . وليس هنالك شيء من الاحساس في تعقيدها بالتفتيش عن معانيها المخبوءة – الشيء الوحيد الذي يستطيع المرء ان يعمله هو أن يجعلها أقل خشونة . وليس هنالك من يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك .

شعرت أن هنالك كثيراً من علم أمراض النساء في فلسفتها ، وكان انجيلها المقدس كتاب «مقرّر علم القبالة» . وقد أخبرتني ، هي نفسها ، عن الصدمة التي تلقتها حين تركت مدرسة الفتيات وقرأت كتابها العلمي الأول :

– كنت البراءة كلها فبدا أن خفاشاً ضربني على رأسي . فتهاويت من السحب الى الطين ، وبكيت على ذلك الأيمان الذي أضعتُ . وسرعان ما شعرت ان الأرض تحت قدمي صلبة ثابتة ، رغم انها خشنة . والشيء الذي بكيت عليه

كثيراً هو الله – فقد أحسست أني قريبة منه جداً ، وعلى حين فجأة تلاشى هو في الهواء ، مثل دخان اللفافة ، وتلاشت معه أحلامي السامية عن الحب . لكم أغرقنا في تفكيرنا ، وكم تحدثنا أحاديث عذبة عن الحب في المدرسة !

نفّرتني عدَميّتها – خليط من سذاجة طالبة مدرسة ودنيوية باريسية . كنت أهبّ أحياناً عن منضدتي في الليل وأذهب لالقاء نظرة عليها . كانت تبدو أكثر صغراً ، وأكثر رقة وجمالاً وهي في السرير ، وفيما أنا أرنو اليها كنت آسف بمرارة على تقلبات الحياة التي لوت روحها . وكانت شفقتي عليها لا تفعل أكثر من تمتين حبي لها .

كان ذوقانا الأدبيان على طرفي نقيض : فأنا معجب ببلزاك وفلوبير ، وهي تفضّل بول فيفال وأوكتاف فييّي وبول ده كوك . وكانت مولعة بصورة خاصة برواية «زوجتي الصبية جيرو» التي تعتبرها احدى الروائع الأكثر طرافة مما قرأت . ووجدتها أنا باعثة على الضجر مثل المدونة الجزائية . فيما عدا هذه الأمور كنا في أحسن حال ، لا يملّ أحدنا الآخر ولا يكفّ عن التهيام به . ولكنني أدركت في السنة الثالثة من حياتنا معاً شيئاً مثل نذير السوء يضطرب في داخلي – يضطرب في الحاح كثير . كنت أقرأ وأدرس بصورة مكثفة في ذلك الوقت ، وبدأت أنظر الى كتاباتي نظرة جدية . وكان ضيوفنا الكثيرون يضيقون على عملي ، ومعظمهم أناس لا شأن لهم ، وقد شرعت أعدادهم تتزايد لان زيادة مدخولنا كانت تسمح لنا باقامة مآدب الغداء والعشاء مراراً وتكراراً .

كانت الحياة بالنسبة اليها نوعاً من غرفة لعرض البدع

الجديدة ، ولما لم يكن الرجال يحملون لوحة تقول «أبعد يديك عني !» فقد كانت تعاملهم أحياناً بدون احتراس فيترجمون ذلك منها لمصلحتهم الخاصة . ونجم عن ذلك سوء تفاهم اضطررت الى اجلاء غموضه . كنت متهوراً في بعض الأحيان الى درجة بعيدة ، وكنت سخيفاً دائماً . وأذكر جنتلماناً فركتُ له أذنيه مرة راح يشكو :

– حسناً ، أقرُّ أني أخطأتُ ، لكن بأي حقّ يفرك لي أذنيّ ؟ أنا لست تلميذاً في مدرسة ! وعمري يكاد يكون ضعف عمره ، وهذا هو يفرك أذني ! ان لكمة على الفك كان يمكن أن تكون أكثر وقاراً .

ويبدو أني لم أكن خبيراً في فن انزال العقوبة المناسبة يمكن أن تكون أكثر وقاراً .

لم تكن زوجتي تنظر الى أقاصيصي بعين الجد ، ولكنني لم أبد شيئاً من المبالاة بذلك في أول الأمر . فأنا نفسي لم أكن أؤمن أني سأغدو كاتباً . صحيح أني مارست لحظات من الالهام ، ولكنني كنت أعتبر عملي الصحفي ككل مجرد وسيلة من وسائل اكتساب العيش . وذات صباح قرأت «العجوز ايزرغيل» ، ثمرة جهدي ليلة واحدة ، على زوجتي . وما أسرع أن استغرقت هي في النوم . لم يشتملني الغضب أول الأمر . توقفت عن القراة وأمعنت النظر فيها مستغرقاً في التفكير . ان الرأس الذي فتنت به حباً قد تهاوى على ظهر الكنبة المخلّعة ، وافترقت شفتاها ، وراحت تتنفس في رقة وهدوء مثل طفل صغير . وتسللت شمس الصباح من خلال الشجيرات عند

النافذة مبعثرة بقعاً ذهبية اللون أشبه بأزهار شفافة على صدرها وركبتيها . نهضت وخرجت الى الحديقة وقد انجرحت عميقاً وأفعمتني الشكوك فيما يتعلق بمواهبي الأدبية .

أبداً لم أشاهد من قبل في حياتي امرأة لم تنزلق في القذارة والفسق والفقر والحقارة ، أو في رضى عن النفس سوقي ضيق التفكير متخم الى ابعد الحدود . إن طفولتي لم تخلع عليّ غير انطباع واحد – هو الملكة مارغو ، ولكن سلسلة كاملة من جبال أحاسيس أخرى تفصلني عنه . وقد افترضت أن النساء سيغتبطن لقصة حياة إيزرغيل ، وأنها ستثير فيهنّ حنيناً إلى الحرية والجمال ، وهذه هي المرأة التي محضتها ودادي . . . غارقة في لفائف النوم .

لماذا ؟ ألعلّ جرس صاغته الحياة في صدري لا يدق دقاً رناناً ؟

كانت تلك المرأة تشغل في قلبي مكان الأم . وقد رجوت وآمنت أنها ستكون قادرة على أن تحفز قدراتي على الخلق ، وأن سلطانها سيقوى على انتزاع الخشونة التي غذتها الحياة في جوانحي .

حدث ذلك قبل ثلاثين سنة ، وإن ذكراها لترسم على شفتي اليوم بسمة . ولكن حقها الذي لا نزاع فيه في النوم ذلك الحين ، وقد شعرتُ برغبة في النوم ، أصابني بأوجاع وفيرة .

آمنت أن الكآبة يمكن تبديدها بالحديث عنها في مجون . وساورني الشك أيضاً في أن شخصاً استعذب العذابات

البشرية يتدخل في القضايا البشرية : روح شريرة تختلق المآسي العائلية وتدمر حيوات الناس . واعتبرت هذا الشيطان الخفي عدويّ الشخصي ، وبذلت المستحيل للإفلات من حبائله .

أذكر أني لدى قراءتي (في كتاب أولدنبورغ «بوذا ، حياته ، تعاليمه وأتباعه») هذه العبارة «الوجود بأسره يعاني» اغتظت كثيراً . الحياة لم تسبغ عليّ كثيراً من الأفراح ، ولكنني أحسست أن عذاباتها اتفاقية وليست محتومة . وبعد تمعّن وفير في كتاب المطران كريسانف «الدين في الشرق» ازداد ايماني عمقاً أنه ليس أكثر غرابة بالنسبة إلى طبيعتي من تعاليم حول العالم تستند على الحزن ، والخوف ، والآلام . وبعدما عشت فترة متوترة من النشوة الدينية وصلت إلى هدوء التثبت من العبث المخزي لمثل هذا الانفعال . وغدا العذاب منفراً بالنسبة اليّ بحيث كرهت كل أصناف المأساة وبرعت في قلب المأساة إلى ملهاة .

قد لا تكون هناك ضرورة للدخول في مثل هذه الأمور جميعاً لمجرد القول إن «مأساة عائلية» كانت تتطور في منزلنا ، وإن كلاّ منا كان يبذل طاقته للحيلولة دون وقوعها . وقد أذنت لنفسي بهذا الاستطراد الفلسفي كيما أستعيد في ذهني ذلك الدرب الملتوي الذي اجتزته بحثاً عن نفسي الحقيقية .

كانت بهجة زوجتي الفطرية تجعل من المستحيل عليها أن تمثل المأساة – وهي لعبة ما أكثر ما كان يستمتع بها في بيوتهم روسيون «متسكلجون» من كلا الجنسين .

ورغم هذا فقد كانت التفاعيل الشعرية الكئيبة لذلك الطالب الأشقر الشعر تفعل فعلها فيها مثل مطر الخريف . فقد كان يملأ صفحة بعد صفحة من أحد الدفاتر بأشعار يخطها بخطه المدور الجميل ، ويدسها بين صفحات الكتب ، وفى القبعات ، وحتى فى علبة السكر . وحيثما عثرت على مثل هذه الصفحات المطوية فى أناقة كنت أناولها إلى زوجتي قائلا :

– تقبلي هذه المحاولة الأخيرة لاذابة فؤادك !

بادئ الأمر لم تؤات سهام كيوبيد الورقية أى تأثير عليها ، فهى تقرأ الشعر عليّ ونضحك معاً من أمثال هذه الأبيات :

أبداً من أجلكِ أحيا اليومْ
لا أعرفُ أطيافَ الأفراحْ
ضيّعتُ بحبك معنى النَّومْ
وهناُ حياتي مني راحْ
فأطيرُ كصقرٍ لا يرتاحُ
عيناهُ إثرك أنّى راحْ .

وذات يوم ، بعيد مثل هذا الايضاح من قبل الطالب ، قالت متفكرة :

– انى أشعر بالرثاء له .

فرددت أني لا أشعر بالرثاء له هو . فكفّت بعد ذلك عن قراءة هذه الأشعار عليّ .

والشاعر ، وهو شاب قصير البنية قويها يكبرنى أربع

سنوات ، صموت ، دؤوب ، يكثر من الشراب . يحضر أيام الآحاد لتناول الغداء في الساعة الثانية بعد الظهر ويبقى جالساً ، صامتاً لا حراك فيه ، حتى الساعة الثانية صباحاً . وكان ، مثلي ، يعمل كاتباً لدى أحد المحامين . وكان نطاق شروده الذهني يسبب لمستخدمه دهشة بالغة . وكان ، بالاضافة الى ذلك ، مهملا في إنجاز واجباته ، وما أكثر ما يعلن في صوت خشن :

– هذا كله هراء في هراء .

– وما هو ما ليس هراء إذن ؟

فيجيب متأملاً :

– هِمْ . . . كيف أوضح ذلك ؟

ويرفع عينيه الرماديتين الواهنتين إلى السقف . ولم يكتشف قط كيف يوضح ذلك .

كان يمارس ضجراً يستفزني أكثر من أي شيء آخر . وكان يشرب كثيراً ولكنه يسكر في بطء ، ويظلُّ يطلق شخيراً قصيراً راشحاً بالازدراء حين ينال منه السكر . وبصرف النظر عن هذه السمات السلبية ما كنت أستطيع أن أرى فيه شيئاً يلفت النظر ، فان ثمة قانوناً لا يرى الرجل بموجبه غير الأشياء السيئة في رجل يغازل امرأته .

كان له قريب في أوكرانيا يزوده بخمسين روبلاً كل شهر – وهو مبلغ لا يستهان به في هاتيك الأيام . وكان يحضر في أيام الآحاد والأعياد لزوجتي الشكولاته على الدوام ، وأهدى لها في عيد ميلادها منبهاً برونزيا يمثل جذع شجرة وقفت عليه بومة تقتل أفعى من أفاعي الأعشاب . وكانت هذه

الآلة الكريهة توقظنى دائما قبل ساعة وسبع دقائق من موعد يقظتى .

كفّت زوجتي عن تدللها مع الطالب وشرعت تعامله بحنان امرأة تشعر بالتبعة عن اثارة التوازن العاطفى لأحد الرجال . واستفسرتها كيف يؤتى لها أن هذه القضية المؤسية ستتصل إلى نهاية . فقالت :

– لست أدري . ليس لدىّ شعور واضح تجاهه ، ولكنني أريد أن أهزّ مشاعره . يبدو أن شيئاً ما يرقد في داخله قد يكون فى طوقي أن أهبّه من رقاده .

كانت تقول الحقيقة من دون ريب . فهي على الدوام راغبة في أن تُهِبّ أحداً من رقاده ، وقد نجحت في ذلك بصورة تثير الاعجاب . أما الشيء الذى نجحت في ايقاظه على الدوام فهو الحيوانية في الرجال . رويت لها قصة «سيركه» ، فما أفادت شيئاً ، ووجدت نفسي شيئاً بعد شيء محاطاً بالثيران والحيوانات والخنازير .

روى لي معارفي عن حياتي العائلية ما يقفُ له شعر الرأس ، فأجزيتهم عن تعبهم بخشونة وحشية .

كنت أقول :

– سوف أضربكم على مثل هذا الكلام !

تراجع بعضهم بصورة مخزية ، وغضب بعضهم الآخر .

قالت لى امرأتي :

– أنت لا تنجز شيئاً بخشونتك . فهم ينشرون قصصاً أكثر رداءة إذن . مؤكد أن الغيرة لا تنهشك ، أليس كذلك ؟

كلا ، كنت أصغر وأكثر ثقة من أن تنهشني الغيرة .

ولكن هنالك أفكاراً معنية ، وأحاسيس ، وقضايا لا يتحدث عنها المرء إلا لزوجته التي يهيم بها حباً . ان هنالك لحظات من المشاركة العذبة حين يكشف لها عن روحه بأسرهـــا ، مثلما يفعل المؤمن فى حضرة الآله الذى يعبده . وحين خطر لي أنها قد تكشف عن هذه الأشياء في لحظات المودة – وهى من ابتداعي وحدي – لشخص آخر ، فقد كان اليأس يطغى عليّ . كنت أستبصر شيئاً شبيهاً بالتغرير والخداع . لعله هذا الفهم الذي يكمن في أساس كل غيرة .

تأكد لديّ أن الحياة التي أحياها قد تنتزعني عن طريقي المختارة . عرفت حتى ذلك الحين أنه ينبغي أن أهب نفســي كلها للأدب . ولكنه كان يستحيل عليّ أن أعمل في مثـــل هاتيك الظروف .

علمتني الحياة أن اقبل الناس بنقاط ضعفهم ونقائصهم دون أن افقد احترامي لهم أو اهتمامي بهم . وقد حال ذلك بيني وبين إثارة المشاهد المنزليـــــة لحسن الحظ . وقد استطعت حتى ذلك الحين أن أرى أن جميع الناس هم أكثر أو أقل جرماً أمام الآله المجهول للحقيقة المطلقة ، وأنه ليس هنالك من هو مجرم أمام البشرية مثل الذي يعتقد أنه أقوم أخلاقاً من الآخرين . إن هذا الأخير وحش ولد من اتحاد بين الرذيلة والفضيلة وترعرع لا بين العنف والاغتصاب ، بل من خلال الزواج الشرعى ، ولعبت الضرورة المتهكمـــة فى هذا الزواج دور الكاهن . الزواج لغز ينشأ دائماً عن الاتحاد فيه بين متناقضين اثنين شخص عادي رتيب . في هاتيك الأيام كنت مولعاً بالتناقضات مثلما يولع الطفل بالحلوى المتجلدة .

وكانت حيوية التناقض تستحثني وتنبهني مثل الخمرة الجيدة ، وكان التناقض فى الكلمات يلطف من خشونة وأذية التناقضات فى الوقائع .

قلت لزوجتي :

– أعتقد أنه يحسن بي أن أرحل .

فقالت :

– أجل . أنت على حق . هذه الحياة لا تناسبك . أنا أفهم .

بقينا حزينين صامتين فترة من زمن ، ثم تعانقنا ، وغادرت البلدة . واقتدت هي بى سريعاً . فذهبت إلى المسرح .

هذه هي خاتمة قصة حبي الأول – قصة سعيدة رغم أن خاتمتها حزينة .

ومؤخرا ماتت مرأتي الاولى .

فلنشهدنّ لها فأقول انها كانت امرأة حقيقية . كانت تعرف كيف تتقبل الحياة على ما هي عليه ، وكان كل يوم بالنسبة إليها عشية من عشايا العيد . فهي على الدوام تترقب أن الأرض في الغداة ستزهر أزهاراً جديدة تملؤ النفس بهجة ، وأن أناساً رائعين سيطلون على الوجود ، وأن أحداثاً غير عادية لا بدّ أن تحدث .

كانت تسخر من صعوبات الحياة وتزدريها ، وتطردها عنها مثلما تطرد البعوض ، وهي على أهبة الاستعداد دائماً للانشداه في غبطةٍ من حدث طيب . لم يكن ذلك عبارة عن اعجاب ساذج لإحدى طالبات المدارس ، بل كان فرحاً غامراً لإنسان تيمّه هوى تبدلات الحياة الساحرة ، والأشراك

المأسوية والهزلية للعلاقات البشريـــــة ، وطوفان الأحداث اليومية التي تومض مثل ذرات الغبار في شعاع من أشعـــــة الشمس .

لا أستطيع أن أقول انها أحبت الناس ، ولكنها أحبت أن تراقبهم . وما أكثر ما كانت تستعجـــل أو تؤخر تطور مأساة بين رجل وامرأته أو بين عاشقين ، وذلك بتذرية الغيرة من أحدهما ومضاعفة الصبابة في الآخر . هذه اللعبة الخطرة بدت لها خلاّبة .

كانت قد ألفت أن تقول :

– الجوع والحب يحكمان العالم ، والفلسفة تفسده . الناس يحيون في سبيل الحب – فهو من اهم امور الحياة .

كان بين معارفنا موظف في مصرف – رجل وافي القامـــــة هزيل القد خطواته متأنية متقلقلة مثل خطوات الغرنوق . كان شديد التأنق فيما يتعلق بثيابه ، وبينا هــو يهندم نفســـه عند المرآة يروح ينقر على معطفه بأصابع نحيلة لينفض غباراً لا يلمحه أحد غيره . وكان عدواً لكل الأفكار الاصيلـــة أو الكلمات المعبّرة ، ولسانه الدقيق الثقيل لا يجيد شيئـــا منها . فهو يتكلم في وقار وبصورة ملهمة ، ويملّس بصورة ثابتة شاربه الأحمر الرفيع بأصابعه الباردة قبل أن يتفوه بأي من البديهيات الأثيرة لديه :

– بمرور الزمن سيتخذ علم الكيمياء شأناً أعظم فأعظم في معالجة المواد الخام لاستخدامها في الصناعة . وقد صدق القول إن النساء متقلبات الأهواء . وليس ثمة فارق فيزيولوجي بين الزوجة والعشيقة – بخلاف الفارق الشرعي .

قلت لزوجتى مرة ، وقد اتخذت ملامحى سيماء الخطورة :

– أما زلت تصرين على أن جميع الكتاب العدل يملكون أجنحة ؟

فأجابت في نبرة حزينة شاعرة بالذنب :

– أوه ، كلا ، ليس هذا ، ولكني أؤكد أن من السخافة أن تغذي الفيلة بالبيض المسلوق .

أصغى إلينا صديقنا نتحدث على هذا الغرار دقيقة أو دقيقتين ، ثم أعلن في تفكير عميق :

– يؤتى لي أنكما لا تتحدثان بصورة جدية .

وفي مرة أخرى أعلن واثقاً بعدما ضرب ركبته برجل المنضدة :

– الكثافة صفة من صفات المادة ، ولا خلاف فى هذا .

بعد أن ودعته زوجتي حتى الباب ذات عشية أعلنت في بهجة ومرح ، وهي تتكئ على ركبتي نصف اتكاءة :

– يا له من أحمق كامل الحماقة والسخف ! أحمق في كل شيء – في خطواته . . . فى حركاته . . . في كل عمل يأتيه ! وهو يعجبنى كنموذج كامل . هيا ، داعب وجنتي .

كانت تحبّ أن أمرر رؤوس اصابعى فى خفة على الآثار الخفيفة للخطوط البادية تحت عينيها الحلوتين . هرّت ، وهى تتشبث بى مثل قطة :

– لكم يبعث على الدهشة الناس أجمعهم ! حتى الرجل الذى يجده الآخرون باعثا على الضجر يمكن أن يثير اهتمامي . أريد أن أنظر فى داخله مثلما أنظر فى صندوق – فلعلي

أعثر على شيء مخبوء هناك لم يكتشفه أحد غيري ، شيء أكون أول من عثر عليه .

لم يكن بحثها عن «المكتشفات» تكلفاً . فهي تبحث في استمتاع وفضول يبديهما طفل يدلف الى غرفة غريبة للمرة الأولى . وكانت تنجح أحيانا في اضرام شرارة من التفكير في عينين كسولين ، ولكن ما أكثر مـــا كانت تثير الرغبـــة في امتلاكها . كانت مفتونة بجسدها ، فتقول وهى تقف عاريـــة أمام المرآة :

– ما أروع ابداع المرأة ! لكم هي متناسقة خطوط جسدها !

وتقول :

– اشعر أني أكثر قوة وعافية وذكاء حينما أرتدي ثياباً لائقة .

كان ذلك صحيحا : أن رداء أنيقاً يضاف إلى ذكائهـــا ومرحها يحمل الى عينيها وميضاً من النصر . كانت بارعة في اصطناع ثياب أنيقة لنفسها من قماش عادي ، فترتديهـــا كما لو كانت مصنوعة من حرير أو مخمـــل . كانت الثياب بسيطة ، ولكنها تشعرك بالأناقة حقاً . وكانت النساء الأخريات ينتشين من تلك الثياب – ليس بصورة صادقة دائما ، ولكن بصورة صاخبة دائماً . كن يحسدنها ، ولا أزال أذكر احداهنّ وهي تخاطبها في شراسة قائلة :

– ثوبي يكلف ثلاثة أضعاف ثوبك ولا يصل إلى عُشْرِ أناقته . والنظر إليك يغمني كثيراً .

طبيعي ان النساء كن يكرهنها وينشرن عنها الأقاويل .

عالنتني طبيبة مرة ، وكانت حماقتها تعادل فتنتها :

– هذه المرأة ستمتصُّ دمك كله !

تعلمت كثيراً من حبي الأول ، ورغم هذا فإن الفروق التي يتعذر التوفيق بينها والتي كانت قائمة بيننا قد سببت لي أوجاعاً كثيرة .

كنت أنظر إلى الحياة نظرة جدية ، وأرى أشياء كثيرة ، وأفكر كثيراً ، وأحيا في قلق مستديم . وكانت جوقة من الأصوات الجشّاء تغمرنى بأسئلة غريبة على روح المرأة الطيبة هذه .

رأيت في السوق ذات يوم شرطياً يضرب يهودياً أعور أنيقاً ذرّف به العمر ، وهو يتهمه بسرقة الفجل من أحد الباعة المتجولين . رأيت ذلك الشيخ وقد تلطخت ثيابه بالتراب يهبط الشارع متأنى الخطوات وقورها ، مثل شكل في لوحة ، وعينه الوحيدة السوداء مثبتة في السماء الحارة الخالية من السحب ، وجدول نحيل أحمر من الدم ينساب من زاوية فمه على لحيته الناصعة الطويلة .

مرّت ثلاثون سنة على ذلك اليوم ، وما برحت ألمح ارتعاش حاجبيه الأبيضين ، والاحتجاج الاخرس فى العين المرفوعة الى السماء . صعب أن تنسى الإهانات اللاحقة بالمخلوقات البشرية – وعسى ألا ينساها المرء أبداً !

رجعت إلى البيت قانطاً ، وروحى ممزقة بين الغضب واليأس . مثل هذه التجارب تجعلنى أحقد على العالم وأشعر أننى غريب مستهدف لعذاب مشاهدة كل ما هو وضيع ، قذر ، غبى ومرعب ، كل ما هو مهين للروح . في مثل هاتيك

اللحظات غدوت عارفاً بصورة أكثر رهافة بذلك الخليج العظيم الذي يفصلني عن المرأة التي أحببت .

لكم كانت دهشتها كبيرة حينما أخبرتها بما يدور في خلدي :

– أهذا ما طوّح بك في مثل هذه الحال ؟ يا للأعصاب الرقيقة التي تمتلك !

ومن بعد أردفت :

– قلت انه كان وسيماً ؟ كيف يمكن أن يكون وسيماً ان كان أعور ؟

كانت الآلام جميعاً منفرة بالنسبة اليها . ولم تكن تطيق ان يتحدث الناس عن مصيبة ، وما كانت الأشعار لتمسّ منها وتراً ، وما أندر ما كانت تبدى شيئاً من التعاطف البشري . كان شاعراها المفضلان هاينه الذي يهزأ بأوجاعه الشخصية ، وبيرانجيه .

كانت تصرفاتها حيال الحياة أشبه بتصرفات طفل أمام أحد السحرة : جميع حيله تبعث على الاهتمام ، وأفضلها ما سوف يأتي . قد لا يطلعك عليها حتى الغداة أو ربما بعد الغداة ، ولكنه سيفعل ذلك دون ريب !

وأؤمن أنها ، فى لحظة الموت ، ظلت تأمل ان تشاهد آخر حيلة ، وأكثرها استثارة وروعة .

١٩٢٣

قصص عن الابطال

«كل قضية بدأها الانسان ،
وبه صارت عظيمة»

١

كلما أوغل الفولغا صوب البحر انفسح وهدأت مياهه . والأراضي السهبية على الضفة اليسرى تذوب في سديم ضوء القمر ، والصخور الترابية الجرداء على الضفة اليمنى تلقي ظلالاً عميقة حيث الأضواء الحمراء والبيضاء الوهج الطافيات تنبثق بارزة من العتمة الزيتية للمياه . وفي زاوية مهملة عبر النهر يستلقى درب قمري عريض يرتعش ويومض مثل قطيع من سمك فضي في مجرى السفينة . والضفة اليمنى السوداء تسبح مبتعدة عنا في سرعة صوب المنتأى ، والأكواخ القليلة التي تبدو عرضاً فوق قمتها تلوح أشبه بربوات قديمة لدفن الموتى مما يعثر عليه المرء أحياناً في السهوب . والمياه في المؤخرة أكثر ضباباً وقتوماً منها في مقدمة السفينة مما أثار انطباعاً غريباً في أن النهر يتدفق صُعُداً . والسفينة تنطلق دون أن يندّ عنها صوت تقريباً ، مبرقشة المياه بانعكاسات مخرّمة من أضوائها . وكان الخرير وراء كوثلها لطيفاً حنوناً ، وكان الهواء على هذا الغرار – يداعب وجه المرء فكأنه يد طفل صغير .

في كوثل السفينة حوالي عشرة أشخاص نفر النوم من عيونهم يثرثرون في هدوء . وثمة صوت رنان النبرة

متواصل النغمة يصافح الآذان بصورة خاصة :

– ما أقول هو هذا : من الخوف يموت المرء . . .

كانت كلمة «يموت» ترنُّ بنبرة أهالي كوستروما . وأثارت هذه العبارة ردوداً متعالية وساخرة ومتحدية .

– أنت تتحدث عن أمور مُضحكة ، أيها المواطن !

– هذا رجل لم يشارك في معركة على الاطلاق .

وذكّر آخرون المتحدث بالتيفوس ، والمجاعة ، وبالعناء الذي يقصم الظهر ويقصّر في عمر الانسان . وسأل رجل كبير الشاربين يتلفع قماشاً مشمعاً ويجلس كتفاً الى كتف مع امرأة مترهلة السمنة في صوت نزق :

– وماذا عن الشيخوخة ؟

انتظر الكوسترومي خمود رنين الاحتجاجات . كان الشخص الأكثر استلفاتاً للنظر بين ركاب السفينة . وكان قد ركب في نيجني نوفجورود ، وهذا هو يومه الرابع على السفينة . وكانت غالبية الركاب ممن يقضون اجازة ، وجميعهم من المستخدمين السوفييتيين ، نظيفين مهندمين ؛ وكان يبدو بالمقارنة بهم زريّ اللباس ، أشعث الشعر ، منهار البنية ، في ساقه اليمنى عرج واضح ، وبكلمة واحدة فهو – تلفان . لا ريبة أنه في الخمسين من عمره ، ان لم يكن جاوزها . رجل متوسط القامة ، نحيل القد ، له عنق أسمر قوي ، ووجه أحمر تؤطره لحية صهباء وشحّها الشيب ، وعينان زرقاوان شاحبتان تحدقان من تحت حاجبين ناتئين . يا للنظرة المدققة والمعنّفة في الوقت ذاته المطلة من عينيه ! كان يصعب أن تكتنه من أين يعتاش . فهو أشبه بعامل في مصنع

رقي مرة الى رتبة «معلم» . وكانت يداه لا تعرفان الاستقرار ، وشفتاه لا تفتر لهما حركة ، فكأنه يحاول ان يستذكر شيئاً أو يحسب شيئاً . وكان مستفيض الحيوية لكن دون شيء من المرح على الاطلاق .

بعيد قرابة ساعتين من ركوبه متن السفينة قام بجولة تفقدية ، محدقاً بفظاظة في ركاب الطبقة العلوية ، سائلاً أحد البحارة : «كم دفع ركاب السطوح العلوية ثمن التذكرة الى استراخان ؟» .

ولم تمض فترة طويلة حتى أخذ صوته المرنان يعلو من السطح الاسفل :

– لا ريبة أن الشيء الخفيف يطفو الى الأعلى ، وهذا أمر محتوم ؛ أما الشيء الثقيل فيلتصق بالأرض . حسناً ، يخال لي الآن أنهم وضعوا الأمور في نصابها . اذا أردتم حياة رخيّة فادفعوا لقاءها أربعة أضعاف .

ما كان يمكن أن تسمي ذلك الرجل ثرثاراً أو تحسب أنه طيب السريرة بشكل خاص ، ولكن من الجليّ أنه كان أسير رغبة عارمة في الكلام عن جميع ما وقعت أو تقع عليه عيناه وجميع ما تعلمه أو يتعلمه ، والاستفاضة في شرحه . وكانت له كلماته الخاصة في هذا المجال . وكان واضحاً أن هذه الكلمات لم تصل اليه سهلة ، وهو تواق الى نقلها الى الآخرين ، ولعله يقصد من ذلك اقناع نفسه اكثر فأكثر بمقدار صحتها . وكان يعرج الى حيث التأم شمل عدد من المتحدثين ، ويصغي دقيقة أو دقيقتين في صمت ، ثم يرتفع صوته الأرنّ يقول شيئاً غير مألوف :

– هكذا هي الأمور الآن ، أيها المواطن . أنت لي وأنا لك . وجميعنا نعمل في سبيل القضية ذاتها الآن . نحن أشبه بساقي سروال واحد – يشكل كلّ منا جزءاً من الآخر . أنت لست سيدي وأنا لست خادمك . أليست الأمور هكذا ؟

ألقى عليه المواطن ، وقد ارتبك قليلاً من جراء التدخل غير المتوقع لهذا الرجل الغريب ، نظرة لا تحمل شيئاً من الود . وقالت امرأة عجوز لفّت رأسها بوشاح أحمر اللون ، وهي تطلق تنهيدة :

– هكذا هي الأمور ، ولكن الناس لا يرونها بهذا المنظار !

– ان الذين لا يريدون أن يروها هم الذين يسيرون الى الوراء ، ويعيشون وأردافهم الى أمام .

بهذه الكلمات أجاب الرجل الأعرج ، وهو يشير بذراعه ناحية الضفة الأكثر سواداً فيما السفينة تستدير وتجعلها وراءها .

ووافقت المرأة بقولها :

– هذا صحيح تماماً .

واسترسلت مقترحة :

– تعال جالسنا ، يا رفيق !

بقي واقفا ، وبعيد دقيقتين أو ثلاث دقائق أعلن صوته المرنّ في نبرة واضحة :

– كل قضية بدأها الناس ، والناس جعلوها عظيمة .

بدت هذه الكلمات مثل قول مأثور ، ولكنه قول مأثور ابتدعه لتوّه ، وقد خطر له بصورة غير متوقعة على الاطلاق .

وظلّ يفعل ذلك طوال أربعة أيام تقريباً ، يستفزّ المناقشات ، ويسعى وراء شيء ما بصورة لا تعرف التعب . والآن ، بعد ما أصغى في انتباه الى جميع الاعتراضات على ما تفوّه به – «من الخوف يموت المرء» – تكلم من جديد ، وقد رفع يده محذراً :

– الشيوخ ، من دون ريب ، يموتون من جراء انهيار كيانهم الجسدى ، وبعض الشباب يموتون من كونهم على شيء فائض من الحيوية . وما أتحدث عنه لا يتعلق بكل فرد ، بل يتعلق بالسادة . فالسادة يرهبون الموت ، ولنقل مثل الاطفال الصغار الذين يرهبون الظلام . أنا اعرف حياة السادة معرفة جيدة . وهم لا يستمتعون بالحياة المرحة ، وما يستمتعون به ليس أكثر من ضجر . . .

استوضح صاحب الشارب في نبرة ساخرة :

– كيف تأتى لك أن تعرف هذه الأمور كلها ؟ فأنت لا تشبه الخادم .

تدخل في الحديث شاب يرتدي معطفاً عسكرياً وخوذة من القماش قائلاً في صرامة : – اعذرنى ، أيها المواطن ! لكن فيم استخدامك لهذه الكلمة المهينة «الخادم» ؟

– هنالك مثل يقول : ليس هناك ناس بالنسبة للخادم .

– احتفظ بقولك المأثور لنفسك .

وشارك صوت آخر :

– رُكّب قولك المأثور حين لم يكن الخادم يعتبر كائناً بشريا . . .

– والآن ، هذا يكفي ، أيها المواطنون !

انتظر الأعرج في أناة ، وانتقى دخينة من علبته .

– في مقدوري أن أمطرك ، أيها المواطن ، بجميع الأقوال المأثورة التي تشاء ، ولكن ذلك لن يوصلنا الى مكان . وليس صحيحاً ، كما تعلم ، أن «القول المأثور يبقى حياً على مدى العصور» .

فقاطعه رجل الجيش الأحمر قائلاً :

– وليس صحيحاً موضوع الخوف أيضاً . في هذه الأيام يرهب البورجوازيون الموت ، أما في الأيام الخوالي . . .

أصرّ الأعرج في قوة ، وهو يسحب نفساً طويلا من دخينته المشتعلة :

– في الأيام الخوالي أيضاً عرفت الحياة من الداخل ، فقد كنت منظفاً للأرض في بطرسبورغ .

نخر صاحب الشاربين ، وقد أطلق ضحكة فظة :

– أوه ، حسنا ، اذا كانت القضية على هذا المنوال . . .

– أجل ، هكذا كانت القضية ! حتى الثالثة عشرة من عمري ، وأنا يتيم الأبوين ، عملتُ راعياً ، وبعد ذلك جاء عرّابي الى قريتنا واختطفني مثلما يختطف الذئب نعجة . وهكذا رقصت طوال أربع سنوات ، وفي قدمي فرشاة ، في البيوت والمطاعم والمواخير أيضاً . وكان هنالك بعض المحلات الأنيقة في بطرسبورغ هاتيك الأيام ، حيث تتردد السيدات الحقيقيات ، من دون معرفة أزواجهن ، ويتردد الأزواج أيضاً بصورة سرية . أربع سنوات بطولها عشت في مؤخرة واحد من تلك المواخير ، في القبو ، وهكذا اطلعت على شيء أو شيئين .

جعل الأعرج يدخن في عجلة ، يستنشق الدخان عميقاً في رئتيه ، فيتدفق هذا الدخان من تحت شاربيه الأصفرين المشعثين فكأنه ينطلق من نار داخلية ، وكأنه سينفث لهباً مثلما ينفث الدخان .

واسترسل يقول ، مخاطباً رجل الجيش الأحمر :

– وقد ساهمت في مختلف ضروب المعارك . لقد أثرت من المعارك أكثر مما يخيّل اليّ أنك فعلت ، يا أخي ، أو أكثر مما أتمنى أن تكون أثرت . وكنت في ليايويان * وهرأت حذائي قطعاً صغيرة خلال تراجعنا . . .

ضحك أحدهم ، في حين استفسرت المرأة السمينة :

– هل أنت فخور بذلك ؟

فأجاب الراوي بصوته المرنان :

– كلا ، وفيم أكون فخوراً ؟ ثمة أشياء أخرى أعتزّ بها – وسام القديس جورج ، وصليبان خلال تطوافي الجبهات من تشيرنوفيتسى وعلى طول الطريق الى ريغا * * . وجرحت مرتين هنالك ، ومرتين في جيشنا ، في سبيل السوفييت – وهذا يكفي لجعلك فخوراً فيما يتراءى لي !

سأل صاحب الشاربين :

– وفيمَ حصلت على الصليبين ؟

أجاب الأعرج متعجلاً ، لكن في شيء من نفور واضح :

* اشارة الى المعركة التي نشبت بين السابع عشر والحادي والعشرين من آب ١٩٠٤ قرب ليايويان (منشوريا) وانتهت بهزيمة الجيش الروسي بقيادة أ . كوروباتكين . **المترجم** .

* * اشارة الى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤–١٩١٨ . **المترجم** .

– أحدهما لقيامي بالاستكشاف وأسر مدفع رشاش ، والآخر منحتنى اياه السرية .

بصق في راحة يده . وأطفأ الدخينة في البصاق ، ورمى بها من فوق حافة السفينة ، وركن الى الصمت .

جاءت امرأتان في ريعان العمر لفت كل منهما ذراعها حول رقبة الأخرى ، وهما تغنيان في هدوء .

قالت احداهما :

– أوه ، أنظري – قارب يشبه الصرصار .

وقالت الأخرى متأملة :

– والأضواء على الضفة .

وكان رجل الجيش الأحمر يستفسر عن المدفع الرشاش .

أجاب المحارب القديم الأعرج متذمراً :

– أوه ، كان ذلك محض مصادفة . أرسلوا ثلاثة منا في دورية وجعلوني قائداً عليها . حدث ذلك ليلاً من دون ريب . ولم يكن النمسويون بعيدين ، وقد جعلهم شيء ما يتحركون . . . جرى ذلك في بداية الحرب . زحفنا قدماً فاذا الى الأمام مني ، خلف بعض الأدغال الصغيرة ، أحدهم يسعل . وظهر أن ذلك كان طقم مدفع رشاش ، نوعاً من كمين . وكان هنالك خمسة منهم . أخذنا واحداً . كان يفهم اللغة الروسية ، وتبين أنه طبيب بيطري . وخلفنا واحداً منا وراءنا لأنهم كانوا يطاردوننا ، وكان هو جريحاً ، وكان علينا أن نحمل المدفع الرشاش . اعتُبِر عملنا بطولياً وقرئت أحداثه على مسامع الفرقة في أمر خاص .

سأل رجل الجيش الأحمر :

– ومتى أصيبت ساقك ؟

أجاب الأعرج في لهفة :

– حدث ذلك حينما طاردنا السيد دينيكين . لقد أنقذت تلك الساق من جراء عنادي . أراد الطبيب أن يقطعها . حاولت أن أحادثه في الأمر . فقلت : أتركهـــا ، وسوف تشفى . أما هو ، من دون ريب ، فكان في عجلة من الأمر ، فثمة مئات يصيحون حواليه ويبكون حتى انه تأهب للبكاء أيضاً . لو كنت مكانه لقطعت أيديهم وأرجلهم بفأس شفقة عليهم . ولكنــه صدقني ، وهذه هي الساق – مازلت محتفظاً بها !

قالت احدى المرأتين الصبيتين :

– أنت بطل اذن .

– في الحرب الأهليـــة ، ونحن نحارب من أجــــل السوفييت ، كنا جميعاً أبطالاً . . .

ذكّره صاحب الشاربين :

– ليس الجميع . كانت هنالك أوقات هربنا فيها مثلمـا حدث في ليايويان ، وأوقات وقعنا في الاسر .

أجاب راوي القصة في صوت عجول :

– أنا لم أشاهد أحداً يهرب ، ولكنني استسلمت مثـل أسير أكثر من مرة . أنت تستسلم وبعد ذلك تهرب وتجرّ معك عدة دستات الى جماعتك . وأكثر من ذلك أحياناً .

استوضحت المرأة :

– أفلاح أنت ؟

– جميع الناس من منبـــت فلاحـي ، هكذا يعلمنـــا العلم . . .

استعلم رجل الجيش الأحمر :

– هل أنت في الحزب ؟

– وما حاجته الى أمثالي ؟ في الحزب هم مثقفون حقيقيون . أما أنا فكنت على الدوام في حاجة الى الدراسة لم أستطع أن أقرأ وأكتب حتى شارفت على الأربعين . تعلمت لأنه لم يكن لديّ ما أفعل حين كنت في المستشفى جريحاً . حملني الرفاق على ذلك ، فقد كانوا يخاطبونني لائمين : «كيف يمكن أن تكون على هذه الشاكلة ، يا زوسايلوف ؟ هيا ، أيها الذكي ، عجل وتعلم» . وهكذا علموني وصار في مقدوري الآن أن أخربش قليلاً . واعتادوا بعد ذلك أن يقولوا في أسف : «لو كنت تجيد حروفك قبل الثورة ، أيها الذكي ، فقد كان يمكن أن تغدو قائداً ممتازاً» . لكن ، أني لي أن أعرف أنه ستكون هنالك ثورة ؟ خلال الثورة الأخرى ، بعيد الحرب مع اليابان ، الشيء الوحيد الذي فيه فكّرت هو كيف أعود أدراجي الى قريتي وأصير راعيا ، ولكنني بدلاً من ذلك حططت رحالي في فرقة للعقاب في أومسك .

انفجر رجل الجيش الأحمر ضاحكاً ، وحذا شخص آخر حذوه ، فقال صاحب الشاربين في نبرة مهذبة :

– لا ريبة أنك ضعيف في معرفتك للحروف ، يا صديقي الحميم ، حين قلت «عمل» وأنت تقصد «مأثرة» .

لم يأبه المحارب القديم للاعتراض ، فقال وقد أخرج دخينة أخرى :

– حسناً ، لكن لا بأس بها .

واقترب رجل الجيش الأحمر منه ، وسأل :

– وفيم حططت رحالك في فرقة للعقاب ؟

– فعل ذلك أربعة منا . . . لعدم حراستنا سجيننا كما ينبغي ، وأنا لأني لم أطلق النار . قفز من الشاحنة وراح يركض على طول السكة الحديد ، وكنت أقوم بواجب الخفارة عند القاطرة . حسناً ، كنت أرى أنه في عجلة من أمره ، ولكننا في هاتيك الأيام كنا في عجلة من أمرنا جميعاً ، وفي كل محطة كان هنالك صخب وهياج هائلان . في المحاكمة أوضح الملازم الثاني اسماعيلوف : «صحت به – أطلق النار !» فسأل القاضي : «هل فعل ذلك ؟» «أجل ، يا سيدي !» «اذن ، لماذا لم تطلق النار ؟» . «لم أجد من أطلق النار عليه» . «تقصد أنك لم تستطع التعرف على السجين ؟» . «كلا ، يا سيدي» . «ولكنك كنت تسافر باعتبارك خفيراً له في الشاحنة ذاتها طوال ثلاث محطات ؟ والآن ، لا يفيدك في شيء التظاهر أنك أحمق» . ثم أمر أن نعدم جميعاً . لكن أحداً منا لم يكن . . .

وانفجر في ضحكة مجلجلة صغيرة ، وهزّ رأسه .

– كان ذلك وقتاً مجنوناً ، حقاً كان !

قال رجل الجيش الأحمر مادحاً :

– حسناً ، يا لك من رجل شجاع !

وضربه على ركبته :

– وماذا تفعل في هذه الأيام ؟

– أربى النحل . في محطة اختبارية . انه عمل يبعث على الاهتمام ، كما تعلم . علمني اياه في طامبوف رجل شيخ ،

كان خنزيرا متعفنا بالمناسبة ، ولكنه حكيم مثل سليمان فى هذا الميدان !

كان زوسايلوف يقترب أكثر فأكثر من الحيوية والابتهاج ، كما لو أن ثناء رجل الجيش الأحمر أمدّه بالشجاعة .

ابتعدت المرأة السمينة ، في حين قال مرافقها صاحب الشاربين :

– سأعود في غضون دقيقة واحدة .

بيد أنه نهض على الفور وابتعد هو الآخر . فإتخذت مكانه على لفّة الحبال تلك الفتاة التي قارنت القارب بالصرصار .

استرسل زوسايلوف يقول ، وهو يتمطق بلسانه :

– يا للأشياء التي كان يصنعها بالنحل – أنت لم تشاهد لها مثيلاً حتى في السيرك ! فقد كان ، هو نفسه ، حشرة مقرفة ، ونال ما هو جدير به . فقد وضعنا لحمه المفروم في تابوت لأنه كان يتعامل مع اعدائنا . حدث ذلك عندما قبضت على رزمتي الخامسة – فقد حطموا لي جمجمتي . لكنني لم أبالي بذلك لأن الزمن كان زمن سلم . وفضلاً عن هذا كان الخطأ خطئي . كنت شديد الفضول . وكنت أحب القيام بشيء من الاستكشاف . في جيشنا أيضاً كنت أعتبر بارعاً في هذا الميدان .

سألت الفتاة في هدوء :

– «جيشنا» معناه الجيش الأحمر ؟

– بكل تأكيد . لم يكن لدينا سواه . رغم أني اعتدت

القيام بشيء من ذلك في الجيش الآخر أيضاً . ولكنني ، هناك ، كنت مرغماً على ذلك دون ريب ، فقد كنت مأموراً . أما في جيشنا فكان العمل تطوعياً .

وغرق في صمت متفكر . وصعدت الى السطح امرأة مع صبى في السابعة أو الثامنة من عمره . كان الصبي هزيلاً شاحباً ، وقد تمكن منه المرض فيما يبدو .

استعلمت الفتاة : — ألم ينم ؟

— لم يغتمض له جفن !

أعلن الصغير في جفوة ، متودداً الى الفتاة :

— أريد أن أبقى معك .

فقالت :

— حسناً ، اجلس اذن وأصغ الى القصة الشيقة التي يرويها لنا هذا الرجل .

سأل الصبي ، وهو يدلُ على رجل الجيش الأحمر :

— هذا الرجل ؟

— كلا ، الرجل الآخر .

نظر الصبي الى زوسايلوف ، وتشدق مغتاظا :

— أوه ، ولكنه عجوز .

وضع رجل الجيش الأحمر ذراعه حول الصبي وشدّه ناحيته .

أجاب زوسايلوف :

— عجوز ولكنه لا يبرح شجاعاً .

وسأل رجل الجيش الأحمر ، وقد وضع الصبي في حجره :

— كيف حططت مع قطاع الطرق ، يا رفيق ؟

– ألقيت القبض عليهم ، ثم ألقوا هم القبض عليّ . وحدث ذلك على هذا الغرار . وجدت بعض الفتيان مختبئين حول خلايا النحل ، وجميعهم من طراز واحد فكأنهم عصبة من الذئاب ، جماعة منظرها زري . فقلت لرفاقي في البلدة إن ثمة شيئاً مريبا يحدث هنالك ، يا شباب ! فأناطوا بي مهمة : جرب أن تقنعهم أنك في صفهم . حسناً ، كان ذلك في غاية البساطة ! ظهر أنهم مجموعة على جانب كبير من الجهل بحيث شوّشت لهم أذهانهم تشويشاً مريعاً . وكان السائس أكثر ذكاء من الآخرين ، ولقد كان جندياً هو الآخر ، من المدفعية ، ويكبرني بحوالي خمس عشرة أو عشرين سنة . والشيء الذي جعل ظهره مستقيماً هو منعه من معالجة الخيول . وفضلاً عن ذلك كان يشرب . وكان يفترض أن يكون الضابط المساعد في العصابة ، على ما يقولون ؛ وكان ثمة الى جانبه جندي من فرقة روستوف ، حمال قنابل ، ولاعب ماهر على الاكورديون أيضاً .

ضغط الصبي خده على كتف رجل الجيش الأحمر وأغفى ، وجلست الفتاة ومرفقاها على ركبتيها ، ووجهها بين يديها ، تشخص عبر المياه بحاجبيها المقوسين . وكانت السفينة قد اقتربت من الضفة اليمنى تجتاز رأساً ضخماً من الأرض قبعت تحته قرية ضخمة : صف وحيد من بيوت محصورة بين كنيستين أشبه بسطرٍ مطبوعٍ بين قوسين . وعلى الجانب الآخر كانت هنالك ضفة رملية شعثاء الطلعة مغطاة بأدغال سوداء ، وهذه الأشياء جميعا تنزلق بسرعة عن كوثل السفينة فكأنها تود أن تغيب عن الأنظار بأقصر وقت مستطاع .

– لم تكن العصابة كبيرة ، حوالي خمسين فرداً . وكان قائدها صنفاً غريباً من المستخدمين ، حارس غابة ، على ما يظهر ، وفي رأيي أنه كان ابن زنا عادي من دون ريب . ولكنه كثير الريبة والظنون . وظل أولئك الثلاثة يصدرون أوامرهم الي لأكتشف ماهية هذا الشيء هنا وذاك الشيء هناك . وكان الرفاق في البلدة يخبرونني ما أستطيع أن أكتشف وما لا أستطيعه . كان أفراد العصابة يبقون قواهم مبعثرة ، كما ترى – عشرة هنا ، وعشرة هناك ، ويقتلون شعبنا ، ويحرقون المدرسة ، وباختصار كانت تجارتهم سفك الدماء . وكان عملي جمعهم فى مكان واحد بحيث يتمكن رفاقنا من الاحاطة بهم جميعاً دفعة واحدة ، مثل عصافير في شبكة . حسناً ، وضعنا لهم طعماً . . كان ذلك في مقاطعة بوريسوغليبسك ، على ما أذكر ، في معصرة للزيتون ، وبدا أنهم وثقوا بى وشرعوا يجمعون قواهم . وعندها ، والشيطان يعرف لماذا ، خمّن ذلك العجوز ما هو مخبوء لهم فدخل علينا مثل روح شريرة قبل أن يلتئم شملهم جميعاً . ورغم ذلك اجتمع هنالك أربعة وثلاثون حتى ذلك الحين . ولكنه شرع يثير الظنون ، ويقول راقبوا خطواتكم ، وتريثوا قليلاً . ورأيت أنه سيفسد الأمر بأسره ، فقلت لجماعتنا : «تعالوا واقبضوا على المجتمعين هنالك» . كان عدد من شبابنا ، كما ترى ، ورائي مباشرة . فضربني احدهم على رأسي بعقب مسدسه . وتلك كانت نهاية تلك القصة الصغيرة !

زفرت المرأة :

– أوه ، يا للسموات ! متى سينتهي هذا كله ؟

فاجاب راوي القصة متحدياً :
– عندما ننتهي منهم جميعاً – عندها تنتهي .
فصرفته المرأة عنها بحركة من يدها ، وخطت مبتعدة .
أعلن رجل الجيش الأحمر في استحسان مسرور :
– حسناً ، هذا صحيح ، فأنت بطل .
وتحرك الصبيُ ، وسأل في ضيق :
– لماذا تصيح ؟
فردّ رجل الجيش الأحمر :
– أنا آسف ، لن أفعل ذلك مرة أخرى . انــه صارم للغاية !
واستفسر الفتاة قائلاً : – أهو قريبك ؟
فأجابت :
– انه ابن أخي . تعال الى فراشك ، يا ساشا .
– لست أريد ذلك . ثمة من يشخر هناك .
تودّد الى رجل الجيش الأحمـــر من جديـــد ، فردّد زوسايلوف في عذوبة :
– ساشا . . .
زفر وتأرجح من جانب الى جانب ، فاركــاً ركبتيه بيديه وحين تحدث من جديد كانت كلماته اكثر تأنياً وعذوبة :
– لقد استخدمت كلمة «بطل» ، يا رفيق . وهي ليست كلمة مناسبة حقاً لأمثالنا . نحن ندافع عمّا لنا ، والكولاك ، قطاع الطرق ، يدافعون عما لهم . صحيح ؟
تحرك الصبيُ مرة أخرى وتحــدث في صــوت عال ، وفي شيء من فخار :

– والدي قتله الكولاك . ورأيتهم يقتلونه . جئنـا الى البيت من البلدة ، وخرج والدي ليفتح البوابة ، فهجموا عليه ، اثنان منهم ، وكانا سكرانين . استيقظت وشرعت أصيح ، وضرباه بالعصيّ .

قال زوسايلوف :

– هكذا كان اذن .

همهم رجل الجيش الأحمر مقطباً :

– آي ، هكذا كان .

وقالت الفتاة :

– كان في الثالثة من العمر يومذاك ، ولا تخونه الذاكرة .

أكّد الصبيُ ، وهو يومىء مشدداً :

– أنا أذكر .

وأكملت الفتاة : – وكفّ عن النموّ بعد ذاك .

وتنهدت : – انه في حدود الثانية عشرة الآن .

وعدها الصبيُ على نحو غامض :

– سأنمو .

ضرب زوسايلوف ركبة الصبيّ ، ونصح له :

– عليك أن تتذكر !

وهمهم رجل الجيش الأحمر :

– هذا ما هي عليه الأمور .

وسأل الفتاة :

– أنت معلمة ؟

– أجل ، نحن معلمتان ، أمه وأنا .

– وهي شقيقتك ؟
– زوج شقيقي .
– وهو الذي قتلوه ؟
– أجل .
صمت الجميع لحظات . فك رجل الجيش الأحمر أزرار معطفه ، ولف حول الصبي ، وشده اليه .
قال زوسايلوف مرة أخرى :
– هذه بطولة ايضاً . انها معنا في كل مكان ، يا رفيق .
تحسس الدخائن في علبته ، واسترسل يقول في صوت هادئ متوان :
– في مقدوری المباهاة أني عرفت بطلاً . كان في فرقتنا شاب يدعى ساشا هو الآخر . اعتدنا أن نناديه «ساشوك» . انحدر من تولا . شاب مرح حقاً ، وحيثما وضعتموه فهو أهل للعمل الذي يناط به . كان يشبهك قليلاً من حيث الوجه ، متين البنيان أيضاً ، وله أسنان كثيرة مثل ابن عرس . أأنت من الخيالة ؟
– أجل .
– لهذا السبب أعطوك معطفاً طويلاً . وأنت حسن الهندام .
أشعل دخينته واسترسل ، وقد دبت الحيوية في جوانحه من جديد :
– كان طالباً في معهد لاهوتي ، ساشوك هذا . ولكنه لم يكمل تعليمه . فقد طردوه من جراء حيويته ، هكذا قال . ولكنه كان مثقفاً حقيقياً . وما أسرع أن جعل مني ملحداً

مثلما جعل من كثير آخرين . كان متطلعاً في الدين ، ويتكلم بصورة مقنعة جداً . يعرف الله مثلما يعرف المرء جاراً ثرياً . وكان اسلوبه فى البرهان على ان الايمان بوجود الله يعرقل الحياة الى درجة حتى لا تستطيع الا أن تصدقه . هكذا . . .

– ما حدث هو أن كتيبتنا في حرارة اندفاعها في المطاردة توغلت قدماً إلى حدٍ بعيد ، إلى درب تقع فيما وراء كورسك . كنا نطارد دينيكين ، وكانت الأمور كلها مختلطة حوالينا على أية حال . فلا تستطيعنّ القول أين هم رجالنا وأين هم رجالهم . حسناً ، قال لي الرفاق : «هيا انطلق ، يا زوسايلوف ، وحاول أن تكتشف من يقوم على جانبنا الايسر . وما هو عددهم . وخذ معك شابين اخترهما بنفسك» . كان ذلك صحيحاً من دون ريب ، لا سيما أني لا أفقه كيف أكتب اسمي . وهكذا اخترت ساشوك وفاسيلي كليموف – وهو شاب صُلْب ، أجل صلب ، مثل واحد من أولئك الحجّاب الكبار الذين كنا نجدهم في بطرسبورغ أيام القيصرية . آي ، كان هنالك مثل أولئك الحجاب : ها هو هنالك ، مجرد حاجب ، ابن الكلبة ، ولكنه يلوح مثل أحد شيوخ الكنيسة .

– وهكذا انطلقنا . كنا نجهل معالم الأرض فالتصقنا بالسكة الحديد . ساشوك وكليموف عن جانب وأنا عن الجانب الآخر أسبقهما بحوالي مائة خطوة . وكانت السكة متناثرة قطعاً صغيرة من دون ريب . وكانت الليلة قمراء ، والريح تهبُّ حوالينا ، والسحائب تتسابق ، وهنا ظلال ، وهناك ظلال ، وعلى حين فجأة – بِانغ ! ورنت صيحة :

«وقوفاً !» . لمحت خمسة منهم . قد يكونون بيضاً ، ولكنهم كانوا من لون واحد مثل الأرض والادغال ، مستلقين على الجسر . وكان قائدهم ، وهو شاب يافع ، لما يخطّ له شارب ، مسدسه في يده ، وسيفه الى جانبه ، يحمل بندقية على كتفه - وكان مسلحاً كمَنْ يريد ان يتصور . حسناً ، صوّب الى عيني مباشرة ، وشرع يستجوبني ويصيح بي . وأنا ، بدوري ، جعلت أصيح بأعلى صوتي كمن فقد صوابه ، بحيث يتمكن ساشوك وكليموف من سماعي . قلت انني هارب من الحمر لأنني خائف من تجنيدي ! وبدأ يصدقني حين حذره واحد من الجنود قائلا : «مظهره يبعث على الريبة يا صاحب السعادة . لا بد انه جندي ، واحد من جواسيسهم !» وقلت في نفسي : آه ، أنت يا ابن الزنا المتعفن . وهكذا ضربوني وأرسلوني مخفوراً ، يحرسني اثنان منهم . لم يكن الحارسان في عجلة من أمرهما ، والسماء بدأت تمطر . حاولت شيئاً من التهريج عليهما ، ولكنني أدركت أنه لن يثمر . كان مزاجهما متعكراً ، وربما كان تعبهما الشديد السبب في ذلك . وهكذا اعتزمت أن أركن الى هدوء ، والا كان يحتمل أن يقتلاني على الفور ، ذانك الشيطانان .

- حسناً ، كيما نختصر الحديث أقول اننا وصلنا الى قرية ، كانت قرية كبيرة ، عانت من المعارك . كان قد شبّ فيها حريقان كبيران ، وأصابت القذائف عدداً من أكواخها . الى جانب جدار الكنيسة ، تحت بعض الأشجار ، كان ثمة حبل ربط إليه سبعة عشر حصاناً - ليس بينها حصان واحد صالح . وأبعد من ذلك قليلاً كان هنالك اثنان من

رفاقنا يتدليان من شجرة . همست في نفسي : حسناً ، ان لم أنجح في الفرار فسينتهي مصيري هنا . كانت الظلمة منتشرة ، وليس في النوافذ أي ضوء ، والزمن قد جاوز منتصف الليل ، والمقاتلون البيض يغطون في النوم . كان هنالك خمسة منهم على وصيد الكنيسة يحتمون من المطر . ساقوني الى المدرسة التي يقوم قبالتها تماماً منزل كبير الحجم ، مؤلف من طابقين ، ولكن سقفه متهدم . كان مضاء كله ، وتنطلق منه ضجة صاخبة . دخل أحد حارسيّ الى هناك ، وقعد الثاني على درج المدرسة ، وبقيت أنا طبعاً واقفاً تحت تهطال المطر – لا سبيل الى الهرب من هناك .

– خرج الحارس الثاني وقال : «الأوامر تقول انه يجب الاحتفاظ به حتى الغداة» – عني أنا كان يتحدثان . وهكذا عقدا مؤتمراً بشأن المكان الذى سيحجزانني فيه فاقتاداني مسافة عن المدرسة ، ودفعا بي داخل أحد الأكواخ . كانت الظلمة منتشرة فيه ، والنوافذ كلها مغلقة بعوارض من الخشب . أشعل أحدهما عود كبريت فلمحت أن الأرض متشققة ، واحدى الزوايا محطمة ، وعوارض السقف قد تدلت في داخله ، وفي احدى الزوايا كومة من الأسمال البالية تلوح كما لو أن رجلاً ميتا يستلقى هناك . وكان المطر يساقط . ألقى الجندي نظرة مستفيضة حواليه ، ثم خرج الى العتبة دون أن يقفل الباب . وفكرت فى نفسى انه لمما يؤسف له أنه لم يقفل الباب ، والا فان من أسهل الأمور أن أخرج من هنا . هذا ما جال فى ذهني .وهكذا جلست هنالك . وكان السكون مخيماً حواليّ ، فليس أكثر من شخير حصان أو تنفسه ، وصدى

حبات المطر . وليس ثمة أصداء رجال . تململ الجندي على العتبة فترة قصيرة ، ثم شرع يتنفس هو الآخر ، وما أسرع أن سمعت اليه يشخر .

– كنت قد فقدت حتى ذلك الحين كل معرفة بالوقت طبعاً ، ولم أعد أستطيع أن أذكر في أي ساعة نحن من الليل ، فجلست هنالك يقظان يراودني شيء مثل الكابوس . كنت مكتئباً حقاً اشعر بالخجل من نفسي – تصوروا أن يقبض عليّ على ذلك المنوال ! أشعلت عود ثقاب في هدوء والقيت على ما يحيط بي نظرة . كانت عوارض السقف متدلية بحيث لا يمنعك شيء عن التسلق الى الكوخ ، لكن دون أن تستطيع منه خروجاً . نهضت على قدميّ وحاولت ذلك ، ولكنها كانت متقلقلة متداعية .

– وعندها ارتعشت فكأنك سلقتني بماء حار . همس أحدهم : «زوسايلوف !» انه ساشوك ! وهمس أيضاً : «تسلق واخرج» . فأجبت : «لا أستطيع . هنالك جندي عند الباب» . وخيم سكون ، وسمعت تكسّر العوارض وقعقعتها . ومن حسن حظي أني تراجعت في تلك البرهة صوب الموقد لأن كل شيء تساقط في الكوخ محدثاً جلبة صاخبة . حسناً ، لقد وقع كلانا في المأزق ذاته .

– ان الجندي ، وقد استيقظ من دون ريب ، جعل يصيح : «ماذا يجري هنا ، وحق الجحيم ؟» . «لم تكن تلك غلطتي ، فقد تهاوت الزاوية من تلقاء ذاتها» . هذا ما أجبت به . حسناً ، فهو لم يلق الى ذلك بالاً من دون ريب ، طالما أن السجين على قيد الحياة حتى الموعد المضروب . والا

فقد كان يغمره السرور حقاً لو أن عظامي انسحقت . وخيّم السكون على كل شيء من جديد ، وبعدها سمعت أحدهم يتنفس ، فمددتُ يدي ، وتلمست رأساً . همست : «ساشوك . ماذا تفعل هنا ؟» فأوضح لي : «لقد سمعنا كل شيء» . وقال : «وهكذا أرجعت كليموف وجئت أسعى وراءك بنفسي» . وقال : «القوة الرئيسية ليست موجودة هنا ، بل على مبعدة أربعة فراسخ» . أجل ، لقد اكتشف ذلك كله . «هم يحسبون أن فتياننا في المؤخرة وعن يمينهم» . كان يبدو أنه يطحن أسنانه وهو يتحدث ، وقد احتبست أنفاسه . قال : «لقد جرحت خاصرتي جرحاً سيئاً . وهي تنزف كالجحيم ، وقد سقطت العارضة على ساقي» . تحسست حوالي . حقاً كانت ساقه عالقة تحت العوارض . حاولت أن أحرك احداها ، ولكنه همس : «اتركها أو أصرخ وتكون نهايتك ! شقّ لنفسك طريقاً الآن . هل تذكر كل ما قلتُ لك ؟ اذهب !» قلت في نفسي : كلا ، لا أستطيع تركه . وحركت العارضة من جديد . فهسّ قائلاً : «كفّ عن ذلك ، أيها الشيطان المجنون ! سأصرخ !» ماذا ينبغي أن أعمل ؟ حاولت مرة أخرى ، فقد أكون قادراً على تحرير ساقه . صدق أو لا تصدق ، فقد سمعت العظام تنسحق . . . أجل ، أنت تعرف ، انسحاقاً تاماً ! هذا يعني أني سحقتها . . . أرسل أنّة خافتة وسكت . تجمدت في مكاني . قلت في نفسي : حسناً ، انتهى كل شيء ، صفحاً ووداعاً ، يا ساشوك !

أحنى زوسايلوف رأسه وتحسس علبة دخانه فكأنه

يفتش عن دخينة معبأة جيداً . وتابع قصته دون أن يرفع رأسه في صوت ساكن يشيع فيه النفور .

– خلال الليل أدركنا الرفاق ، وفي العشية التالية طردنا البيض الى الوادي وكان ذلك خاتمة القصة . كنت وكليموف ودستة أخرى أول من دخل تلك القرية الملعونة . لا ريبة أنها كانت تحترق مرة أخرى . وكان ساشوك يتدلى من تلك الشجرة ذاتها حيث كان أحد الرفاق يتدلى سابقاً – شاب فتى أنزلوه وقذفوا به في بركة وحل . كان ساشوك عريان الا من احدى ساقي سرواله الداخلي . كانوا أشبعوه ضرباً ، فلا تجد لوجهه أثراً ، كما شقوا خاصرته . تدلت ذراعاه ، ومال رأسه جانباً مثل رجل يعترف بذنبه . وكنت أنا المذنب .

تمتم رجل الجيش الأحمر :

– أنت مخطئ في هذا . فقد قام كل منكما بواجبه ، يا رفيق .

أشعل زوسايلوف دخينة أخرى وأبقى عود الكبريت ملتهباً في جمع يده الى أن كاد اللهب أن يمسّ أصابعه ، فأطفأه وعصر ذروته المتوهجة .

– ذلك كان بطلاً حقيقياً .

قالت معلمة المدرسة :

– هذا ما ينبغي أن أقول .

وخاطبت رجل الجيش الأحمر قائلة :

– أهو نائم ؟

أجاب رجل الجيش الأحمر ، وهو يرنو الى وجه الصبي :

– أجل ، مستغرق في النوم .

وقال في رزانة بعد فترة من الصمت :

– لا يزال الابطال موجودين الآن ايضـــاً . خذ حرس الحدود في آسيا الوسطى على سبيل المثال . أولئك الشبان يقومون بعمل باهر ! أعرف حادثة خرج فيها اثنان من رجالنا في دورية في السهب . كانت الليلة شديدة الظلمة . افترقا في اتجاهين مختلفين . واصطدم أحدهما بعصابة من قطاع الطرق المحليين . قبضوا عليه قبل أن يتاح له أن يردّ على نارهم . فصاح برفيقه : «أطلق النار باتجاه صوتي !» فأطلق الآخر مشطاً كاملاً ، فجرح أحد قطاع الطرق في حين هرب الباقون ، حتى انهم أسقطوا البندقية التي حصلوا عليها . وعندها هاجم قطاع الطرق الجندي الآخر ، فصاح : «افعل مثلما فعلت !» . لم يتح له الوقت لتعبئة بندقيته من جديد ، فجعل يقاتلهم بعقبها . وعندها راح الأول يطلق الرصاص على الناحية التي يصله الصوت منها . وأصاب قاطع طريق آخر . وحين رجعا أدراجهما الى المركز ورويا قصتهما لم يصدقهما أحد . ولكنهم فعلوا ذلك عند الصباح – حين عثروا على الدماء ! بعد كل شيء ، فان اطلاق النار على صوت رفيقك يعني اطلاق النار عليه ، أليس كذلك ؟ هل فهمتني ؟

قال زوسايلوف :

– هذا واضح تماماً . لا تقلق ، فنحن نستوعب مهمتنا شيئاً بعد شيء . هل كنت في اجازة يا رفيق ؟

– كنت في مأمورية .

وقفت الفتاة :

– شكراً لك . ينبغي أن أوقظ ساشا الآن .

قال رجل الجيش الأحمر :
— فيم تفعلين ذلك ؟ أستطيع أن أحمله .
سارا معاً مبتعدين . ونهض زوسايلوف بدوره ، ومشى حتى الحاجز ورمى دخينته في النهر .
كان قرص القمر الفضي يتسلق صعداً في السموات ، والظلال المنبعثة من الضفة اليمنى قد قصرت فبدت الضفة بأسرها وكأنها تنسحب مبتعدة في سرعة أكثر ناحية المنتأى المظلم . . .

١٩٣٠

٢

ذات عشية صيفية حارة كنت جالساً مع صديقي القديم في غيضة من أشجار التنوب على جرف رملي منحدر ، يمتد في أسفله مرج اخضر أخضر بعد المطر ، تنزلق على سطحه مياه صهباء بطيئة لنهر صغير وكأنما نثرت عليه نثراً . وفيما وراء النهر ثمة شجرات سوداء ، والى اليمين منا ، فوق قمم السحب البيضاء ، أخذت شمس العشية الأرجوانية تلقي أشعتها المائلة على المياه ، والمرج ، ورمال الجرف الذهبية .
كان الرجل يدخن وهو يلقي أنظاره عبر النهر ، ويتحدث في وناء يستغرقه التفكير :
— حدث ذلك قبيل سنتين في بلدة صغيرة على نهر كاما الأعلى . كنت جالساً في مكتب لجنة الحزب للقضاء أتحدث بمنتهى الصراحة مع الرئيس وأمين السر .
— كنا في عصر أحد أيام الآحاد ، والجوّ حار في الخارج

فكأننا في حمام ، وذلك المكان الأبيض تلفّه سكينة تامة . وفيما وراء قمم البيوت تنهض هضبة مغطاة بغابة تشبه جلد دب كبير تدفّ منها من خلال نوافذنا المفتوحة رائحة صمغ وهبات قوية من دخان – لا ريبة أن أحدهم يحرق فحماً هناك .

– حسناً ، استمررنا في الحديث ، ونحن نزيد الحديث ارباكاً فيما بيننا ، حتى بدأنا نفقد مرّة صبرنا ، واذا وجه أحمر كبير عامر بالغيظ ، وجه امرأة ، يظهر على غير انتظار في النافذة كأنه انبثق مباشرة من بطن الأرض الحارة . ونظرت الينا عينان زرقاوان ، ترشحان عرقاً ، نظرة تمور توبيخاً وعداوة ، وفرقع صوت ثقيل غليظ في نبرة مستهجنة :

«– مرحباً ! اتمنى لكم عيشة سعيدة : شاي بسكّر !»

تمتم الرئيس ، وهو يحك ابطه :

«– فيم رماها الشيطان هنا مرة أخرى !»

فيما راحت المرأة تملؤ الغرفة بزمجرة من التوبيخات :

«– حسناً ، أيها الرفيق سيميونوف ، لقد خدعتني اذن ، أليس كذلك ؟ قلت في نفسك ألاطفها في الحديث فيرضيها ذلك ؟ ومشيت ستين فرسخا أخرى ! فتهيأ لاستقبال ضيفتك !»

– واختفى الوجه من النافذة . سألتُ من تراها تكون . فلوّح الرئيس بذراعه تلويحة لا مبالية : «امرأة طائشة !» ، في حين أوضح أمين السر في شيء من الخجل : «قد دوّنا اسمها كمرشحة لعضوية الحزب» .

– انعصرت «المرأة الطائشة من الباب في صعوبة . فقد كانت وأيم الحقّ ، ضخمة بصفتها امرأة . لا ريبة أنها تزن

مئة كيلوغرام ، ان لم يكن أكثر ، عريضة المنكبين والوركين ، يبلغ طولها مترين تقريباً . وضعت هراوة كبيرة في الزاوية ، وأسقطت كيسها بحركة رشيقة من كتفها العبلة ، ووضعته بعناية في الزاوية ، وأنهضت جذعها ، واقتربت منا مطلقة تنهيدة صاخبة ، وهي تمسح العرق عن وجهها بردن بلوزتها .

«سألتني ، وهي تزرع نفسها على مقعد صرصر تحت ثقلها :

«– مرحباً مرة أخرى ! مواطن أم رفيق ؟»

– حين عرفت أني رفيق أكملت تسأل :

«– لست من موسكو ، أليس كذلك ؟»

«وحين قلت اني من موسكو فقدت كل اهتمام لها برئيسيها ، وأخرجت من وراء صدرها الضخم قطعة ضخمة من الجلد تبين أنها قطعة من محفظة لوازم جنود الجيش ، وضربت بها على المنضدة في صوت مفرقع ، ومالت عليّ بكتفها ، وشرعت تتحدث في نبرة عملية نشيطة :

«– والآن ، افصل لنا قضايانا ! أنظر ، هذه نسخة من تعليمات لجنة الحزب المحلية ، أليس كذلك ؟ وهذه الاوامر الصادرة اليه . (وأشارت الى الرئيس) وهذا ما كتبه رداً عليهم . ولهذا فان من حقي أن أتكلّم ، أليس كذلك ؟»

– حوالي عشر دقائق استخدمت هذا الحق بصورة متواصلة ، تخبرنا عن تعاونيين لا «يستطيعون القيام بالتجارة قصداً» ؛ وعن جمعية الفلاحة المشتركة للارض يحول الكولاك دون اعادة تنظيمها في مزرعة تعاونية ؛ وعن الأضرار الغريبة في آلات الفرز التي لم يجر الاستقصاء عنها حتى الآن ؛ وعن

أزواج يضربون زوجاتهم ؛ وعن المعارضة التي تبديها زوجة الرئيس ومعلمة المدرسة ، ابنة الكاهن ، ضد تأسيس دار حضانة ؛ وعن هروب مراسل صحفي محلي من صحيفة كومسومول خوفاً على حياته ، وعديد من المتاعب والأزمات المشابهة التي تحدث يومياً في جميع أطراف وأنحاء بلادنا النائية في مضمار النضال من أجل أسلوب جديد في الحياة ، ومن أجل العالم الجديد .

خلال استرسال رفيقي في سرد قصته جرفته العاطفة تدريجياً ، فأضاف بعض اللمسات النهائية الحيوية الى وصفه لشخصية المرأة ، وحركاتها ، بل حتى استخدامها البخيل لمنديلها . فقد أخرجته مرتين من جيب «تنورتها» لتمسح العرق عن وجهها وأعادته من جديد ، مستخدمة ردن قميصها بدلاً منه . قال :

— كانت تطلق رائحة عرق تشبه الرائحة التي يطلقها الحصان . وصبّ لها أمين السر قدحاً من الشاي قائلاً : «خذي رشفة ، أنفيسا !» . ولم تكد ترشف أول جرعة شرهة من السائل الاصفر الحار حتى خمُرَ عن بالها أن تضع فيه سكراً ، وما أن تناولت قطعة من السكر حتى راحت تنقر بها على المنضدة في توافق مع كلماتها الساخطة ، ثم زحلقتها في جيبها وتناولت قطعة أخرى وأوضحت في ارتباك : «أوه ، ماذا تراني أفعل !» ولكنها زحلقت القطعة الأخرى بصورة آلية في جيبها ، وجرعت الشاي البارد وكأنه قدح من الكفاس ، وقالت : «صبّ لي قدحاً آخر ، أيها الرفيق ياكوف» .

راح رفيقي الآن يسترسل مدخناً في عجالة :

– أهرقت على رأسي حملاً من هذه الأزمات والمشاكل اليومية حتى فقدت «منطق الأحداث» في تلك الفوضى . وكان كل ما استطعت الاحساس به هو أن هذه الأنفيسا التي تزن مئة كيلوغرام كانت مخلوقاً جديداً وغير مألوف بالنسبة الي ، بحيث ينبغي أن أحاول اكتشاف كيفية «وصولها الى هذه الحال في الحياة» . وباختصار ، فقد دعوتها للمجيء . وكنت أقيم مع مهندس زراعي ، وهو صديق قديم لي . جاءت ، وفيما نحن نحتسي قليلاً من الشاي ظللت أستجوبها في براعة حتى ساعة متأخرة من العشية . لا أستطيع أن أنقل صورة صحيحة عن قصتها ، من دون ريب ، ولكن جزءاً منها علق في ذاكرتي على شكل دقيق . كان والدها خياط جلود خراف ، اعتاد أن يطوف بالقرى لصنع معاطف من جلود خراف قصيرة وطويلة للسكان المحليين . وأمها ماتت يوم كانت هي في التاسعة من عمرها ، فأذن لها والدها أن تكمل دراستها في مدرسة الأبرشية ، ثم أرسلها «حاضنة» الى أسرة أحد الفلاحين الأثرياء ، ومن بعد أخذها بعيد مرور ثلاث سنوات فرافقته الى قرية على الكاما ، حيث تزوج أرملة لها ولدان . وهكذا غدت أنفيسا ، من دون ريب ، مربية مرة أخرى لولدي رابّتها ، وخادماً تقوم بجميع الأعمال ، وتبين أن رابتها امرأة فالتة مدمنة على الشراب ندّ رائع لوالدها المغرم بالشراب والاجتفالات . وما أكثر ما كان يقول : «فيم العجلة ؟ أنت لا تستطيع أن تصنع معاطف من جلود خراف لجميع الفلاحين في هذه البلاد» .

– كانت في السادسة عشرة من عمرها حين توفي والدها

بالجمرة الخبيثة ، وبوفاته غدت أعمال أسرة رابتها عبئاً ثقيلاً جداً على كاهل انفيسا .

«- كان أحد جيراننا رجلاً عجوزاً يدعى نيكولا أولانوف . وكان يكتسب عيشه من الصيد ، ولكنه من قبل ظلّ عاملاً في منجم الى أن سحقته حادثة في حفرة . فشرع يعرج ، وقلّ اعتبار الناس له لأنه كان كثير الجهامة ، نادر الحديث ، يلقي على الناس نظرات مكفهرة . كان يعيش وحيداً ، وهكذا اعتدت أن أغسل له ثيابه بين حين وحين وأرفأهـــا ، وشرع هو يعاملني في مزيد من اللطف ، فيقول لي : «أنت تنهكين قواك ، يا فتاة ، على السكّيرين الذين لديك . الناس يحبون أن يتغذوا على قوى الآخرين ، الاثرياء هم الذين جعلوهم على هذا الغرار . من هنا اتخذ الناس قدوتهم السيئة ، والعالـــم بأسره يقفو خطاهم في أساليبهم الشريرة» .

«- راقتني هذه الكلمات التي نطق بها ، ورأيت أنه على حق فيما قال : فقد كانت القرية غنيـــة ، وسكانهـــا قساة جشعين ، وكان كل منهـــم يمسك بخناق الآخرين . وهكذا استوضحت نيكولا عما أفعل . فأجاب : «اذهبي وجدي لنفسك بعلاً . أنت فتاة قوية البنية ، وعاملة رائعة ، وسوف تجدين مأوى في منزل ثري» . حسناً ، لم أكن بلهـــاء تماماً حتى في هاتيك الايام . فاستطعت أن أرى أنـــه يبعث بي الى حيـث حذّرني من الذهاب . ولكنني استوعبت أولى كلماته وخزنتها في قلبي» .

- روت لي هذه الفترة من حياتها في غير رغبة ، في شيء من السخرية المتراقصة في عينيها وشيء من البرودة ، فكأنها

لا تتحدث عن نفسها بل عن احدى صديقاتهـا القديمات التي فقدت في نظرها كل شأن ومحبة ، ولكنها استجمعت شجاعتها على حين فجأة ، وضربت على ركبتها بقبضتها ، وزرت عينيها كمن تمد الى المنتأى أبصارها .

«– وعندها جاء شقيق رابتي . كان بحارا على سفن الفولغا البخارية ، رجلاً في حدود الأربعين من العمر ، رجلاً بهيميـــاً حقاً ! وما أسرع ما سيطر على شقيقته ، وأرسلها وولديها في الحمام للاقامة فيه ، وأعاد بناء البيت ، وأضاف اليه مخزناً وبدأ تجارة . راح يبيع ويشتري ويقرض النقود . وسرعان ما صار لديه ثلاث بقرات وقطيع من الغنم ، وأجر كولاكي غني يدعى أنتونوف ، كل ما كان يملكه من الارض . كنت أعمل لديه غسالة وطاهية وراعية . وكان عليّ أن أغزل وأنسج وأرعـــى كل شيء – حسناً ، كدت اتمزق ، وكنت أحسّ عظامـي تقرقع ! ولقد أمضيت أياماً خشنة حقا . ألقِ عليّ نظرة ، يا رفيق . أنا قوية مثل ثور ، ولكنني أقول لك اني مررت بأيام غبت فيها عن الوعي تماما !»

– ضحكت بذلك الصوت الأجش العميق الذي تملكه ، ضحكة غريبة غير نسائية . ومن بعد ، حينما مسحت وجهها وفمها بمنديلها ، تنفست في عمق .

«– وساءت الأمور كثيراً حين وثب ذات يـــوم فوقـــي واغتصبني . تعاركت معه ، ولكنه كان يفوقني قوة ، وكنت مريضة في ذلك الحين بمرض نسوي . كانت تلــك ضربـــة حقيقية . وكنت قد اعتدت الخروج مع شاب يدعى نيستيروف . كانت أسرته لطيفة ، قليلة الثروة ، يعيش أفرادها في هدوء ،

وفيها أخوان هما ايفان وييجور . كانوا يعيشون سوية كأسرة واحدة ، وكان عم ذلك الشاب أرملاً . وغدا بعد ذلك نصيراً شنقه البيض . أما الشاب الذي كنت أغازله فقد قتـــل في السنة الأولى من الحرب الاستعماريـــــة ودمر الكولاك والده فاختفى من الوجود . ولم يبق من الأسرة كلها سوى ليزا . وهي الآن صديقتي ، وهذه هي السنة الرابعـة لعضويتها في الحزب . في عام ١٩١٦ ذهبت ، هي الفتاة الذكية ، للعمل في مصنع في «بيرم» ، وتدربت هنالك بصورة جيدة . ولكنني سبقت الاحداث . كنت قد انتويت الرحيل بدوري حين اغتصبني ذلك الأبله ، وكنت لا أبرح راغبة في ذلك ، ولكنه خاطبني قائلاً : «أين تستطيعين الذهاب ؟ ليس لديك جواز مرور ، ولن أسمح لك بالحصول على جواز . وأنا أملك القدرة على ذلك . عيشي معي ، أيتها الحمقاء ، ولن أؤذيك . لن أتزوجك لأن لدي زوجة في تشيستوبول . وهي تعيش مع رجل آخر الآن ، ولكن القانـــون لا يسمـــح لي بالزواج . اذا ماتت أتزوجك – وليكن الله شاهداً عليّ !»

«– لم أكن أطيقه حقاً ، ولكنني كنت آسفة ، وانا حمقاء ، على مزرعته لانني قد وضعت فيها كثيراً من قوتي وطاقتي . وكانت عائلـــة نيستيروف كأنهـــا عائلتي . وهكذا خضعت لمشاعري وبقيت . لم أكن أبادله الوداد ، فقد كان منفراً ولا بدّ أن فيه شيئاً خاطئاً استمررنا نعيش معاً ، ولكننا لم ننجب أطفالاً . وسخر النساء منـــي ولكـــن أكثرن من الهزء بـــه . واعتدن أن يغظنه ، فكان يغضب ، من دون ريب ، ويصب جام نقمته عليّ . كان يضربني ! ذات يوم ربط عناناً حول

عنقي وراح يجرني به ، وكدت أختنق . وفي مرة أخرى ضربني على مؤخرة رأسي بجذمور خشبي . من حسن حظي أن شعري كثيف ، ولكنني ظللت مريضة فترة طويلة . وقد قضم حلمة ثديي الأيسر مرة ، ذلك الشيطان المتعفن ، ولا تزال عالقة بخيط رفيع . لكن ، فيم الخوض في هذا الحديث ، فأنا واثقة أنك تعرف بنفسك ، يا رفيق ، ماذا يقولون عن الحياة الفلاحية : «لا يقلقنك الأمر اذا أرهق العمل زوجتك طالما بقى حصانك على قيد الحياة» . وعندها بدأت تلك الحرب المشؤومة . . .»

– هنا مالت المرأة الى الصمت ، وهي تروّح وجهها الأحمر بمنديلها ، وبدت ممعنة في التفكير .

«– بلى ، تلك الحرب المشؤومة . . . أقول هذا على سبيل العادة ، ولكنه يتراءى لي أحياناً أنها لم تكن على ذلك القدر من السوء . طبعيّ أن الناس العمال قاسوا منها ، ولكن تلك الحرب كانت على شيء من الطيبة . حينما استاقوا جميع الرجال وتركوا القرية عارية ، فماذا تراني رأيت ؟ النساء يعشن حياة أفضل ، حياة أكثر تآلفاً . اقلقهن الأمر في أوله ، لكن سرعان ما رأين أنهن سيدات أنفسهن ، فغدون أكثر انتعاشاً لأنهن ، شئن ذلك أم أبينه ، أرغمن على مساعدة بعضهن بعضاً . ان رجالنا الأثرياء ، والأسلوب الذي كانوا يتبعون في الحياة – كان أسلوباً رهيباً ! كان هنالك ثمانية منهم ، بما فيهم سيدي . وطبعي أن الكهنة كانوا على صلة حميمة بهم – وكانت لدينا كنيستان . وهكذا كان ضابط الشرطة . كان صهراً لعائلة أنتونوف وهو الرجل الأكثر ثروة

في القرية بأسرها . يا للأمور التي فعلوها بالنساء اللواتي غاب ازواجهنّ ! لقد عصروهنّ حتى جفت أجسادهنّ ! خدعوهن في جرايتهنّ ، ووزعوا أسرى الحرب على بيوتهم فقط . يمرضني أن أروي لك كل شيء . حاولت أن أقنع النساء ، الأصغر سناً ، بالذهاب والشكوى ! لكنهن لم يعرنني أذناً ، فما كنّ يثقن بي . ورحت أقضي أيامي هنالك بين القدور والمقالي ، والدلاء والاحواض ، أنظر الى السرقات والفجور حواليّ ، وأتذكر اكثر فاكثر كلمات العجوز أولانوف عن الأثرياء : «العالم بأسره يقفو خطاهم في أساليبهم الشريرة» . وشعرت بالبؤس ! كان يمكن أن أرحل بعيداً ولكنني رأيت أنه ليس ثمة مكان أذهب اليه . ثم جاءت ليزا نيستيروفا . كانت قد أحرقت ساقها وتسير متوكئة على عكاز . قالت لي : «أتعرفين ما يخطر في بال العمال ؟» وروت لي ما يجول في خاطرهم . أهمّنى الامر ولكني لم أصدقه . لم أكن قد شاهدت عدداً كبيراً من العمال ، وكانت هنالك شائعات سيئة عنهم . هجست في نفسي : ما هي الفائدة من العمال ! الآونة ، اذا كان ذلك يتعلق بالفلاحين ! أخبرتنى ليزا أشياء كثيرة عن عامي ١٩٠٥ و١٩٠٦ ، وأحسب أن شيئاً من ذلك التصق في ذاكرتي . رحلتْ حين تحسنت حالها . وهذه أنا وحيدة من جديد هنالك مثل جذع شجرة في حقل ، ليس من أحدثه بحرف واحد . لم يكن النساء يحببنني . وأحياناً ينتهرنني عند النهر أو البئر زاعقات في وجهي : «أنظروا هذه الكلبة من ساحة اللص» ، وأشياء مقرفة أخرى . ولكنني ظللت راكنة الى هدوء . ماذا تستطيع أن تقول يا ترى ؟ كان ذلك صحيحاً

كله . ولكم شعرت بالبؤس ! وكنت أحياناً أنتبذ زاويـــــة وأنخرط في البكاء . وحل عام ١٩١٧ ، وطردوا القيصر ، وفي الصيف رجع الرجال من الحرب أفواجاً ، على ما هم عليه ، ببنادقهم وعدتهم بأسرها . وجاء نيكيتا أوستيوغوف ، وهو ابن الحدّاد ، وجاء برفقته شاب مرح يدعـــى اغنات – لا أذكر لقبه – وفتى آخر يشبه غجرياً الى حدّ ما . كانوا ينادونه بيوتر . وفي اليوم التالي عقدوا اجتماعاً قروياً وأعلنوا : «نحن من البلاشفة ! فليسقط الأغنياء جميعاً !» لم يرنّ وقع ذلك الاعلان خطيراً . ضحك أثرياؤنا في حين لم يصدقهم الفقراء . ولم أصدقهم أنا ، حمقاء الرأس . وعندها رأيت معلمي يهمس شيئاً ما فى أذان رفاقه في حين بدا عليهم جميعاً شيء من الهم . كانوا يجتمعون في المخزن كل مساء تقريباً ، وكان في طوقك أن ترى القلق مرتسماً على صفحات وجوههم . كان ذلك يعني أن أحدهم مرتاح ، ولكنني لم أستطع معرفته . وماذا تراني أسمع على حين غرة ؟ لقد نقلوا القيصر الى توبولســـك . واستوضحت من معلمي في احدى لحظات نشوته عن السبب في ذلك . فأجاب : «لقد بدا أنه فائض عن الحاجة ، ولسوف يحكم في سيبيريا وحدها الآن . وسوف يتولى الحكم بدلاً منه في موسكو عمه ، واسمه نيكولاي أيضاً» . لم أصدقه ، وفي نفس الوقت بدا لي أن ليزا كانت على حق . كانوا يزمجرون في المخزن : «أولئك الكلاب يعرون أسنانهم في وجه أملاك الناس الآخرين» . وتسللت ذات ليلة الى نيكيتا وسألته عما يجري ، فصاح في وجهي : «أنا أشرح لكم ، أيها الشياطين الأغبياء ، فى كل يوم تقريباً ! فلم لا تفهمون ؟ من تكونين

أنت – أجيرة في مزرعـــة ؟ وتعملين لدى لص ؟» كان رجلاً نحيل القد متين البنية ، شعره كثيف أسود ، وأسنانه ناصعة البياض . وكان له صوت مجلجل ، فهو يصيح في وجهك وكأنك أطرش . لم يكن يحمل في جوانحه شيئاً من حقد ، ولكنـــــه مسعور . حين ذهبت من لدنه لم أكد أعرف نفسي ، وشرفي لم أعرف نفسي . كنت كمن لبست ثوباً جديداً يضيق عليّ كثيراً ، حتى لأخشى أن أتحرك . وكانت العجلات تدور في رأسي وتدور . ومنذ ذلـــك اليوم لم أعد أعرف في صف من أنا أعيش ، وشعرت أنني كمَنْ يتنفس في جوّ مشحون بالدخان . وعلى حين غرة جعل معلمي يبدي كثيراً من العطف عليّ . راح يقول : «ثقي بي ولا تولي ثقتك غيري . أنا لن أؤذيـــك ، وحينما تهدأ الأمور نتزوج . لقد ماتت زوجتي» . وقال : «في مقدورك الذهاب الى اجتماعات نيكيتـــا ، والاصغاء الى مـــا يقولون ، وماذا يخططون . تبيني من هم أولئك المشردون الذين يلتفون حوله ، ومن أين جاؤوا» . وقلت في نفسي : حسناً ، أنت ماكر جداً ، ولكنك لست على ما تحسب نفسك من ذكاء . وفي معمعان ذلك الهرج والمرج انفجرت ثورة أكتوبر . ونظم في القرية سوفييت . وانتخب العجوز أنتونوف رئيســـاً وديوكوف أميناً للسرّ . قبـــل الحرب كان يعمـــل في احدى الشركات ولا يراه المرء كثيراً . وكان يعزف على القيثارة وله أسلوب لطيف في تصفيف شعره ، مثل أحد الكهنة – وكان شعره طويلاً . وقد كان أعضاء السوفييت جميعاً من الرجال الموسرين . فثـــار على ذلـــك أوستيوغوف واغنات . أراد أوستيوغوف أن يكون عضواً في السوفييت ، ولكنه لم يجد

دعماً من أحد . لم يتبعه كثرة من الناس ، فقد كانوا يخافون من صلابته . أما بيوتر ، صديقه ، فقد انضم الى الموسرين وتحدث باسمهم . ومرّ زمن ، فقتل اغنات ، ثم اختفى واحد من الآبقين . كنت أمسح الأرض يوماً ، ولم يكن الباب المؤدي الى المخزن مغلقاً تماماً ، فسمعت أنتونوف يغمغم : «لقد أسقطنا سنين اثنتين ، وعلينا الآن أن نقتلع الثالثة» . هكذا الأمر اذن ، هذا ما قلت في نفسي ؛ وذهبت في تلك الليلة الى نيكيتا . قال لي : «أعرف هذا دون أن تخبريني به ، فاذا عزمت على الانضمام الينا فابقي عينيك مفتوحتين على مراقبتهم ، لكن حاذري من المجيء اليّ . اذا اكتشفت شيئاً فانقليه الى ستيبانيدا العانس . لسوف أختبىء فترة من الزمن .»

«– هكذا انضممت الى القضية ، يا رفيقي العزيز . تظاهرت أنني لم أفقه شيئاً ، وشرعت أعامل المعلم بمزيد من اللطف . كان في تلك الفترة قد استسلم الى الشراب بكثرة ، وألف التصرف كأنه سيد الموقف . وكانوا جميعاً يتفاخرون في تلك الأيام . فسألت رجُلي عما يجري . فأعطاني ، طبعاً ، جواباً بسيطاً : «سرقة في وضح النهار ، ويجب على السارقين أن يقتلوا كالذئاب» . وتباهى قائلاً : «لقد فرَمَنْا اثنين منهم ، وسوف نفعل ذلك بالباقين أيضاً» . وهكذا سألت : «أصحيح أنهم قتلوا الآبق زوييف ؟» فأجاب : «لقد أغرقوه على ما يظهر» . . ومن بعد تكشر وقال : «تلك الكلبة ستيبانيدا ستؤول الى نهاية وخيمة أيضاً» . وهكذا أسرعت اليها خطواتي ، الى ستيبانيدا ، ولكنها ضحكت .

وقالت : «لك شكري . ولكنني أدركت تماماً أنهم توقفوا عن حبي» .

«– ركضت من بيتها الى آل نيستيروف . وخاطبت العم ييجور بقولي : «أنظر الى ما يحدث» . فنصح لي قائلاً : «لا تدسي بنفسك في مثل هذه القضايـــا» . ولم يكن ذلك في طوقي ! وكانت هنالك عائلة ، عائلة موكييف ، رجل شيخ وابنتـــان من زوجتين مختلفتين ، كبراهمـــا امرأة جندي وصغراهما عزباء بعد . كانوا من الفقراء ، الشيخ تقي ورع وامرأة الجندي حائكة شهيرة . كان في مقدورها أن تحيـــك نماذج من ثلاثة ألوان بعد أن تصبغ الخيطان بنفسها . كانت امرأة حقوداً ، لكنها أقل حقداً معي منها مع الأخريات . وكان من عادتها أن تحيي حفلات مسائية تشبه نادياً للنساء ، وقد وجهت الدعوة الي مرة أو مرتين . وهكذا ذهبت لمجرد التهرب من بؤسي وشقوقي . وهنالـــك وجدت كثرة من النساء ، جميعهن من أسر فقيرة وأرامل . . . عندها لم أتمالك نفسي ، وانفجر شيء في داخلي ، فهتفت : «أيتها النسوة ، أفلا ترين أن البلاشفة يريدون عدالة حقيقية ! قتل اغنات لأنه ناضل في سبيل الحقيقـــة ، وهذا ما أصاب الآبق زوييف . أفمـــا علمتكن الحرب شيئاً ، أولا تستطعن معرفة من يجني منها فائدة ؟» . وأنت تعرف ، يا رفيق ، وأنا لا أتباهى ، أنا لا أحاول التأثير عليك ، وأنا لا أقول غير ما سمعت من الأخريات فيما بعد . تدبرت أمري ورويت للنساء قصـــة حياتهن بأسلوب جعلهن يبكين . وفي مقدوري أن أفعل ذلـــك مرة أخرى لأني اعرف سريرة كل شيء وأتحدث على الدوام عـــلى

مستوى عملي . وفي تلك الليلة كان الشيخ موكييف مستلقياً على الرف فوق الموقد يصغي الى كلماتي . وفي صباح اليوم التالي نقل هذه الكلمات كلها الى أنتونوف . وفي تلك العشية أغلق المعلم المخزن ، وناداني الى غرفة الجلوس ، وهنالك كان أنتونوف وصهره واثنان آخران . وكان موكييف موجوداً هو الآخر . وهو الذي فضح سري ، وقال لهم بصورة مباشرة : هي لم تشتمكم وحسب ، بل شتمت الله أيضاً ! ذلك كان كذباً . فلم اكن أرتاب في الله على الاطلاق هاتيك الأيام ، بل كنت مثل الآخرين جميعاً : أذهب الى الكنيسة وأصلي في البيت . لقد اختلق تلك الأمور كلها ، ذلك الشيطان العجوز ! وهكذا جعلوا يعذبونني ، يهوّلون عليّ الأمور ويستجوبونني . لكن معلمي قال كلمة في صالحي : «انها حمقاء . تصدّق كل ما يقال لها . لا تنشغلوا بها . سألقنها بنفسي درساً» . وقد فعل ذلك . بقيت مستلقية على الأرض خمسة أيام بعد ذلك ، لا أستطيع نهوضاً ، ولا أملك القوة على رفع يدي أو قدمي . وخيّل اليّ أني لن أستطيع ذلك أبداً . ومع هذا تدبرت أمري ، كما ترى ! بعيد ثلاثة أيام ذهب معلمي وسيدي الى بلدة قريبة ، وفي الليل سمعت نقرة على النافذة . قلت في نفسي : لقد جاؤوا يقتلونني . ولكنه كان ييجور نيستيروف . قال : «أسرعي . وهيئي أشياءك !» . خرجت الى الشارع فرأيت مزلجة وأحصنة مسرجة ومتأهبة للانطلاق . وفي المزلجة جلست ستيبانيدا . سألتني : «ما زلت على قيد الحياة ؟» ولكنني عجزت عن النطق من سعادتي بمعرفة أن هنالك أناساً يهتمون بشؤوني !

– ونشقت بصوت عال ، وبدأت عيناها تطرفان بسرعة . والتمع في عينيها نور غريب ، فتوقعت أن تنفجر باكية ، بيد أنها ضحكت بدلاً من البكاء في صوت عميق عميق يشبه ضحك الأطفال .

«– أخذوني الى البلدة تلك الليلة ، وأفرخوا روعي وعالجونى وأطعموني – لن أنسى طوال حياتي تلك الجلبة التي أحاطوني بها ، فكأنني المرأة الوحيدة التي يحبون فى هذا العالم . كانوا جميعاً أناساً جديين . كان هنالك أوستيوغوف وليزا وعامل آخر ، فاسيلي بتروفيتش ، ولقد كان فتى منشرحاً . حسناً . لن اقص لك كل شيء بل اقول باختصار : كأنني وجدت نفسي وسط اقرباء لي . وكان العم ييجور مشدوهاً . قال : «أبداً لم أثق بها . كنت أحسب أنها تتجسس لحسابهم» . عشت في البلدة قرابة أربعة شهور ، ثم بدأت الحرب الأهلية في سبيل السوفييت . أعلن الكولاك الحرب علينا ، وكانت الحال في الجزء الذي نعيش فيه من البلاد أشبه بأسطورة من أساطير الأطفال : مرعبة ولكنها تحمل شيئاً من المرح أيضاً ! كانت الأمور كلها مشوشة ، فلا يمكنك أن تحدّد موقف المرء من الطرفين . ونصح لي نيكيتا قائلاً : «انتبهي الى تصرفاتك ، يا رفيقة أنفيسا . واحتفظي بأذنيك حادتين مفتوحتين !» . علمني شيئاً أو شيئين ، فأشرق رأسي قليلاً . كنت أجوب المنطقة برمتها ، أتحدث الى النساء في اللقاءات أو أقوم بقليل من اعمال الاستكشاف . يصعب عليّ أن أروي لك الآونة كل شيء ، فقد كان هنالك كثرة من كل

شيء ، تتدفق أمام عيني مثل نهر . قمت بشيء كثير من العمل يومذاك ، فليتمجّد اسم الرب !»

– أربكها ذلك الحديث التقي . ما كان يمكن أن يتورد خداها خجلاً لأن وجهها أحمر اللون أشبه بقرميدة حامية ، ولكنها نشرت ذراعيها وضحكت ، وهي توضح لي بنبرة مذنبة : «أوه ، اللعنة على كل شيء ! لم أقصد أن أقول هذا ! انها العادة وحسب ، يا رفيق ! تلك الكلمات ليست أكثر من صدفة فارغة ! ليس ثمة حاجة الى تمجيد عشيرتك ، أليس كذلك ؟ فأمجادهم تدلّ عليها أفعالهم . حسناً ، لا تبال . . . أجل ، يا رجلي العزيز ، فعلت الشيء الكثير . فقد جمع ييجور نيستيروف فرقة صغيرة ، حوالي ثلاثين شخصاً ، وذهب الى القرية لانزال العقاب بهم . أنت ترى ، لقد كانوا يهدمون بيته ومزرعته . ولا ريبة أن ايفان قتل – فلقد اختفى على أية حال ، أما منزل ستيبانيدا الصغير فقد احترق تماماً . وقد قتلوا أفدوتيا موكييفا واغتصبوا شقيقتها تانيوشا – وهي لا تبرح مخبولة حتى يومنا هذا . وعقد ييجور محكمة في الساحة . وألقى نيكيتا أوستيوغوف خطبة فحكم الشعب بالاجماع على أنتونوف ، وعلى معلمي ، وعلى اثنين آخرين : زوتوف الطحان ، والكاهن . فأعدموا رمياً بالرصاص على الفور وفي المكان عينه . وهرب ديوكوف ، وقتل ضابط الشرطة في معركة بالبنادق ، وحلقت لحية الشيخ موكييف وشعره – وقالوا له : الآونة في مقدورك أن تعيش على هذا الشكل ! كانت الأمور رهيبة ، لكن ، صدّق أو لا تصدّق ، ما أن أخرجوا موكييف الى الشارع وقد حلقت لحيته حتى بدا

باعثاً على السخرية ، فضحك الجميع منه حتى انقلبوا على ظهورهم ، وسالت عبراتهم ، وامحى الخوف كله في عاصفة الضحك ! تلك كانت فكرة نيكيتا فيما يتعلق بتلك النكتة . أوه ، لقد كان رجلاً ذكياً ، حقاً كان ذكياً ! وجعلوا منه رئيساً لسوفييت القرية ، وليزا أمينة للسر . وأعطوني عملاً بدوري ، فقد انهمكت مع النساء . وقد وثقوا بي عند ذاك . قالوا لي : «ما كان يمكن أن تتخلي عن بيت ميسور وتنضمي الى الفقراء لو لم يدفعك الى ذلك سبب وجيه» . فقلت : «حسناً ، أيتها الفتيات . تعرفن بأنفسكن أني خدمت مثل كلبة في ذلك البيت الميسور» . وقالوا لي ، وهم يضحكون : «جربي ألا تفعلي ذلك !» حسناً ، لا قيمة لذلك ! فبعد حوالي شهرين وجب علينا أن نهرب للنجاة بأنفسنا . جاء البيض وكانوا كثرة ! ييجور ورجاله — كان لديه حوالي خمسين رجلاً — ارتحلوا الى الغابة . كان في مقدوره أن يجمع عدداً أكبر من الرجال ، لكن لم تكن هنالك بنادق كافية . وتركوني وستيبانيدا في القرية . قالوا لنا : «افتحا عينيكما ، ولا تظهرا نفسيكما ! !» اختبأت ستيبانيدا ، وهي متهورة طائشة ، في القرية ؛ أما أنا فوجدت ملجأ في مكان يبعد حوالي ثلاثة فراسخ ، في حديقة لتربية النحل . هكذا عشنا . اعتادت ستيبانيدا أن تجيء اليّ ليلاً . وقد سرقتْ مرة بندقية . جاءتني بها ، وقالت : «أنت تعرفين أن ديوكوف مع البيض . لقد كان محبوبي القديم وأريد أن ألعب معه حيلة ، لمجرد تلقين ذلك الشيطان المتعفن درساً ! كان يتقاضى رشاوى

ويخوّف الناس ، وقد دلّ على شخصين تم اعتقالهما . قلت : «سوف يقضى عليك» . فقالت : «قد أفلت من ذلك» .

«– وقد أفلتت ! انه حادث غريب حقاً . كنت جالسة في حديقة النحل ذات مساء أنجز بعض أعمال الخياطة وأرنو الى الأشجار القائمة قرب الدرب المؤدي الى القرية . فماذا رأيت ؟ ليبدونّ أنها ستيبانيدا قادمة ، ومعها رجل ذو قبعة بيضاء وقميص أبيض . لم يكونا يسيران على الطريق ، بل الى جانب منه ، بين الأدغال ، حيث يوجد ممر يفضي الى ينبوع الشفاء . لم يرق لي ذلك . على الرغم من أن ستيبانيدا تعتبر واعية سياسياً ، فقد كانت عنيفة بخصوص الرجال . وفيما هي تزداد اقتراباً شرعت أنا أفكر : أفلا يحسن بي أن أذهب ، والذهاب فيه خير ، الى الغابة ؟ وفجأة رأيت ذلك الرجل الأبيض ينحني وتقفز هي على ظهره وتدس قدميها تحت ذراعيه وتدفع رأسه ناحية الأرض . صاحت : «أنفيسا !» . كانت امرأة قوية سريعة الحركة . ركضت اليها ، وقد أرعشني الخوف . كان ذلك الأبيض يجاهد بقسوة حتى ألقاها عنه فوراً . ولكنني وصلت اليهما في الوقت المناسب وأخمدت حركته بضربة مني على رأسه . سحبت ستيبانيدا المسدس من جيبه ، وقالت : «خذيه الى ييجور . فقد ينفعه» . تصوّر . لقد كان ديوكوف نفسه . حسناً ، جررناه الى حديقة النحل ، وهنالك أفاق من غشيته . قالت ستيبانيدا تخاطبني : «أتعرفين كيف تطلقين النار ؟ لا تتخلي عن ذلك المسدس . أبقيه مصوباً اليه !» وقالت : «وسأبقى أنا هنا . لا حاجة

تدعو الى عودتك ، بل اخبريهم أن يبعثوا عدداً من صبياننا ، واحداً أو اثنين . فان لديّ خطة» .

«– وهكذا اقتدت' ديوكوف . كان هنالك حوالي عشرين فرسخاً الى معسكر ييجور ، أما على مسافة خمسة فراسخ فهنالك قرية صغيرة «للمؤمنين بالعهد القديم» ، وكان صبياننا هنالك أيضاً . ومشى ديوكوف أمامي ، وكتفاه ترتعشان ، وهو يبكي ويتضرّع اليّ أن أطلق سبيله . وقد وعدني بمختلف أصناف الهدايا . كان خجلان ، طبعاً ، من أن تأسره النساء ، كما كان خائفاً أيضاً . أمرته قائلة : «تابع طريقك ، ولا تطلق من فمك صرخة والا أرديتك قتيلاً !» وزمجر صبياننا من الضحك عليه ، وعليّ أيضاً ، وجلس هو هنالك على جذع شجرة ، يرتعش بكليته ، شاحب الوجه ، نحيل القد ، صغير الجسم ، بحيث تشعر بالرثاء له وأنت تنظر اليه . وبعيد يومين استاقت ستيبانيدا أبيض آخر الى حديقة النحل ، فجلبه الشخصان اللذان أرسلناهما ، لاحضاره ، وقالا : «انها امرأة مجنونة ، حقاً – ولن تروها مرة أخرى !»

«– واليك كيف سارت الأمور . فقد جاؤوا وحطموا حديقة النحل ، ولم يبقوا لستيبانيدا أثراً ، فلا عظام ولا شعرة واحدة . ولم نكتشف أبداً ما فعلوا بها . ولكن سجينها كان نافعاً . أخبرنا أنه خلال ثلاثة ايام سيحاول البيض الاستيلاء على البلدة ، وأن ثمة قوى قوية ستصل الى صفوفهم . وكان يقول الحقيقة . تقدمنا الى البلدة . على ضفة الكاما نشبت معركة صغيرة ، لم تكن ثمة ضرورة لها ، لكن العم ييجور كان يتميز غضباً حتى لم يستطع مقاومة الاغراء . وقتلوا سبعة

منا . واستولى البيض على البلدة طبعاً . لا ريب أنهم كانوا يعدون مائة وخمسين شخصاً ، ولم يكن هنالك من المدافعين أكثر من أربعين شخصاً . وكان هنالك شيء من تبادل اطلاق النار من بعيد ، وتراجع المدافعون الى الغابة . وطوال سنة ونصف السنة ، يا رفيقي العزيز ، كان علينا أن نتلوى مثل سمك الشبوط الذي علق بالشبكة . فحيثما ذهبنا كان هنالك البيض ، وأحياناً ينقلب الحمر بيضاً والبيض يأتون الينا . وراء التلال كانت الحرب الأهلية الكبيرة ملتهبة وكانوا يقاتلون كولتشاك . أما هنا فكنا نقاتل حربنا الأهلية الخاصة ، وكان يبدو أن لا نهاية لها . كانت أشبه بنيران الغابات . نطفئها في مكان فتشتعل في مكان آخر . حتى اننا انزلقنا الى قضاء أوسينسكي . وكان هنالك كثيرون من الفقراء ، وجميعهم من صانعي الأكياس والحبال . وكان العم ييجور مريضاً ، فقد وقع تحت حصانه وجرح في ساقه . وأسره البيض بالقرب من بلدة أوسا . فقد التقى هو وثلاثة آخرون بخيالة البيض مصادفة ، فقُتل اثنان على الفور وجرح هو . أما الرابع ، وهو طالب مدرسة ثانوية من بيرم ، فقد ركض عائداً الى البلدة حيث كنت وليزا . وأرسلتني أستطلع ما اذا كان في مقدورنا أن نقدم من العون للعم . كان البيض على بعد ثلاثة فراسخ ، تعسكروا قرب المرسأ . وحين وصلت الى هناك كان ييجور يتدلى معلقاً من شجرة ، نصف عريان تغطيه الدماء ، كما لو كانوا انتزعوا جلده عن جسده قطعة قطعة – كان المنظر رهيباً ! وكانت يده اليمنى مقطوعة . سألت أحد صانعي الأكياس فيم كان عقابه ، فأجاب : «لقد كان بلشفياً ،

بلشفياً حقيقيا . كانوا يعذبونه ، وكان هو يشتمهم ! وظلوا يعذبونه حتى أفقدوه الوعي . وأعتقد أنه كان أسلم الروح حين علقوه في الشجرة» .

«— فثارت ثائرتي ، فقد كنت حزينة على رفيقي ! وكان هنالك حشد من الناس واقفين عنـــد المرسأ ، فقلت لهم : «أفلا تخجلون ، أيها الكلاب ؟ أنتم من يجب أن تشنقوا ، يا من تحجرت قلوبكم !» لم أصرخ طويلاً . فقد اقتادوني الى الزعيـــم . كان عجوزاً أشيب الشعر ، يرتعش كمن أصيب بحمى . وقد أصدر أمره قائلا : «القضيب !» . حسنـــاً ، جلدوني عشرين جلدة بقضبانهـــم ، وبقيت أسبوعاً كاملاً لا أستطيـــع الجلوس أو الاضطجاع على ظهري . كان عملاً رائعاً أني أمتلك هذا الجسد — فكلما زادوه جلداً زاد هـــو صلابة . انه أشبه بالحركات الرياضية . أجل ، يا رفيق ، لقد عرفت نوعاً من الجلد في حياتي لا يقلّ عما يصيب حصاناً جامحاً . وقد تكدم جلدي وانسحق بشدة حتى لأتساءل أحياناً ما اذا كان قد بقي فيه شيء من دماء . لكن يبدو أنه ليس لذلك أية قيمة — فأنا لا أبرح على قيد الحياة ، ولا أتذمر ولا أشكو» .

«— كيف سارت الأمور بعد ذلك ؟ حسناً ، في البدء ، لم تكن سهلة بعيد انتصارنا ، بل بدت أكثر انقباضاً . وان عدداً من رفاقي ، من أصدقائي الخلّص ، قد قتلـــوا ، وآخرين توزعوا للقيام بأعمـــال شتى . وذهبت ليزا الى اييكاترينبورغ للدراسة — ذلك قبل أن يطلقوا عليها اسم سفيردلوفسك . وبدا أنى سأبقى وحيدة . وكان الناس في سوفييت القريـــة

جداً جميعا ويتحفظون في التعبير عن آرائهم . لا يعرفون شيئاً كثيراً عن حياتنا ، وما كانوا يعرفون وصل اليهم عن طريق الاشاعات . وكان ثمة فتى – مات قبل عامين من تفشي السل – وقد كتب قصيدة صغيرة عنهم :

رؤساؤنا يتربعون على العلا
واشاعة تسري لتنقصَ خيرنا ،
السوفييتُ لنا ،
غير ذا لا يهمنا .

«– كانت السلطة تُعقد محلياً في هاتيك الأيام . وبدأت بعد ذلك السياسة الاقتصادية الجديدة . وأنيطت بى ادارة مزرعة حكومية ، ولكنها أخفقت . وترعرعت أعداد جديدة من الكولاك سرقت كل شيء . وفي الشتاء كنت أعمل حارسة ليلية في المدرسة . لكن ، أي نوع من الحراس يمكن أن أكون ؟ كان المعلم عجوزاً مشاكساً ، مريضاً ، ولم يكن يحب الأطفال . وهكذا شرعت أعمل بالأجرة مرة أخرى كخادم نهارية ، وبدا لي كل شيء ، من وجهة نظري ، وكأنه ينزلق متراجعاً من جديد ، ساقطاً في مستنقع . غدت النساء مثل الحيوانات ، لا يصغين الى أي شيء خلاف ما يثرثرن به في زاويتهن الصغيرة . وكان ما أهمني هو أني لا أعرف شيئاً كثيراً عن النظريات . يخجلني ذلك ولكني لا أملك وقتاً أصرفه على الدراسة . فضلاً عن ذلك ، فأنا عملية بطبعي ، لا أفقه كيف أستخدم ما كتب في الحياة الحقيقية ، في قضايانا

اليومية . لست كفوءة لهذا الصنف من الأمور . الأمر الوحيد الذي أعرفه هو أن التصاقنا بزوايانا هو الذي يثير جميع تلك المشاحنات والمعارضات ، ووحشيتنا ، ويجعل حياتنا سدى لا طائل منها . أنا أعرف أن الشيء الرئيسي هو اعادة تنظيم الحياة اليومية ، والانطلاق من البداية ، من النساء ، لأن الحياة اليومية تقوم على أكتاف النساء ، على عرقهن ودمائهن . لكن ، كيف يتاح لك اعادة تنظيمها وكل امرأة مشدودة الى أفراد أسرتها ، وقليلات منهن يعرفن الحروف الأبجدية ولا يجدن وقتاً يتعلمن فيه ؟ ان حياة المرأة تشغلها القدور والمقالي ، والأطفال والغسيل . . . بدأت أحاول حثهن على اقامة مغسلة عمومية ، فلا يترتب على كل واحدة منهن أن تغسل بمفردها ، بل يمكن لاثنتين أو ثلاث أن تقمن بذلك العمل للقرية بأسرها تناوباً . ولم يتأت شيء من ذلك . كن خجولات وجبانات . وثياب كل منهن فى حال سيئة . حين تغسلها بنفسك فليس هنالك من يشاهد الثقوب أو الأوساخ فيها ، أما فى مغسل عام فان كل واحد يطلع على ثياب الآخرين . لم يقلن شيئاً من هذا ، طبعاً ، بل خمّنته من تلقاء نفسي . ولكنهن بدلاً من ذلك رحن يسألنني عن قضية الصابون : «كيف ستدبرين موضوع الصابون ؟ قد تملك إحدانا عشر قطع من الثياب وتملك الأخرى أربعاً ، فكيف نوزع الصابون ؟» . واعترفت بعضهن فيما بعد : «ليس للصابون شأن ، ولكننا لا نتحمل ما يصيبنا من خجل من جراء ذلك ! حين تتحسن أوضاعنا نبني مغسلاً عمومياً وحماماً ومخبزاً» . واي عزاء في هذا القول – حين تتحسن أوضاعنا !

قلت : «أيتها الغبيات ، الثروة هي التي تدمرنا» . وعلى أية حال ، فقد كانت الأمور بدأت تتحرك قليلاً ، وكنا نقضي على الأمية ، وقرأنا صحيفتنا سوية وقدمت لنا «صحيفة الفلاحين» عوناً كبيراً . هذا ما يجب أن أعترف به ! تلك الصحيفة هي صديق حقيقي . أجل ، يا رفيقي الغالي ، فنحن في حاجة إلى دار حضانة ، ومركز للولادة ، وينبغي أن نحوّل مخزن محصولات أنتونوف إلى منتدى للنساء . إنه مخزن محصولات جيد مصنوع من جذوع الأخشاب ، وقد بقي خاوياً قرابة سنتين حتى الآن .

– شرعت تحصي ما هي في حاجة اليه على أصابعها ، فلم تكفها هذه الأصابع ، وهكذا راحت تعدُّ من جديد ، وهي تضرب بقبضتها على المنضدة : «واحد ، اثنان . . .» . وبعدما عدت ثلاث عشرة حاجة عبس وجهها ، بل ضربتني مرتين على أضلاعي ، وهي تقول : «أنتم لا تلتفتون الى النساء جيداً ، يا رفاق ، رغم أنهم أنبأوكم أنه من دونهنّ لا تستطيعون بناء الاشتراكية ! هل نسيتم بيبل ؟ وما قاله لينين ؟ أنت لن تعلم المرأة أن تدير شؤون الدولة ما لم تحررها من تفاهات قضاياها ! ولجنة القضاء عندنا ولجنة المقاطعة تجلسان مثل الدببة في أوكارها ولا تتزحزحان قيد انملة ولو انهلت عليهما بالعصا . وكل ما تقولان هو أنك لست الحصاة الوحيدة على الشاطئ . لكن الأمر كله واضح وضوح النهار حقاً ، يا رفيق . لو اضطرت كل امرأة أن تقضي وقتها فوق قدر من الحساء خاص بها فماذا ترانا نحقق ؟ أجل ، هذه هي الأمور . ينبغى أن نتحرر من هذا العبء الثقيل . ينبغي أن يكون

لدينا شيء من الفراغ . هذه هي المرة الثالثة التي اضطررت فيها الى السير على قدميّ للوصول إلى هنا – طوال مائة وعشرين فرسخاً جيئة رجعة ، وهذا يعني مجموعاً قدره ٣٦٠ – أتعتبر هذا مزحة ؟ هذا يعني نصف شهر سيراً على القدمين . . . ومع هذا ، فالأمر ليس له قيمة . لقد قلت كل ما ينبغي أن يقال ، قلت كل شيء ، أطلقته من صدري . وسأمضي الآن إلى فراشي . لكن ، استحث رجال لجنة القضاء ، وإلا عرضت الموضوع على لجنة المحافظة . أتمنى أن يكونوا أدرجوا اسمي في عداد أعضاء الحزب في أسرع وقت ممكن ، وعندها سأهزّ جذورهم هزاً !»

١٩٣٠

٣

الرياح تلعب فوق ضفتي المجرى الضحل ، فوق مياهه الموحلة الراكدة ، وتدوّم فوق النار وكأنها تحاول اطفاءها ، ولكنها تروّحها فيزداد لهيبها ضراماً . وهنالك بعض الجذول والجذوع السوداء المنتزعة من أعماق المجرى تحترق في النار على مهل . كانت مختبئة هنالك في الوحل السميك اعواماً عديدة فجرها زوار الصيف الى الضفة فجففتها الشمس وراحت النار تقرضها على كره بمخالبها الذهبية . وانطلقت هبة زرقاء لاذعة من الدخان تنتشر على المجرى ، والجذوع المحترقة تهسّ ، وأوراق الصفصاف القديمة تخشخش في عذوبة ، وترتفع في

توافق مع أنين الرياح وقرقعة النيران أصداء بشرية جشاء :

– لقد ضيقوا علينا من الخارج بسبب من القوانين ، ومن الداخل أيضاً ، من أرواحنا . انهم يسنون القوانين التي يريدون ان يجعلوا منها أسباب الراحة لانفسهم . . .

كان المتحدث قصير الجسم ممتلئه يرتدى قميصاً من غزل بيتي ، وصداراً له أزرار نحاسية ، وحذاء ثقيلاً لم يعرف القطران فترة طويلة من الزمن ، ويبدو كما لو كان مصنوعاً من حديد السقف . كان له رأس ضخم مدور تكتنفه طبقة كثيفة من شعر شائب ، ووجهه الأحمر البدين مكسواً بشعر لم يحلق منذ زمن بعيد . ليبدون أنه ربى من فترة غير مغرقة في البعد لحية كثة حسنة الصورة . وتحت جبهته البارزة تختبئ عينان زرقاوان باردتان ، وقد يخال الناظر اليه من طريقته في التطلع الى النار أو الشمس أنه فاقد نعمة البصر . وكان يتحدث في نبرة متأنية ، متفكرة ، ويزن كل كلمة ينطق بها .

– يقولون ان الله غير موجود . في حياة العذاب التي نحيا ، طبعي أننا لا نملك متسعاً من الوقت للاهتمام بالله كثيراً . سواء كان موجوداً أم غير موجود – فان ذلك أبعد من معرفتنا ، ولسنا نحن من يقرّر ؛ ومهما يكن الأمر ، فمن الخطأ نوعاً ما أن يصيح الشبان ضد الله . فالله لم يُختلق البارحة ، كما تعلم ، ولكنه جرى به الاعتياد من غابر الأزمنة . لقد ألغوا الاحتفالات الكنسية – فأية فائدة نجم عن ذلك ؟ الناس يستطيعون أن يشربوا الفودكا في أيام العمل

على اية حال . لكنه في الأيام الغابرة كنت تذهب الى الحمام عشية الاحتفال وتمتع نفسك بحمام بخاري طيب .

– في مقدورك الذهاب الى الحمام أيام العمل أيضاً ، أليس كذلك ؟

– من يقول انك لا تستطيع هذا ؟ من المؤكد أنك تستطيع ، لكنك لا تشعر فيه بالنكهة ذاتها . في يوم الاحتفال تذهب الى الكنيسة ، وتقف هنالك . . .

– تستطيع أن تذهب الآن ، أليس كذلك ؟

– لكن ذلك لا يسبغ عليك النكهة ذاتها ، أيها المواطن ! فالكاهن يقيم الصلاة الآن بطريقة مخلّعة ، وليس هنالك جوقة انشاد ، ولا ما يكفي من شموع أمام الأيقونات . كل شيء تافه . أما في الايام السابقة فالكاهن كان يتبختر ويقدّم عرضاً جميلاً ، وتتدفق الفتيات والنساء ، وقد ارتوين أبهى زينة – وانه لمشهد خلاّب ! الآونة تعجز عن جرّ الفتيان والفتيات الى الكنيسة . وحين يقام القداس فهم يلعبون الكرة أو القضبان الخشبية . والنساء أيضاً ، الصغيرات منهن ، تجاوزن كل الحدود في سلوكهن . في هذه الأيام تثور المرأة على زوجها ، وتهتف به لست فرساً . . .

كان صوته الأجش يعلو كلما انغمس في الحديث . ألقى بعض العيدان الطرية في النار وأمرّ ابهامه على حدّ الفأس . كان يبني رصيفاً صغيراً يمتد من الضفة وسط النهر . ولم يكن ذلك عملاً شاقاً . كان يكفي أن يغرز عمودين وسط سرير النهر وآخرين على الضفة ، ويربط بينهما بلوحين خشبيين ثم يسمر أربعة ألواح أخرى فوقهما . ولم يكن العمل

يقتضى من رجل واحد أكثر من ساعتين ، ولكنه لم يكن في عجلة من أمره ، وكان ذلك هو يومه الثاني في العمل ، رغم أنه كان ماهراً الى حدّ الكفاية في استخدام الفأس ، ويكره الناس الذين يهدرون الوقت سدىً .

على الضفة الأخرى من النهر ، كان ثمة عدد من حيوانات مزرعة للدولة ، أبقار وخيول ، ترعى العشب . وخرج شاب من بين الأشجار يحمل لجاماً ، وخطا الى حصان مكيت - تواثب الحصان مبتعداً عنه وشرع من جديد يرعى العشب . توقف العجوز المهذار عن عمله في تشذيب العمود ، أنشأ يراقب الشاب وهو يطارد الحصان ، مطلقاً تعليقات ساخرة :

- اليك هذا المهرج المغفل ! . . أخطأه مرة أخرى . . . حسناً ، أكون . . . يا للمعتوه ! أمسك به من عرفه ! هيْ !

لم يكن الشاب في عجلة من أمره أيضاً . قبضت فتاة صبية من الكومسومول على الحصان من عرفه ، بينا راح هو يلجمه ، وتسلق ببطنه أولاً على ظهر الحصان ، وراح يخب به ومرفقاه تتطايران علواً بحيث تصلان الى أذنيه تقريباً .

قال العجوز ، وهو يشعل دخينة :

- هكذا يعملون . . . يمضي نصف ساعة كيما يمسك بحصان . لكنه لو كان يعمل لدى معلم لكان يعجل من خطواته ، ذلك الأبله المعتوه !

وانثنى يشذب العمود متأنياً ، مرسلاً ملحوظات تنزلق من تحت شاربيه الكثين المقلمين :

- ما كنت آخذ على عاتقي مناقشتك في موضوع الشبان .

فهم ، طبعاً ، يفعلون ما يفعلون – ولنقل : طواعيةً . ورغم هذا فنحن لا نستطيع فهمهم . ويلوح أنهم يريدون أن يفعلوا كل شيء دفعة واحدة . لعلهم كانوا يظنون ان يثبتوا الأشياء ليعيش الرجل في الخمسين من عمره عيشة الاسياد . ولعلهم يظنون ذلك ولهذا السبب يضطربون .

– لكنه من الطبعي أننا نستعمل هذه الكلمة بسبب من جهلنا . لا ينبغي أن نقول «مضطربين» ، وما نرمي اليه هو . . . يشرعون في عمل ! وهم مثقفون كما تستطيع أن ترى . وهم يقدمون هذه الامتحانات في سبيل مراكز أسمى . وجميعهم يريدون أن يكونوا أكثر من مجرد فلاحين . وبعض منهم توصلوا الى ذلك . غير بعيد من هنا ، ثمة شاب كنت أعرفه راعياً . ولكنه صار فيما بعد جندياً في الجيش الأحمر ، أما الآن – فهو رئيس سوفييت القرية ! على الشيوخ أن يتلقوا الأوامر منه ! وهو بطل !

– في فترة ما كان الشاب يخوّض قليلاً في الجيش طوال ثلاث أو أربع سنوات ، ثم يؤوب الى القرية ويبقى واحداً منا . واذا ما راح يعرض متباهياً تعاليه المديني أو العسكري ، فلا يكون ذلك لفترة طويلة . لسوف يتبختر حوالي سنة تقريباً ، ومن بعد يعود مرة أخرى واحداً منا نحن الفلاحين بكل ما في هذه الكلمة من معنى . ولكنه الآونة ، بعيد عودته من خدمته سنتين في ذلك الجيش الأحمر ، يحسب نفسه ملكاً في قصر ، ويشرع على الفور في انقلاب فجائي . وتعجز أنت عن أن ترى فيه جندياً حقيقياً ، فيما عدا مشيته ، ولكنه يعلن الحرب علينا نحن مواطنيه الفلاحين ، ولا يوقفه

شيء عن ذلك . ما له لحية أو سالفان ، ولكنه يعتبر نفسه معلماً . . .

– وهل يعلم أشياء سيئة ؟

ألقى الشيخ عقب دخينته في الماء ، ورمى بعدها رُقاقة ، وغضّن وجهه الأهلب في تقطيبة عبوس :

– سأقول لك بصراحة ، أيها المواطن . لا تقوم المشكلة كلها في أنه يعلم أشياء سيئة ، لكن في أن ما يعلمه هو صحيح ، ابن الملعونة !

– ليس هذا مفهوماً .

– أوه ، بلى ، يمكن فهمه . والمشكلة هي أنه يجرح . كنت أعرف معنى النجاح طوال عمري ، وتبيّن الآن أني لم أكن أعرفه بشكله الصحيح ، وأنني عشت مغفلاً ! هذه هي القضية ! لو أنه فعل ذلك خطأ فقد كان في مقدوري أن أهزأ به . لكنه كان يهاجمني وجهاً لوجه ولم يكن هنالك مكان أهرب اليه . ولم يكن قد وعى كيف يدير الأمور ، فقد كان فتى بعد . ولكنه حفظ شيئاً او شيئين . . . لو أن الأرض جردته من طاقته مثلما فعلت بي لما راح ينادي بالمزارع التعاونية ، كان يصيح – أبعدوا أيديكم عني ! آه ، هذا ما كان يفعله ! فيم تراه حاول حثّنا على الاشتراك في تعاونية ؟ لأنه ، كما ترى ، تدرب على أن يكون سائق جرار : فمن مصلحته أن يجلس هنالك على هذه الآلة ويدير مقودها .

– لقد وعينا من دون ريب أن الآلة تجعل الأمور أكثر سهولة . ولكن لها مستلزماتها ! فهي لا نفع فيها في حقل صغير ! لو أنها كانت أصغر على نحو يستطيع معه كل مزارع

أن يحصل على واحدة منها يسوّي بها أرضه ، ولكن حجمها الآن لا يعرف حدوداً . فهي تصدر أوامرها الخاصة ، تلك البهيمة : اما أن تقوم بحراثتك بصورة مشتركة أو تحزم متاعك وعن القرية ترحل . لكن ، أين تراك تستطيع الذهاب ؟

– حسناً ، أنا لا أجادل ، فان الأذكياء الكبار يعرفون ما هم فاعلون ، وهم يحاولون تقديم أفضل ما لديهم لنا . نحن نفهم هذا ، فلسنا أغبياء . وكل ما نقول هو أن هنالك وفرة من الأيمان الخفيف في ذلك . الكومسومول ، ورجال الجيش الأحمر ، وسائقو الجرارات – جميعهم شبان ، ولما يتح لهم الوقت للتفكير في الحياة . من هنا يتسلل التشوش .

بصق في راحة يده ، وقبض على الفأس بيد حمراء وكأنها محروقة ، وانثال يشذب العمود بذلك الجهد الذي يستخدمه الذين يؤمنون أن العقاب خير وسيلة للتعليم في جلد أحد الأطفال . بقي راكناً الى الصمت فترة ، وغرز العمود في الرمال الرطبة اللدنة بمقبض فأسه ، وقال من خلال أسنانه :

– خذ ، على سبيل المثال ، ابن أخي . . . انه ابن عمي ، ورغم هذا فهو من الأقرباء . ولكنه الآن أشبه ما يكون بعدوٍّ لي . حقاً انه لكذلك ! وهو يعرف الغث من السمين ! ذلك لا ريبة فيه ! الحيوان ذاته يريد أن يعيش حياة طيبة ، فكيف الرجال ! أنت لا تستطيع أن تربط جارك الى المحراث ، فهذا أمر غير مسموح به . ولذلك تحتاج الى حصان ، الى آلة – هذا شيء يفهمه . لقد تعلموا كيف يتحدثون ، ويبزون في حديثهم جميع الكهنة . بينا ذلك المحترم

الشيخ يزفر وينفخ أفكاره ! ولا يكفي أننا لا نستطيع أن نصغي الى ما يحاول أن يقول ، لكننا نبالي بذلك البتة . فلقد عالنوه صراحة : «ما هذا الذي رحت تعلمه للفلاحين طوال هذا الوقت ، وما هي الحكمة التي نطقت بها ؟» ويجيب الكاهن : «حكمتنا ليست من هذا العالم» . فيعاودون القول : «وما هو العالم الذى يفوتك ؟» . أواه . . . ليس من السهل على الكاهن أن يناقش أولئك الأبطال الشبان .

– أنت ، أيها المواطن ، جئت الى هذا المكان من بعيد ، ولسوف تقيم هنا فترة ، ثم ترحل من جديد . ولكن علينا نحن أن نقيم ههنا الى أن توافينا المنية . قضيت خمسين سنة وأنا أعمل ، فهل تراني أستحق راحة أم لا ؟ ولكنه يأخذني من مقدمة قميصي ، ويهزني ، ويروح يصرخ مثل سكير أو مجنون . وتسأله لماذا يصيح ؟ فيقول لأنني قدمت دليلاً خاطئاً في المحكمة . كان تعاونيونا يحاكمون بسبب من اساءة استعمال الاعتمادات المالية أو شيء من هذا القبيل . لم أفهم مما يجري شيئاً . كانت هنالك حقاً محاولة لاضرام النار في أحد المخازن ، وهذا أمر يعرفه الجميع . وأرادت المحكمة معرفة السبب . لماذا أضرموا النار فيه ؟ قال بعضهم كيما يستروا سرقتهم ، وقال آخرون إنه كان مجرد حادث نتيجة اسرافهم في الشراب . وابن أخي – واسمه سيرجي – ورفيقان من رفاقه وفتاة ، هم الذين بدأوا ذلك كله . قبل أن يجيء كان يبدو أن الجميع يعيشون عيشة راضية ، وما أن أطلّ حتى شرعوا ينبحون في وجوه بعضهم بعضاً مثل الكلاب . . . هذا خطأ وذلك خطأ ، والحياة التي

تعيشونها أسوأ من حياة البرابرة ، ومع ذلك . . . هذا ما كان يقول . وطلب محاكمتي زاعماً أني قدمت بينة خاطئة عن التعاونيين .

راح يتحدث في مزيد من التشوش والنفور . وبدا واضحاً أنه متضايق في نفسه لشروعه في هذه القصة . وصف ابن أخيه في عبارات مقتضبة أثارت صورة عن شخصية متعجرفة ، قلقة ، نشيطة ، آمرة ، لا يتعبها شيء في سبيل الوصول الى أهدافها .

– كان يندفع هنا وهنالك في الليل والنهار . والجميع سواء بالنسبة اليه . فهو هنا ، وهناك ، وفي كل مكان ، يفكر في المتاعب على الدوام . نظم فرقة اطفاء وأرغمنا جميعاً على تنظيف مداخننا على صورة لا يكون معها شيء من الهباب . وعلم الأطفال أن يجمعوا العظام ، وملأ النساء بجميع أصناف التفاهات ، وأنت تعرف ماهية المرأة – ما أسهل اقناعها ! وهو يكتب رسائل الى الصحف ، وقد كتب عن معلم مدرستنا . فجاؤوا وفصلوه . وكان المعلم قد أمضى معنا تسع عشرة سنة ، وكان رجلاً نعتمد عليه في جميع شؤوننا . كان ناصحاً جيداً ، متمكناً من التحايل على أي قانون . وأرسلوا بدلاً منه غلاماً مرحاً ما أسرع أن طالب بقطعة أرض لجعلها حديقة حول المدرسة ، قائلاً ان ذلك يتيح الفرصة أمام الطلاب للقيام بالتجارب والاختبارات .

يخال للمرء أنه في حديثه عن ابن أخيه يشير حقاً إلى كثيرين آخرين ، عازياً الى ابن أخيه ملامح رفاقه

وأفعالهم ، خالقاً بذلك ، دون وعي منه ، نموذجاً من شخصية عدوانية لا يقرُّ لها قرار . وبلغ في النهاية نقطة أشار فيها الى ابن أخيه بصفة المؤنث :

– جمعتْ النساء إلى بعضهن ، والفتيات . . .

– عمَّن تتحدث الآن ؟

– عن أفعاله . كانت هنالك فارفارا كوماريخينا قبل قدومه ، وكانت امرأة عادية طبيعية ، ولكنها الآن تتحكم في مصائر الجميع . تغري النساء بالانتساب إلى المزارع التعاونية . ولا ريبة في أن النساء ، كما نعلم ، يهوين التبدل . سرعان ما يشرعن في موائهن عن أن الحياة فى التعاونية أكثر سهولة . . .

بصق ، وقطب وجهه ، وجنح الى الصمت ، وهو يحكُّ الصدأ عن شفرة الفأس بظفره . كانت الجذوع فى قلب النار قد احترقت مخلفة رماداً قذرا ، لكن الجذور كثيرة العقد حولها لا تبرح تطلق دخانها . كانت النيران تلتهمها على مضض .

قال الشيخ متفكراً :

– يوم كنا صغاراً تهالكنا في جنون وراء نزواتنا . لكنها كانت من نوع مختلف تماماً : لم نكن ندس أنوفنا في كل شيء . اما ابناء اخوتنا هؤلاء ، فعددهم قليل ، قليل جداً ، ولكنهم صامدون في وجه الحياة . والقرية كلها ضدهم ، ولكنها لا تملك شيئا تدافع به عن نفسها !

وسرعان ما تغدو القرية بأسرها الى جانبهم شيئاً بعد شيء . هذا شيء يجب أن تقرّ به .

نهض ، والتقط عصا غليظة ، زانها فى راحة يده وألقى بها على الرمل من جديد .

– أنا أفهم ذلك . ذلك مقدّر كله ، كما تستطيع أن تقول . . . لا تستطيع منه هروباً . وحدهم الحمقى يستخدمون قبضات أيديهم . وعلى العموم ، فنحن ، الشيوخ ، قادرون على استيعاب ذلك : اذا كانت ممتلكاتنا تتناقص أو تؤخذ منا ، فمعنى ذلك أن الدولة في حاجة اليها . الدولة هي درع الانسان ، ولا تؤذيه من دون سبب .

نشر ذراعيه ، وقوّس كتفيه ، وختم حديثه وعلى وجهه وعينيه الباردتين ملامح ارتباك جلي :

– أما بخصوص تحويل ممتلكاتنا الى مزرعة تعاونية طواعية – فهذا أمر لا نستطيع أن نفهمه ! ليس هنالك من يفعل شيئاً طواعية . فالجميع يعيشون مرغمين على العيش ، وهذا أمر يحدث منذ الأزل . حتى المسيح لم يذهب الى صليبه مختاراً – لقد أمره أبوه بذلك .

صمت ، وفيما هو يختبر اللوح على الأعمدة عطس وأنهى حديثه متذمراً :

– لم لا يستطيعون أن يتركونا نعيش بقية حياتنا على المنوال الذي عشناه دائماً ؟

نأى عن النار ، فأطلقت الريح سحابة رمادية من الرماد

وراءه . التقط وهو ينخر لوحـــاً خشبيـــاً عـــن الأرض وتمتم :

– لم يبق أمامنا ، نحن الشيوخ ، غير أيام معدودات في حياتنا . يـوم كنا شباناً لـم نضايـــق أحـداً . . . كـلا ، أبداً . . . عش كما تهوى ، واسمن مثل قط .

كانت الجذوع المحترقة لا تبرح داخنة ، فتأفعـت فوق المجرى هبة من دخان أزرق . . .

١٩٣١

صور ادبية

انطون تشيخوف

وجّه إليّ الدعوة مرة لزيارته في قرية كوتشوك - كوي حيث يملك قطعة صغيرة من الأرض ومنزلاً أبيض من طابقين . أطلعني على «ديرته» ، وهو لا يكفُّ عن الحديث في حيوية :

- لو كنت أملك كثيراً من النقود لأقمت هنا مصحاً للمعلمين الريفيين المرضى . بناء يفيض بالضوء ، بضوء غامر ، وله نوافذ كبيرة وسقوف عالية . وكنت أقيم مكتبة رائعة ، وأستحضر مختلف الآلات الموسيقية ، ومنحلة ، وأرتب حديقة للخضراوات ، وبستاناً . وكنت أنظم محاضرات في الزراعة والأرصاد الجوية ، وما شابه ذلك . . . فالمعلمون يجب أن يلموا بكل شيء ، يا رجلي العزيز ، بكل شيء !

وصمت على حين غرة ، وسعل ورماني بنظرة جانبية ، وابتسم ابتسامته الحلوة اللطيفة ، ابتسامة تموج فتنة لا مقاومة لها ، ترغم المرء على ملاحقة كلماته فى انتباه قوي .

- أيضجرك الأصغاء الى أحلامي ؟ أما أنا فأحب الحديث عن هذا . لو كنت تعرف مدى احتياج الريف الروسي إلى معلمين طيبين مثقفين أذكياء ! في روسيا ينبغي لنا أن نعدّ للمعلمين ظروفاً استثنائية ، وأن نفعل هذا في أسرع وقت ممكن ، باعتبار أننا ندرك أنه ما لم يحصل الشعب على ثقافة واسعة فإن الدولة تنهار مثل بيت مبني من قرميد لم تشوه النار جيدا ! يجب ان يكون المعلم فناناً ، تيّمه عمله إلى أبعد الحدود ، في حين أن معلمينا خشنو الايدي ، نصف

مثقفين ، يذهبون إلى القرية لتعليم الأولاد وفي جوانحهم رغبة كما لو كانوا يمضون إلى المنفى . هم ساغبون ، مقهورون ، يعيشون في خوف دائم من فقدان ما يقيم أودهم . بينما ينبغي أن يكون المعلم الرجل الأول في القرية ، وأن يكون قادراً على الإجابة عن جميع الأسئلة التي يطرحها عليه الفلاحون كيما يغرس في نفوسهم احترام سلطانه ، ويكون جديراً بالاهتمام والتقدير ، فلا يجرؤ أحد على الصياح في وجهه . . . على إذلال كرامته ، مثلما يفعل الجميع عندنا - شرطي القرية ، والبقال الثرى ، والكاهن ، وراعي المدرسة ، ومدير الناحية ، وكبير المحلفين ، وذلك الموظف الذي رغم تسميته مفتش مدرسة ينهمك في التنفيذ الحرفي لمضمون رسائل التعليمات في المنطقة ، بدلاً من تحسين الأوضاع التعليمية . سخافة أن تدفع قروشاً زهيدة لانسان يُستدعى لتعليم الشعب - لتعليم الشعب ! أتسمع ؟ ليس من المسموح بأن يتجول مثل ذلك المرء في أسمال مهترئة ، ويرتعش من البرد في مدرسة رطبة متداعية ، وأن يتسمم بدخان المواقد سيئة التهوية ، وأن يصاب بالبرد على الدوام ، وأن يغدو في الثلاثين من عمره كتلة من الأمراض - التهاب الحنجرة ، الروماتزم ، والسل . . . هذا عار علينا ! على مدى ثمانية أو تسعة شهور في السنة يعيش معلمونا حياة الرهبان ، دونما إنسان يخاطبهم ، فيزدادون غباوة من جراء الوحدة ، وعدم توفر الكتب أو وسائل الترفيه . واذا واتتهم الجرأة على دعوة رفاق لهم لزيارتهم اتهمهم الناس بأنهم مشبوهون - هذه الكلمة البلهاء التي يُرهب الخبثاء بها الحمقى ! . . هذا كله يثير

الغثيان . وهو نوع من السخرية بالمخلوقات البشرية التي تؤدي عملاً عظيماً في غاية الجلال . أقول لك إني حينما ألتقي معلماً أشعر بالارتباك أمامه - بسبب حيائه ، ومن ثيابه الرثة . وأشعر كأنني أنا نفسى ، من يقع عليه اللوم في بؤس هذا المدرس - أشعر بذلك ، من دون ريب !

جنح لحظة إلى الصمت ، وغرق في التفكير ، ثم أشاح بذراعه ، وقال في هدوء :

- يا لروسيانا من بلد أخرق غريب .

أظلم عينيه الجميلتين ظل من حزن عميق ، وارتسمت فى زاويتيهما شبكة رقيقة من التجاعيد ، فأضفت شيئاً من العمق على نظرته . ألقى نظرة حواليه ، وشرع يسخر من نفسه :

- أنظر . . . ألقيت عليك مقالة افتتاحية طويلة جديرة بصحيفة ليبرالية . تعال ، سأقدم لك قليلاً من الشاي مكافأة على صبرك . . .

ما أكثر ما كان يفعل ذلك . يتحدث فترة في دفء وجدّ وإخلاص ، ولا يلبث أن يهزأ من نفسه ومن كلماته . وفى هذا الهزء الرقيق الحزين تحسّ تشاؤماً رهيفاً لرجل يقدر الكلمات حق قدرها ، مثلما يقدّر الأحلام . وفي ذلك الهزء تلوح أيضاً ظلال من تواضعه الرقيق ، ورهافته البدهية . . .

رجعنا ببطء إلى البيت صامتين . كان النهار دافئاً ، براقاً ، وهدير الأمواج المتألقة تحت أشعة الشمس المشرقة يصافح أذنينا . وفي الوادي كلب يهر برقة معبراً عن سروره

من شيء ما . أمسكني تشيخوف من أبطي ، وقال في نبرة بطيئة والسعال يبتر حديثه :

– ذلك شيء مخجل ومغرق في الحزن ، ولكنه صحيح – فهنالك كثيرون من الناس يحسدون الكلاب . . .

وأضاف ، وهو يضحك : – كل ما أنطق به اليوم يبدو خرفاً . . . لا ريبة أني بدأت أهرم !

وما أكثر ما كنت أسمع إليه يقول :

– أصغِ . . ثمة معلم وصل قبل قليل . . . وهو مريض ، ولديه زوجة . . . ألا تستطيع أن تفعل له شيئاً ، هل تستطيع ؟ لقد تدبرت أمر اقامته بصورة مؤقتة . . .

أو :

– أصغ ، يا غوركي ثمة معلم يرغب في لقائك ، ولكنه مريض طريح الفراش . هلا ذهبت لرؤيته ؟ اتفقنا ؟

أو :

– هنالك معلمة تطلب إرسال كتب إليها . . .

أحياناً كنت أجد هذا «المعلم» في بيته – وهو معلم متضرج الوجنتين لأحساسه بالارتباك ، يجلس عادة على حافة المقعد ، وينتقي كلماته بعناية وصعوبة ، ويحاول أن يتحدث بأكثر ما يستطيع من رقة و«ثقافة» ؛ أو تستغرقه رغبة عارمة ، وعلى شيء من جرأة الاشخاص المفرطين في الحياء ، في ألا يبدو غبياً في نظر الكاتب ، فيروح يمطر أنطون

بافلوفيتش بالاسئلة التي من الأرجح أنها خطرت له لتوه .

وكان أنطون بافلوفيتش يعير سمعه في انتباه الى الحديث الأخرق ، وابتسامة تومض في عينيه الحزينتين وتجعل التجاعيد على صدغيه ترتعش ، ويروح يتحدث بصوته العميق الناعم المخفوض ، مستخدماً كلمات بسيطة واضحة ، كلمات قريبة من الحياة ، سرعان ما تفرخ روع زائره ، فيكفُ الزائر عن محاولة الظهور بمظهر الألمعي ، وتجعله في الحال أكثر ذكاء واسترعاء للانتباه . . .

أذكر واحداً من هؤلاء المعلمين – طويل القامة ، نحيل البنية ، له وجه اصفر مهزول وأنف طويل معقوف يميل صوب ذقنه بصورة كئيبة – كان يجلس قبالة انطون بافلوفيتش يحدق بثبات في وجهه بعينين سوداوين ، ويدندن في صوت مكتئب اجش النبرة :

– انطباعات من هذه الشاكلة جمعت من شروط حياتية على امتداد الموسم التربوي تتكدس في ذلك التكتل النفسي الذي يقضي تماماً على أدنى امكانية للموقف الموضوعي تجاه العالم المحيط . والعالم ، من دون ريب ، ليس أكثر من تصورنا الخاص عنه . . .

وهنا انطلق إلى ميدان الفلسفة ، منزلقاً فيه مثل رجل سكران يخطو على الجليد .

سأل تشيخوف المعلم في هدوء ورقة :

– هلا أخبرتني عن ذلك الذي يضرب الأولاد في ناحيتكم ؟

وثب المعلم عن مقعده ، وشرع يلوّح ذراعيه في استياء :

– ماذا ؟ أنا ؟ أبداً ! أضربهم ؟

وشخر في غضب .

استرسل أنطون بافلوفيتش يقول ، وهو يلاطفه بابتسامة :

– لا تضطرب . هل قلت إني أتحدث عنك ؟ ولكنني أذكر أني قرأت في الصحيفة أن أحد الاشخاص يضرب أولاد المدرسة في ناحيتكم بالذات . . .

جلس المعلم من جديد ، ومسح العرق عن وجهه ، وأطلق تنهيدة ارتياح ، وقال في صوت عميق أجش :

– هذا صحيح تماماً ! كان هنالك مثل هذه القضية . لقد كان مكاروف . ولا غرابة في ذلك ! شيء رهيب ، ولكن يمكن تفسيره . فهو متزوج ، ولديه أربعة أطفال ، وزوجته عليلة ، وهو أيضاً مصدور ، وراتبه عشرون روبلاً . . . والمدرسة أشبه بالقبو ، وليس فيها غير غرفة واحدة للمعلم . في مثل هذه الظروف يضرب المرء ملاكاً من السماء رغم براءته وخلوه من الذنب وهو بريء لا ذنب له ، والتلاميذ أبعد ما يكونون عن الملائكة ، صدقني !

هذا الرجل الذي كان قبل لحظة واحدة يحاول التأثير في تشيخوف بمخزون من كلمات كبيرة القاها عليه بلا كلل شرع يتحدث ، فجأة ، وهو يهز أنفه المعقوف ، بكلمات أشبه بالحجارة بسيطة وثقيلة ، كلمات تلقي ضوءاً ساطعاً على الحقيقة اللعينة والمشؤومة للحياة التي تعيشها القرية الروسية . . .

حين ودّع المعلم مضيفه شدّ على يد تشيخوف الصغيرة

المعروقة ذات الأصابع الرقيقة بكلتا يديه . وقال :

– جئت لمقابلتك وكأنني قادم لرؤية أحد رؤسائي ، أرتعش بكليّتي وقد تملكني الخوف . وانتفخت مثل ديك رومي ، عازماً أن أقنعك أني شخص لي شأني أنا الآخر . . . وهذا أنا أنصرف كمن يفارق صديقاً عزيزاً طيباً يفهم كل شيء . يا له من شيء عظيم – أن تفهم كل شيء ! شكراً لك ! أنا ذاهب . وأحمل معي فكرة طيبة جيدة : العظماء أكثر بساطة ، وأكثر فهماً ، وأكثر قرباً إلينا نحن الفانين المساكين من جميع أولئك الصغار الذين نعيش بينهم . وداعاً ! لن أنساك ما حييت . . .

ارتعش أنفه ، واسترخت شفتاه في ابتسامة عذبة ، وأضاف فجأة :

– الحقيقة ان الأوغاد لا حظّ لهم أيضاً ، عليهم اللعنة !

أتبعه أنطون بافلوفيتش نظره وهو ينصرف ، وابتسم قائلاً : – شاب طيب . لن يمارس التعليم طويلاً . . .

– لماذا ؟

– سيلاحقونه . . . وسيطردونه .

وأضاف بعد فترة تفكير في نبرات لطيفة مهموسة :

– في روسيا تجد الرجل الشريف يشبه منظف المداخن نخيف به المربيات الأطفال الصغار . . .

يخيل إليّ أن كل امرئ يشعر في حضرة أنطون بافلوفيتش برغبة لا واعية في أن يكون أكثر بساطة وصدقاً

وقرباً من حقيقته ؛ ولحظت مرات كثيرة كيف كان الناس يطرحون ما تسلحوا به من الجمل المكتبية الطنانة والتعبيرات العصرية وغيرها من التفاهات الرخيصة التي كان الروسيون ، رغبة منهم في الظهور بمظهر الاوروبيين ، يخلعونها على أنفسهم ، مثلما يزخرف المتوحشون أنفسهم بالأصداف وأسنان الأسماك . ولم يكن أنطون بافلوفيتش يحب أسنان الأسماك أو أرياش الديكة . كل ما هو مبهرج ، رنان ، غريب ، ترتديه المخلوقات البشرية كيما يضفي عليها «مظهراً مهيباً» يربكه ويجعله يضطرب . ولحظت أنه في كل مرة يلتقي واحداً من هؤلاء المتبهرجين تتولاه رغبة عارمة في تخليصه من زخارفه الزائدة الخرقاء التي تشوه الوجه الحقيقي والروح الحية لجليسه . لقد عاش أنطون بافلوفيتش حياته كلها على موارد روحه ، وكان على الدوام صادقاً مع نفسه ، متحرراً في داخله ، لا يلقى بالاً لما ينتظره بعضهم أو يطلبه آخرون – أقلّ كياسة – من أنطون تشيخوف منه ككاتب معروف . ولم يكن يحب الخوض في أحاديث عن الموضوعات «السامية» – أحاديث يتسلى الروسيون اللطفاء بها بهذه الحمية ، وينسون أنه من السخف ، وليس من الظرافة ، أن تتحدث عن كساء المستقبل المخملي وأنت لا تملك في الحاضر سروالاً لائقاً .

كانت بساطته جميلة فأحب كل ما هو بسيط ، وحقيقي ، وصادق ؛ وكانت لديه وسيلة خاصة في جعل الآخرين بسطاء .

زارته مرة ثلاث نساء يرفلن في أبهى حلل . وملأن غرفته بحفيف أثوابهن الحريرية ورائحة العطور القوية ،

وجلسن برصانة قبالة مضيفهنّ وتظاهرن بانهن مهتمات اهتماماً مفرطاً بالسياسة ، وبدأن «يطرحن الاسئلة» عليه .

– كيف تخال أن الحرب ستنتهي ، يا أنطون بافلوفيتش ؟

وسعل أنطون بافلوفيتش ، وصمت متفكراً ، وأجاب بصوته الناعم الرقيق الرزين :

– صلحاً من دون ريب . . .

– لا ريب في ذلك . لكن ، من ينتصر ؟ اليونانيون أم الاتراك ؟

– يتراءى لي ان الجانب الأقوى سينتصر . . .

فاستفسرت النسوة وقد قاطعت احداهن الاخرى :

– ومن هو في رأيك الجانب الأقوى ؟

– الجانب الذي تغذّى بصورة أفضل وتثقف بصورة أفضل . . .

فهتفت احدى النساء :

– يا لها من ظرافة !

واستوضحت سيدة أخرى :

– ومنْ منهم تحب اكثر . . اليونانيين أم الأتراك ؟

تطلع اليها أنطون بافلوفيتش في رقة ، وأجاب بضحكة مهذبة قصيرة :

– أنا أحب أقراص الفواكه – هل تحبينها ؟

فصاحت المرأة في لهفة :

– أوه ، أحبها !

وأكدت السيدة الأخرى في وقار :

– إن لها طعماً لذيذا !

وشرعن ثلاثتهنّ في حديث مفعم حيوية عن أقراص الفواكه فأظهرن في الموضوع اطلاعاً رائعاً ومعرفة رقيقة . وكان من الواضح أنهنّ مغتبطات لأنهنّ لن يجهدن أذهانهنّ ويتظاهرن أنهنّ مهتمات فعلاً بالأتراك واليونانيين الذين لم يتطرق اليهم تفكيرهنّ حتى هذه اللحظة .

عند انصرافهن وعدن أنطون بافلوفيتش في مرح :

– سنرسل إليك علبة من أقراص الفواكه !

قلتُ له بعد ذهابهن :

– إن لك حديثاً رائعاً !

فضحك أنطون بافلوفيتش في عذوبة . قال :

– على كل شخص أن يتحدث بلغته الخاصة . . .

في مرة أخرى وجدت في غرفته وكيل نيابة شاباً وسيم الطلعة . كان يقف أمام تشيخوف يقذف شعره الجعد إلى الوراء ، ويقول في نبرة تموج غروراً :

– في قصتك «مع سبق الاصرار» جابهتَني بقضية بالغة التعقيد ، يا أنطون بافلوفيتش . لو أني عرفت بوجود إرادة التعمد في الشر لدى دينيس غريغورييف لكان من واجبي أن ألقي به في السجن من دون أيِ تردد ، ما دامت مصالح المجتمع تقضي بذلك . ولكنه متوحش ، لم يدرك جرمية العمل الذي ارتكبه ، وأنا أرثي له ! ولو أني عاملته معاملة إنسان يتصرف دون وعي وأذعنت لمشاعر الإشفاق ، فكيف تراني أضمن للمجتمع أن دينيس لن يعاود فك الصواميل

ويجعل القطار يخرج عن القضبان ؟ هذه هي القضية ! فما العمل ؟

جنح إلى صمت ، وألقى بجسده الى الوراء في مقعده ، وشخص إلى وجه أنطون بافلوفيتش بعينين متفحصتين . كانت بزته جديدة ، وأزرارها الأمامية تلتمع في ثقة وغباوة مثل العينين في الوجه الناعم لهذا المنافح الشاب عن العدالة .

قال أنطون بافلوفيتش في وقار :

– لو كنت قاضياً إذن برأت دينيس من تهمته . . .

– على أي أساس ؟

– كنت أقول له : «أنت لم تبلغ بعد مرتبة المجرم الواعي ، يا دينيس ، فاذهب وافعل ذلك !»

ضحك وكيل النيابة ، وما أسرع أن استرد وقاره المهيب واسترسل يقول :

– كلا ، يا أنطون بافلوفيتش المحترم ، فالقضية التي أثرتَها لا يمكن أن يتمّ حلها إلا في صالح المجتمع الذي أنا مطالب بحماية حياته وممتلكاته . دينيس متوحش ، هذا صحيح ، ولكنه مجرم وهنا تكمن الحقيقة !

فاستوضح أنطون بافلوفيتش على غير انتظار :

– هل تحبُّ الاصغاء الى الحاكي ؟

فعجّل الشاب في إعطاء الجواب :

– أوه ، أجل ! أحب ذلك كثيراً ! إنه اختراع مدهش !

فقال أنطون بافلوفيتش في اكتئاب :

– وأنا لا أطيق الحاكي !

– لماذا ؟

– إنه يتحدث ويغني دون أن يحسّ شيئاً . وجميع الأصوات التي تنطلق منه خاوية لا حياة فيها . . . هل أنت ميّال الى التصوير ؟

اتضح أن وكيل النيابة من هواة التصوير المتحمسين . فهبّ على الفور يتحدث عنه في حماسة ، وكفّ عن الحديث في موضوع الحاكي على الرغم من التشابه بينه وبين ذلك «الاختراع المدهش» الذي لاحظه تشيخوف بكل دقة وإحكام . ومن جديد رأيت وراء البزة مخلوقاً بشرياً ينبض حيوية ولا يخلو من إثارة الاهتمام ، مخلوقاً يسير على دروب الحياة مثل جرو يُساق الى الصيد .

بعدما ودع أنطون بافلوفيتش الشاب قال في جفوة :

– أمثل هذه البثور على . . . مقعد العدالة يقرون مصائر البشر .

وأضاف بعد صمت قصير :

– وكلاء النيابة مغرمون بصيد السمك . وبخاصة سمك الفرخ !

كان تشيخوف يتمتع بفن اكتشاف السوقية وابراز الابتذال والدناءة في كل مكان ، وهو فن لا يبرع فيه غير امرئ مطالبه ازاء الحياة عالية جداً ، وينبع من الرغبة القوية في رؤية البساطة والجمال والتآلف في الانسان . كان على الدوام قاضياً قاسياً لا يعرف الرحمة في وجه الدناءة .

قال أحدهم أمامه إن محرر مجلة شعبية ، وهو رجل

يتحدث على الدوام عن الحاجة إلى حب الآخرين والرثاء لهم ، أهان أحد كمسارية مفتشي السكك الحديد من دون أي سبب على الاطلاق ، وكان معتاداً على معاملة مرؤوسيه بفظاظة شديدة .

قال أنطون بافلوفيتش ، وهو يطلق قهقهة متجهمة :

– هذا شيء طبيعي ، فهو رجل أرستقراطي ، مثقف . . . وقد واظب على معهد للتعليم الثانوي ! وكان والده يلبس حذاء مصنوعاً من لحاء الشجر ، أما هو فيلبس جزمة من جلد لماع . . .

كانت نبرة الكلمات التي تفوّه بها تجعل «الارستقراطي» يبدو في الحال فرداً تافهاً سخيفاً .

قال عن صحفي موثوق :

– هو رجل موهوب حقاً ! كتاباته على الدوام نبيلة جداً ، وانسانية جداً . . . معسولة . ولكنه يطلق على امرأته لقب الحمقاء أمام الجميع . وخدمه ينامون في غرفة رطبة ، وخادماته مصابات بالروماتزم عادة . . .

– أتحب فلاناً من الناس ، يا أنطون بافلوفيتش ؟

فيجيب أنطون بافلوفيتش ، وهو يسعل بين الفينة والاخرى :

– أوه . . أجل . إنه رجل ظريف . إنه يعرف كل شيء . ويقرأ كثيراً . فقد أخذ ثلاثة من كتبي ولم يعدها إليّ . وهو شارد الذهن قليلاً ، يخبرك يوماً أنك فتى رائع ، وفي اليوم التالي يخبر شخصاً آخر أنك سرقت الجورب

الحريري الأســـود الموشى بخطـــوط زرق الخاص بزوج عشيقتك . . .

سُمعَ أحدهم يتشكى في حضوره من أن زوايا «خطيرة» من مجلات «ثقيلة» مملة وعويصة .

فنصح أنطون بافلوفيتش في إيمان راسخ :

– لا تقرأوا تلك الموضوعات ، فهي أدب تعاوني . . . ادب الزمـــلاء الذي يكتبـــه السادة كراسنوف وتشيرنوف وبيلوف (الأحمـــر الاســـود والأبيض) . يكتـــب أحـــد هؤلاء الثلاثة موضوعاً ، فينتقده الثاني ، ويوفق الثالث بين مخالفات المنطق التي ارتكبها الأول والثاني . ذلك أشبه بلعب الورق مع احمق . لكن فيم يبتغي القارئ هذه الأمور ، فإن أحداً لا يطرح على نفسه هذا السؤال .

زارته مرة سيدة صلبة البنية ، ممتلئة صحـــة ، حلوة الطلعة ، أنيقة الثياب ، ما أسرع أن شرعت على الفور تتحدث «بأسلوب تشيخوف» :

– الحياة قاتمـــة ، يا أنطون بافلوفيتش ! كل شيء قذر – الناس والسماء والبحر ، وحتى الأزهار تبدو قذرة في نظري . وليس هنالك ما اتمناه . . . روحي تكتئب . ذلك أشبه بمرض . . .

فقال أنطون بافلوفيتش في نبرة تأكيد :

– إنه مرض ! هذا ما هو عليه . واسمه اللاتينى هو «morbus pritvorialis» * .

* morbus باللاتينية تعني «مرض» . pritvorialis تشويـــه كلمة روسية تعني تظاهر . المقصود هنا مرض التظاهر . **الناشر** .

من حسن طالع تلك السيدة انها لم تكن تعرف اللغـــة اللاتينية ، أو لعلها تظاهرت بذلك .

قال ، وهو يضحك ضحكته الخافتة الحكيمة :

– النقاد أشبه بذباب الخيل ، يعوقها عن فلاحة التربة . تكون عضلات الحصان مشدودة مثل أوتار الكمان ، فتحطُّ الذبابة فجأة على كفله ، وهي تئز وتلسع . ويرتعش جلد الحصان ، فيروح يهزُّ ذيله . فيم تراها تلك الذبابة تئزُّ ؟ لعلها ، هي ذاتها ، لا تدرى لذلك سبباً . ان لها ، بكـــل بساطة ، طبيعة لا تعرف الراحـــة وتود أن يحسَّ الآخرون بها – ويُظنُّ أنها تقول : «أنا حيـــة ايضاً ، كما تدري ! فانظر ، أنا أعرف كيف أئزُّ ، وليس هنالك شيء أعجز عـن أن أئز حوله !» ظللت اقرأ مقالات نقديـــة عن أقاصيصي طوال خمسة وعشرين عاماً ، ولا أستطيع أن أتذكر نقطـــة واحدة مفيدة عنها ، أو أقل نصيحة جيدة . الناقد الوحيـــد الذي ترك انطباعاً لديَّ كان سكابيتشيفسكي الذي تنبأ أني سأموت سكران في قاع خندق . . .

كانت سخرية رقيقـــة تومض في لطف أبداً في عينيـــه الكئيبتين الحزينتين ، ولكن هاتين العينين تغدوان احيانـــاً باردتين حادتين خشنتين ، وفي مثل هاتيـــك اللحظات تزحف نبرة قاسية إلى نغمات صوته العذبة الودية ، فأشعر أن هذا الرجل الخجول الرقيق الفؤاد يمكن أن يصمـــد – اذا اراد ذلك – في وجه أية قوة معادية ، يصمد في رسوخ ، ودون أن يعرف لسلطانها إذعاناً .

وكان يتراءى لي أحياناً ان ثمة مسحـــة من القنوط في تصرفاته مع الآخرين ، شيئاً مماثلاً ليأس بارد ساكن .

قال مرة :

— الروسي مخلوق غريب ! إنه أشبه بالمنخل لا يُمسك طويلاً بالأشياء التي توضع فيه . في شبابه يتخم نفســـه بحيوية بكل ما يقع في سبيله ، وحين يبلغ الثلاثين لا يتبقى من ذلك كله سوى كومة من النفايات لا لون لها . إذا رغــب المرء في أن يحيا حياة طيبة ، حياة البشرية ، عليه أن يعمل ! أن يعمل وفي قلبه وداد وإيمان . ونحن لا نعرف كيف نفعل ذلك في بلادنا . إن المهندس المعماري ، بعد أن يقيم منزلين أو ثلاثة منازل مقبولة ، يجلس ويروح يلعب الورق بقيـــة حياتـــه ، أو يروح يحوم خلف كواليس المسرح . وما أن يكتسب الطبيب ممارسة حتى يكف عن مجاراة العلم ، ويكف عن قراءة أي شيء فيمـــا خلا «نوفوستي ترابي» («الاخبار العلاجية») ، وفي الاربعين يمتـلـىء ثقـــة مـــن أن الأمراض جميعاً سببها البرد . لم ألتق موظفاً واحداً يملك أدنى فكرة عن ماهية عمله — فهم يحشرون أنفسهم في العاصمة ، أو فى مدينة اقليمية ، ويدبجون أوراقاً يرسلونهـا الى زمييـــف وسمورغون لانجازها . ومن تحجز حريته في التنقل في زمييف وسمورغون من جراء هذه الوثائـــق ، أمر لا يعيره الموظـف اهتماماً أكثر مما يعير الملحد اهتماماً لعذابات الجحيـــم . ويتوقف المحامي بعد اكتسابه الشهرة نتيجة مرافعة ناجحة عن إرهاق نفسه بالدفاع عن الحقيقة ، ولا يفعل أكثر من الدفاع عن حقوق الملكية ، والمراهنة على الخيول ، وأكـــل

المحار ، وينتحل صفة الخبير الكبير في الفنون . كما أن الممثل ، بعد أن يقوم بدورين أو ثلاثة أدوار بنجاح معقول ، يتوقف عن حفظ أدواره ، ويلبس قبعة عالية على رأسه ويعتبر نفسه عبقرياً . روسيا بلد الكسالى الجشعين . والناس يأكلون ويشربون بكثرة ، ويحبون النوم أثناء النهار ، ويشخرون في نومهم . ويتزوجون لاستتباب النظام في بيوتهم ، ويتخذون عشيقة في سبيل رفع هيبتهم الاجتماعية . وسيكولوجيتهم سيكولوجية الكلاب . اضربهم يصرخوا في خنوع ويلجأوا الى زواياهم . لاطفهم يستلقوا على ظهورهم ويرفعوا قوائمهم ويأخذوا بهز اذنابهم . . .

كان ازدراء بارد كئيب يكمن في هذه الكلمات . ولكنه كان ، وهو يبدي احتقاره ، يقوى على إبداء الشفقة ، وحينما ينزل الظلم بأحدهم في حضوره ، فإن أنطون بافلوفيتش يدافع عنه من دون ريب : – رويدك الآن ! فهو رجل عجوز ، نيف على السبعين . . أو : – هو لا يبرح فتياً ، وما أتاه كان بدافع من غفلته . . .

حين يروح يتحدث على هذا الغرار لا أجد في وجهه شيئاً من علائم الاشمئزاز . ..

حين يكون المرء فتياً تبدو له الدناءة شيئاً مسلياً تافهاً بكل بساطة ، ولكنها تروح تحدق به بصورة تدريجية ، ويزحف ضبابها الرمادي إلى عقله ودمه مثل السم وسم الأدخنة التي يطلقها الفحم ، الى أن يصير مثل لوحة قديمة

تأكّلها الصدأ في حانة - تلوح كأنها تحمل صورة ما ، أما ما هي هذه الصورة فيستحيل أن تحزر . .

منذ الاقاصيص الاولى تمكّن أنطون تشيخوف أن يكشف ، في خضم هذه الدناءة الكابي ، نقاطها المأساوية الكئيبة . وما على المرء إلا أن يقرأ هذه الاقاصيص «الفكاهية» في شيء من الانتباه حتى يتحقق مقدار ما كان المؤلف يراه في اسف من قسوة وقباحة ويخفيه في خجل في هاتيك المواقف القصصية وكلماتها الساخرة .

كان متواضعاً الى درجة البراءة ، ولا يسمح لنفسه ان يتحدى الناس في صوت عال وصراحة مكشوفة : «كونوا أكثر . . . استقامة !» ، بل كان يأمل عبثاً أن يستوعبوا ، هم أنفسهم ، الضرورة الملحة في أن يكونوا أكثر استقامة . كان يمقت كل ما هو دنيء وحقير ، فيروح يصف الجانب الأسوأ من الحياة بلغة شاعر نبيلة ، وبابتسامة الفكاهي العذبة ، ولا يكاد توبيخها الداخلي المرير الكامن تحت ذلك السطح الخارجي الصقيل أن يبين للعيان في أقاصيصه .

ويضحك الجمهور المحترم ، وهو يقرأ قصة «أبنة البيون» ، ولعله يعجز عن أن يرى في هذه القصة السخريات المقيتة لسيد ثري من امرئ محروم ، غريب عن كل من حوله وما حوله . وفي سائر قصص أنطون بافلوفيتش الساخرة يخال لي أني أسمع الآهة العذبة العميقة لقلب بشري نقي حقاً ، آهة رثاء يائسة على المخلوقات البشرية العاجزة عن الحفاظ على احترام كرامتها ، والمستسلمة دونما مقاومة للقوة الوحشية ، والعائشة مثل العبيد ، والتي لا تؤمن إلا بضرورة

ازدراد حساء الملفوف الدسم اكثر ما يمكن كل يوم ، والتي لا تشعر بشيء إلا بالخوف من أن ينزل بها الضرب احدهم القوي والوقح .

ليس هنالك من وعى الطبيعة المأساوية لتفاهات الحياة بمثل هذين الوضوح والرهافة مثل أنطون تشيخوف . ولم يكن هنالك كاتب من قَبلُ استطاع أن يرسم للكائنات البشرية بمثل هذه الحقيقة القاسية لوحة لكل ما هو مشين يبعث على الكآبة في الفوضى الداكنة لحياة الطبقة المتوسطة .

كانت الدناءة عدوّه . قاتل ضدها طوال حياته ، وعرضها للنقد ، وكشف عنها سترها بريشة نزيهة بارعة ، مكتشفاً عفن الدناءة حتى حيث يبدو ، للوهلة الأولى ، أن كل شيء مرتب على أحسن ما يكون الترتيب ، وبصورة ملائمة ، بل حتى باهرة . . وانتقمت منه الدناءة بحيلة بشعة إذ وضعت جثمانه – جثمان شاعر – في عربة قطار لنقل «المحار» .

تلك العربة الخضراء القاتمة صعقتني فكأنها تكشيرة انتصار عريضة للدناءة في وجه عدوها المنهك ، و«الذكريات» العديدة للصحف الرخيصة – أشبه بحزن ريائي أخال أني أحسُّ من خلفه ذلك النفس البارد الكريه لتلك الدناءة ذاتها التي تغتبط في قرارة نفسها لموت عدوها .

قراءة أعمال أنطون تشيخوف تجعل المرء يحسُّ أنه في يوم حزين من أخريات الخريف ، حينما يكون الهواء شفافاً ، والأشجار العارية تنتصب مرسومة بدقة في وجه السماء ،

والبيوت تراكم بعضها على بعض ، والناس قد غلبهم التشاؤم والاكتئاب . كل شيء غريب ، وحيد ، لا حراك به ، ولا قوة فيه . أما الآفاق البعيدة فزرقاء خاوية ، تختلط بالسماوات الشاحبة ، وتتنفس برداً حزيناً على الطين نصف المتجمد . أما عقل الكاتب فهو أشبه بأشعة شمس الخريف ، تضيىء بوضوح قاس الدروب المداسة بالاقدام ، والشوارع المتعرّجة ، والمنازل الضيقة القذرة التي يختنق فيها من الضجر والكسل أناس «صغار» حقيرون ، يملؤون مساكنهم بهياج ناعس عديم المعنى . هنالك تذهب «الحبّوبة» تتراكض مذعورة مثل فأرة صغيرة رمادية ، هي المرأة الرقيقة الوديعة التي تُحبُ حباً خنوعاً لا يعرف حدوداً . اصفعها على وجنتها ولن تجرؤ ، تلك الأمة المسكينة ، على الانين بصوت عال . والى جانبها تقف أولغا الحزينة من «الشقيقات الثلاث» . هي أيضاً قادرة على عطاء الحب من دون حدود ، وتخضع في أناة لنزوات زوج شقيقها الكسول المنحلة الوضيعة . ان حياتَي شقيقتيها تتحطم حواليها فلا تفعل سوى البكاء ، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً ، ولا يتشكل في قلبها ولو كلمة احتجاج واحدة قوية ضد الدناءة .

وهذه أيضاً رانيفسكايا الغزيرة العبرات وبقية أصحاب «بستان الكرز» السابقين — أنانيون كالأطفال ، ذابلون كالشيوخ . وهم الذين كان ينبغي أن يرقدوا رقدتهم الأبدية منذ طويل زمن يئنون ويتباكون ، عمي عما يدور حواليهم ، لا يفقهون شيئاً ، طفيليون عاجزون عن التعلّق بأهداب الحياة من جديد . والطالب الدنيء تروفيموف يبدي آراءه متفاصحاً

حول ضرورة العمل ، ويبدد وقته هباء ، ويسلّي مللـه بالهزء من فاريا التي تكدح من دون توقف في سبيل رخاء الكسالى .

وفيرشينين (بطـل مسرحيـة «الشقيقات الثلاث») يحلم بالحياة الرائعة التي ستهلُّ في غضون ثلاثمائة سنة ، وفي هذه الأثناء يعمى عن أن كل ما حواليه يتحطّم شظايا ، وأن سوليوني على أتم استعداد ، أمام عينيه ، وبدافع من الضجر والغباء ، أن يقتل البارون اليائس توزينباخ .

صف طويل من العبيـد أسرى الحب ، أسرى غبائهم وكسلهم ، أسرى جشعهم إلى نعيم الدنيا ، يمرُّ أمام عيني القارئ . ههنا عبيد الخوف المبهم من الحياة ، يتحركون في قلق غامض ، ويملؤون الهواء بأحاديث ركيكة عن المستقبل شاعرين أنه ليس ثمة مكان لهم في الوقت الراهن . . .

أحياناً تصل الى الآذان طلقة من الحشد الرمادي – إنه إيفانوف أو تريبليف * الذي اكتشف فجأة الشيء الوحيد الذي ينبغي أن يفعله ، فأسلم الروح .

كثيرون منهم يستسلمون لأحلام جميلة عن الحياة الرائعة التي ستهلُّ في غضون مائتي سنة ، ولكن أحداً منهم لا يخطر له في بال أن يطرح هذا السؤال البسيط : من هو الـذي سيجعلها رائعة ان لم نكن نفعل أكثر من الأحلام ؟

وقد مرّ رجل عظيم حكيم مهتم بكل شيء أمام هذا الحشد الكئيب المضجر من الاشخاص العاجزين ، فرمقهم بنظرة يقظى ،

---

* ايفانوف هو بطل مسرحية «ايفانوف» ، وتريبليف بطـل مسرحية «النورس» لتشيخوف . **المترجم** .

أولئك المواطنين المضجرين في وطنه الأم ، وقال وابتسامة حزينة تتخايل في ملامحه بنبرة من التوبيخ اللطيف لكن العميق ، وحزن طاغ واضح في قسمات وجهه وفي حنايا فؤاده ، وفي صوته رنة إخلاص صادق :

— يا للحياة الكئيبة التي تعيشون أيها السادة !

خمسة أيام من الحمى ولا رغبة عندي في اللجوء الى الراحة . المطر الفنلندي الكئيب يرذّ على الارض غباراً ندياً . ومدافع حصن إينو ترعد من دون توقف . «يتدربون» عليها . وفي الليل يروح لسان الكشاف الطويل يلعق السحب ، وهو مشهد مقرف ، لأنه يذكرك على الدوام بالكابوس الشيطاني — الحرب .

قرأت تشيخوف . لو لم يمت قبيل عشر سنوات فلعلّ الحرب كانت تقتله بعد أن تسممه أولاً بالحقد على الرجال . وتذكرت جنازته .

كان نعش الكاتب الذي أحبته موسكو «أعذب الحب» قد نقل في عربة خضراء كتب على بابها «محار» بحروف كبيرة . وتبع قسم من الحشد الصغير الذي تجمهر في المحطة لاستقبال الكاتب نعش الجنرال كيلر الذي وصل لتوّه من منشوريا وراحوا يتساءلون فيم ينقل جثمان تشيخوف الى مثواه الاخير على أنغام موسيقى عسكرية . وعندما اكتشف الخطأ شرع بعض الرجال المرحين يضحكون ضحكات عالية أو مكبوتة . سار وراء نعش تشيخوف قرابة مائة شخص لا غير . وبقي في ذاكرتي محاميان

من بينهم ارتدى كل منهما حذاء جديداً ، وربطة عنق مزخرفة زاهية فبدَوا أشبه بعروسين . كنت أسير خلفهما فسمعت أحدهما ، ويدعى ف . أ . ماكلاكوف ، يتحدث عن ذكاء الكلاب ، أما الآخر الذي لا أعرفه فكان يتباهى بمزايا كوخه الصيفي وجمال البقعة المحدقة به . وكانت هنالك سيدة في ثوب ليلكي تحمل مظلة مخرمة تؤكد لرجل شيخ على أنفه نظارة سميكة الاطار :

– أوه ، لقد كان ساحراً الى أبعد الحدود ، حاد الذهن الى أبعد الحدود . . .

سعل الشيخ متشككا . وكان النهار حاراً مترباً . وكان ينطلق في مقدمة الموكب ضابط شرطة سمين على صهوة جواد أبيض عبل . كان ذلك كله ، وكثير غيره ، يفيض دناءة بصورة مقززة ولا يتوافق في شيء مع ذكرى الفنان العظيم المرهف .

كتب تشيخوف في رسالة الى العجوز أ . س . سوفورين يقول :

«ليس هنالك ما هو أكثر إشاعة للملل واللاشاعرية من الصراع الواقعي في سبيل الوجود ، والذي يدمر بهجة الحياة ، ويولد اللامبالاة» .

هذه الكلمات هي تعبير عن المزاج الروسي الصراح ، وفي رأيي ان أنطون بافلوفيتش لم يتميز به على الاطلاق . في روسيا الوفرة من كل شيء ، لكن الناس لا يحبون العمل فإن

الاكثرية تفكر مثل هذا التفكير . الروسيون معجبون بالطاقة ، لكنهم لا يؤمنون بها الإيمان كله . ان كاتباً هو نصير للمزاج العملي ، جاك لندن على سبيل المثال ، يكون مستحيلاً في روسيا . ان كتب جاك لندن بالغة الشعبية في روسيا ، ولكنني لم الحظ انها تحفز ارادة الروسيين الى العمل ، بل هي لا تفعل غير إثارة مخيلتهم . أما تشيخوف فلم يكن روسياً صحيحاً من هذه الناحية . فمنذ صباه الباكر كان «الصراع في سبيل الوجود» قد تجلى في صورة بائسة عديمة اللون من الهموم التافهة اليومية بحثاً عن لقمة الخبز – وليس من اجل نفسه وحده بل وكان في حاجة الى لقمة كبيرة ، للآخرين أيضاً . هذه الهموم المجردة من أي سرور هي التي أعطاها كل طاقات صباه ، وما يدعو الى الدهشة هو كيف استطاع الحفاظ على روح السخرية والفكاهة . فلقد رأى الحياة عبارة عن سعي منهك في سبيل الكفاف من طعام وسكينة . وكانت مآسيها ومباكيها العظيمة مخفاة عنه تحت طبقة كثيفة من الاشياء العادية المبتذلة . وعندما تخلَّص بعض الشيء من التمعن في الناس الشبعانة حواليه استطاع ان يلقي نظرة ثاقبة الى حقيقة هذه المآسي .

لم ألتق إنساناً أحسَّ شأن العمل كأساس للثقافة بهذا العمق والشمول مثل أنطون بافلوفيتش . وقد تجلى هذا الشعور في جميع التفصيلات الصغيرة للحياة المنزلية ، في اختيار الأشياء البيتية ، وفي الحب النبيل المبذول على تلك الاشياء ذاتها . لم تكن لديه رغبة جامحة في جمعها ، ولكنه لم يكن يملّ من الاعجاب بها باعتبارها ثمرة ابداع الروح البشرية . لقد أحبَّ عملية البناء وزراعة الحدائق ، وتزيين

الارض ، وأحسّ بشاعرية العمل . يا للعناية المؤثرة التي يراقب بها نموّ أشجار الفواكه وخمائل الزينة التي غرسها بنفسه في بستانه ! وفي خضّم الاهتمامات الكثيرة المتعلقة باشادة منزله في أوتكا ، كان يقول :

– لو أن كل إنسان في هذا العالم بذل جهده لزراعة أرضه ، فما كان أحلى هذا العالم وأروعه !

كنت في تلك الاثناء أعاني في سبيل كتابة مسرحيتي «فاسيلي بوسلايف» ، فقرأت عليه مونولوج فاسيلي المتباهي :

آه لو كنت أملك وفرة من قوة !
لأذبت الثلوج حواليّ بأنفاسي الملتهبة ،
وضربت في الآفاق أزرع تربة العالم ؛
وأشدت قرى ومدناً رائعة المهابة
وأقمت الكنائس ، وأزهرت البساتين !
وجعلت العالم أشبه بفتاة باهرة الجمال !
وأخذته بين ذراعيّ مثلما أحتضن عروساً ،
وضممت الأرض الى صدري ،
وحملتها وقدمتها الى الله :
«أنظر ، يا الله الطيب ، الى هذه الأرض ،
وانظرنّ الروعة التي خلعتُ عليها الآن !
أنت ألقيت بها حجراً يدور في السماء ،
وجعلتها أنا أشبه بجوهرة ثمينة !
أنظر إليها ، وليفرحنّ قلبك !

أنظر كيف تشعُّ اخضراراً تحت الشمس !
كنت أعطيها إليك بمنتهى السرور ،
ولكنني لا أستطيع – فهي أثير لديَّ حقاً !

طرب تشيخوف لهذه المونولج ، وسعل في عصبية ، وقال موجهاً حديثه إليَّ والى الدكتور أ . ن . اليكسين :

– رائع . . . حقيقي ، إنسانى ! ههنا حقاً يكمن «مغزى الفلسفة بأسرها» . لقد سكن الانسان هذا العالم ، ولسوف يجعله مأوى رائعاً يعيش فيه .

وهزَّ رأسه في عزم ، وكررَّ قائلاً :

– لسوف يفعل ذلك !

طلب اليَّ أن أقرأ مونولوج فاسيلي مرة أخرى ، وأعارني سمعه وهو يمدُّ نظره من النافذة ثم قدم لي نصيحته :

– السطران الأخيران غير مناسبين . فهمــــا جريئان في تحديهما ، لا ضرورة لهما . . .

كان يتحدث قليلاً ، وعلى مضض ، عن أعماله الأدبية . اود أن أقول بذات البراءة وعلى الارجــــح وبذات التحفظ الذي كان يتحــــدث به عن ليف تولستوي . وفي مناسبات نادرة ، حين يكون صافي المزاج ، يسرد علينا مخطط قصة وهو يبتسم – وهي على الدوام قصة ساخرة .

– أقول إنني سأكتب قصة عن معلمة مدرسة ، ملحدة – تعبد داروين ، ومقتنعــــة بضرورة محاربــــة خرافات الناس ومخيلاتهم الساذجة ، في حين تذهب هي نفسها الى الحمام في

منتصف الليل لتسلق قطة سوداء لتأخذ منها عظم ترقوتها للفت انتباه رجل إليها وإثارة حبه – وهنالك مثل هذا العظم . . .

كان على الدوام يتحدث عن مسرحياته باعتبارها «مفعمة بالمرح» ويلوح أنه قانع تماماً من انه كتب «مسرحيات مسلية» ولا ريبة أن سافا موروزوف كان يكرّر ذات كلمات تشيخوف حين أعلن في عناد : «مسرحيات تشيخوف ينبغي أن تخرج باعتبارها مسرحيات غنائية هزلية» .

ولكنه كان يصرف الى الأدب عامة خالص اهتمامه ، وكان يتأثر خاصة بالنسبة الى «المبتدئين» فيه . قرأ المخطوطات المطولة لكل من ب . لازاريفسكي ون . أوليغر وكثيرين آخرين في صبر يدعو الى الاعجاب . قال :

– نحن في حاجة الى مزيد من الكتاب . فالأدب لا يبرح شيئاً جديداً في حياتنا اليومية ، حتى بالنسبة الى «النخبة» . ثمة كاتب بين كل مئتين وستة وعشرين مواطناً في النروج ، ولدينا هنا كاتب واحد بين كل مليون . . .

كان مرضه يثير فيه أحياناً مزاجا موسوساً وربما مبغضاً للبشر . في مثل تلك الاوقات يغدو متقلباً في آرائه ، وصعباً في معاملته للناس .

ذات يوم ، فيما هو يضطجع على المتكأ ، يسعل سعالاً جافاً ، ويلهو بميزان الحرارة ، أعلن قائلاً :

– أن تحيا كيما تموت شيء لا يبعث على السرور ، أما

أن تحيا وأنت تعرف أنك ستموت قبل أن يحين أجلك فشيء أحمق حقاً . . .

وفي مرة أخرى ، فيما هو جالس الى نافذة مفتوحة يطلُّ على الأفق البعيد ، على البحر ، قال غاضباً فجأة :

– ألفنا أن نعيش على أمـــل الطقس الجيّد ، والحصاد الوفير ، وقضية غرام لطيفة ، والأمل في أن نغدو أثرياء أو في الحصول على وظيفة رئيس في الشرطة ، ولكنني لم أجد من يأمل في أن يزداد حكمة وذكاء . نحن نخاطب أنفسنا : ستتحسن الأمور حينما يجيءُ قيصر جديد ، وفي غضون مائتي سنة ستصير أحسن وأحسن ، وليس هنالك من يحاول أن يجعـــل هذا الأحسن يجيءُ غداً . وعلى العموم ، فإن الحياة تزداد تعقيـداً يوماً بعد يوم ، وتمضي من تلقاء نفسها في اتجاه ما بينمـــا الناس يزدادون غباوة ، ويتباعدون عن الحياة أكثر فأكثر .

وأضاف بعد فترة ، وقد تقطبت جبهته :

– مثل المتسولين المقعدين في احتفال ديني .

كان طبيباً ، ومرض الطبيب دائماً أمرّ قسوة من مرض مرضاه . فالمرضى يشعرون وحسب ؛ أما الأطباء فهم ، فضلاً عن شعورهـــم ، يملكون فكرة عن التأثير المدمر للمرض في أجسادهم . وهذه حال يمكن فيها اعتبار المعرفـــة عاملاً في تعجيل الموت .

كانت عيناه فائقتي الجمال حينما يضحك – ترتسم فيهما عندئذ رقة أنثوية ، ونعومة وعذوبة . وضحكته ، وهي بلا

صوت تقريباً ، فيها شيء جذاب بصورة خاصة . لا ريبة أنه كان يستمتع بالضحك ويبتهج . ابداً لم أعرف شخصاً يستطيع أن يضحك ضحكاً «روحياً» على هذا الغرار ، إذا كان هذا التعبير مناسباً .

ولم تكن القصص البذيئة تضحكه على الاطلاق .

قال لي مرة ، وهو يضحك ضحكاً عذباً لطيفاً :

– أتعرف لماذا يتقلب تولستوي كثيراً في معاملته لك ؟ إنه غيران ، وهو خائف أن يحبك سولرجيتسكى أكثر منه . اجل : فقد قال لي البارحة : «لست أدري ماهية الأمر ، ولكنني لا أستطيع أن اعامل غوركى بصدق وأخلاص . لا استطيع ذلك . حتى لا أحب أن يحيا سولر معه . فذلك يسيئ الى سولر . غوركى رجل شرير . إنه أشبه بطالب لاهوت أُرغم على أن يقسم أيماناً مغلظة بالبقاء راهباً ، ولذلك يشعر بالكآبة من العالم بأسره . إن له روح مبعوث جاء من مكان ما الى أرض كنعان ، وهي أرض غريبة عنه ، وراح يديم التطلع حواليه ، يراقب كل شيء ، بحيث يقدم عنه تقريراً لآلهه الخاص وآلـَهه وحش ، جنيٌ غابٍ أو جنيُ ماءٍ ، مثل أولئك الذين تخشاهم القرويات كثيراً» .

وضحك تشيخوف حتى هطلت عبراته وهو يقول ذلك ، واسترسل وهو يمسحها :

– قلت : «إن غوركي طيب» . . ولكنه قال : «كلا ، كلا ، لا تقل ذلك ! ان له أنفاً يشبه منقار البطة ، ولا يملك مثل هذا الأنف غير التعساء أو الاشرار من الناس . والنساء لا يحببنه ، والنساء أشبه بالكلاب يعرفن على الدوام الرجل

الطيب . اما سولر فهو يملك موهبة ثمينة حقاً من الحب النزيه للناس . إنه عبقري من هذا الخصوص . أن تكون قادراً على الحب يعني أن تكون قادراً على أي شيء . .» .

وأكمل تشيخوف بعد فترة استرد فيها انفاسه :

– أجل ، إن العجوز غيران . . . كم هو رائع . . .

حين يتحدث عن تولستوي تنبعث في عينيه على الدوام ابتسامة باهتة ، لطيفة وخجولة في وقت واحد ، فينخفض صوته كما لو كان يتحدث عن شيء هش غريب ، شيء ينبغي التحدث عنه في حرص واعتناء .

ما أكثر ما كان يؤسيه حقيقة أنه ليس ثمة إيكرمان إلى جانب تولستوي كيما يدون بدقة التعابير البارعة غير المتوقعة المتناقضة في احيان كثيرة لذلك الحكيم الشيخ .

أكد لسولرجيتسكى قائلاً :

– ينبغى عليك «أنت» أن تفعل ذلك . فتولستوي مفتون بك ، وهو يحادثك طويلاً ، ويتفوّه بأشياء رائعة .

وقال لي تشيخوف متحدثاً عن سولر نفسه :

– إنه طفل ذكي . . .

ما أروع هذا القول .

سمعت مرة تولستوى يمتدح قصة تشيخوف – «الحبّوبة» فيما أذكر . قال :

– إنها أشبه بمخرمات حاكتها فتاة عفيفة . كان هنالك مثل هؤلاء الفتيات «العوانس» في غابر الزمان اللواتي يعبرن

عن كل حياتهن وعن كل أحلام السعادة في مخرمات ، هي كل ما يعز عليهن فيمـــا تتزين مخرماتهن بأنفاس الحب الطاهرة المبهمة .

كان تولستوي يتحدث في تأثر عميق ، والدموع تغرغر في مآقيه .

في ذلـــك اليوم كانت حرارة تشيخوف مرتفعـــة . كان جالساً . وتوردت وجنتاه بنقاط حمر ، وجعل ينظف نظارته في اعتناء محنيا رأسه . لم ينطق بحرف فترة طويلة ، ولكنه زفز أخيراً وقال في عذوبة وارتباك :

– في القصة أخطاء مطبعية . . .

ما أكثر ما يمكن الكتابة عن تشيخوف ، ولكن ذلك يتطلب تركيزاً شديداً ودقيقاً ، الأمر الذي يخرج عن طوقي . ما احسن لو كُتب عنه مثلما كتب هو نفسه قصته «السهب» ، تلك القصة العطرة الطليقة ، القصة الروسية – متفكرة وكئيبة . قصة المرء لنفسه .

ما أطيب أن تتذكر مثل هذا الانسان ، فهو أشبه بزورة مفاجئة من الغبطة تهب للحياة من جديد معنى جلياً .

الانسان هو محور العالم .

تسألونني عن نقائصه ، عن مواطن ضعفه ؟

جميعنا ساغبون الى حب أمثالنا من البشر ، وحين يكون المرء ساغباً فإن رغيفاً نصف مخبوز يجد في فمه مذاقاً طيباً .

ليف تولستوي

هذا الكتاب مؤلف من ملحوظات متناثرة كتبتها يوم كنت أعيش في أوليز . وكان ليف نيقولايفيتش يومها في غاسبرا ، وقد أرهقه المرض بشدة أول الأمر ، ومن بعد ابلَّ منه . واعتبرت هذه الملحوظات مفقودة ، وهي المسجلة كيفما اتفق على مختلف قصاصات الأوراق ؛ غير انني اكتشفت عدداً منها منذ فترة . وقد ضمنت الكتاب أيضاً رسالة غير منتهية كتبتها بتاثير من «رحيل» ليف نيقولايفيتش عن ياسنايا بوليانا ، ومن بَعْدُ وفاته . وانشر الرسالة مثلما كتبتها تماماً دون أن أبدّل فيها كلمة واحدة . كما اني لم أتمها ، فانا عاجز عن ذلك لسبب لا أعرفه .

ملحوظات

١

من الواضح أن الفكرة التي تقلق صفاء ذهنه أكثر من اي شيء آخر هي فكرة الله . ويلوح في بعض الأحيان أن هذه ليست فكرة ، بل هي مقاومة عنيفة لشيء يشعر أنه محكوم به . لم يكن يتحدث عنه بقدر ما يطيب له ، ولكنه يفكر فيه بصورة مستديمة . ولا أعتقد أن ذلك دلالة على الشيخوخة ، أو هو ناجم عن شعور مسبق بالموت . كلا . اعتبر

أنه يصدر عن اعتزاز بشري رائع . لعلّه يكون شيئاً من احساس بالأذية أيضاً – من المذل أن يقرن هو ، ليف تولستوي ، ارادته ومشيئته ببكتريا تافهة . لو أنه كان من علماء الطبيعة فلا ريبة أنه كان خلق فرضيات باهرة ، وقام بمكتشفات رائعة .

٢

يداه عجائبيتان – بشعتان ، مشوهتان بعروق منتفخة ، ومع هذا معبرتان بصورة لا توصف ، وعامرتان بقوة مبدعة . لعلّه كان لليوناردو دافنشي مثل هاتين اليدين . ليس ثمة شيء لا يمكن صنعه بمثل هاتين اليدين . في الأحايين ، خلال أحاديثه ، يروح يحرك أصابعه ، فيطويها تدريجياً لتكون قبضة ومن بعد يبسطها ، وهو يطلق كلمة خطيرة رائعة . كان أشبه بإلـه ، لا ربّ الجنود ، أو إلـهاً من الأولمب ، بل أشبه بإله روسي «متربع على عرش من خشب القيقب تحت شجرة زيزفون ذهبية» ، ورغم أنه قد لا يكون على شيء كثير من المهابة فلعلّه أمكر من الآلهة الآخرين جميعاً .

٣

انه يموج برقة شبه أنثوية تجاه سولرجيتسكي . أما تشيخوف فيشعر نحوه بعاطفة أبوية ، وقد يستشفُ المرء في هذا الحب اعتزاز الخالق المبدع ، أما عاطفته تجاه سولر فمحض حنان ، والتفات متواصل ، واعجاب يبدو أنه لا يتعب

العرّاف أبداً . قد يكون ثمة شيء ينافي العقل قليلاً في هذا الشعور ، مثل هيام عانس ببغائها ، بكلبها أفطس الأنف ، أو قطتها . فسولر أشبه ما يكون بعصفور عجيب طليق من بلاد غريبة مجهولة . إن مائة من أمثاله قد تكون لهم القدرة على تبديل معالم احدى المدن الصغيرة النائية وروحها . لسوف يحطمون وجهها ، ويشرّبون روحها هوى لنبوغ غير هياب لا يعرف الاستقرار . سهلٌ ويفعمك غبطة أن تحب سولر ، وحين أرى كيف تتجاهله النساء أَنْشَدِهُ وأنفعل غضباً . لكن ، لعل تحت ذلك التجاهل احتراساً مجنوناً بصورة ذكية . فأنت لا تستطيع بسولر وثوقـاً . ماذا تراه يفعل في الغداة ؟ قد يلقينّ قنبلة ، أو يشاركنّ في جوقة مغنين في احدى الحانات . ان فيه طاقة تكفي اجيالاً ثلاثة . وفيه تتقد فيوض من نيران الحياة حتى ليبدونّ أنه يعرق شرارات مثلـه مثل قضيب حديدي ملتهب احمراراً .

اشتدّت مرةً غضبتـه على سولر (سوليرجيتسكـي) – كان ليوبولد نزّاعاً الى الفوضى ، مولعـاً في كثير مـن الأحيان بالنقاش الساخن عن حرية الفـرد . وكان ل . ن . (تولستوي) يسخر منه دائماً حين يفعل ذلك .

أذكر مرة أن سوليرجيتسكي حصل على كراسة صغيرة بقلم الأمير كروبوتكين فاستثارت حماستـه ، فهبّ يوزع آراءه النهار بطوله على الجميع قاطبة حول حكمـة الفوضويـة ، متفلسفاً بطريقة ماحقة .

قال ل . ن . وقد استبدّ به النزق :

– أوه ، كفّ عن ذلك ، يا ليوفوشكا ، فقد أضجرتني .

أنت أشبه بالببغاء تردّد كلمة واحدة – الحرية ، الحرية ، وماذا تراها تعني في الحقيقة ؟ لنفرضنّ أنك ستحصل على الحرية بالمعنى الذي تفهمه من هذه الكلمة ، وعلى النحو الذي تتخيّله – فماذا تكون النتيجة ؟ اذا تحدثنا فلسفياً – فهي هوة لا قرار لها . أما في الحياة ، وفي الممارسة ، فأنت سوف تغدو عاطلاً ، مستعطياً . اذا أنت كنت حراً حسب مفهومك الخاص ، فما الذي يربطك بالحياة ، وبالمخلوقات البشرية ؟ أنظر – حرة هي العصافير ، ولكنها تبني لأنفسها أعشاشاً . أنت لن تنزع الى بناء عش لك ، بل سوف تجنح فحسب الى اشباع غرائزك الجنسية حيثما وجدت نفسك ، مثل كلب . غير أنك اذا أعملت فكرك برهة بصورة جادة فلسوف ترى ، ولسوف تشعر ، أن الحرية في معناها الأخير هوة ، فراغ ، مجرد فضاء لا شكل له .

قطّب حاجبيه غاضباً ، وصمت لحظة ، وأضاف في مزيد من الرقة :

– كان المسيح حراً ، وهكذا كان بوذا ، وأخذ اثناهما على نفسيهما خطايا العالم ، ودخلا بطوعيهما سجن الحياة الأرضية . وليس هنالك من ذهب أبعد من ذلك – لا أحد . أنت وأنا . . . ماذا ترانا فعلنا ؟ نحن ، جميعاً ، نفتش عن الحرية التي تخلصنا من واجبنا حيال جارنا ، رغم ان هذا الاحساس بالواجب هو بالضبط ما جعل منا مخلوقات بشرية ، ولولا هذا الشعور بالواجب لعشنا مثل الحيوانات . . .

وأهتف ضاحكاً :

– ومع هذا نحن نجادل الآن في كيف نعيش بشرف . لا

يتأتي من هذا شيء كثير ، ولكنه في الوقت ذاته ليس شيئاً قليلاً . أنظر . أنت تجادلني وتغضب الى أن يقتـم انفك ، ولكنك لا تضربني ، بل أنت لا تشتمني . فاذا كنت تشعر بنفسك حراً حقاً ، فقد كان ينبغي أن تذبحني - وهذا كل شيء .

وأضاف بعد فترة قصيرة أخرى من الصمت :

- الحرية . . . هذا يعنـــي أن كل شيء وكل انسان يوافقني الرأي ، ولكنني عندها لن أكون في قيد الوجود ، ذلك أننا لا نحسُّ بأنفسنا الا عندما نختلف ونتعارض .

٤

عزف غولدينوايزر مقطوعات لشوبان ، فاثارت في ليف نيقولايفيتش الأفكار التالية :

- قال أمير ألماني صغير : «اذا رغبت أن يكون لديك عدد من العبيـــد فينبغي أن تؤلف أكبر قدر ممكن مـــن الموسيقى» . هذه فكرة صائبة ، ملحوظة صادقة - فالموسيقى تبلد الذهن . وليس من يفهم ذلك أكثر من الكاثوليك - ان آباءنا الروحيين لن يتمكنوا قط ، بالطبع ، قبول مندلسون في الكنيسة . لقد أكّد لي كاهن من تولا أن المسيح نفسه لم يكن يهودياً ، رغم أنه كان ابناً لإلـه يهودي وأن أمه كانت امرأة يهودية . أقرّ بذلك ، ولكنه أعلن مع ذلك قائلاً : «ذلك مستحيل» . فاستفهمت منه : «ماذا اذن ؟» فهزّ كتفيه ، ونبر قائلاً : «هذا لغزٌ بالنسبة اليّ !»

٥

«ان كان ثمة مثقف حقاً فهو الامير فلاديميركو من غاليش . فقد كانت له الجرأة أن يقول في القرن الثاني عشر : «لقد ولى زمن المعجزات». ولقد مرت ستمائة سنة على ذلك ، وما برح المثقفون يؤكدون لبعضهم بعضاً : «ليس هنالك معجزات ، ليس هنالك معجزات» . اما بقية الناس فيؤمنون بالمعجزات ، مثلما كانوا عليه في القرن الثاني عشر» .

٦

– الاقلية يحتاجون الى الله لانهم يملكون كل شيء آخر ، والاكثرية يحتاجونه لانهم شيئاً لا يملكون .

او لعلّي ينبغي ان اقول : الاكثرية يؤمنون بالله بسبب من الجبن ، والقلّة فحسب بسبب من امتلاء الروح * .

استوضح مرة ، وقد استغرق في التفكير :

– هل تحب اساطير اندرسن ؟ لم افهمها حين نشرت بترجمة ماركو فوفتشوك ، ولكنني اخذت الكتاب بعد عشر سنوات وقرأتها مرة اخرى ، فتبيّنتُ بوضوح على حين بغتة ان اندرسن كان رجلاً وحيداً . وحدته موحشة . انا لا أعرف عن حياته شيئاً . كان خليعاً يضرب في الآفاق ، فيما يتراءى لي ، ولكن هذا يمتّن من ايماني انه كان رجلاً وحيداً . وهذا

* كيما نتجنب اي سوء تاويل ، فانا اثبت اني انظر الى الكتابات الدينية بوصفها ادباً صافياً . **ملحوظة من مكسيم غوركي** .

هو السبب الذي جعله يلتفت الى الاطفال ، ولكن من الخطأ ان يرى المرء ان الاطفال يملكون شفقة تجاه الآخرين اكثر مما يملك الكبار . الاطفال لا يشفقون على احد ، فهم لا يفقهون للشفقة معنى .

٧

نصح لي ان اقرأ خلاصة تعاليم البوذية . كان ثمة شيء مؤثر على الدوام في اسلوب حديثه عن المسيح والبوذية . عندما كان يتحدث عن المسيح لم يكن ثمة حماسة او حمية في كلماته ، ولم يكن ثمة شرارة واحدة منبعثة من نيران القلب . وأظن أنه يعتبر المسيح ساذجاً ، خليقاً بالشفقة ، وعلى الرغم من انه معجب به في بعض الاحيان فمن غير المحتمل أنه يحبه . وكان يبدو انه يخاف فيما لو جاء المسيح الى قرية روسية أن تعمد الفتيات الى السخرية به .

٨

كان الامير الكبير نيقولاي ميخايلوفيتش ، وهو فيما يبدو رجل حكيم ، حاضراً اليوم . سلوكه متواضع جداً ولا يتحدث كثيراً . وله عينان لطيفتان وطلعة طيبة . وحركاته متحفظة . تبسم ل . ن . له برقة ، متحدثاً بالفرنسية احياناً ، وبالانكليزية احياناً . وقال بالروسية :

— كتب كارامزين من اجل القيصر ، وكتب سولوفيوف

مطولا وبصورة مملة ، وكتب كليوتشيفسكي لارضاء نزوته الخاصة . كان ماكراً ، تحسب أول الأمر عندما تقرأه انه يكيل المديح ، وما ان تذهب معه أعمق فأعمق حتى تكتشف انه يسبّ .

وجاء احدهم على ذكر زابيلين .

– لطيف جداً . انه ناسـخ صغير . يحب جمع الآثار القديمة ، ويجمع كل شيء ، ما يحتاجه وما لا يحتاجه . وهو يصف الطعام مثل رجل لم يجد قط كفايته منه . ولكنه مسل ، مسل جداً .

٩

انه يذكّر المرء بأولئك الحجاج الذين يجوبون طوال حياتهم اطراف المعمورة ، وعصيّهم في ايديهم ، يجتازون آلاف الفراسخ من دير الى دير ومن مزار الى مزار ، محرومين من المأوى بصورة مرعبة ، غرباء عن كل فرد وكل شيء . العالم ليس لهم – ولا الله ايضاً . فهم يرفعون صلواتهم اليه من قبيل العادة ، في حين انهم يكرهونه في اعماق قلوبهم : لماذا يجرجرهم في ارجاء العالم ، على الارض عرضاً وطولاً – لماذا ؟ وهم يعتبرون المخلوقات البشرية كأجداع ، كجذوع ، كحجارة ملقاة على الطريق – يتعثر المرء بها ، واحياناً يؤذي نفسه من جرائها . في قدرة المرء ان يستغني عنهم ، لكن يبعث على السرور احياناً ان تذهل الناس بمغايرتك لهم ، بتبين اختلافك عنهم .

١٠

«قال فريدريك الكبير قولاً مأثوراً : «على كل إمرئ أن ينقذ نفسه à sa façon » * وهو الذي قال : «فكر كما يطيب لك ، لكن كن مطيعاً» . واعترف ، وهو يموت : «لقد ضجرت من حكم العبيد» . إن من يسمون عظماء يتناقضون دائماً مع أنفسهم بشدة . وهذا يغفر لهم ، مثلمـــا تغتفر لهـــم شتى حماقاتهم الاخرى . وفوق هذا كله ، فأن يناقض المرء نفسه ليس حماقة . الأحمق عنيد ، لكنه لا يناقض نفسه أبداً . بلى ، لفد كان فريدريك رجلاً غريباً – والألمان يعتبرونــه أفضل إمبراطور لديهم ، بينما هو لم يستطع أن يحتملهم الى درجة أنه لم يحب غوته وويلاند . . .»

١١

قال ليلـــة امس ، وهو يتحدث عـــن شعر بالمونت : «الرومانسية هي الخوف من النظر في عيني الحقيقـــة» . لم يوافقه سولر الرأي ، وقرأ بعضاً من تلك الاشعار في انفعال عظيم ، وهو يلثغ من حموة اضطرابه .

– هذا ليس شعراً ، يا ليوفوشكا ، هذا شعوذة ، هراء ، مجرّد تبلد في نسج الكلمات . الشعر لا تكلّف فيه . حينما كتب فيت :

* على طريقته الخاصة . (بالفرنسية في الاصل) . **الناشر** .

. . . ما سوف أغنيه لا أعرف ،
ولكن أغنيتي تنضج في جوانحي –

عبّر عن شعور الناس الصادق بالشعر . الفلاح ، بدوره ، لا يعرف ماذا يغني ، بل هو يردّد أوه ! وآه ! وآه ! وتنطلق منه أغنية صادقة ، من صميم روحه ، مثلما الطيور تغني . وشعراؤكم الجدد لا يفعلون أكثر من التلفيق . تعرفون أن هنالك أشياء سخيفة تدعى «ارتيكل دي باري» ، وهذا ما يحاول شويعروكم أن ينسجوا على منواله . نكراسوف لم يفعل أكثر من تلفيق هزلياته .

استوضح سولر :

– وماذا عن بيرانجيه ؟

– بيرانجيه يختلف ! ما الشيء المشترك بيننا وبين الفرنسيين ؟ هم شهوانيون وحياة الروح ليست شيئاً له شأنه عندهم كحياة الجسد . الشيء الأكثر شأناً بالنسبة إلى الفرنسي هو المرأة . هم أمة مهترئة متدنية . والأطباء يقولون إن جميع المصدورين شهوانيون .

وشرع سولر يجادل بصراحته المألوفة ، يجمجم وفرة من كلمات عشوائية . نظر ل . ن . إليه ، وقال وقد ابتسم ابتسامة عريضة :

– أنت اليوم بَرِم" مثل شابة آن أوان زواجها ، وليس ثمة خاطب في مرمى البصر . . .

١٢

جففه مرضه ، وأحرق في داخله شيئاً ، فبدا أنه أضحى أخف وزناً ، وأكثر شفافية ، وأكثر تكيفاً مع الحياة داخلياً . غدت عيناه أشد مضاء وحدة ، ونظرتـــــه أكثر تغلغلاً في النفس . كان يرهف السمع في انتباه ، ويلوح كمن يستذكر شيئاً طال نسيانه ، أو ينتظر في ثقة شيئاً جديداً ، مجهولاً حتى الآن . ظهر لي في ياسنايا بوليانا أشبه برجل عرف كل شيء وكذا ليس ما ينبغي أن يعرفه ، وعثر على الأجوبة عن جميع الأسئلة .

١٣

لو أنه كان سمكة لكان المحيط بيته من دون ريب ، وما كان ابداً ليسبح في بحار داخلية ، وأقلّ من ذلـــك في مياه الأنهار العذبة . كانت ثمة أسماك نهرية تدور وتلتف حوله ، لا تلقي بالاً إلى ما يقول ، فهي في غير حاجة إليه ، وصمته لا يرعبها أو يؤثر فيها على الإطلاق . وهو يعرف كيــف يلوذ بالصمت في مهابة وبراعة ، مثل ناسك حقيقي في هذا العالم . صحيح أنه يتحدث كثيراً في الموضوعات التي تقلق ذهنه ، ولكن المرء يشعر أن هنالك أشياء أكثر لم ينطق بها . ثمة أمور لا يقوى على أن يقولها لأي كان . الأرجح أنه يمتلـــك أفكاراً تثير خشيته .

١٤

أرسل إليه أحدهم نصاً ممتازاً لقصة الصبي الذي عمّده المسيح . قرأ القصة على سولر وتشيخوف فى استمتاع عظيم – قرأها بصورة رائعة ! وقد سُرّ بشكـــل خاص بالفقرة التي تعذب فيها العفاريت الصغيرة مالكى الاراضي ، وكان في ذلك شيء لم يرق في عينيّ قط . كان عاجزاً عـــن أن يكون غير صادق ، لكنه إذا كان ذلك هو الصدق ، فبئسه !

وقال من بعد :

– أنظروا كيف يروي الفلاحون قصصاً رائعة . كل شيء بسيط ، كلمات قليلة ، وتدفاق من الأحاسيس . الحكمـــة الحقيقية موجزة دائماً – مثل «ارحمنا ، يا الله» .

ولكنها قصة وحشية .

١٥

كان اهتمامه بي أثنوغرافياً . فأنا ، بالنسبة اليه ، عضو في قبيلة لا يعرف عنها إلا النزر اليسير – ولا أكثر من ذلك .

١٦

قرأت عليه قصتي «الثور» . ضحك كثيراً وأثنى عليّ لمعرفتي «حيل اللغة» .

– غير أنك لا تجيد استخدام الكلمات ، فجميع فلاحيك

يعبرون عن أنفسهم بمهابة سامية . في الحياة اليومية يتحدث الفلاحون في غباء وخرق . وأنت لا تستطيع أن تحدد أول الأمر ما يحاولون قوله . وهم يفعلون ذلك عن قصد ، فالرغبة في أن يفصح الآخرون عن كل ما في دواخلهم تختبئ دائماً تحت الغباوة الظاهرة لكلما تهم . الفلاح الأصيل لا يظهر ما يجول في ذهنه مباشرة ، فهذا شيء لا يناسبه . هو يعرف ان الناس يعاملون الشخص الغبي ببساطة وبراءة ، وهذا هو بالضبط ما يريده ! وأنت تقف عارياً أمامه ، وهو يرى جميع نقاط ضعفك على الفور . وهو يرتاب في كل شيء ، ويخشى أن يتحدث عن أفكاره السرية حتى إلى امرأته . أما في قصصك فإن كل شيء واضح المعالم ، وثمة مجموعة من المتعالمين في كل قصة . وهم يتحدثون في حكم معبرة ، وهذا غير صحيح أيضاً – فالحكم المعبّرة لا تتفق واللغة الروسية .

– وما رأيك في الأمثال والأقوال المأثورة ؟

– إنها شيء مختلف . فهي لم يتم ابتداعها الآونة .

– أنت نفسك تتحدث في أغلب الأوقات في حكم معبرة .

– أبداً ! ومن بعد فأنت تحاول أن تزخرف كل شيء – الناس والطبيعة ، وخاصة الناس ! لقد فعل ليسكوف ذلك أيضاً ، وكان مدعياً ومتكلفاً ، وقد امتنع الناس عن قراءته منذ زمن بعيد . . . لا تخضع لأي كان ، ولا تخف من أي كان – وعندها ستكون كتابتك طيبة . . .

١٧

صعقني قول غريب في اليوميات التي أعطانيها لقراءتها : «الله هو أمنيتي» .

حينما أعدتها إليه اليوم استوضحته عن المعنى . فقال ، وهو يضيّق عينيه وينظر إلى الصفحة :

– فكرة غير مكتملة . لا بدّ أني قصدت إلى القول : الله هو أمنيتي كيما ادركه . . . لا ، ليس هذا . . .

ضحك ، ولف المخطوطة ودسها في الجيب الكبير لثوبه . كانت صلاته بالله غامضة ، تجعلني أحياناً أفكر في «دبين اثنين في وجار واحد» .

١٨

في العلم .

– العلم هو قالب ذهبي من اختراع سيميائي مشعوذ . وأنتم تريدون أن تبسّطوه ، أن تجعلوه مفهوماً للجميع – وبكلمات أخرى ، أن تسكّوا كثرة من نقود مزيفـــة . حين يستوعب الناس القيمة الحقيقية لهذه النقود فلن يجزلوا لنا الشكر على ذلك .

١٩

كنا نتمشى في حديقة يوسوبوف . وكان يتحدث بطلاوة عن أخلاق الأرستقراطية الموسكوفية . وكانت امرأة روسية

ضخمة منهمكة في العمل في حوض الزهور ، انحنت بزاوية مستقيمة ، كاشفة عن ساقيها العبلتين الشبيهتين بقدمي الفيل ، فيما صدرها الكبير الثقيل يهتز متأرجحاً . رنا إليها بانتباه ، وقال :

– كل هذا البهاء والتهور تسنده مثل هذه الدعائم . ليس بعمل الفلاحين والفلاحات فحسب ، وليس بفضل الاوبروك * فحسب ، بل نتيجة لدماء الشعب بكل ما في الكلمة من معنى . لو أن الأرستقراطية لا تقترن بين حين وحين بأفراس مثل هذه لأنقرضت منذ زمن بعيد . لا يمكن للقوة أن تنفق ، كما أنفقها الشبان في أيامي ، دون عقاب. ولكنهم ، بعد أن انغمسوا في حماقات الشباب وشهواته ، فإن الكثيرين منهم تزوجوا فتيات فلاحات وأنجبوا ذرية طيبة . وهكذا فهنا ، أيضاً ، هبَّت قوة الفلاحين إلى النجدة . وهي لازمة في كل مكان . من الضروري أن يبدّد نصف الجيل دائماً قواه على ملذاته الخاصة ، والنصف الآخر يخلط دمه بالدم الكثيف للقرويين كيما يخففه قليلاً أيضاً . هذا مفيد .

٢٠

كان يتحدث عن النساء بمتعة وكثرة ، مثله مثل روائي فرنسي ، ولكنه يتحدث دائماً بتلك الخشونة المعروفة لدى

---

* الاوبروك – جزية سنوية نقدية وعينية استحصلها مالكو الارض الروس من الفلاحين ، اصبحت نقدية حسب منذ عام ١٨٦١ وحتى عام ١٨٨٣ . **الناشر** .

الفلاح الروسي التي كانت تضايق أذنيّ من قبل . توجه اليوم في مندالنايا روشا الى تشيخوف مستفسراً :

– هل انغمست في الخلاعة في شبابك ؟

تبسم أ . ب . (تشيخوف) في استحياء ، وتغمغم ، وهو يشدُّ لحيته الصغيرة ، فاعترف ل . ن . (تولستوي) رانياً إلى البحر :

– أنا لم أكن أعرف التعب في . . .

قال ذلك بصورة ماحقة ، مستخدماً كلمة ريفية فاحشة في نهاية جملته . ولحظت للمرة الأولى أنه نطق تلك الكلمة في بساطة مطلقة ، وكأنه لا يعرف كلمة أخرى بديلة . كانت جميع تلك الكلمات ترن بسيطة وعادية عادية ، منطلقة من بين شفتيه الملتحيتين ، فتفقد خلال انسيابها خشونتها وبذاءتها . وتذكرت أول لقاء لى معه ، وما قاله لي عن قصتي «فارنكا أوليسوفا» و«ستة وعشرون رجلاً وفتاة» . كان حديثه ، من وجهة نظر عادية ، جدولاً من «الفحش» . وقد صعقت ، لا بل غضبت ، وخطر لى أنه يعتبرني عاجزاً عن فهم أي صنف آخر من اللغة . وأرى الآن أن غضبي كان ضرباً من السخافة .

٢١

كان جالساً على مقعد حجري تحت أشجار السرو ، ناحل العود ، صغيراً ، رمادي اللون ، ورغم هذا يشبه رب الجنود الذي تعب قليلاً ، ويحاول أن يتلهى بمحاكاة تغريد العصفور

الدوري . كان العصفور يترنّم بين الأوراق الخضر الداكنة الكثيفة ، وهو يديم التحديق إلى هذه الأوراق مضيقاً من فرجتي عينيه الذكيتين الصغيرتين ، منتئاً شفتيه مثل طفل صغير ، وهو يصفر كمن لا يعرف الصفير .

– هذا الطير الصغير يجهد نفسه حتى الجنون ! يجهد نفسه في التغريد . ما هذا العصفور ؟

حدثته عن عصفور الدوري والغيرة التي تنهش فؤاد هذه العصافير .

– إنها تغني اغنية واحدة لا غير في حياتها بأسرها – وهي تغار . إن للإنسان في فؤاده مئات الأغنيات ، ويلومه الناس لأنه يستسلم للغيرة – فهل ثمة عدل في هذا ؟

قال ذلك مستغرقاً في التفكير ، وكأنه يطرح السؤال على نفسه ، واسترسل :

– هناك لحظات يروي الرجل فيها للمرأة عن نفسه أكثر مما ينبغي أن تعرف . وينسى بعد ذلك أنه أخبرها ، أما هي فلا تنسى . لعل الغيرة تتأتى من خشية المرء أن يذلّ نفسه ، من خوفه أن يستصغره الناس أو أن يبدو في عيونهم هزأة . ليست المرأة التي تمسك بـ . . . هي على شيء من الخطورة ، لكن من تأخذ بجوانح الروح .

حين قلت إن في هذا القول شيئاً يتناقض مع «سوناتا كرويتزر» ، انتشرت ابتسامة متلألئة على لحيته بأسرها ، وأجاب :

– أنا لست عصفوراً مغنياً .

وبينا نحن نتمشى في العشية ، أعلن على حين فجأة :

— يتعرض المرء للزلازل ، والأوبئة ، وأهوال الأمراض ، وجميع أصناف العذابات الروحية ، لكن أبشع مأساة معذبة عرفها في الأوقات كانت وستبقى — مأساة غرف النوم .

نطق بذلك في ابتسامة منتصرة — كانت له في الأحايين ابتسامة صافية عريضة لرجل تغلّب على شيء متناهي الصعوبة ، أو رجل كان يعاني منذ زمن طويل من ألم مرهق تلاشى على حين فجأة . إن كل فكرة تحفر في روحه مثل القرادة * . فهو إما أن ينتزعها على الفور أو يأذن لها أن تمتص كفايتها ، إلى أن تسقط بصورة غير ملحوظة من تلقاء ذاتها ، متخمة شبعى .

وفي مرة اخرى ، في منتصف مناقشة حامية بخصوص الرواقية تجهمت طلعته فجأة ، وفرقع بشفتيه ، ونبر في خشونة :

— مضرّب ، وليس مدروزاً . . .

من الواضح أنه لم تكن لهذه الكلمات أية علاقة بفلسفة الرواقيين . حين لمح دهشتي ، اعجل يقول ، وهو يومئ ناحية الباب المؤدي إلى الغرفة المجاورة :

— يدأبون على القول . . . لحاف مدروز .

ومن بعد استتلى قائلاً :

— رينان ذاك . . . مهذار معسول الكلمات . . .

وما أكثر أخبرني قائلاً :

— أنت تروي الأمور بصورة جيدة — بكلماتك الخاصة ، وبصورة تُقنع ، وليس بالكلمات المصطنعة .

* حشرة تمتص دم الحيوانات . **المترجم** .

لكنه كان في اغلب الاحيان يلحظ الاهمال في الحديث ، قائلاً في صوت مخفوض ، وكأنه يخاطب نفسه :

– يستخدمون كلمة روسية رائعة ، ومن بعد كلمة مثل «بصورة مطلقة» في العبارة ذاتها !

وكان يوبخنى احياناً بقوله :

– أنت تمزج بين كلمات تختلف من حيث الروح الاختلاف كله – لا تفعل ذلك !

كانت حساسيته تجاه أشكال الكلمات تبدو لي – أحياناً – حادة إلى درجة مَرَضِيَّة .

قال مرة :

– لقد عثرت على كلمتي «قطة» و«أحشاء» في جملة واحدة في كتاب – ذلك شيء فظيع مقزز تقريباً !

وكان يقول مرة بعد أن عاد من الحديقة :

– أنا لا أطيق فقهاء اللغة ، جميعهم اسكولاستيكيون ، لكن أمامهم عملاً لغوياً عظيماً . نحن نستخدم كلمات لا نفقه لها معنىً . وليست لدينا أية فكرة عن كيف ظهرت إلى الوجود أعداد كثيرة من الأفعال لدينا .

كان أكثر ما يتحدث عنه هو لغة دوستويفسكي :

– إنه يكتب بلغة رديئة ، ويجعل أسلوبه بشعاً عن قصد – عن قصد . أنا واثق من ذلك ، من قبيل التكلّف . وهو يحبُ أن يلفت الأنظار – ففي «الأبله» تصادف كلمات «وجنة» و«اختيال» و«دالّة متباهية» مختلطة بعضها ببعض . أظنُ أنه كان يبتهج بخلط الكلمات الروسية العامية بكلمات من اشتقاق أجنبي . ولكنك تعثر على فجوات لا يمكن اغتفارها

في كتاباته . يقول الأبله : «الحمار هو شخص نافع لـــه قيمته» ، لكن أحداً لا يضحك على الرغم من أن هذه الكلمـات لا يمكن إلا أن تثير الضحك ، أو شيئاً من التعليق على أقل تقدير . يقول ذلك أمام ثلاث شقيقات يطيب لهنّ أن يسخرن منه ، وبخاصة أغلايا . وقد اعتبر الكتاب سيئاً ، لكن عيبه الرئيسي هو أن الأمير ميشكين مصاب بالصرع . لو أنـه كان سليم العقل لكانت سذاجته الصميمية ونقاوة سريرته تؤثران فينا بصورة عميقة . ولكن دستويفسكى لم تواته جرأة عـلى أن يجعل منه رجلاً معافى . وفضلاً عن هذا فهو لا يحب الناس المعافين . كان واثقاً أن العالم كله مريض لأنه ، هو نفسه ، كان مريضاً . . .

قرأ على سولر وعليّ مشهد سقوط «الاب سيرغي» – مشهد خال من أية رحمة . استاء سولر وتحرك في مقعـــده انفعالاً .

استوضح ل . ن . :

– ما بالك ؟ ألم يعجبك ذلك ؟

– هذا وحشي إلى درجة لا متناهية ، وهو أشبـــه بدستويفسكى . الفتاة الفاسدة ، وثدياها الاشبه بفطيرتين ، وما يلحق ذلك كله ! لماذا لم يرتكب المعصية مع فتاة جميلة موفورة الصحة ؟

– تكون تلك خطيئة لا مبرّر لها – أما بهذه الطريقــة

فيمكن الدفاع عن شفقته على الفتاة – فليس هنالك إنسان آخر يأخذها ، تلك الفتاة المسكينة .

– لست أفهم . . .

– أنت لا تفهم أشياء كثيرة ، يا ليوفوشكا ، فليس هنالك شيء من المكر فيك . . .

دخلت زوجة أندريه لفوفيتش فانقطع حبل الحديث ، وحين خرجت وسولر إلى المبنى المجاور التفت ل . ن . إليّ قائلاً :

– ليوفوشكا أطهر إنسان عرفت . إنه هو نفسه على تلك الشاكلة – فإن هو اخطأ فبسبب من شفقته على امرئ ما .

٢٢

كانت موضوعات أحاديثه المفضلة : الله ، والفلاح ، والمرأة . وما أندر ما كان يتحدث عن الأدب ، وفي عبارات مقتضبة ، فكأنه موضوع غريب بالنسبة إليه . وكان موقفه من النساء ، بقدر ما أستطيع فهمه ، موقفاً عدائياً مُستحكماً . ولم يكن هنالك ما يستهويه أكثر من إنزال العقاب بهنّ – ما لم يكنّ من امثال كيتي وناتاشا روستوفا – اي نساء محدودات بصورة غير كافية . أكان ذلك انتقام رجل لم يحصل على السعادة بمقدار ما هو قمين بها ، أم هو عداوة روحية تجاه «نزوات الجسد المخزية» ؟ ومهما يكن الأمر ، فإنها عداوة ، وهي مريرة بصورة لا حدود لها ، مثلها في «آنا

كارينينا» . أجاد الحديث عن «النزوات المخزية» يوم الأحد ، وهو يناقش «اعترافات» روسو مع تشيخوف ويلباتييفسكي . ودوّن سولر كلماته ، وفيما بعد ، وهو يصنع القهوة ، أحرق ملحوظاته على لهب المصباح الكحولي . وكان قبل ذلك قد أحرق ملحوظات ل . ن . عن إبسن ، وأضاع مذكراته عن رمزية طقوس الزواج التي أبدى ل . ن . بشأنها تعليقات جدّ وثنية ، تتوافق هنا وهنالك مع آراء ف . ف . روزانوف .

٢٣

كان هنا عدد من اللقائيين * من فيودوسيا هذا الصباح ، وكان قد تحدث بحماسة عن الفلاحين طوال النهار .

قال ، ونحن على مائدة الفطور :

– كان ينبغي أن ترى إليهما – قويين معافيين . قال أحدهما : «جئنا من تلقاء نفسينا» ، وقال الآخر : «ونأمل أن نذهب من تلقاء نفسينا !» – وارتجّ في ضحكة صبيانية .

وبعيد الفطور ، ونحن على المستشرف :

– سرعان ما سنكفُّ عن فهم لغة الشعب تماماً . نحن نتحدث الآن عن «نظرية التقدم» ، و«دور الفرد في التاريخ» ، و«تطور العلم» ، و«الزحار» ، والفلاحون يقولون : «لا يمكن

* الطوائف المسيحية التي نشأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . لم تعترف بالكنيسة الارثوذوكسية وكان الكتاب المقدس عماداً وحيداً رئيسياً بالنسبة لها . **الناشر** .

اخفاء المخرز في الكيس» ، وجميع النظريات ، والتاريخ ، والتطور تغدو عديمة الجدوى ، سخيفة ، لأن الفلاحين لا يفهمونها ، ولا يتقبلونها . ولكن الفلاحين أقوى منا ولديهم قدرة أكبر على البقاء ، أما نحن فقد نشارك في قدر قبيلة أتسوري ، هذه التي قيل لعالم عنها : «جميع الأتسوريين اندثروا ، لكن ثمة ببغاء في قيد الحياة تعرف بعض كلمات من لغتهم» .

٢٤

«المرأة جسدياً أخلص من الرجل ، ولكن أفكارها كاذبة . حين تكذب فهي لا تصدق نفسها ، ولكن روسو يكذب ويصدق نفسه» .

٢٥

«كتب دستويفسكي عن واحد من شخصياته المجنونة أنه ظلّ طوال عمره ينتقم من نفسه والآخرين لأنه خدم ما لا يؤمن به . لقد كتب ذلك عن نفسه ، كان من السهولة بمكان أن يقول ذلك عن نفسه» .

٢٦

— بعض الأقوال الواردة في التوراة غامضة جداً — فماذا ، ترى ، تعني هذه الكلمات : «الأرض أرض الرب ، والفيض

منها ؟» لا علاقة لها بالكتاب المقدس ، فهي تفوح برائحة المادية العلمية المبسطة .

قال سولر :

– لقد علّقت في مكان ما على معنى هذه الكلمات .

– وماذا لو فعلت ذلك ؟ . . . قد يكون هنالك شيء من المعنى ، ولكنني أسبر أعماقه .

وابتسم ابتسامة ماكرة .

٢٧

كان يستطيب أن يطرح أسئلة مربكة ماكرة :

– ما رأيك في نفسك ؟

– هل تحبّ زوجتك ؟

– هل تعتقد أن ولدي ليف موهوب ؟

– هل تحب صوفيا أندرييفنا * ؟

وإنه لمن المحال أن تكذب عليه .

سأل مرة :

– أتحبني ، يا ألكسي مكسيموفيتش ؟

كان هذا اسلوباً هازلاً جديراً بالبطل الروسي الاسطوري جبار القوة – فاسيلي بوسلايف ، المتهور النوفغورودي ، الذي انصرف إلى مثل هذه المهازل في شبابه . فهو «يجرب» ويتكيف لشيء ما كمن يتأهب لصراع . يبعث هذا على

* زوجة تولستوى . **المترجم** .

الاهتمام ، لكني لا أستطيع أن أقول إن هذا يروقني . إنه شيطان ، وأنا لا أبرح وليداً ، ومن الأفضل أن يتركني وشأني .

٢٨

ربما كان الفلاح مجرد رائحة كريهة بالنسبة إليه يعجز عن نسيانها ويشعر أنه ملزم بالحديث عنها .

اخبرته الليلة الماضية عن معركتي مع أرملة الجنرال كورني ، فاستغرق في الضحك حتى انهمرت دموعه ؛ واوجعه صدره ، وزمجر ، ودأب على الصراخ في صوت ثاقب :

– بالرفش ؟ ضربتها بالرفش ؟ على . . . ؟ مباشرة ؟ هل كان المعول كبيراً ؟

واسترسل في صوت وقور بعد فترة من صمت :

– لقد كنت لطيفاً في ضربك . فإن رجلاً آخر في مكانك كان يمكن أن يضربها على رأسها . كنت لطيفاً جداً . هل فهمت أنها كانت تريدك ؟

– لست أذكر . لا أعتقد أني فهمت ذلك . . .

– لا ريبة في ذلك ! فذلك واضح جلي . لا ريبة أنها فعلته .

– لم يثر ذلك اهتمامي يومذاك . . .

– ما يثير اهتمامك لا شأن له ! فأنت لست زير نساء ، وهذا أمر جلي . كان يمكن لرجل آخر أن يصنع

ثروته من ذلك ، فيملك بيتاً وينادمها بقية أيام عمره .

وأكمل بعد صمت قصير :

– أنت شاب طريف مسل لا تغضب . أنت مسل إلى أبعد الحدود ! والأمر الغريب أنك طيب القلب ، رغم أن لك ملء الحق أن يملأ الحقد قلبك . بلى ، كان يمكن أن تنقلب حقوداً . أنت قوي ، وهذا شيء جيد . . .

ولجأ إلى الصمت مرة اخرى ، وأضاف متأملاً :

– أنا لا أفهم ما يدور في خلدك . إن لك ذهناً بالغ التشويش ، ولكن لك قلباً حكيماً . . . أجل ، إن لك قلباً حكيماً !

ملحوظة . حين أقمت في قازان عملت فنائياً وجنائنياً لأرملة الجنرال كورني . كانت فرنسية ، سمينة ، في مقتبل العمر ، لها ساقان قصيرتان صغيرتان مثل سيقان الصبايا . وكانت عيناها رائعتي الجمال ، لا تستقران على حال ، مفتوحتين عن آخرهما دائماً . وأظن أنها كانت بائعة في مخزن أو طاهية قبل زواجها ، ولعلها كانت «بنت هوى» . كانت تبدأ الشراب في بكرة الصباح ، وتخرج إلى الفناء أو الحديقة وليس على جسدها سوى قميص تحت مبذل برتقالي اللون ، وفي قدميها خف تتاري من جلد أحمر ، وشعرها الكثيف مشبوك في ذروة رأسها . كانت تشبكه كيفما كان ، فيروح ينسدل على وجنتيها الورديتين وكتفيها . فاتنة في ريعانها . وقد اعتادت أن تتخطر في الحديقة وهي تغني أغنيات فرنسية ،

وتراقبني وأنا أعمل ، وتتمشى حتى نافذة المطهى بين حين وحين ، وهي تقول :

– أعطيني شيئاً ، يا بولين .

كان هذا «الشيء» واحداً لا يتبدل على الاطلاق – قدحاً من خمرة مثلجة .

وكانت الاميرات اليتيمات الثلاث د . ج . يشغلن الطابق الأرضي من الدار ، وكان والدهنّ ، وهو جنرال مسؤول عن اقوات الجيش ، يغيب عن المنزل دائماً ، في حين أن أمهنّ طواها الردى . وكانت الأرملة تكره الشابات الثلاث وتبذل جهدها لتنغيص حياتهنّ واجبارهنّ على ترك الشقة بلجوئها إلى مختلف الألاعيب القذرة ضدهنّ . وكانت تتكلم اللغة الروسية بصورة سيئة ، لكنها تجيد الشتائم إلى درجة عجيبة ، مثلها مثل سائق أصيل . وكنت أنفر من أسلوبها في معاملة الفتيات المسكينات لقد كُنّ حزينات جداً ، وخائفات جداً ، ولا حول لهنّ ولا قوة على الاطلاق للدفاع عن أنفسهن . وذات مرة ، حوالي منتصف النهار ، كانت اثنتان منهنّ تسيران في الحديقة حين برزت امرأة الجنرال فجأة ، سكرى على مألوف عادتها ، وشرعت تنهرهما وتطردهما من الحديقة . فشرعتا في الخروج صامتتين ، ولكن السيدة كورني انتصبت عند البوابة ، فسدّت الطريق بجسدها ، وأطلقت سيلاً من اللعنات في لغة روسية جديرة بسائس وكفيلة بجعل حصانه يرتجف . طلبت إليها أن تكفّ عن شتائمها ، وتفسح للفتاتين سبيل المرور ، فصاحت بي بروسيتها الركيكة :

– أنا أعرفك ! فأنت تتسلل من نافذتهن في الليل . . .

فقدت صوابي ، فأمسكت بها من كتفيها ودفعتها بعيداً عن البوابة ، ولكنها افلتت مني ، وأدارت وجهها إليّ وزعقت فجأة وهي تفتح مبذلتها وترفع قميصها بسرعة :

– أنا أظرف من هذه الفأرات المهزولات !

فقدتُ مرّة صبري تماماً ، فأدرتها ، وقفاها امامي ، وضربتها برفشي على أسفل ظهرها ، فأندفعت عبر البوابة إلى الفناء ، وصرخت ثلاث مرات في صوت مرعوب مشدوه : «أوه ! أوه ! أوه !» .

استعدت بعد ذلك جواز سفري من مدبرة منزلها بولينا ، وهي سكيرة بدورها ، لكنها ماكرة ماكرة ، وحملت صرتي تحت ذراعي ، ورحلت . وكانت امرأة الجنرال واقفة الى النافذة وفي يدها منديل أحمر اللون ، فصاحت ورائي :

– لن أنده على الشرطة – لا تخف أعرني سمعك ! إرجع ! لا تخف شيئاً . . .

٢٩

سألته :

– أتوافق بوزنيشيف * في رأيه على أن الأطباء قتلوا ولا يبرحون يقتلون الناس بمئات الألوف ؟

– هل تريد أن تعرف ذلك حقاً ؟

– أجل .

* شخصية في «سوناتا كرويتسير» . **الناشر** .

– إذن ، لن أخبرك به !

وأهنف ضاحكاً ، وهو يعبث باصابع يديه الكبيرة .

أذكر مقارنة له في إحدى أقاصيصه بين طبيب خيول قروي وطبيب عادي : «أليست كلمات «التنسغ» و«البواسير» و«الفصد» كلمات مرادفة بمنتهى البساطة لكلمات «الأعصاب» و«الروماتزم» و«البنية» ، وما شابه ذلك» .

لقد قيل هذا بعد جينر ، وبهرنغ ، وباستور . فيا له من مشاكس !

٣٠

ما أغرب تعشقه لعب الورق ! فهو يلعب في حماسة متدفقة ، بل هو ينفعل ويثور في بعض الاحيان . وهو يحمل الورق في عصبية ، فكأنه يحمل عصفوراً حياً بين أصابعه ، وليس مجرد قصاصات جامدة من الورق المقوّى .

٣١

قال ديكنز شيئاً بالغ الحكمة : «حصلنا على الحياة بشرط لا غنى عنه : ان نناضل بقسوة في سبيلها حتى آخر نفس» . لقد كان ، اجمالاً ، كاتباً عاطفياً مهذاراً ، لكن ليس بالغ الحكمة . من المؤكد أنه قادر على كتابة الرواية كما لا أحد يجاريه ، أفضل كثيراً من بلزاك بكل تأكيد . وقد قال أحدهم : «كثيرون تملكهم الرغبة العارمة في كتابة الكتب ، لكن القلة يخجلون منها فيما بعد» . لم يكن بلزاك ، أو

ديكنز ، من هذا الطراز ، وقد كتب كل منهما كثيراً من الأشياء السيئة . ومع هذا كان بلزاك عبقرياً ، أقصد أنه كان ذلك الشيء الذي لا يمكن الا أن يُسمى عبقرياً . . .

احضر له أحدهم كتاب ليف تيخوميروف «لماذا لم أعد ثوريا ؟» . فتناوله ليف نيكولايفيتش من المكتب ، ولوّح به بيده ، وهو يقول :

– الاغتيال السياسي معالج هنا بصورة جيدة ، مظهراً أن هذه الوسيلة من المقاومة ليس لها فكرة واضحة محددة . ويقول هذا المجرم المقوّم ان مثل هذه الفكرة لا يمكن أن تكون شيئاً سوى الطغيان الفوضوي للفرد والاحتقار للمجتمع وللانسانية . هذا كلام جيد ، ولكن كلمتي «الطغيان الفوضوي» وردتا خطأ ، فقد كان ينبغي أن يقول «الطغيان الملكي» . الفكرة جيدة وصحيحة ، وسوف يتعثر بها جميع الارهابيين . وأنا أتحدث عن الشرفاء بينهم . وكل من تستبدّ به شهوة القتل لن يتعثر طبعاً . فليس ثمة حجر عثرة أمامه هنا . انه مجرد قاتل ، وقد سقط بين الارهابيين بمحض المصادفة . . .

٣٢

كان أحياناً مغروراً ولا يطاق ، مثله مثل متعصب من منطقة فيما وراء الفولغا ، ونظراً لأنه جرس يترجّع صداه في العالم بأسره ، فذلك شيء مروع . قال لي البارحة : – أنا فلاح أكثر منك ، وأشعر بما يشعر به الفلاحون أفضل منك .

يا الهي ! لا ينبغي أن يتفاخر علـــى هذا الغرار ، في الحقيقة لا ينبغي له ذلك !

٣٣

قرأت له بعض المشاهد من «الحضيض» . أصغى اليّ في انتباه ، ومن بعد استوضح :

– ما الذي دفعك الى كتابتها ؟

فأوضحت له بمقدار ما كان الايضاح في قدرتي .

– أنت تنقض على الأمور مثل ديك صغير . وثمة شيء آخر – أنت تحاول على الدوام أن تدهن جميـــع الصدوع والشقوق بلونـــك الخاص . يقول أندرســن في احـــدى أقاصيصه : «الطلاء الذهبي يمحى أما الجلد الخشن فيبقى» . ويقول فلاحون : «كل شيء الى زوال ، ووحدها الحقيقــة لا تزول» . يحسن ألا تزركش الأمور ، فلسوف تزيد الأمور سوءاً بالنسبة اليك فيما بعد . ثم ان لغتك مفعمة حيوية الى حدّ بعيد ، وهي مليئة بالحيل الكتابية ، وهذا لا يفيـــد . ينبغي أن تكتب ببساطة أكثر ، فالناس يتحدثون دائمـــاً ببساطة ، وقد تأتي جمل حديثهم متفككة أول الأمر ، غيـــر انهم يعبرون عن أنفسهم بصورة جيدة . فالفلاح لا يسأل : «كيف يكون الثلث اعظم من الربع حين تكون الأربعة أكبر من الثلاثة ؟» ، مثلما فعلت سيدة شابة مثقفة . ليس هنالـــك ضرورة للحيل الكتابية .

بدا أنه غير راض ، وكان من الواضح أن ما قرأت لـــه

لم يعجبه . قال بعيد فترة من صمت في نبرة فظة ، وهـو يتجاوزني بأنظاره :

– رجلك العجوز لا يهواه القلب ، فالمرء لا يثـق بطيبته . الممثل طيب حقاً . هل قرأت مسرحيتي «ثمـار المعرفة» ؟ ان لي فيها طاهياً يشبه ممثلك . كتابة المسرحيات عمل صعب صعب . وعاهرتك جيدة أيضاً ، والأرجح أنهـنّ كذلك في واقع الأمر . هل صادفت أحداً من هذا النوع ؟

– أوه ، أجل .

– يمكن أن يرى المرء ذلك . فالحقيقة تفرض نفسهـا دائماً . ولكنك تتحدث كثيراً من وجهة نظر المؤلف ، وأبطالك ليسوا شخصيات حقيقية ، وجميعهم متشابهون كثيراً . مـن الأرجح أنك لا تفهم النساء ، فجميع نسائك خائبات – ليست بينهن واحدة ناجحة . والمرء لا يتذكرهنّ . . .

دخلت زوج أندريه لفوفيتش الى الغرفة تدعونـا الى تناول الشاي . فهبّ على قدميه وأعجل خطواته خارجـاً ، فكأنه اغتبط لوضع حدّ لذلك الحديث .

٣٤

– ما هو الحلم الأشد رهبة الذي طاف بك في نومك ؟

ما أندر ما كنت أحلم ، وكنت أجد صعوبة في استذكار أحلامي . لكن ثمة حلمين رسخا في ذاكرتي ، وقد لا يتاح لي نسيانهما البقية الباقية من عمري .

حلمت ، مرة ، بسموات عفنة تبعث على الغثيان ، خضراء

تضرب الى الاصفر ، فيها نجوم مدورة مسطحة لا أشعة لها ولا لمعان ، أشبه ما تكون بقروح على جسد رجل ساغب . وكان ثمة برق أحمر يزحف ببطء فيما بينها على صفحة السماء العفنة ، وكان البرق أشبه بأفعى ، وهو كلما مس نجماً انتفخ هذا النجم فأصبح كرة ، ثم انفجر دون أن يندّ عنه أدنى صوت ، مخلفاً في مكانه لطخة سوداء ، أشبه بسحابة من دخان ، واختفى على الفور في السماء العفنة المائعة . وراحت النجوم تنفجر وتختفي واحدة واحدة ، والسماء تتكاثف ظلمة ورهبة ، ومن بعد يتراءى أنها تختلط ، وتضطرب ، وتتطاير شظايا تساقط على رأسى على شكل هلام مائع ، أما فى الفراغات المتكونة بين الشظايا فيشع السطح الأسود المصقول .

قال ل . ن . : — لا ريبة أنك كنت تقرأ كتاباً علمياً عن الفلك ، وهو السبب في هذا الكابوس الذي حلمت به . وما هو حلمك الآخر ؟

الحلم الآخر : سهل ثلجي منبسط مثل صفحة من الورق ، خال من أية رابية أو شجرة أو دغلة ، ليس فيه أكثر من عساليج مبعثرة هنا وهنالك ، تبرز من قلب الثلج . وعلى انبساط ثلوج هذه الصحراء الخالية من الحياة يمتد من أفق الى أفق شريط أصفر من درب لا تكاد تبين ، وجزمتان رماديتان من اللباد تدبان ببطء عليها من تلقاء ذاتهما .

رفع حاجبيه الكثيفين الشبيهين بحاجبي اله الغابة ، وشخص اليّ محدقاً . وقال بعد صمت قصير :

— هذا رهيب ! أحلمت به حقاً — ولم يكن من بنات

افكارك ؟ ان فيه شيئاً ما له علاقة بالكتب .

وبدا على حين فجأة أنه فقد رباطة جأشه ، فأعلن في جهمة وقسوة ، وهو ينقر باصبعه على ركبته :

– أنت لا تشرب ؟ ولا يبدو عليك أنك كنت أسير الشراب يوماً . ومع هذا فثمة شيء له علاقة بالادمان على الخمرة في هذين الحلمين . كان هنالك كاتب الماني يدعى هوفمان ، تحدث عن مناضد للعب الورق راحت تركض في الشارع روحة رجعة وما شابه ذلك – حسناً ، لقد كان سكيراً – «مسهلاً هضمياً» ، كما يقول سائقو العربات المثقفون . جزمتان تسيران من تلقاء ذاتهما – هذا رهيب حقاً ! حتى لو كان من بنات أفكارك – فهو شيء جيد جداً ! رهيب !

وابتسم فجأة ابتسامة انتشرت على لحيته بأسرها ، بحيث تلألأت عظام وجنتيه :

– وتصوّر هذا : على حين فجأة تروح منضدة للعب الورق تهبط شارع تفيرسكايا راكضة – بقوائمها الخشبية المقوسة ، وعوارضها المقرقعة ، والحوّار يتواثب عنها – وفي مقدورك أيضاً ان تشاهد على قماشها الأخضر أرقاماً . لقد هربت لأن بعض محصلي الضرائب لعب عليها لعبة «الفينت» ليل نهار على مدى ثلاثة أيام متوالية ، فما عادت تطيق صبراً .

ضحك ، ولا ريبة أنه لمح أنني تأذيت قليلاً من جراء افتقاره الى الأيمان بي .

– غضبتَ لأن حلميك يبدوان مستوحيين من الكتب في نظري ؟ لا تغضب ، فأنا أعرف كيف يختلق المرء أحياناً ، من

دون شعور على الاطلاق ، أموراً مغرقة في الغرابـــة بحيث لا يمكن له أن يؤمن بها ببساطة ، وعندها يروح يتخيّل أنها لا بد طافت في أحلامه وليس هو الذي اختلقها . أخبرني ملاك شيخ ذات مرة أنه حلم أنه كان يتمشى في غابة ، فوصل الى سهب ، واليك ما رأى فيه : ثمة رابيتان في السهب صارتـا على حين بغتة ثديين ، وهب بينهما وجه أسود فيه قمران مكان العينين ، عينين بيضاوين كعيني من اصيب بالسحابة ، فى حين كان هو نفسه واقفاً بين ساقي امرأة ، وأمامه هاوية سوداء عميقة تشده اليها . وقد بدأ شعره بعد ذلك الحلم يشيب ، ويداه ترتجفان ، فرحـــل خارج البلاد الى الدكتور كنيب للاستشفاء بالمياه المعدنية . هذا بالضبط الحلم الذي ينبغي ان يطوف في ذهن مثل ذلك الرجل – فقد كان فاسقاً أسير لذة .

وربت على كتفي :

– غير أنك لست سكيراً ، ولست فاسقاً . . . فكيف راودك مثل ذانك الحلمان ؟

– لست أدرى .

– نحن لا نعرف شيئاً عن أنفسنا !

زفر ، وضيّق عينيه ، وأضاف بعد فترة تفكير قصيرة في نبرة خافتة :

– لا نعر شيئاً !

في هذه العشية ، حين خرجنا للنزهة ، دس يده تحت يدي وقال :

– جزمتان تسيران . . . هذا رهيب ، أليس كذلك ؟

من تلقاء ذاتهما – تراك – تراك – والثلج ينسحق تحتهما ! أجل ، هذا شيء جيد حقاً ! ومع هذا فأنت مغرم بالكتب ، متيّم بها ! لا تغضب – ولكن هذا سيىء ، وسوف يعوق عملك .

لا أعتقد أني مولع بالكتب أكثر منه ، وهو يبدو لي الآن عقلانياً الى أبعد الحدود مهما كانت الأقوال التي ينطق بها .

٣٥

يتراءى أحياناً وكأنه وصل لتوه من مكان بعيد بعيد حيث الناس يفكرون ويشعرون بصورة مختلفة ، ويتعاملون بصورة مختلفة ، ولا يتحركون مثلما نحن نتحرك ، ويتحدثون بلغة مختلفة . كان ينتبذ أحد الأركان منهكاً شاحباً ، وكأنه معفر بتراب أرض غير هذه الأرض ، يشخص الى كل مَن حوله في انتباه بعيني رجل غريب أخرس .

والبارحة ، قبل الغداء ، دلف الى حجرة الجلوس وهو على مثل هذا المظهر ، كمن هو بعيد بعيد ، ومن بعد جلس على الكنبة في صمت برهة من الزمن ، ثم قال على حين فجأة ، وهو يتمايل ويحك ركبتيه براحتي يديه ، ويغضن وجهه :

– ليست هذه نهاية ذلك ، أبداً ، أبداً .

فاستوضحه رجل أحمق وهادئ مثل مكواة :

– ماذا تقصد ؟

شخص اليه بطرف جامد ، وانحنى ، ومدّ بصره الى

الشرفة حيث كنت أجلس مع الدكتور نيكيتين ويلباتييفسكي ، وسألنا :

– عم تتحدثون ؟

– عن بليفه * .

– بليفه . . . بليفه . . .

جعل يكرر ذلك مغرقاً في التفكير ، متوقفاً بين الكلمات كمن لم يسمع هذا الاسم من قبل ، ثم انتفض انتفاضة العصفور ، وقال مقهقهاً :

– شيء من اللغو جعل يتراكض في ذهني منذ بكور هذا الصباح . فقد أخبرني أحدهم عن كتابة مدونة على شاهد ضريح :

هنا يستلقي تحت هذا الحجر ايفان ييغورييف ،
كان دباغاً يبلّل الجلود كل يوم ،
وقد عمل كادحاً ، وكان طيب القلب ،
وهو الآن ميت ، خلّف ورشته لزوجته .
لم يكن عجوزاً ، وكان يمكن أن يستمر
في دبغ الجلود ، لكن الرب ناداه
لمشاطرته الحياة السماوية
مساء يوم الجمعة ، عشية أسبوع الآلام . . .

وما شابه ذلك . . .

---

* بليفه (١٨٤٦–١٩٠٤) من رجال الدولة الرجعيين . وزير الداخلية ورئيس الدرك . قتله الاشتراكيون الثوريون عام ١٩٠٤ . **الناشر** .

جنح الى الصمت ، ثم هز رأسه ، ورسم على شفتيه ابتسامة خفيفة ، وأضاف :

– ثمة شيء يمس شغاف القلب ، شيء حلو المذاق في الغباوة البشرية – حينما لا تكون خبيثة . . . لا ريب أن ذلك موجود . . .

واستُدعينا الى الغداء .

٣٦

«أنا لا أحب السكيرين ، ولكنني أعرف أناساً يبعثون على الاهتمام بعد رشف قدح أو قدحين ، فيكتسبون فطنة ، وحلاوة في التفكير ، وجدارة وفصاحة لا يملكون مثلها في صحوهم . وعندها أكون على استعداد لمباركة الخمرة» .

قال سولر انه كان يتمشى وليف نيكولاييفيتش على طول شارع تفيرسكايا حين لمح تولستوي فارسين مدرعين في البعيد . كانت صفائح صدريهما النحاسية تتألق تحت أشعة الشمس ، ومهاميزهما تصلصل ، وهما يسيران في مشية واحدة فكأنهما اصبحا شيئاً واحداً ، ووجهاهما يشعان بغرور الشباب وقوته .

وشرع تولستوي يلومهما :

– يا للغباوة المهيبة ! ليسا أكثر من حيوانين روّضوهما بالعصا . . .

وحين مرّ المدرعان به وقف دون حراك ، وأتبعهما نظرة حنوناً ، وقال معجباً :

– ومع هذا فهمـــا جميلان ! الرومان القدامى ، أليس كذلك ، يا ليوفوشكا ؟ القوة ، والجمال – أوه ، يا الهي ! ما أروع حين يكون الانسان جميلاً ! ما اروعه !

٣٧

لحق بي على الدرب الاسفل في أحد الأيام الحارة . كان متجهاً الى ليفاديا ، ممتطياً صهوة جواد تتاري صغير هادىء . وكان شاحب الطلعة ، أشعث ، في قبعته الخفيفة الشبيهـــة بنبات الفطر المصنوعة من لباد أبيض اللون . وكان أشبه بقزم خرافي .

شدّ عنان حصانـــــه وتحدث اليّ . مشيت الى جانب ركابه ، وذكرت فيما ذكرت له من أمور اني تلقيت لتـوي رسالة من ف . ج . كورولنكو . هز تولستوي لحيته غاضباً .

– هل يؤمن بالله ؟

– لا أعرف .

– أنت لا تعرف الشيء الاكثر أهمية . انه يؤمن ، ولكنه يخجل من الاعتراف بذلك أمام الملحدين .

كان يتحدث متذمراً ، متبرماً ، مضيقاً من فرجتي عينيه في غضب . كنت أدرك أني أضايقه ، لكن حين حاولت تركه وشأنه أوقفني وقال :

– ما بالك ؟ أنا أقود الحصان على مهلة .

وزمجر من جديد :

– وصاحبك أندرييف يخجـــل من الملحدين هو الآخر ، ولكنه يؤمن بالله ايضاً ، وهو يخاف الله .

عند تخوم ملكية الامير الكبير أ . م . رومانوف وقف ثلاثة من هذه الأسرة مجتمعين على الطريق يتحدثون – مالك عزبة آي – تودور ، وغيورغي ، وشخص آخر – بيوتر نيكولاييفيتش من ديولبر فيما اعتقد – وجميعهم رجال طوال رائعون . وكان الدرب مسدوداً بعربة يجرها حصان واحد ، وبحصان مسْرج . لم يستطع ليف نيكولاييفيتش المرور فألقى نظرة صارمة قاسية على آل رومانوف ، لكنهم كانوا قد استداروا قبل ذلك عن تولستوي . فتلبك الحصان المسرج في مكانه ثم ابتعد جانباً مفسحاً السبيل لحصان تولستوي .

بعدما سار بحصانه لحظة أو لحظتين في صمت ، نبر قائلاً :

– لقد عرفني ، أولئك الأجلاف !

واكمل بعد لحظة أخرى :

– عرف الحصان أنه ينبغي أن يفسح لتولستوي سبيل المرور .

٣٨

«ارْعَ نفسك قبل كل شيء من أجل نفسك ، وعندها تصنع للآخرين أشياء كثيرة» .

٣٩

«ماذا نقصد عندما نقول اننا «نعرف» ؟ أعرف أنني تولستوي ، كاتب ، ولي زوجة ، وأولاد ، شائب الشعر ،

قبيح الوجه ، لي لحية – وهذا كله مدون في جواز سفري . ولكنهم لا يدلفون الى الروح في جوازات السفر ، وكل ما أعرفه عن روحي أنها تتوق الى الاقتراب من الله . لكن ما هو الله ؟ هذا الذي روحي هي ذرة منه . هذا هو كل شيء . كل من تعلم أن يفكر يكتشف أن من الصعوبة أن يؤمن ، ولكن المرء لا يستطيع الا أن يحيا بالله عن طريق الايمان . لقد قال تيرتوليان : «التفكير هو الشر» .

٤٠

هذا الانسان الاسطوري على الرغم من رتابة موعظته ، متقلب الى أبعد الحدود .

بينا هو يتحدث مع امام الغاسبرا في الحديقة اليوم تصرف مثل ريفي بسيط سريع التصديق حانت ساعة تفكيره في أيامه الأخيرة . وعلى الرغم من قصره الفعلي بدا أنه يتعمد أن يجعل نفسه أقصر مما هو عليه ، وفي وقفته أمام ذلك التتاري الطويل المتين البنية أشبه شيخاً صغيراً شرع من توه يفكر ملياً في معنى الحياة بعدما طغت عليه القضايا التي يطرحها . كان يرفع حاجبيه الأشعثين فى انشداهة ، وتطرف عيناه الثاقبتان في خشية ، ويعتم بريقهما الثاقب الدفاق . وكانت نظرته الباحثة تستقر في جمود على وجه الامام العريض ، ويفقد بؤبؤا عينيه توقدهما الذي كان مثار ارتباك للناس جميعاً . طرح على الامام اسئلة «صبيانية» عن معنى الحياة ، والروح ، والله ، مكملاً مقاطع من القرآن بمقاطع من العهد الجديد ومن الانبياء

في حذق كبير . كان يمثل في واقع الامر ، وذلك بمهارة فائقة لا يمتلك لها مثيلاً غير حكيم وفنان عظيم .

قبيل ايام معدودة كان يحـــدث تانييف وسولر عـــن الموسيقى ، فاستغرقته نشوة صبيانية بفتنتها ، وكنت ترى اليه كيف يستمتع بتلك النشوة – أو بالحري قدرته على الاحساس بها . وقال ان أحداً لم يكتب عن الموسيقى في روعة وعمق مثل شوبنهاور ، وفيما هو يقول ذلك سرد قصة مضحكة عن فِتْ ، وأطلق على الموسيقى «الصلاة الخرساء للروح» .

استوضح سولر :

– ولماذا خرساء ؟

– لأنها من دون كلمات . ثمـــة تدفاق من الروح في الأصوات اكثر مما في الأفكـــار . الفكر كيس يضـــم نقوداً نحاسية ، والصوت نقاء داخلي لا يمكن أن تشوبه شائبة .

كان يجنح الى استخدام كلمات صبيانية مؤثرة في فرح جلي ، ويتذكر على حين فجأة أفضلها وأكثرها حناناً . وعندها يتبسم في لحيته ، ويقول فجأة في هدوء ولطف كثير :

– جميع الموسيقيين أغبياء : وكلما سمـــا الموسيقي نبوغاً ضاق أفق تفكيره . ومن الغريب انهم متدينون جميعاً تقريباً .

٤١

خاطب تشيخوف على الهاتف قائلاً :

– هذا النهار يريق البهجة في أعطافي ، فأنا أشعر بسعادة

غامرة بحيث أريدك أن تكون سعيداً بدورك . أنت ، على وجه الخصوص ! فأنت جيد ، جيد الى أبعد الحدود !

٤٢

لم يكن يصغي أو يصدق الناس حين يخطئون . والحقيقة أنه لم يكن يستوضح ، بل هو يستنطق . كان أشبه بجامع التحف لا يقبل الا الاشياء التي لا تشوّه انسجام مجموعته .

٤٣

قال ، وهو يتفحص بريده :

– انهم يقومون بضجة صاخبة ، ويكتبون ، وعندما أموت . . . فلسوف يتساءلون بعد سنة واحدة : تولستوي ؟ أفلم يكن ذلك الكونت الذي حاول ان يصنع الاحذية ، ثم وقع له ما وقع ؟ أليس هو ؟

٤٤

اكثر من مرة ضبطت في وجهه وفي نظرته تلك الابتسامة الراضية الماكرة لرجل عثر على حين فجأة على شيء كان قد خبأه . خبأ شيئاً ونسي مكانه . وعاش اياماً عديدة في قلق خفي وهو يتساءل على الدوام : أين تراني وضعت هذا الشيء الذي أحتاجه كثيراً ؟

وهو يخاف أن يكتشف الناس قلقه ، وخسارتـــه ، فيرتكبون عملاً بغيضاً ، عملاً لا يجد في نفسه هوى . ويتذكر فجأة ، ويعثر عليه . فيمتلئ غبطة ، ولا يضايقه امر الاخفاء عنها ، فينظر في خبث الى الجميـــع كمن يقول : «أنتـــم لا تستطيعون ايذائي الآونة» .

بيد انه لا ينبس بحرف واحد عن لقيتـــه ، وأين عثر عليها .

لا يمكن أن يكف المرء عن الاعجاب به ، لكن من الصعب رؤيته دائماً ، وما كان في طوقي أن أعيش في البيت ذاته — ان لم نقل الغرفة ذاتها — أن اكون معه . ذلك أشبه أن اكون في صحراء : كل شيء فيها أحرقته الشمس ، حتى ان الشمس ذاتها تحرق ذاتها ، مهددة بانتشـــار ليل قاتـــم لا نهاية له .

الرسالة

بعد أن أودعت في البريد رسالة لك وردت البرقيات التي تعلن «هروب تولستوي» . وكما ترى فأنا أكتب من جديد وأنا لا أبرح أشعر بتماس ذهني معك .

لا ريبة أن كل ما أشعر أني أود أن أقول بخصوص هذا النبأ سيكون مشوشاً ، ولعله يكون خشناً لا شفقة فيه — ويجب أن تصفح عني — فأنا أحس وكأن أحدهم أمسك بخناقي وشرع يشد عليه كاتماً أنفاسي .

تحدث الي كثيراً ومطولاً . حين كنت أعيش في غاسبرا ،

في القرم ، كنت أذهب لزيارته في أغلب الاوقات ، وكان يود زيارتي أيضاً . اني أقرأ كتبه في انتباه صادق ودفقة من الحب ، وهكذا يبدو لي أني أملك الحق في أن أقول ما أعتقده بشأنه ، ولو كان ذلك جرأة كبيرة مني ، أو كان حديثي عنه مضاد للفكرة العامة عنه . وأنا أعرف مثل أي انسان آخر أنه لم يكن قط انسان يستأهل أن يدعى عبقرياً ، وأكثر تعقيداً وتناقضاً مع نفسه ، وأكثر سناء في كل شيء . كان يسطع سناء بالمعنى الخاص والمعنى الواسع على حد سواء ، وبوسيلة يستحيل أبداً أن نصوغها في كلمات . كان فيه شيء يثير فيّ على الدوام رغبة في الصياح أمام الجميع قاطبة : أنظروا هذا الانسان المعجزة الذي يعيش على كوكبنا ! ذلك أنه مخلوق بشري قبل كل شيء وبشكل شامل اذا جاز التعبير اي انه انسان البشرية .

لكنني كنت انفر على الدوام من جهوده العنيدة الطاغية في أن يحوّل حياة الكونت ليف نيكولاييفيتش تولستوي الى «حياة الأب المقدس ليف» . كان يجهد نفسه لفترة طويلة كي «يتعذب» ، كما تعرف . وقد أخبر يفجيني سولوفيوف وسولر عن منبع أسفه لأنه لم ينجح في تلك المحاولة – لم يكن راغباً في أن يعاني لمجرد رغبة طبيعية في اختبار قوة ارادته ، بل كان يفعل ذلك بكل وضوح – وأنا اكرر هذا القول – عن قصد عنيد كيما يزيد من ثقل عقائده ، كيما يجعل الكلمات التي يعظ بها كلمات لا يمكن مقاومتها ، كيما يكرسها في عيون البشر عن طريق عذابه ، وكيما يرغمهم على القبول بها – أتسمع ؟ – أن يرغمهم ! فقد كان يعرف حق المعرفة

أن وعظه غير مقنع بما فيه الكفاية . حينما تنشر يومياتـــه فلسوف تعثر على بعض نماذج رائعة من الشك ، هذا الشك الذي طبقه على تعليمه الخاص وعلى شخصيته . انه يعرف أن «الشهداء والمعذبين هم بصورة دائمة على وجه التقريـــب طغاة ظالمون» – فهو يعرف كل شيء ! ورغم هذا فهو يقول : «لو قدّر لي أن أقاسي في سبيل افكاري فلسوف تخلق تأثيراً مختلفاً الاختلاف كله» . وكان هذا ينفرني منه دائماً ، فما كان في وسعي الا أن أحسّ فيه محاولة لقسري ، ورغبة في التسلط على ضميري ، في خطف بصره برؤية دماء الشهيد ، وفى وضع نير العقائد حول عنقي .

كان على الدوام يرسل أناشيد التسبيح للخلود في العالم الآخر ، ولكن الخلود في هذا العالم كان أحب اليه . ومن حيث هو كاتب وطني بمعنى الكلمة الاصدق ، فقد كان يجسد في روحه العظيمة جميع الصفات السيئة للأمة ، وكامل التشويه الذي ابتلتنا به محن تاريخنا . . . فكل شيء فيـــه وطني ، وبشارته بأسرها عبارة عن رد فعل الماضي ، كنا قد شرعنا ننفضها عنا ونتغلب عليها .

تذكر رسالته «المثقفون ، والدولـــة ، والشعب» التي كتبها عام ١٩٠٥ – يا لها من رسالة كريهة حاقدة ! من خلالها تستطيع أن تستبين تلك العبارة الحقود «هذا جزاؤكم ! انكم لم تصغوا اليّ !» الصادرة عن انسان منشق . كتبت اليه جواباً عنها في ذلك الحين ، مبنياً على أسس الكلمات ذاتها التي وجهها اليّ ، قائلاً له انه «منذ فترة بعيدة فقد الحق في الحديث عن الشعب الروسي ، وباسم هذا الشعب» ، لأنني

كنت شاهداً على عزوفه عن الاصغاء الى الناس البسطاء الذين يجيئون اليه لمباسطته الحديث ودياً ، وعن فهمهم . كانت رسالتي قاسية ، فلم أرسلها .

وهو يقوم الآونة بما يحتمل أن يكون وثبته الأخيرة على أمل أن يخلع على أفكاره المغزى الأكثر سمواً . كان مثل فاسيلي بوسلاييف مولعاً بمثل هذه الوثبات دائماً ، ويقوم بها على الدوام في اتجاه اثبات قداسته الخاصة ومساعيه لاضفاء هالة على نفسه . هذا يفوح برائحة محاكم التفتيش ، رغم أن تعاليمه يبررها تاريخ روسيا القديم والعذابات الشخصية للعبقرية . فالقداسة تتحقق من خلال التأمل الروحي في الخطيئة واستعباد الارادة في الحياة . . .

ان في ليف نيكولاييفيتش اشياء كثيرة أثارت فيّ في بعض الأوقات أحاسيس قريبة من الحقد تجاهه ، اشياء كثيرة تئيد على روحي مثل عبء ثقيل . ان أناه المنتفخة الجموح ظاهرة رهيبة ، تكاد أن تكون شاذة ، وفيها شيء من بطل سفياتوغور الاسطوري الذي كانت الارض عاجزة عن احتمال ثقله . بلى ، هو عظيم ! أنا واثق الى أبعد الحدود من ان هناك ، فضلاً عن كل شيء يتفوه به ، أشياء كثيرة يصمت بشأنها — حتى في يومياته الخاصة — ولعله لن يحدث عنها قط كائناً من كان . ذلك «الشيء» يجعلك تشعر به بصورة عرضية ، مؤقتة ، في حديثه ، وتوجد منه شذرات في دفتري يومياته اللذين أعطاهما اليّ والى ل . أ . سولرجيتسكي لقراءتهما . يخيل اليّ أنه شيء أشبه «بنكران كل ما قد قيل» — العدمية الأكثر عمقاً وشراً التي نشأت وتطورت في تربة يأس ووحدة لا

حدود لهما ، وليس ثمة هنالك من هو قادر على تحطيمهـــا ، والتي يحتمل أنه لم يكن ثمة من أحسّ بها من قبل بمثل هذا الوضوح المرعب . كان يبـــدو لي في الغالب باعتباره رجلاً صلباً ، لا مبالياً ، في اعماق فؤاده ، بالمخلوقات البشرية — فهو أرفع قدراً وأعظم قوة منهـم بحيث يعتبرهم بعوضـــاً ، واستغراقاتهم اليوميـــة تبعث فيه على السخريـــة وجديرة بالرثاء . لقد هرب منهم بعيداً بعيداً الى صحراء ما حيث راح يتأمل في وحدته باجماع تركيز قوى نفسه ، «الشيء الأكثر أهمية من كل شيء» — الموت .

طوال حياته بأسرها كان يخاف الموت ويكرهه ، وطوال حياته بأسرها سيطر عليه شبح «رعب أرزاماس» * — أينبغي عليه ، هو تولستوي ، أن يموت ؟ ان عيون العالم قاطبة ، الكون بأكمله ، منصبة عليه . وخيوط حية مرتعشة تمتد اليه من الصين ، والهند ، وأميركا . وروحه منذورة لجميع البشر وكل الأزمان ! لم لا تستثنيه الطبيعة من قوانينها وتخلـــع عليه — وحده من بين البشر — خلوداً جسدانياً ؟ لا ريبة أنه أكثر عقلانية وذكاء من أن يؤمن بالمعجزات ، ومع هذا ، من ناحية أخرى ، فهو ثائر مستكشف ، أشبه بمجند شاب يجنه الرعب واليأس حينما يفكر في الحياة في ثكنة مجهولة . وأذكر

* زار تولستوي في ٢ و٣ ايلول ١٨٦٩ مدينـــة ارزاماس وقضى ليلته فى فندقها حيث احس « بالوحشية والخوف والرعب » ولم يعرف اسبابها . وقد كتب عنها في رسالة الى زوجته . وقد سمى غوركي هذا الاحساس « برعب وحدة الانسان في الخلاء » ، «خوف الانسان امام الادراك بحتمية هلاكه كشخصية » . **الناشر** .

مرة في غاسبرا ، بعد ابلاله من مرض ألم به ، وكان قد قرأ كتاب ليف شيستوف «الخير والشر في تعاليم نيتشه والكونت تولستوي» ، قال جواباً عن ملحوظة أ . ب . تشيخوف من «أنه لم يحب الكتاب» :

– وأنا وجدته مسلياً . كتب بطريقة متكلفة ، ولكنه ليس سيئاً ، بل يبعث على الاهتمام . أنت تعرف أنني أحب الساخرين اذا كانوا مخلصين . وهو يقول في مكان ما : «الحقيقة ليست مطلوبة» ، وهو على حق تماماً – فما هي الحقيقة بالنسبة اليه ؟ لسوف يطاله الموت على أية حال .

وأضاف ، وهو يقهقه بسخرية ، حين أدرك أن كلماته لم يستوعبها أحد :

– لقد تعلم رجل أن يفكر ، وكانت أفكاره كلها مرتبطة دائماً بفكرة الموت الذي سيحل به مهما كانت الاشياء التي يفكر فيها . جميع الفلاسفة على هذا الغرار . وما نفع الحقائق اذا كان لا مفر من الموت ؟

واستطرد من ثم يوضح أن الحقيقة واحدة بالنسبة الى الجميع – محبة الله ، بيد أنه تحدث في لامبالاة وسأم حول هذا الموضوع . التقط الكتاب من جديد ونحن جلوس على الشرفة بعد الفطور ، وعثر على الفقرة التي يقول المؤلف فيها : «لم يستطع تولستوي ودوستويفسكي ونيتشه أن يعيشوا دون الحصول على جواب عن أسئلتهم ، ومهما يكن الجواب فهو أفضل بالنسبة اليهم من انعدام اي جواب على الاطلاق» ، وضحك قائلاً :

– يا للحلاق الجسور ! يقولها صراحة انني أخدع

نفسي ، الأمر الذي يعني انني أخدع الآخرين أيضاً . وهذه هي النتيجة الجلية . . .

استوضح سولر :

– ولماذا هو «حلاق» ؟

فقال مستغرقاً في التفكير :

– خطر في بالي على الفور أنه غندور عصري ، فتذكرت حلاقاً من موسكو في حفل زفاف عمه الفلاح في القرية . كانت تصرفاته عجيبة ، وكان يستطيع أن يرقص رقصة «لانسية» ، وبالتالي كان يحتقر جميع الحضور .

انقل هذا الحديث كلمة كلمة على وجه التقريب . فأنا أذكره بصورة متميزة حقاً ، بل لقد دونّته مثلما أدون جميع الامور التي تأسر لبي . وقد سجلت' وسولر ملحوظات عديدة ، ولكن سولر أضاع ملحوظاته على الطريق الى أرزاماس حيث قام بزيارتي – كان مهملاً ، وعلى الرغم من أنه كان يحب ليف نيكولاييفيتش حباً أنثوياً على وجه التقريب ، فقد كان موقفه حياله غريباً الى حد ما ، وعلى شيء من التعالي . وأنا بدوري وضعت ملحوظاتي في مكان ما وفشلت في العثور عليها . لا بدّ انها في روسيا . كنت بالغ الانتباه في مراقبتي ، فقد كنت أبحث على الدوام ، وسأظل أبحث حتى اليوم الذي يطويني الموت فيه ، عن رجل يمتلك ايماناً حياً حقيقياً . وبالاضافة الى هذا لأن أ . ب . تشيخوف شكى لي مرة ، وهو يتحدث عن افتقارنا الى الثقافة قائلاً :

– انظر ، كل كلمة نطق بها غوته جرى تسجيلها له . أما افكار تولستوي فلا يدونها انسان . هذا شيء روسى

خالص ، يا عزيزي ! وفيما بعد سيصحو الناس ، ويشرعون في تدوين ذكريات عامرة بالتحريف .

ولنكملنّ حديثنا – حول موضوع شيستوف :

– هو يقول : المرء لا يستطيع حياة وهو دائب التحديق في رؤى مرعبة – فكيف يتاح له أن يعرف ما يستطيع المرء أن يعيش أو لا يستطيع أن يعيش وهو في هذه الحال ؟ اذا عرف ، اذا شاهد رؤى ، فهو لن يدوّن تفاهات ، بل سوف يشغل نفسه بشيء خطير ، مثلما فعل بوذا طوال حياته .

لمّح أحدهم أن شيستوف يهودي .

قال ليف نيكولاييفيتش متشككاً :

– من المشكوك فيه . كلا . انــــه لا يشبه أن يكون يهودياً أبداً . ليس هنالك يهود ملحدون – سمّوا لي واحداً فحسب . . ليس هنالك أحد .

كان يبدو أحياناً أن ذلك الساحر الشيخ يلهو بالموت ، يداعبه ، ويحاول ان يخدعه بوسيلة من الوسائل : أنا لا أرهبك ، أنا أحبك ، وأنا أنتظرك . وكانت عيناه الصغيرتان الذكيتان على الدوام تحملقان – من تراك تشبه ؟ وماذا يكمن وراءك ؟ أتقصد أن تدمرنــي كليـــة ، أم سيبقــى منـــي شيء ما ؟

ان كلماته : «أنا سعيد ، سعيد بصورة مخيفة ، سعيد السعادة كلها !» لتترك انطباعاً غريباً . وبعيد ذلك على الفور : «أوه ، أن أعاني !» – ان اعاني – ذلك ، أيضاً شيء صادق فيه . لا أرتاب برهة واحدة أنه ، وهو في مرحلة النقاهـــة بعد ، سيغتبط بصدق اذا وجد نفسه في السجن ، في المنفى ،

كيما يتقبل ، في اختصار ، تاج الشهيــــد . أتراه يشعــر أن الاستشهاد سيبرر الموت بوسيلة ما ، ويجعله أكثر قابلية للفهم ، وأكثر سهولة في أن يقبله المرء – من وجهة النظر الشكلية الخارجية ؟ أنا واثق أنه لم يكن سعيداً قط – لا في «كتب الحكمة» ، ولا «على صهوة الحصان» ، ولا «بين ذراعي امرأة» قطف حتى الثمالة بركـــة «الفردوس الأرضي» . كان ذهنه أكثر عقلانية من أن يحقق ذلك ، وهو يتقن معرفة الحياة والناس الى درجة بعيدة . واليكم مزيداً من كلماته :

«مرّ بالخليفة عبد الرحمن * اربعة عشر يوماً من السعادة في حياته ولا أظنني حصلت قط على مثلها . ذلك كله لانني لم أعش قط – ولا أعرف كيف أعيش – من أجل نفسي ، من أجل روحي ، ولكنني عشت على الدوام متظاهراً حسب ، من أجل الآخرين» .

وبينا نحن على أهبة الرحيل قال تشيخوف : «لا أصدّق أنه لم يكن قط سعيداً» . أما أنا فأصدق ذلك . فهو لم يكن سعيداً . ولكنه ليس صحيحاً أنه عاش «متظاهراً» . اجل . فقد كان يهب للآخرين دائماً ، مثلما يهب للمتسولين ، مما كان يفيض لديه . كان مغرماً ان يجعلهم «يفعلون» اموراً – يقرأون ، يسيرون ، يعيشون على الخضراوات ، يحبون الفلاح ويؤمنون بنجاعة أفكار ليف تولستوي العقلانية والدينيــــة .

---

* المقصود هنا عبد الرحمن خان (١٨٤٤–١٩٠١) – امير افغانستان . صدر كتابه «سيرة حياتي» في بطرسبورغ عام ١٩٠١ . **الناشر** .

ينبغي أن تعطي الناس شيئاً يرضيهم أو يشغلهم ، وذلك كيما تستطيع منهم خلاصاً ! فيجد المرء نفسه اسير وحدته المألوفة المعذبة ، بل الدافئة المريحة أحياناً ، يواجه المستنقع الذي لا قرار له – مسألة «الشيء العظيم» .

جميع المبشرين الروس ، باستثناء أفّاكوم وربما تيخون زادونسكي ، كانوا بشراً جافين ، لا يملكون ايماناً فاعلاً ونشيطاً . في مسرحيتي «الحضيض» حاولت أن أخلق ذلك النموذج من الرجل العجوز – لوكا . كان يصرف اهتمامه على «جميع أصناف الاجوبة» من دون البشر . ولم يكن في طوقه الا ان يصطدم بالناس ، فكان يبعث العزاء في قلوبهم لمجرد أن يبتعدوا عن طريقه . وكانت فلسفة مثل هؤلاء الافراد كلها ، وتبشيراتهم كلها ، تقتصر على الصدقات يعطونها في قرف مكتوم ، وكان في مقدورك أن تسمع وراء تبشيراتهم كلمات كئيبة وحقيرة :

«دعوني وشأني ! أحبب الله وجارك ، ولكن دعني وشأني ! جدف على الله ، واحبب اولئك الذين على مبعدة عنك ، لكن دعني وشأني ! دعني وشأني ، لأنني لست أكثر من انسان و . . . محكوم بالموت !» واأسفاه فهذه الامور هي الواقع ، ولسوف تبقى طويلاً ، على هذه الوتيرة ! ما كانت ولا يمكن أن تكون على شكل آخر ، ذلك أن المخلوقات البشرية مرهقة ، معذبة ، وحيدة بشكل رهيب ، مغلولة جميعاً بوحدة تستنزف أرواحها . وما كان يدهشني البتة لو أن ل . ن . تصالح مع الكنيسة . كان يمكن أن يوجد منطق

خاص في ذلك – فالناس جميعاً متساوون في التفاهـــة ، حتى المطارنة . وفي الواقع أن ذلك لن يكون مصالحة ، بل سيكون هذا العمل بالنسبة اليه شخصياً خطوة منطقية : «أنا اغفر لأولئك الذين يكرهونني» . ذلك عمل مسيحي ، يخفي تحته شيئاً طفيفاً من سخرية ماكرة ، يمكن أن يفهمه المرء باعتباره انتقام رجل حكيم من الحمقى .

غير انني لا أكتب بالطريقة التي أرغب فيها ، ولا عـــن الامور التي أرغب فيهـــا . فثمـــة كلب يعوي في روحي ، والمصيبة تومض أمام عيني . لقد وردت الصحف لتوها ، وأستطيع أن أرى بوضوح أن «أسطورة تخلق» عندكم : كان في قديم الزمان رجال تافهون يعيشون عالة على الغير ، وقد أنجبوا . . . قديساً . فكّر فحسب في الاذية التي سوف تلحقها هذه الأسطورة ببلادنا الآونة بالذات ، في الوقت الذي يحني فيه الناس رؤوسهم وتثير الخيبة املهـــم ، وتغدو أرواح الاكثرية فارغة وعقيمة ، وتمتلئ نفوس المختارين بالكآبة . جميع هذه الأرواح الجائعـــة ، المدمرة ، تطالب بأسطورة . والناس يتوقون بشدة الى التحرر من الألم ، وتهدئة عذاباتهم ! وسوف يختلقون ما اراده هو ولكنه شيء غير مرغوب فيه – حياة رجل مقدس ، حياة قديس – في الوقت الذي تكون العظمة والقداسة فيه تكمن في مجرد كونه «انساناً» ، انساناً له فتنة مخبّلة تبعث على العذاب ، انسان البشرية بأسرهـــا . أني اناقض نفسي ههنا ، لكن لا بأس في ذلك . انه رجل يفتش عن الله ليس لنفسه ، بل للآخرين ، بحيث أنه ، هو الرجل ، يمكن أن يُترك في سلام في الصحراء التي اختارها . لقد أعطانا

العهد الجديد ، وكيما يجعلنا ننسى الصراع في داخل يسوع نفسه عمد الى تبسيط صورته ، ولطّف من العناصر العدوانية الكامنة فيه ، وابرز «الخضوع لمشيئة ذلك الذي أرسلني» .
ليس ثمة من ينكر أن عهد تولستوي الجديد أكثر قبولاً ، فهو يلائم بصورة أفضل «اوصاب» الشعب الروسي . ينبغي أن يعطي هذا الشعب شيئاً ، فهو يشكو متذمراً ، وأنّاته تهزّ الارض وتصرف المرء عن «الشيء الرئيسي» . و«الحرب والسلم» وما نهج نهجها لا يفعل شيئاً في تسكين الحزن واليأس المسيطرين على الأرض الروسية الكئيبة .

قال هو نفسه عن «الحرب والسلم» : «اذا تركنا التواضع الكاذب جانباً فهي «الياذة» أخرى» . وقد سمع م . ا . تشايكوفسكي من شفتي تولستوي نفسه المديح بالذات يصبها على كتابه «طفولتي وصباي» .

وصل بعض الصحفيين من نابولي قبل فترة وجيزة – بل قدم أحدهم على عجل من روما . وسألوني أن أبدي رأيي في «هروب» تولستوي – هذا ما أطلقوا على ذلك من اسم – «هروب» . رفضت التحدث اليهم . أنت تفهم ، من دون ريب ، أن نفسي تعاني دوامة قلق رهيبة – فأنا لا أريد أن أرى تولستوي يحوّل الى قديس . فليبق خاطئاً ، قريباً من قلب العالم الخاطيء ، قريباً الى الأبد من قلب كل واحد منا . بوشكين وهو – ليس هنالك ما هو أعظم بالنسبة الينا وأعز على قلوبنا . . .

مات ليف تولستوي .

وردت برقية تعلن في كلمات عادية عادية – أنه مات .

كانت طعنة في القلب . بكيت ألماً وحزناً ، وهذا أنـــا الآونة ، في حال من نصف الجنون ، اتخيّله ، كما سبق أن عرفته ، كما سبق أن رأيته ، وأشعر برغبة مكروبـــة في الحديث عنه . أتخيّله في نعشه ، مضطجعاً مثل حجر ناعم في سرير جدول ماء ، ولا ريبة ان ابتسامته المخادعة – لا يفهمها الجميع – مختبئة في هدوء في لحيته الشائبة . وقد انطوت يداه أخيراً في هدوء – فقد أنهتا عملهما .

أذكر عينيـــــه الثاقبتين – اللتين تخترقان كل شيء – وأصابعه التي تتراءى على الدوام وكأنهـــا تقولب شيئـاً في الهواء ، وحديثه ، ومداعباته ، وكلماته الفلاحية المحبوبة ، وصوته غير المحدود بصورة غريبة . وأرى مقدار الحياة التي احتضنها ذلك الرجل ، ومقدار ما كان عليـــه من حكمــــة فوقبشرية – وكم كان باعثاً على الرهبة .

رأيته مرة كما لم يره أحد غيري على الأرجح . كنت أسير على شاطئ البحر الى غاسبرا لزيارته ، ولمحت اسفل ديرة يوسوبوف ، بين الصخور ، لمحت هيئته الصغيرة الخشنة ، المكتسية ثوباً رماديا أجعد وقبعة متغضنة . كان يجلس هنالك ، وذقنه ترتاح على يديه ، وشعر لحيته الأشيب ينتشر من بين أصابعه ، محدقاً في البحر ، في حين راحت المويجات الخضراء تتلاحق تحت قدميه في طواعية وحنان ، فكأنها تحكي قصتها للساحر الشيخ . كان النهار متقلب الطقس ، وظلال السحب تزحف فوق الصخور ، بحيث راح كل من الشيـــخ والصخور

يلتهب ضوءاً ويغرق في الظلال بصورة متناوبــــة . وكانت الصخور كبيرة ملأى بصدوع عميقــة ، مغطاة بعشـــب بحري عطِر – فقد هبت عاصفة عاتية في اليوم السابق . وبدا لي أشبه بصخرة قديمة دبّت فيها الحياة على حين غرة ، عارفاً ببداية الاشياء جميعاً وهدفها في الحياة ، متسائلاً متى وماذا ستكون نهاية الحجارة والأعشاب على وجه البسيطة والمياه في المحيط ، والانسان والعالم بأسره ، من الصخور حتى الشمس . وكان البحر أشبه ما يكون بجزء من روحه ، وكان كل مــــا حواليه منبثقاً منه ، جزءاً منه . ولقد غرق الرجل الشيخ في جمود سادر في التفكير ، فأوحــــــى بشيء نبوي ، مسحور ، عميق ، في العتمة المنتشرة تحته ، متلاشياً في البحث عن شيء في أعالي الفراغ الازرق فوق الارض ، فكأنه هو –تركيـــز ارادته – من يستدعي هذه الامواج ويصرفها ، ويقود حركات السحب والظلال التي تبدو كأنها تنقل الصخور وتوقظهــــا . وشعرت فجأة ، في برهة من جنون ، أنه – يمكن ان يكون هذا الشيء ! – يهب على قدميه ، ويلوّح بذراعه ، فالبحر جنح الى هدوء ، ويغدو زجاجي السطـــح ، والصخور تتحرك وتصيح ، وجميع ما حولنا تدبّ فيه الحياة ، وكل شيء سيعثر على صوته ، ويتحدث بألسنة لا حصر لها عمــــا فى داخلــه ، عنه ، وضده . من المحال أن أصوغ في كلمات ما أحسست به في هاتيك البرهة – كان ثمة نشوة ورعب في نفسي ، ومن بعد انصهر كل شيء في فكرة هنيئة : «أنا لست يتيماً في هذا العالم طالما أن هذا الانسان يسكنه !»

وهكذا عدت على عقبيّ في اتئاد كيلا تقعقع الحصى تحت

قدميّ ، وقد رغبت عن تعكير صفو تأملاته . والآن – أنا احسُ أني يتيم ، وعبراتي تتهاطل وأنا أكتب – أبداً من قبل لم أبك بمثل هذا التفجُع ، بمثل هذا اليأس ، بمثل هذه المرارة . ولست أعرف ما إذا كنت أحببته ، لكن أية اهمية هنالك فيما إذا كان شعوري نحوه هو الحب أو الحقد ؟ كان على الدوام يثير المشاعر في روحي ، يثير اضطراباً خيالياً واسعاً . حتى إن الاحاسيس المزعجة أو المناوئة التي كان يثيرها تتخذ اشكالاً لا تخمد بل يبدو أنها تنفجر في روح المرء ، فتوسعها ، وتجعلها أكثر ارهافاً ، وتخلع عليها مزيداً من السعة . كان رائع المهابة حينما يروح يجرُ قدميه بتثاقل مهيب وكأنه يمهّد بعقبي قدميه الأرض غير المستوية ، ويبرز فجأة من خلف أحد الأبواب ، أو من وراء زاوية ، ويقترب من المرء بخطوات رشيقة قصيرة سريعة لرجل ألف التحرك دائماً على ارض ، وابهاما يديه مدسوسان في حزامه ، فيتوقف برهة ويختطف نظرة ثاقبة حواليه تستوعب فوراً كل ما هو جديد وتنهل مغزاه في الحال .

– كيف حالك ؟

كنت اترجم على الدوام هاتين الكلمتين على الوجه التالي : «كيف حالك – هذا يسرني ، ولكن ليس في ذلك الكثير من الفائدة بالنسبة اليك ، في هذه الكلمات ، على اية حال : كيف حالك !» .

ويدلف داخلاً – إنه رجل صغير . ولقد أصبح الجميع فجأة اصغر منه . ان لحيته الفلاحية ، ويديه الخشنتين لكن الرائعتان ، وثيابه البسيطة ، وكل هذا المظهر الخارجي

الديموقراطي المريح لديه قد خدع كثيرين من الناس . وما أكثر ما اراقب بعض الروس الذين إعتادوا على تقييم الناس «حسب ملابسهم» – وهي عادة قديمة من عادات العبيد ! – وهم يتشدقون في «صراحة» قد يمكن أن يطلق عليه بصورة أكثر تحديداً صفة «الألفة» .

– آه ، يا صاحبي العزيز ! إذن ، هذا انت ! أخيراً يتاح لي أن أملّي طرفي من الابن الأكثر عظمة لأرض أجدادي ! تحياتي ! تحياتي ، وتقبل إحترامي !

هذه هي الطريقة الموسكوفية – الروسية ، بسيطة ودودة ، لكن ثمة وسيلة روسية أخرى – وسيلة «التفكير الحر» : – يا ليف نيكولاييفيتش ! أخالفك الرأي في وجهات نظرك الدينية والفلسفية ، ولكنني أحترم أعمق الاحترام في شخصكم فناناً عظيماً . . .

وفجأة ، من تحت اللحية الفلاحية ، والرداء الديموقراطي الأجعد ، ينبثق السيد الروسي العجوز ، الارستقراطي الجليل – أما الصرحاء ، المثقفون ، سواهم ، فيزرقُ لونهم في الحال من القشعريرة اللافحة . كان مما يبعث على الغبطة أن نرى هذا الفرد النقي الدم ، أن تلحظ نبالة حركاته ومهابتها ، والتحفظ الفخور في حديثه ، وأن ترهف السمع إلى الدقة المتناهية لكلماته المدمرة . كان فيه ما يكفى من السيد المهيب للتعامل مع الاقنان . وحين دعوا الى الوجود السيد العظيم في تولستوي ظهر امامهم في رشاقة طليقة فسحقهم بحيث لم يبق أمامهم سوى الانكماش وإطلاق الصوصأة الحادة .

سافرت مرة في رفقة واحد من هؤلاء الروس «الصرحاء» ،

وهو من أبناء موسكو - من ياسنايا بوليانا إلى موسكو . واحتاج إلى زمن طويل كيما يستعيد توازنه ، وبقي يكرّر مذهولا ، وقد ارتسمت على سيماه بسمة تدعو إلى الرثاء :

- يا إلهي ، يا للعقاب ! كم هو متشدد ، وشرفي !

وقال من بعد في أسف واضح :

- كيف ، لقد حسبت أنه فوضوي حقاً ! الجميع يثابروني على تسميته فوضوياً ، وقد صدقتهم . . .

كان ثرياً ، صناعياً كبيراً ، وكانت له بطن كبيرة ووجه منتفخ بلون اللحم - ففيم رغب أن يكون تولستوي فوضوياً ؟ هذا ما يبقى واحداً من «الاسرار العميقة» للنفس الروسية .

حينما كان ل . ن . يرغب في بعث الأعجاب فقد كان يفعل ذلك أيسر مما تفعله امرأة ذكية فتانة الجمال . إنه يجلس وسط حلقة متنافرة - الامير الكبير نيكولاي ميخائيلوفيتش ، الدهّان إيليا ، واشتراكي - ديموقراطي من يالتا ، والمتعصب باتسوك ، أحد الموسيقيين ، ووكيل مزرعة الكونتس كلينميخل الألماني ، والشاعر بولغاكوف - وجميعهم شاخصون إليه بعيون مفتونة . إنه يشرح لهم فلسفة لاوتسي ، فيبدو لي اشبه بأوركسترا رائعة مؤلفة من عازف وحيد ، قادر على العزف على عدة آلات موسيقية في وقت واحد - البوق ، والطبل ، والأكورديون ، والمزمار . ورحت بدوري أشخص إليه . وأنا الآونة أتوق إلى أن أشخص إليه من جديد - ولن أراه أبدا .

كان مراسلون صحفيون هنا ، وقالوا إن برقية جرى

استلامها في روما «تدحض إشاعة موت ليف تولستوي» . أثاروا ضجة وصخباً عظيمين ، تحدثوا كثيراً معبرين عن مواساتهم لروسيا . ولم تترك الصحف الروسية مجالاً للإرتياب .

كان يستحيل أن تكذب عليه – حتى من باب الرثاء . قد يكون مريضاً بصورة خطيرة من دون اثارة للشفقة . ومن الحماقة أن يرثي المرء لأشخاص من أمثاله . ينبغي السهر عليهم ومحبتهم ، أما غبار الكلمات المبتذلة شائعة الاستعمال فلا يجوز أن توجه اليهم .

استفسر :

– أنا لا أعجبك ، أليس كذلك ؟

وكان ينبغي أن يجيء الجواب :

كلا ، أنت لا تعجبني .

– أنت لا تحبني ، أليس كذلك ؟

– كلا ، لا أحبك اليوم .

كانت أسئلته فظة ، وكان متحفظاً في اجوبته مثلما يليق بأحد الحكماء .

كان يتحدث عن الماضي بصورة تأسر الألباب ، وأفضل ما يتحدث عن تورجينيف . وكان يذكر «فت» على الدوام وهو يقهقه بطيبة قلب ، ويتذكر على الدوام شيئاً مسلياً عنه . أما نيكراسوف فيتحدث عنه ببرود ، وتشكك ، ولكنه يتحدث عن الكتاب عامة كما لو كانوا أولاده ، وكان هو أباً يعرف جميع عيوبهم ، – ويا للدهشة ! – يبرز الرداءة لديهم اكثر ما

يبرز من جودة فيهم . وحيثما كان يتحدث بازدراء عن احدهم فأنا أشعر دائماً وكأنه يمنُّ بالصدقات على المستمعين اليه . وكان الاصغاء الى انتقاداته يبعث على الارتباك ، فيخفض المرء عينيه مرغماً من جراء ابتسامته الماكرة – ولا يتبقى في ذاكرة المرء شيء على الاطلاق .

الحّ مرة بصورة ملتهبة على أن ج . إ . أوسبينسكي كتب باللهجة المحلية لتولا ولم يكن موهوباً على الاطلاق . ومع هذا خاطب أ . ب . تشيخوف في حضوري قائلاً :

– هذا كاتب حقاً ! يذكر المرء عن طريق جبروت صدقه بدستويفسكي ، ولكن دستويفسكي كان مولعاً بالكيد والتباهي – أما اوسبينسكي فهو أكثر بساطة وصدقاً . اذا كان بالله مؤمناً فلا ريبة انه سيكون متشيعاً .

– ولكنك قلت انه كاتب من تولا ، انه غير موهوب .

اختفت عيناه تحت حاجبيه الكثيفين ، وقال :

– انه يكتب بصورة رديئة . أتسمون ذلك لغة ؟ فيها علامات ترقيم أكثر مما فيها من كلمات . الموهبة هي الحب . المحبُّ هو الموهوب . انظروا فحسب الى العشاق – فهم موهوبون جميعاً !

كان يتحدث عن دستويفسكي رغماً عنه ، بجهد ، وغموض ، وكأنه يحاول أن يتغلب على شيء ما .

– كان ينبغي له أن يدرس عقائد كونفوشيوس أو البوذيين ، ولو فعل ذلك لاستكانت روحه . ذلك هو الشيء العظيم الذي ينبغي لكل فرد أن يعرفه . لقد كان رجلاً يفيضُ شهوة عارمة – حين يغضب تظهر أورام على صلعته ، وتختلج

أذناه . كان يحسُّ كثيراً ، ولكنه لا يعرف كيف يفكر ، فقد تعلم التفكير من أتباع فورييه ومن بوتاشيفيتش وأمثالهم . ومن ثم عمر قلبه بالكراهية لهم طوال عمره . كان ثمة شيء يهودي في دمه . وكان عديم الثقة ، مغروراً ، ثقيل الطبع وتعيساً . ومن الغريب أن يقرأه كثيرون من الناس — فأنا لا أفهم لماذا يفعلون ذلك ! فهذا صعب وتافه — جميع اولئك البلهاء ، والمراهقين وأشباه راسكولنيكوف * والآخرين لم يكونوا على شيء من هذا القبيل ، فقد كان كل شيء أكثر بساطة وأكثر قابلية للفهم حقاً . لماذا لا يقرأ الناس ليسكوف في هذه الأيام ؟ انه كاتب حقيقي — هل قرأته ؟

— أوه ، أجل . أنا احبه ، وخاصة لغته .

— انه يعرف اللغة بصورة مدهشة ، وفي مقدوره أن يفعل بها ما يريد . من الغريب ان تحبه ، فهناك شيء غير روسي فيك ، وأفكارك ليست أفكاراً روسية— انت لن تبالي بكلامي هذا ، فهو لا يجرحك ؟ انا رجل عجوز ، ولعلي لم اعد قادراً على استيعاب الأدب الحديث ، ولكنه يتراءى لي دائماً انه شيء غير روسي نوعاً ما . الناس يكتبون نوعاً غريباً من الشعر — ولا اعرف فيم كُتِبَ هذا الشعر ، ولمن يُكتب . ينبغي أن نتعلم كيف نكتب الشعر من بوشكين ، وتيوتشيف ، وشينشين . أنت الآن . . . (واستدار الى تشيخوف) أنت روسي ! أجل ، أنت روسي جداً ، جداً .

* «الابله» و«المراهق» روايتان لدستويفسكي . وراسكولنيكوف بطل روايته «الجريمة والعقاب» . **المترجم** .

ولفّ ذراعه حول كتفي تشيخوف وعلى محياه بسمة وداد ، الأمر الذي أثار بشدة ارتباك تشيخوف الذي جعل يتحدث عن بيته والتتارين في صوت مخفوض .

كان يحب تشيخوف ، وحينما يرنو اليه تبدو نظرته ، الحنون في تلك اللحظة ، وكأنها تمسح على وجه تشيخوف . وذات يوم كان أ . ب . (تشيخوف . **المترجم**) يسير على طول أحد الممرات في حديقة مع الكسندرا لفوفنا * ، اما تولستوي ، وكان في ذلك الوقت لا يبرح مريضاً ، فقد جلس في كرسي على المستشرف ، وبدا وكأنه منجذباً نحوهما بكينونته كلها .

قال في صوت مهموس :

– يا للرجل الساحر اللطيف ! محتشم ، هادئ ، أشبه بالفتاة ميعة الصبا ! بل هو يمشي مثل فتاة . انه رائع بكل بساطة !

ذات عشية ، في الغسق ، راح يقرأ علينا أنبس الوجه مقطب الحاجبين مقطعاً من مشهد من «الأب سيرغي» تذهب المرأة فيه الى الناسك لاغوائه . قرأه بأكمله ، ورفع رأسه ، واغمض عينيه ، وقال في صوت جلي :

– لقد كتبه الرجل العجوز بصورة جيدة – جيدة جداً !

قيل ذلك بمنتهى البساطة ، وكان الاعجاب بروعة كتابته صادقاً الصدق كله بحيث لن انسى أبداً النشوة التي أحسست بها وقتذاك – نشوة أعجز عن وضعها في كلمات ،

---

* ابنة تولستوي . **المترجم** .

وقد كلفتني مجهوداً كبيراً لاخفائها . وبدا أن قلبي كفّ عن الخفقان ، كما بدا أن كل شيء سينشط في اللحظة التالية ، وينتعش ، ويتجدّد .

وكان ينبغي على المرء ان يراه وهو يتحدث ، ليفهم الجمال الخاص الذي تميز به حديثه والذي لا يمكن التعبير عنه وبدا كأنه غير منسجم وملئ بتكرارات متوالية لكلمات محددة ، ومشرب ببساطة فلاحية . ان قوة كلماته لا تكمن في ترنيماته وحيوية ملامحه وحدها ، بل في حركات عينيه ووميضهما ، العينين الأكثر فصاحة اللتين وقع بصري عليهما . ان ل . ن . يملك ألف عين في عينيه .

كان سولر وتشيخوف وسيرجي لفوفيتش وشخص آخر جالسين في المنتزه يتحدثون عن النساء . أصغى اليهم في سكون فترة طويلة ، تم قال فجأة :

– سوف اروي الحقيقة عن النساء حينما أضع احدى قدميّ في القبر . وعندها اقفز الى نعشي واختبئ تحت الغطاء – وحاولوا الامساك بي عندها !

ومضت عيناه في شيء من المشاكسة وبصورة تبعث على الهلع بحيث لم يجرؤ أحد على الكلام طوال لحظات .

في رأيي أنه كان يجمع في نفسه جرأة وتهوّر فاسيلي بوسلايف ، وشيئاً من الروح الحرون للأب أفاكوم ، وفوق هذا كله ، أو الى جانبه ، تختبىء شكيّة تشآدايف . كان عنصر افاكوم يعظ ويبشر ، معذباً روح الفنان ، مشاكس نوفجورود فيه يجعله يدين دانتي وشيكسبير ، بينا عنصر

تشآدايف يقهقـــه من هذه التسليات - والعذابـــات - المسيطرة على الروح .

ان الروسي التقليدي فيه هو الذي يحمله على شجـب العلم ومبدأ الدولة - الروسى المسوق الى الفوضوية السلبية بفعل عبث المحاولات التي لا حصر لها الهادفة الى بناء الحيـاة على أسس أكثر انسانية .

اليكم شيئاً على درجة من الدهشـــة ! بجبروت حدس غريب اكتشف أولاف غولبرانسون ، الرسام الكاريكاتوري في «سيمبليسيسيموس» ، ملامـــح بوسلايف في تولستوي . أنظروا في الرسم بانتباه ولسوف ترون مقدار الشبه بليف تولستوي الحقيقي ، وأي ذهن جسور يتطلع اليكم من ذلـك الوجه بعينيه العميقتين ، ذهن ذلك الذي ليس ثمة ما هـو مقدس بالنسبة اليه ، والذي لا يملك معتقدات خرافية أو أيمانات تافهة .

هذا هو يقف أمامي ، ذلك الساحر العجوز ، غريباً عـن كل انسان ، مسافراً لوحده عبر هاتيك الصحارى من الفكـر التي بحث فيها عبثاً عن الحقيقة الشاملة الجامعة . حدّقـت اليه ، وعلى الرغم من جسامة ألم الخسارة ، فان الاعتزاز برؤية هذا الانسان يلطف من حدة ألمي وأحزاني .

كان غريباً أن ترى ل . ن . بين «التولستويين» ؛ فهـو يقف في وسطهم مثل برج جرس مهيب ، وجرسه يرسل رنينه بدون انقطاع على العالم بأسره ، فيما كل من هم حواليـه كلاب صغيرة محترسة وهي تهر على ألحان الجرس ، وتراقب بعضها بعضاً في ريبة وشك ، فكأنها تود أن ترى من منهـا

يعوي بصورة أفضل من الآخرين . وكنت أشعر على الدوام أن هؤلاء الناس يملؤون البيت في ياسنايا بوليانا وعزبة الكونتس بانينا بروح الرياء ، والجبن ، والمساومة ، وانتظار الميراث . ثمة شيء مشترك بين «التولستويين» وأولئك الحجاج الذين يجوبون اطراف روسيا النائية ، وهم يحملون عظام الكلاب التي يزعمون أنها عظام القديسين ، ويتاجرون «بالظلمة المصرية» ، و«عبرات» أم الإله . وتؤاتيني ذكرى واحد من أولئك الحواريين يرفض بيضة في ياسنايا بوليانا من باب شفقته على الدجاجة ، ولكنه ينكب على التهام اللحم في تلذذ في استراحة المحطة في تولا ، وهو يقول :

– ان العجوز يبالغ !

كانوا جميعاً على وجه التقريب يستسلمون للتأوهات ويحبون التقبيل ، ولكل منهم يدان رخيتان تنضحان عرقاً ، وعينان مخادعتان . وكانوا في الوقت ذاته أناساً عمليين يتدبرون قضاياهم الدنيوية بمنتهى البراعة .

كان ل . ن . ، من دون ريب ، يقدّر «التولستويين» بقيمتهم الحقيقية ، وهكذا كان يفعل سولرجيتسكي الذي احبه في حنان ، وكان يتحدث عنه على الدوام في حماسة واعجاب فتيين . وذات يوم روى أحدهم بفصاحة في ياسنايا بوليانا كيف أصبحت حياته سهلة جداً ، وكيف امتلأت روحه صفاء ، منذ اعتناقه مبادئ تولستوي . فمال ل . ن عليّ ، وهمس في عذوبة : – انه يكذب ، هذا الوغد . ولكنه يفعل ذلك لاهراق الغبطة في نفسي . . .

كان هنالك كثيرون ممن يحاولون اهراق الغبطة في

نفسه ، ولكنني لم اجتمع بمن أصاب في ذلك نجاحاً . ما أندر ما كان يحدثني عن موضوعاته المألوفة – الغفران العام ، وحب الجار ، والعهد الجديد ، والبوذية – فمن المؤكد انه اكتشف منذ البداية ان هذه الأمور جميعاً «لا تجد صدىً لدى أمثالي» . وما أعمق ما قدّرت له ذلك .

انه لقادر على أن يغدو الأكثر لباقة وتعاطفاً ورقة حينما يطيب له ذلك ، وعندها يصير حديثه بسيطاً وحلواً بصورة فاتنة ، وأحياناً كان من المتعذر والكريه الإصغاء اليه . أبداً لم تطب نفسي للأسلوب الذي يتحدث به عن النساء – في هذا الميدان كان يتحدث مثل «رجل عامي» ، فيرنّ في كلماته شيء غير طبيعي ، شيء بعيد عن الصدق ، ومع هذا ، وفي الوقت ذاته ، شيء شخصي الى أبعد الحدود . ليبدونّ أن احداهنّ آذته مرة ، فما استطاع أن ينسى أو يغتفر تلك الأذية . عشية أول لقاء لي معه صحبني الى مكتبه – وكان ذلك في خاموفنيكي – وأجلسني قبالته ، وشرع يتحدث عن قصتيّ «فارينكا أوليسوفا» و«ستة وعشرون رجلاً وفتاة» . كانت نبرة حديثه تحطمني ووجدت نفسي مرتبكا ، فقد حال في فظاظة وخشونة أن يقنعني أن الخجل ليس شيئاً طبيعياً لدى فتاة معافاة .

– اذا جاوزت الفتاة الخامسة عشرة من عمرها ، وكانت معافاة ، فهي تريد رجلاً يقبلها ويدللها . ان ذهنها يرتدّ عن الأشياء التي لا يعرفها ولا يفهمها ، وهذا ما يطلق عليه الناس اسم الطهارة والخجل . ولكن جسدها يعرف حق المعرفة أن الشيء الذي لا يسبر غوره هو الشيء المحتوم ، هو الشيء

الشرعي ، وهو يطالب بتطبيق هذه الشرعة على الرغم من ذهنها . وقد وصفت فارينكا أوليسوفا كفتاة معافاة ، ولكن أحاسيسها أحاسيس مخلوق مصاب بفقر الدم - وهذا خطأ كله !

وانهمر يتحدث عن الفتاة في «ستة وعشرون رجلاً وفتاة» ، مطلقاً كلمة «فاحشة» بعد كلمة «فاحشة» في بساطة وجدتها وحشية حتى أثارت نقمتي . وتحققت بعد ذلك أنه لا يستخدم سوى هذه الكلمات «الممنوعة» لأنه يجدها الأكثر دقة وأحكاماً ، ولكن أسلوبه في الحديث ذلك الحين كان منفراً بالنسبة الي . لم أعارضه - وسرعان ما غدا فجأة لطيفاً مراعياً لشعوري ، فاستفسرني عن حياتي ، ودراساتي ، وقراءاتي .

- أصحيح ما يقولون عنك أنك قرأت كثيراً ؟ وهل كورولنكو موسيقي ؟

- لا أظن ذلك . لست أدري .

- لست تدرى ؟ هل تحب قصصه ؟

- كثيراً .

- ذلك بسبب من التباين . انه شاعر ، أما أنت فما فيك شيء من الشاعرية . هل قرأت ويلتمان ؟

- أجل .

- انه كاتب فذ ، أليس كذلك ؟ بارع ، دقيق ، لا يعرف المغالاة : وأحيانا هو أفضل من غوغول . وقد عرف بلزاك . غوغول قلّد مارلينسكي كما تعلم .

وحين أعلنت أن غوغول قد يكون متأثراً بهوفمان

وستيرن ، وربما بديكنز ، أراش اليّ نظرة ، وقال :

– أين قرأت هذا ؟ لم تقرأه ؟ هذا ليس صحيحاً . لا أعتقد أن غوغول قرأ ديكنز . ولكنك بالفعل قرأتَ كثيراً – فحذار – ذلك أمر خطير ! فقد دمر كولتسوف نفسه بهذه الطريقة .

حين ودعني أحاطني بذراعيه ، وقبلني ، قائلاً :

– أنت فلاح حقيقي ! ولسوف تعاني وقتاً عصيباً بين الكتاب ، لكن اياك أن تأذن لشيء أن يدبّ الذعر في فؤادك ، واكتب دائماً ما تحس به ، ولا تبالِ ان كان أحياناً على شيء من فظاظة ! الناس الاذكياء سيفهمون .

أثار فيّ ذلك اللقاء الاول تأثيراً مزدوجاً – كنت سعيداً وفخوراً على حد سواء بلقاء تولستوي ، ولكن حديثه كان أشبه باستجواب دقيق ، وشعرت كما لو أنني لم أقابل مؤلف «القوزاق» ، و«خولستومر» ، و«الحرب والسلم» ، بل قابلت سيداً تعطّف عليّ واعتبر انّ من الضروري التحدث اليّ في شيء من أسلوب «شعبي» ، مستخدماً لغة الأزقة ، الأمر الذي قلب فكرتي عنه – وهي فكرة اعتدت عليها ، وكانت عزيزة عليّ .

في المرة الثانية لقيته في ياسنايا بوليانا . كان يوماً خريفياً ، قاتماً ، والسماء تصب رذاذاً لطيفاً ، فارتدى معطفاً سميكاً ثقيلاً وجزمة عالية من الجلد – جزمة صالحة للمشي أثناء المطر – ، وصحبني في نزهة في غابة من أشجار البتولا . كان يثب فوق الأخاديد والبرك في نشاط يليق بالشباب ، نافضاً قطرات المطر عن الاغصان فوق رأسه ، سارداً عليّ

طوال الوقـــت حديثاً ماتعاً عــن كيـــف قام شينشين بشرح شوبنهاور له في هذه الغابة . وراح يمسّد جذوع أشجـار البتولا الحريرية الندية في محبة .

– قرأت شيئاً من الشعر منذ فترة :

لم يعد ثمة شيء من الفطر ، ولكن جميع الوديان تعبق بشذى الفطر النديّ . . .

وهذا رائع ، والملاحظة فى موضعها تماماً !

فجأة وثب أرنب تحت أقدامنا . قفز ل . ن . وقــــد اضطرب بجنون . وتوردت وجنتاه حمرة ، وأطلق صيحـــة عالية : «هيا !» نمّت عن أنه من الصيادين القدامى ثم نظــر اليّ بابتسامة تفوق الوصف وأرسل ضحكة حكيمـــة تفيض إيناساً . كان رائعاً الى درجة تثير الأعجاب في تلك البرهة !

وفي مرة أخرى ، في المنتزه ، رفع بصره ناحية صقـــر يحلّق فوق حظيرة المواشي ، ويحوّم حواليها ، ومن بعـــد يوازن نفسه في الفضاء دون حراك ، وجناحاه يرفرفان في وهن فكأنما يتردد بين ما اذا كان ينبغي أن ينقض الآونـــة ، أو ينتظر لحظات . اشرأبّ ل . ن . ، مغطياً عينيه براحة يده ، هامساً في عصبية :

– ذلك الوغد يسعى وراء دجاجاتنا ! أنظر ، أنظــر – الآن – أوه ، أنه خائف ! لربما كان السائق هنالك – ينبغي أن نستدعي السائق . . .

وقد فعل ذلك . حين رفع صوته منادياً ارتعب الصقــر وارتفع عالياً ثم طار هارباً .

زفر ل . ن . وقال في شيء واضح من تبكيت النفس .
– ما كان ينبغي أن أصيح – كان لا بدّ أن يهرب . . .
ذات مرة ، وكنت أحدثه عن تيفليس ، ذكرتُ ف . ف . فليروفسكي – بيرفي .
سأل ل . ن . في توق :
– هل عرفته ؟ أخبرني عنه شيئاً .
رحت أخبره أن فليروفسكي كان طويل البنية ، طويل اللحية ، نحيل العود ، كبير العينين ، يلبس ثوباً طويلاً من القماش القطني ، وثمة كيس صغير من الأرز المغلي بالخمرة الحمراء يتدلى من حزامه ، وتجوّل حاملاً مظلة كبيرة من قماش القنب ؛ وأنه طاف برفقتي الممرات الجبلية لما وراء القفقاس حيث حدث مرة ، في ممر ضيق ، أن واجهنا ثور . هربنا منه بتهديدنا ذلك الحيوان الهائج بالمظلة المفتوحة ، ونحن عرضة في كل حين للسقوط في الهاوية . ولمحت ، فجأة ، عبرات في عيني ل . ن . اربكني هذا فجنحت الى الصمت .
– لا تبال ، أكمل ، أكمل ! هذا بسبب من اغتباطي لسماع أخبار رجل طيب ! لا بدّ أنه كان رجلاً يبعث على الاهتمام ! على هذه الشاكلة تخيلته – ليس مثل سواه من الناس ! أنه الأكثر نضوجاً ، والأكثر حكمة من جميع الكتاب الراديكاليين ، وهو يظهر بمقدرة بارعة في كتابه «الأبجدية» أن كامل حضارتنا لا تعدو أن تكون بربرية ، في حين أن الثقافة هي قضية العشائر المسالمة ، قضية الضعيف وليس قضية القوي ، والصراع في سبيل الوجود انما هو أكذوبة تم اختراعها لتبرير الشرّ . أنت لا توافق على ذلك ، من دون

ريب . ولكن دوديه يوافق . تذكر بطله بول أستييه .

– كيف يوفق المرء بين نظريـــة فليروفسكـي ودور النورمانديين في تاريخ أوربا على سبيل المثال ؟

– أوه ، النورمانديون ! هذا أمر مختلف !

حين لم يكن يتوفر لديه جواب فوري ، فهو يقول : «هذا أمر مختلف» .

لطالما شعرت دائماً ، ولا أحسبني مخطئاً ، أن ل . ن . لم يكن يحب الحديث عن الأدب ، ولكنه يصرف اهتمامه تماماً الى شخصية الكاتب . وما أكثر ما سمعت منه هذه الأسئلة : «هل تعرفه ؟ ما هو شكله ؟ أين وُلِدَ ؟» . وكانت مناقشاته على الدوام تقريباً تكشف عن شخصية الفرد من وجهة نظر خاصة جداً .

قال عن ف . ج . كورولنكو في نبرة متأملة :

– انه أوكراني ، ولهذا يجب ان يكون قادراً على رؤية حياتنا بصورة أفضل وأوضح مما نراها نحن أنفسنا .

وقال عن تشيخوف الذي يمحضه الوداد والحب كثيراً :

– لقد أفسدته حرفته . لو لم يكن طبيباً فقـد كان يكتب بصورة أفضل .

وقال عن واحد من كتابنا الناشئين :

– انه يمثل دور الرجل الانكليزي ، وسكان موسكو لا يجيدون ذلك .

وقد اخبرني أكثر من مرة :

– أنت رومانسيّ . وجميع أمثال كوفالدا والآخريـــن مجرد اختلاقات .

فنوّهت أن كوفالدا مقتبس من الحياة .

– أخبرنى أين التقيته .

كان يغتبط كثيراً من المشهد في مكتب كولونتايف ، قاضي صلح قازان ، حيث التقيت أول مرة رجلاً وصفته تحت اسم كوفالدا .

قال ، وهو يضحك ويمسح عبرات عينيه :

– دم أزرق ! دم أزرق – هذا هو الأمر ! لكن ، ياله من فتى جذاب يسلّي ! أنت تروي القصص أفضل مما تكتب . اجل ، أنت رومانسي ، – مختلق ، ويحسن أن تعترف بذلك !

قلت إن من المحتمل أن يختلق الكتاب الأمور إلى درجة محددة ، فيظهرون الناس على الصورة التى يحبون أن يروهم عليها في الحياة الواقعية . وقلت أيضاً إنني أحببت الناس النشيطين ، الناس الذين يطمحون إلى مقاومة الشر فى الحياة بكل ما فيهم من قوىً ، ولو أدى ذلك بهم إلى العنف .

صاح ، وقد تأبط ذراعي :

– ولكن العنف ذاته هو الشر الرئيسي ! فكيف وجدت مخرجاً من ذلك التناقض ، أيها المؤلف ؟ إن «رفيقي في الطريق» مثلاً – هذه ليست اختلاقاً ، إنها قصة جيدة . لأنها ليست مختلقة . حين تروح تختلق فتطلع جميع أشخاصك فرساناً ، وأمثال أماديس أو سيجفريد . . .

فأشرتُ إلى أننا طالما استمررنا في الحياة وقد أحاط بنا كلية «رفقاء في الطريق» يشبهون الإنسان ولا غنى عنهم فان كل ما بنينا يكون مبنياً على الرمل ، وفي بيئة عدائية .

قهقه ضاحكاً ، ولكزني بمرفقه في لطف .

– قد تستخلص من هذا نتائج بالغة الخطورة جداً . أنت لست اشتراكياً حقيقياً . أنت رومانسي ، والرومانسيون ينبغي أن يكونوا مناصرين للملكية ، على ما كانوا عليه دائماً .

– وماذا عن فيكتور هيغو ؟

– فيكتور هيغو مختلف . أنا لا أحبه . فهو كاتب ضاجّ .

في أكثر الأحيان يسألني عما أقرأ ، ويعنفني على الدوام بشأن ما يعتبره اختياري الخاطىء للكتب .

– إن جيبون أردأ من كوستوماروف ، ويجب أن تقرأ مومسين – فهو ثقيل الظل ، ولكنه حصيف .

وحينما اكتشف أن أول كتاب قرأتُ هو «الأخوة زيمغانو» ازداد سخطاً .

– ما هذا . . . إنها رواية سخيفة ! وهي التي أفسدتك . هنالك ثلاثة من الكتاب الفرنسيين – ستندال ، وبلزاك ، وفلوبير – ويمكن أن تضيف موباسان ، ولكن تشيخوف افضل منه . كان الأخوان غونكور مجرد مهرجين يدعيان انهما جادان . وقد درسا الحياة في كتب كتبها مختلقون من أمثالهما ، فحملاها على محمل الجدّ ، ولكن ليس هنالك من هو في حاجة إلى كتاباتهما .

لم أوافقه الرأي ، فأثاره ذلك . لم يكن يطيق المعارضة ، وكانت آراؤه في بعض الأحيان متقلبة بصورة غريبة .

قال :

– ليس هنالك شيء يدعى الانحلال . ذلك مجرد اختلاق

من قبل لومبروزو الإيطالى ، كما أن نورداو اليهودي يردّد صداه مثل الببغاء . إيطاليـــا بلد المشعوذين والمغامرين – أناس من أمثال أريتينو وكازانوفا وكاليوسترو وحدهم ولدوا هناك .

– وما رأيك في غاريبالدي ؟

– هذه سياسة ، وهذا أمر مختلف !

وحين أُعطي واقعة بعد أخرى من تاريخ أسر التجار في روسيا أجاب قائلاً :

– هذا ليس صحيحاً ، وقد استخلص كله من الكتب الحاذقة . . .

رويت له قصة ثلاثة أجيال في أسرة من أسر التجار كنت أعرفها – قصة لعب فيها الانحلال دوراً قاسياً بصورة متميزة . أمسك بكمى وجعل يشده في هياجه وأعلن موضحاً :

– هذا صحيح ! هذا أعرفه . . . هنالك في تولا مثل هاتين الأسرتين . هذا ما ينبغى لك أن تكتب عنه . رواية كبيرة باختصار – هل تفهم ما أعنى ؟ لا بد أن تكتب ذلك !

وومضت عيناه في حيوية .

– لكن سوف يتحولون جميعـــاً الى فرسان ، يا ليف نيكولايفيتش !

– لا شيء من هذا القبيل ! هذا شيء جدّي جداً . وذلك الذي صار راهباً كيما يصلي عن الأسرة بكاملها – هذا رائع ! هذه حياة حقيقية . أنت ترتكب الخطيئة ، وأنا أذهب وأكفّر عن خطاياك . والآخر – الباني الجشع اصابه الضجر – هذا حقيقي أيضاً ! وأن يسكر ويصير حيواناً وفاسقـــاً ، ويحبّ

الجميع ، وفجأة يرتكب جريمة – ما أحسن هذا ! هذا ما ينبغي أن تكتب عنــه بدلاً من التنقيب عن بطــل بين اللصوص والمشردين ! الأبطال أكاذيب ، واختلاقات ، وليس هنالك غير الكائنات البشرية ، الناس – هذا كل شيء !

كان يشير غالبا الى مبالغات تسللت إلى قصصي . ولكنه حدث مرة ، وكنا نتحدث عن القســم الثاني من «الأرواح الميتة» ، أن انبرى قائلاً وهو يتبسم طلق المحيا :

– جميعنا مختلقون في الاختلاق . وأنا نفسي أيضاً أحياناً أكتب شيئاً ، وأشعر على غير انتظــار بالأسف على إحدى شخصياتي فأروح أخلع عليه صفات أفضل ، آخذ هذه الصفات من شخصية أخرى بحيث لا تبدو الشخصية الثالثة كثيرة السواد إذا قورنت بها .

وأعلن على الفور ، في نبرة صارمة لقاض متصلب :

– ولهذا السبب أقول إن الاختلاق عبارة عن أكاذيب ، وخداع ، وهراء اعتباطي ، ضارّ بالناس . أنت لا تكتب عن الحياة الحقيقية على ما هي عليه ، بل عن افكارك الخاصة عن الحياة ، عما تفكّر أنت نفسك عن الحياة . ماذا يفيــد أي إنسان أن يعرف رأيي عن هذا البرج ، أو البحر ، أو ذلك التتاري ؟ من يبغي معرفة ذلك ، وما هي الفائدة منه ؟

كانت أفكاره وأحاسيسه تبدو لي أحياناً مجرد نزوات ، بل نزوات شوهت عن قصد ، لكنه في أغلب الأحيان يصعق المستمعين إليه ويخضعهم بالصراحة المتزمتة لأفكاره ، مثــل أيوب ، المستنطق الذى لا يهاب للإلـه القاسي .

قال مرة :

– كنت أسير على طول درب كييف الرئيسية في أخريات شهر أيار . كانت الأرض جنة ، وكل شيء يفيض بالفرح ، والسماء عارية من الغيوم ، والطيور تتغنى ، والنحل يطنّ ، والشمس رؤوماً ، وكل ما يحيط بي بهيجاً ، إنسانياً ، باهر الجمال . تأثرت فبكيت ، وأحسست كما لو كنت أنا نفسي نحلة تحوم فوق الازهار الأكثر بهاء في العالم ، وكما لو أن الله قريب من روحي . وماذا تراني رأيت فجأة ؟ عند حافة الدرب ، تحت بعض الأدغال ، يضطجع حاجّان ، رجل وامرأة ، فوق بعضهما بعضاً ، قذران ، رثان ، عجوزان ، يتلويان مثل حشرتين ، يغمغمان ويئنان ، والشمس تضيىء من دون رحمة أقدامهما العارية التي غاض اللون منها وجسديهما العاجزين . أحسست غصة في قلبي . آه ، الله ، يا خالق الجمال – أفلا تخجل من نفسك ؟ وشعرت بمرارة . . .

– وهكذا أنت ترى أي نوع من الأمور تحدث ! الطبيعة – والبوغوميليون * يعتبرونها خالقة الشيطان – تعذب الإنسان بقسوة وسخرية ، وتستنفد قوته ، ولكنها تترك له شهواته . هذا صحيح بالنسبة إلى جميع من يملكون أرواحاً حية . وحده الإنسان أُعطي أن يشعر بالخجل والخوف من هذا العذاب – وذلك في اللحم الذي وُهِبَ له . ونحن نحتمل ذلك في نفوسنا على أنه عقوبة محتومة ، . . . من أجل أي خطيئة ؟

خلال الحديث تبدل تعبير عينيه بأسلوب غريب متميز ،

---

* طائفة مسيحية تشكلت في بلغاريا في القرن العاشر . العالم المادي بما فيه الطبيعة حسب اعتقادهــــا ، انشاه الاله الشرير . **الناشر** .

فهما تغدوان حيناً حزينتين بصورة طفولية ، وتطلقان حيناً وميضاً قاسياً جافاً . وترتعش شفتاه ويقفُ شارباه . وحين انتهى من الحديث تناول من جيب سمقه منديلاً يمسح به وجهه بقوة ، رغم أن هذا الوجه جاف لا نداوة فيه . ثم دفع في لحيته الأصابع الخطّافية ليده الفلاحية القوية ، وكرّر في عذوبة : – أجل ، من أجل أي خطيئة ؟

كنت أسير على الدرب الاسفل من ديولبر الى أي – تودور برفقته ذات يوم . كان يخطو برشاقة مثل شاب فتيّ ، فقال مبدياً هياجاً يفوق هياجه المألوف :

– يجب أن يكون الجسد بمثابة كلب أُحسن تدريبه بالنسبة إلى الروح ، يمضي أيان الروح ترسله . وانظر الينا ! الجسد خليع لا يقرُّ له قرار ، والروح تتبعه في ضعف يثير الشفقة .

حكّ صدره في عنف ، فوق القلب مباشرة ، ورفع حاجبيه ، واسترسل وقد استغرق في الذكريات :

– في موسكو ، قريباً من برج سوخاريف ، رأيت مرة في الزقاق المظلم – وكان الوقت خريفاً – امرأة سكرى . كانت مستلقية قرب الرصيف . وكان جدول من المياه القذرة ينسرب من فناء البيت يمرّ تحت عنقها وظهرها مباشرة ، وهي مستلقية هنالك في المياه الباردة ، تهمهم ، وتتقلب ، وتتلوى في الرطوبة ، عاجزة عن النهوض .

ارتعش ، واغمض عينيه برهة ، وهزّ رأسه ، وأكمل يقول في صوت خفيض :

– فلنجلسنّ هنا . . . ليس هنالك ما هو أكثر رهبة ،

وأكثر تقززاً من امرأة سكـــرى . أردت أن أمضي إليهـــا وأساعدها على النهوض فعجزت ، نفرت منها . كانت تعـــج بالوحل والرطوبة ، فلا تستطيع بعد لمسها أن تنظف يديك طوال شهر كامل – يا للشناعة ! وعلى الحاجز الحجري القريب جلس صبـــي صغير اشهب العينين أشقر الشعر ، والعبرات تنهمر على وجنتيه ، يشهق ويعول يائساً في صوت متعب :

– ما . . . . م . . . ا . . . . قومي . . .

وكانت تحرك ذراعيها بين آونة وأخرى ، وتشخر ، وترفع رأسها ، ومرة أخرى . . . تهوي به في الوحل .

جنح إلى الصمت ، وتطلع حواليه ، وكرّر متضايقـــاً في صوت مهموس :

– يا للشناعة ، يا للشناعة ! هل شاهدت كثيراً مـــن النساء السكارى ؟ كثيراً – أوه ، يا الله ! لا تكتـــب عـــن ذلك ، لا يجب أن تفعل هذا !

– لماذا ؟

نظر في عينيّ ، وافترّ ثغره مبتسماً ، وأصدى :

– لماذا ؟

واسترسل يقول ، متروياً ، في نبرة متمهلة :

– لست أدري . لمجرّد أنني – يبدو مخجلاً أن تكتب عن البهيمية . وبعد هذا كله – لماذا ؟ على المرء أن يكتب عن كل شيء . . .

جمدت الدموع في مقلتيه . مسحها ، وهو يبتسم طوال الوقت ، ونظر إلى منديله ، فيما العبرات تنهمر على تجاعيد وجهه من جديد . قال :

– أنا أبكي . أنا رجل عجوز ، ويخفق قلبي حين أفكر في شيء مخيف .

ثم لكزني في رقة :

– أنت ، أيضاً ، لا بدّ أنك عشت حياتك ، ولسوف يبقى كل شيء على ما هو عليه ، ولسوف تبكي في مزيد من المرارة أكثر مما أنا أبكي الآن ، في مزيد من «الانهمار» مثلما تقول القرويات . . . لكنه ينبغي الكتابة عن كل شيء ، عن كل شيء ، والإ تأذى الصبي الصغير الأشقر الشعر ، وسوف يلومك – لسوف يقول : ليست هذه هي الحقيقة – ليست الحقيقة كلها . انه – متشدد ازاء الحقيقة !

وارتعش فجأة رعشة شاملة ، وقال في نبرة حنان :

– هيا ، أخبرني شيئاً ، فأنت محدث رائع . شيئاً عن نفسك وأنت طفل صغير . صعب أن يصدّق المرء أنك ، أنت نفســـك ، كنت طفلاً صغيراً مرة ، فأنت – شاب غريب . ليبدونّ أنك خُلقت كبيراً . ثمة أشياء كثيرة صبيانية فجة في أفكارك ، ومع هذا فأنت تعرف أشياء كثيرة عن الحياة – ولا حاجة بك إلى اغتراف المزيد . هيا ، أخبرني شيئاً . . .

واتخذ جلسة مريحة على جذوع عارية من شجرة صنوبر ، وجعل يراقب حركات أسراب النمل على إبر الصنوبر الشهباء .

ههنا ، في هذا المنظر الطبيعي الجنوبي الرائع ، المتباين بصورة غريبة جداً في عيني الإنسان القادم من الشمال ، وسط هذه الحياة النباتية الوثيرة ، الشهوانيـــة بصورة لا تعرف الخجل ، يجلس ليف تولستوي ، واسمـــه الشخصي بالذات

يعبرّ عن قوته الداخلية * - رجل قصير ، كثير العقد كما لو كان مصنوعاً من جذور أرضية عميقة متينة وعرة . وأعيد القول إنه كان يبدو ، وسط الطبية الرائعة المزخرفة في القرم ، وكأنه جالس في مكانه المناسب تماماً ، ولكنه في غير محله . رجل قديم قديم ، وسيد المنطقة بأسرها ، على ما هو عليه - السيد والصانع ، والذي آب بعد غيبة مائة عام إلى ديرة أنشأها بنفسه . ثمة أشياء كثيرة غابت عن ذهنه ، وأشياء كثيرة جديدة بالنسبة إليه . الأشياء هي كما ينبغي أن تكون ، ولكنها ليست كذلك تماماً ، وعليه أن يكتشف على الفور ما هو الشيء الذي ليس كما يجب أن يكون وما هي اسباب ذلك .

كان يجوب الممرات والطرقات بخطوات سريعة رشيقة لمنقب ماهر في الأرض وعيناه الثاقبتان اللتان لا يفلت من أنظارهما حجر أو فكرة تحدقان ، وتقيسان ، وتختبران ، وتقارنان . وهو يبعثر حواليه البذرة الحية لفكرته المتدفقة الحرون . قال يخاطب سولر :

- أنت لا تقرأ أبداً ، يا ليوفوشكا ، وهذا أمر سيئ ، هذا غرور . وغوركي هذا يقرأ في نهم ، وهذا خطأ أيضاً - ذلك بسبب قلة ثقة في نفسه . أنا أكتب كثيراً وهذا ليس جيداً لأنني أفعل ذلك من قبيل الغرور الشيخوخي ، وبدافع الرغبة في أن أجعل الجميع يفكرون مثلما أفكر . طبيعي أن أسلوبي في التفكير صحيح بالنسبة إليّ ، أما غوركي فيعتقد أنه خطأ

* ليف ، الأسد . **المترجم** .

بالنسبة إليه ، وأنت لا تفكّر على الاطلاق ، بل تطرف بعينيك وتتطلع حواليك بحثاً عن شيء تتشبث به . وأنت تمسك بأشياء لا علاقة لها بك على الاطلاق - لطالما فعلتَ ذلك . أنت تمسك بالشيء وتتشبث به ، وحين يروح الشيء الذي تتشبث به يساقط عنك ، فأنت تفلته . إن لدى تشيخوف قصة جد رائعة - «الحبوبة» - وانت شبيه ببطلتها .

ضحك سولر :

- كيف ذلك ؟

- أنت دائم الأهبة للوقوع في الحب ، بيد أنك لا تعرف من تختار ، وأنت تضيّع طاقتك عبثاً على التفاهات .

- أليس الجميع على هذا الغرار ؟

فأصدى ل . ن :

- الجميع ؟ كلا ، كلا - ليس الجميع .

وفجأة انقضّ عليَّ :

- لماذا لا تؤمن بالله ؟

- لا أملك الأيمان ، يا ليف نيكولاييفيتش .

- ليس هذا صحيحاً . أنت مؤمن بطبيعتك ، ولا تستطيع حياة من دون الله . وسرعان ما ستشعر بذلك . أنت لا تؤمن لأنك عنيد ، ولأنك متضايق - فالعالم لم يخلق على الشكل الذي تحبّ أن يكون . بعض الناس عديمو الايمان بدافع من الخجل . والشبان من هذا الغرار أحياناً . هم يعبدون امرأة ، ولا يحتملون اظهار ذلك ، فهم يخافون أن يساء فيهم الظنّ ، وفضلاً عن ذلك فهم لا يملكون الجرأة . الايمان ، مثل الحب ، يتطلب شجاعة ، وتهوراً . ينبغي أن تخاطب نفسك قائلاً :

«أنا أؤمن» ، ويغدو كل شيء على أفضل حال ، ويبدو كل شيء على ما تحبُ أن يكون ، وكل شيء يفسّر لك نفسه ، ويجتذبك إليه . ثمة كثير مما تحبُ ، والايمان هو بكل بساطة تكثيف الحب ، ينبغي أن تحب أكثر وأكثر ، وسوف يتحوّل الحب إلى إيمان . الرجال يحبون دائمـــاً أفضل امرأة على وجـــه الأرض ، وكل واحد يحـــب افضـــل امرأة عـــلى وجـــه الارض ، – وهذا إيمان . عديم الايمان لا يمكن أن يحـــب . فهو يحب هذه المرأة اليوم ، ويحبّ تلك بعد سنة . وروح أمثال هؤلاء الرجال متسكعة شاردة ، إنها عقيم ، وهذا ليس عدلاً . لقد ولدتَ مؤمناً ، ولا فائدة من أن تقف في وجـــه طبيعتك الخاصة . أنت تقول دائماً – الجمال . وما هو الجمال ؟ الأكثر سمواً والأكثر كمالاً هو – الله .

لم يكن قد حدثني عن مثل هذه الأمور من قبل ، وكانت أهمية الموضوع ، وفجائيتـــــه ، قد أخذتاني على حين غرة وسيطرتا عليَّ تقريباً . لم أفـــه بحرف . كان جالساً على الكنبة واضعاً رجليه تحته ، فأطلق ابتسامة منتصرة راحت تنسرق على لحيته وقال ، وهو يهزُ إصبعه في وجهي :

– لا تستطيعنَّ من هذا هروباً بلجوئك إلى الصمت ، لا تستطيع أن تفعل ذلك !

وأنا ، من لا يؤمن بالله ، اختطفت نظرة مختلسة اليه ، نظرة فيها شيء من الخوف ، لم أفهم سببـــه ، وهمست في سري :

«هذا الرجل يشبه الله !» .

فلاديمير ايليتش لينين

مات فلاديمير لينين .

أما أن العالم فقد بموته «نابغة متفوقاً ، واحداً أعظم حتى درجة كبيرة من معاصريه الكبار» ، فهذا ما كانت لدى بعض أعدائه الجرأة على الاعتراف به .

والكلمات التالية هي خلاصة مقالـــة عن لينين نشرت في الصحيفة البرجوازية الألمانية «براغر تاغبلات» ، مقالة صفتها البارزة الرهبة من هذه الشخصية العملاقة وتوفيرها : «عظيم ورهيب وواقع خلف حدود فهمنا ، حتى في موته — هذا هو لينين» .

ويتجلى أن الشعور الكامن وراء هذه المقالة ليس مجـرد الإعجاب ، ليس الإحساس الذي يجد تعبيراً ساخراً في تبيان أن «جثمان العدو يعبق دائماً بالطيب» ، كما أنـه ليس الشعور بالانفراج الذي ينجم عن رحيل روح عظيمـــة لكنْ لا تعرف للهدوء طعماً . ان ، من دون ريب ، اعتزاز الانسانية برجل لا نظير له .

لم يكن لدى صحافة الروس المهاجرين الشجاعة الأدبية أو الذوق الرفيع للتعبير ، بمناسبة وفاة لينين ، عن الاحترام الذي أظهرته الصحافة البرجوازية في تقديرها لشخصية الرجل الذي كانت حياته من أعظم الأمثلة عن العقل الذي لا يهاب والارادة التي لا تلين في الحياة .

مهمة شاقة هي مهمة رسم لوحة له . فقد كانت كلمات

لينين جزءاً لا ينفصم عن مظهره الخارجي ، مثلها مثل حراشف السمك . وكانت بساطـــة وصراحة كل ما ينطـــق به جزءاً أساسياً من طبيعته .

والأفعال البطولية التي حققها لا تحوطها هالة براقـــة . بطولته كانت البطولة التي تعرفها روسيا معرفة جيدة ، الحياة المتواضعة المتقشفـــة للتضحية بالذات لدى المثقف الثوري الروسي الحقيقي الذي يتخلى ، من جراء أيمانه الراسخ بإمكانية العدالة الاجتماعية على الأرض ، عن كل ملذات الحياة في سبيل تحقيق سعادة البشرية .

إن ما كتبتُ عنه عقب وفاتـــه مباشرة ، والحـــزن يستغرقني ، قد كتب على عجل وبصورة سريعة غير وافيـــة . كانت هنالك أشياء لم تكن اعتبارات الذوق ، التي آمل أن تُستوعب بصورة وافية ، تأذن لي أن أكتبها يومذاك ، لقد كان رجلاً ثاقب البصر واسع الحكمة ، وفى «الكثير من الحكمة كثير من الحزن» .

كان دائماً قادراً على الرؤية الى مسافات بعيدة ، وعنـــد مناقشة الناس بين عامي ١٩١٩ و١٩٢١ غالباً ما كان يقدم نبوءات صحيحة عما ستكون عليه أحوالهم في غضون السنوات القليلة المقبلة . لم تكن هذه النبوءات متملقة دائماً ، ولم يكن المرء ليرغب دائماً في تصديقهـــا ، لكن سوء الحظ أن ملحوظاته الساخرة تحققت في حالات كثيرة . ولقد ضاعف من الطابع غير الوافي لذكرياتي السابقـــة عديـــد من الثغرات والتفاهات . لقد كان من واجبي أن أبدأ بمؤتمر لندن حيث انتصبت قامة فلاديمير ايليتش ببروز شديد على خلفية من

الشك والارتياب ، من العداوة الصريحة ، بَلْهَ من الحقد .
ولا أبرح أرى أمامي ، بحيوية فائقة ، الجدران العارية لكنيسة خشبية في ضواحي لندن ، مجردة من أية زينة الى درجة السخف ، والنوافذ الرمحية لقاعة ضيقة صغيرة كان يمكن أن تكون غرفة صف في مدرسة فقيرة . كان أي شبه بين هذا البناء والكنيسة يقتصر على مظهره الخارجي . أما في الداخل فلم يكن ثمة أثر لأي شيء كنسي ، حتى ان المنبر المنخفض ، بدلاً من أن يقوم في نهاية القاعة ، قد وضع عند المدخل ، في منتصف المسافة بين بابين .
لم أكن قد التقيت لينين من قبل ، أو قرأت مقالاته بمقدار ما كان ينبغي أن أفعل . لكن ما تدبرت أمر قراءته ، وفوق كل شيء الروايات المتحمسة لأولئك الذين عرفوه شخصياً ، اجتذبتني اليه بشدة . وحين تعارفنا هزَّ يدي مصافحاً في حماسة ، وأنعم النظر فيَّ بعينيه الذكيتين ، وقال مازحاً وهو يخاطبني بنبرة صديق قديم :
– لكم أغبطني قدومك ! أعتقد أنك مغرم بالشجار ؟ ولسوف يكون ثمة شجار رائع هنا .
لم أكن أتوقع أن يكون لينين على هذا الغرار . كان شيء ينقصه . فهو يدحرج حرف الراء من حنجرته ، وله أسلوب طروب في الوقوف وقد دسَّ يديه تحت ابطيه . كان عادياً جدا الى حد ما ، ولا يوحي أنه قائد . وباعتبار أني رجل أدب فانا مرغم على الالتفات الى مثل هذه التفصيلات الصغيرة ، وغدت هذه الضرورة عادة متأصلة فيَّ ، وأحياناً عادة مزعجة .
فقد وقف ج . ف . بليخانوف ، في أول لقاء لنا ، عاقداً

ذراعيه على صدره ، ينعم النظر فيَّ وقد ارتسمت على محياه سيماء قاسية ، فيها شيء من الضجر ، هي سيماء معلم مدرسة أجهده العمل ينظر الى تلميذ اضافي جديد . ولم يبق في ذاكرتي مما قال شيئاً سوى هذه العبارة المبتذلة : «أنا معجب بكتاباتك» . ولم يشعر أي منا ، خلال الزمن الذي استغرقه المؤتمر ، بأية رغبة في تجاذب أطراف حديث ودي .

أمامي يقف الآن شخص أصلع الرأس ، قصير البنية متينها ، يتحدث مدحرجاً حرف الراء من حنجرته ، ممسكاً يدي في يده الواحدة ، ماسحاً بيده الأخرى جبهة كان يمكن أن تخصَّ سقراط ، يبتسم لي في وداد بعينيه البراقتين الغريبتين . وشرع على الفور يتحدث عن عيوب كتابى «الأم» — لا ريبة أنه قرأه في المخطوط الذي كان بحوزة إ . ب . لاديجنيكوف . قلت إني تعجلت انهاء الكتاب ، ولكنني لم أنجح في أيضاح السبب في ذلك . فأعطى لينين نفسه الجواب ، وهو يهز رأسه : أجل لقد احسنت بالاسراع في انهائه ، فمثل هذا الكتاب تدعو اليه الحاجة لأن كثيرين من العمال الذين شاركوا في الحركة الثورية فعلوا ذلك بصورة غير واعية ، بل في صورة مشوشة ، وسوف يفيدهم جداً أن يقرؤوا «الأم» .

«انه كتاب الساعة» . كان هذا هو الاطراء الوحيد الذي صرفه بحقي ، ولكنه كان أثمن إطراء بالنسبة اليَّ . واسترسل يسألني في أسلوب عملي عما اذا كان الكتاب قد تُرجم ، وما اذا كانت الرقابة الروسية والأميركية بالغت في تشويهه . وحين قلت له ان المؤلف سيقدم الى المحاكمة

عبس أول الأمر ، ثم قذف رأسه الى الخلف ، وأغمض عينيه وانفجر في ضحكة غير مألوفة . واجتذبت هذه الضحكة العمال ، وجاء فوما أورالسكي أولاً فيما أعتقد ، وأعقبه ثلاثة أشخاص آخرين .

كان مزاجي مرحاً . فأنا في وسط ثلاثمائة من رجال الحزب المختارين الذين ، كما علمت ، ارسلوا الى المؤتمر من قبل مائة وخمسين ألفاً من العمال المنظمين . اني اشاهد جميع قادة الحزب ، وجميع الثوريين القدامى - بليخانوف ، وأكسلرود ، ودويتش . كان مزاجي المرح طبيعياً جداً وسوف يفهمه القارئ حين أضيف ان معنوياتي تدهورت بشدة خلال السنتين اللتين أمضيتهما بعيداً عن وطني الأم .

لقد بدأ اكتئابي في برلين حيث التقيت تقريبا جميع القادة الديموقراطيين الاشتراكيين . وتناولت طعام الغداء مع أوغست بيبيل ، ومع زينغر ، وهو فتى بدين الجثة ، فيما كان عدد آخر من المشاهير يحيطون بنا .

تناولنا الغداء في غرفة فسيحة مريحة . وكانت مطرزات على جانب من الذوق ملقاة على اقفاص الكناري ، وأغطية مخرّمة معلقة على ظهور المقاعد كيلا يتلوث قماشها من رؤوس الأشخاص الذين يقعدون عليها . كانت الأشياء جميعاً متينة وأساسية . وأكل الجميع في وقار وعالن كل منهم الآخر في صوت رزين :

- مال زايت . (بالهنا والعافية . - بالالمانية) .

كانت هذه الكلمة جديدة عليّ ، ولكني عرفت أن «مال»

باللغة الفرنسية تعني «سيئ» ، و«زايت» باللغة الالمانية تعني «زمن» . . . «الازمان السيئة» .

أشار زينغر مرتين الى كاوتسكي على اعتباره «صاحبي الرومانسي» . وبدا لي بيبيل ، بأنفه المعقوف ، مغروراً الى حدّ ما . شربنا خمرة الراين والجعة . كانت الخمرة رديئة وفاترة . أما الجعة فجيدة . وتحدثوا عن الثورة الروسية وحزب الديموقراطيين الاشتراكيين في فتور وحموضة ايضا أما بالنسبة الى حزبهم ، الحزب الألماني . . . فكل شيء رائع ! كان جو الرضى هو الجوّ السائد . حتى ان المقاعد بدت مغتبطة وهي تحمل ثقل أجسام مجموعة من القادة الوجهاء .

كان عملي مع الحزب الألماني من طبيعة دقيقة . ذلك ان أحد أعضائه البارزين ، وهو الذي غدا في وقت لاحق بارفوس الشهير ، تلقى من «زنانيي» (المعرفة) ترخيصاً بأن يجمع «أتعاب المؤلف» من المسارح التي تعرض مسرحيتي «الحضيض» . لقد حصل على هذا الترخيص في عام ١٩٠٢ في سيباستوبول ، في المحطة ، حيث جاء في زيارة غير شرعية . وكان المال الذي جمعه سيقسم على الشكل التالي : ٢٠٪ من كامل المبلغ تخصَّص له ، والرصيد الباقي أتلقى أنا ربعه ، أما الثلاثة أرباع الأخرى فتذهب الى صندوق الحزب الديموقراطي الاشتراكي . وكان بارفوس على علم بهذه الشروط بالطبع ، فأهرقت في نفسه الفرحة . وظلت المسرحية طوال أربع سنوات تعرض على مسارح ألمانيا بأسرها ، وفي برلين وحدها مثلت أكثر من خمسمائة مرة ، ولا ريب أن بارفوس جمع مائة ألف مارك . لكنه بدلاً من النقود أرسل

إلى «زنانيي» ، الى ك . ب . بياتنيتسكى ، رسالة يعلمه فيها في حبور أنه أنفق ما قبض من مال على رحلة مع سيدة شابة الى ايطاليا . ولما كنت معنياً شخصياً بهذه الرحلة السارة جداً من دون ريب فقط فيما يتعلق بربع حصيلة المال المخصص لي ، فقد اعتبرت أن من حقي أن أكتب الى اللجنة المركزية للحزب الألماني بخصوص الثلاثة أرباع الباقية . واتصلت بهم بوساطة إ . ب . لاديجنيكوف . ولم تحرك اللجنة المركزية ساكناً بخصوص رحلة بارفوس . وفيما بعد تناهى إلى علمي أن الحزب عزله من بعض المناصب . واذا شئتم الصراحة فقد كنت أفضل لو أنهم شدوا أذنيه . وحين قدمت الى باريس بعد فترة من الزمن دلوني على امرأة بارعة الجمال باعتبارها رفيقة بارفوس في رحلته الايطالية ، فكرت مع نفسي : — يا عزيزتي ، يا غالية .

اجتمعت في برلين بعدد كبير من الناس من كتاب ، وفنانين ، وأنصار للفنون والآداب وغيرهم ، وكان رضاهم الشخصي وغرورهم الذاتي يختلفان من شخص الى آخر نسبياً .

في أميركا التقيت كثيراً موريس هيلكويت الذي كان يطمح في منصب محافظ أو حاكم مدينة نيويورك ؛ والعجوز ديبس الذي خرج من السجن لتوه ، ويكشر في وجه كل شخص وكل شيء بطريقة متعبة تنبئ عن الخذلان . رأيت كثرة من الأشخاص ووفرة من الأشياء ، غير أنني لم أجتمع بإنسان واحد كان يستطيع أن يفهم المغزى الكامل للثورة الروسية ، وشعرت في كل مكان أنهم يعتبرونها بصورة عامة «مجرد طارئ في الحياة الأوروبية» وحدثاً عادياً في بلد «تسيطر فيه على

الدوام الكوليرا أو الثورة» حسب تعبير «سيدة وسيمة» كانت «تتعاطف مع الاشتراكية» .

عرضت فكرة القيام برحلة إلى أميركا لجمع المال لصندوق «البلاشفة» من قبل ل . ب . كراسين ؛ وتقرر أن يرافقني ف . ف . فوروفسكى كسكرتير ومنظم للاجتماعـــات . كان يجيد الانكليزية ، ولكن الحزب كلفه بعمل آخر وحلّ محله ن . و . بورينين . وكان هذا ينتسب الى الفريق النضالى في اللجنة المركزية للحزب البلشفي ؛ لم يكن يعرف الانكليزية وبدأ يتعلمها ونحن في الطريق ولدى وصوله الى البلاد . وغدا الثوريون الاشتراكيون يعنون بصورة صبيانية برحلتي حين عرفوا هدفها . وجاءني تشايكوفسكي وجيلتوفسكي ونحن لا نزال في فنلندا ، واقترحا أن يتمّ جمع المال ليس من أجل البلاشفة ، بل في سبيل «الثورة بصورة عامة» . رفضت أن أجمع المال في سبيل أية «ثورة عامـــــة» . وعندها أرسلوا «بابوشكا» * الى هناك أيضاً ، وبذلـــك تواجد شخصان في أميركا بدأ كل منهمــــا في استقلال عن الآخر ، بل دون أن يلتقيا ، بجمع المال في سبيل ثورتين مختلفتين ظاهرياً . لم يكن لدى الأميركيين طبعاً الوقت أو الرغبة في التقصى عن أي الثورتين أفضل وأهم . ويبدو أن «بابوشكا» كانت معروفة لديهم من قبل – فقد دعا لها كثيراً في الماضي أصدقاؤهـــا

* «بابوشكا» («الجدة») يقصد بذلك ي . ك . بريشكو – بريشكوفسكايا (١٨٤٤–١٩٣٤) – واحـــدة من منظمـــي حزب الاشتراكيين – الثوريين ، وكانت مواقفها فيه يمينية متطرفة للغاية ، وقد اصبحت فيما بعد عدواً شديداً للسلطة السوفييتية . **الناشر** .

الأميركيون – وهيأت السفارة القيصرية فضيحة لي . واعتبر الرفاق الأميركيون بدورهم الثورة الروسية ثورة «محليـــة» وقضية جهيضاً ، وعاملوا بشيء من «اللامبالاة» النقود التي جمعتها في الاجتماعات . وعلى العموم لم يكن ما جمعتُ كثيراً – أقل من عشرة آلاف دولار . وقررت أن أحصل على شيء من المال عن طريق الكتابة في الصحف – لكنه حدث أنه كان هنالك في أميركا بارفوس آخر ، وهكذا كانت جولتي الأميركية فاشلة على وجه العموم . وعلى أية حال ، فقد كتبت «الأم» هناك – وهذه حقيقة ربما فسرت الأخطاء والنقائص في هذا الكتاب .

ذهبت من بعد إلى ايطاليـا ، الى كابري ، واستغرقت في مطالعة الكتب والصحف الروسية – الأمـر الذي زاد مـــن انحطاط معنوياتي . لو أن سناً يمكن أن تحسّ بعد اقتلاعها ، فلعلّها تحسّ الوحدة التي كنت أعانيها . كنت مشدوهاً من الموهبة والرشاقة البهلوانيتين لدى أشخاص معروفين كانوا يتواثبون من منصة سياسية الى أخرى .

وقدم من روسيا ثوريون هائمون ، مسحوقون ، خائفون ، غاضبون من أنفسهم ومن أولئك الذين شدوهم الى هضـــم «مغامرة ميؤوس منها» .

قالوا :

– ضاع كل شيء . فلقد سحقوا الجميع ، وأبادوهم ، ونفوهم ، وسجنوهم !

كانت هنالك أشياء كثيرة تثير الضحك لغرابتها ، من دون أن يكون هنالك أي شعاع من البهجـــة . قال أحد الزوار

القادمين من روسيا ، وهو كاتب موهوب ، انني كنت ألعب ما يشبـــه دور لوكا فى مسرحيتي «الخضيض» – فقد خرجت وفتنت الشبان بكلمات معسولـــة ، فصدقوني وتلقوا على رؤوسهم بعض الضربات . اما انا فاطلقت ساقيّ هاربـــاً . وأعلن آخر أني استهلكتني «النزوات» ، وأنـــي كنت رجلاً «منتهياً» ، وأني أنكرت على الباليه أية أهمية لمجرد كونها «امبراطورية» . وعلى العموم أفاضوا في صرف الكلمات السخيفة المضحكة ، وغالباً ما كنت أشعر كما لو أن غباراً وبائياً يهبُ عليّ من روسيا .

وعلى حين فجأة ، كما يحدث في الأساطير ، وجدت نفسي في مؤتمر الحزب الديموقراطي الاشتراكي الروسي . وطبيعي أنه كان يوماً مجيداً بالنسبة اليّ !

لكن صفاء مزاجي لم يدم إلا حتى الاجتماع الأول ، حين شرعوا يتخاصمون بخصوص «جدول الأعمال» . جمّدت ضراوة هذه الخصومات حماستي على الفور ، ولم يكن السبب في ذلك شعوري بانقسام الحزب الحاد إلى مصلحين وثوريين – هذا ما أدركته في عام ١٩٠٣ – بقدر ما كان الموقف العدائـــي الذي وقفه المصلحون من لينين . فقد تحلّب وانهمر من خطبهم انهمار الماء من خرطوم عتيق تحت ضغط مرتفع .

ليس ما يقال دائماً هو ما يعوّل عليه ، لكنْ الطريقة التي يقال بها . فحينما افتتح غ . ف . بليخانوف المؤتمر ، مرتديـــاً الفراك الذي زرّره بإحكـــام ، مثـــل قسيس بروتستانتي ، راح يتكلم مثل واعظ ، واثقاً أن أفكاره لا تقبل الجدل ، وأن لكل كلمة وكل وقفة قيمة لا تقدر بثمن . كان

يزن ببراعة جمله المدورة الجميلة فوق رؤوس المؤتمرين ، فإذا نبس أحد الجالسين على مقاعد البلاشفة أو همس في أذن رفيقه توقف الخطيب المبجل برهة عن الكلام ، وأرسل اليه نظرته ثاقبة مثل إبرة .

وكان بليخانوف يحب احد ازرار سترته الفراك اكثر من الازرار الاخرى ، فكان يمسده باصبعه برقة واستمرار ، وعندما توقف ضغط عليه ، كأنه يضغط على زر جرس ، وكان من الممكن ان يتصور المرء ان هذا الضغط ذاته هو الذي يقطع تيار الحديث المنساب . وفي احدى الجلسات صلّب بليخانوف يديه على صدره ، وهو يهم بالرد على احد الاشخاص ، ونطق بصوت عال وبازدراء :

— خ—خه !

وقد اثار ذلك الضحك بين العمال البلاشفة . رفع غ . ف . بليخانوف حاجبيه ، وامتقع خده ؛ وانا اقول خده لانني كنت اجلس على جانب المنصة ، فكنت ارى صفحات وجوه الخطباء .

واثناء خطاب غ . ف . بليخانوف في الجلسة الاولى كان لينين يتململ اكثر من الآخرين الجالسين على مصاطب البلاشفة ، تارة ينكمش وكأنما من برد ، وتارة ينبسط وكأنما يحس بالحر ، وكان يدس اصابعه تحت ابطيه ، ويمسد ذقنه ، هازاً رأسه الاصهب ؛ وقد همس بشيء لـ م . ب . تومسكي . وعندما اعلن بليخانوف ان «لا وجود للمحرفين داخل الحزب» انحنى لينين ، واحمرت صلعته ، واهتز كتفاه بضحكة صامتة ، كما ابتسم العمال الجالسون على مقربة منه

وخلفه ، وسأل شخص في نهاية القاعة بصوت عال وبلهجة كئيبة :

– ومن الذين يجلسون في الجانب الآخر ؟

وتحدث فيدور دان القميء بلهجة رجل ابنته الحقيقة الاصيلة ، وقد انجبها وربّاها ، وما يزال يربيها . اما هو نفسه ، فيدور دان ، فهو التجسيد الكامل لكارل ماركس ، والبلاشفة قليلو المعرفة ، اولاد غير متزنين ، وذلك واضح بشكل خاص من موقفهم من المناشفة الذين يوجد بينهم ، كما قال ، «جميع نظريى الماركسية البارزين» .

– لستم ماركسيين – قال بازدراء – لا ، لستم ماركسيين ! – ودفع الهواء بقبضته الصفراء الى اليمين . فاستفسر احد العمال منه :

– ومتى ستذهبون الى الليبراليين مرة أخرى لشرب الشاي ؟

لست أتذكر هل كان خطاب مارتوف في الجلسة الاولى . ان هذا الرجل اللطيف بشكل مذهل تكلم ملتهباً التهاب الشباب ، وبدا وكأنه يحس بعمق خاص فاجعة الانشقاق ، وألم التناقضات .

وقد اهتز بكل كيانه ، وتمايل ، وفكّ كالمرعوص ياقة قميصه المنشى ، وهزّ ذراعيه . فطلع كماه من ردني سترته ، وغطيا على كفيه . وقد رفع يده عالياً ، وهزّها ليعيد الكم الى مكانه الشرعي . بدا لي ان مارتوف لا يبرهن ، بل يتوسل ، ويتضرع : يجب التخلص من الشقاق ، والحزب اضعف من ان يتحمل الانقسام الى حزبين ، والعامل بحاجة ،

قبل كل شيء ، الى «حريات» ، ومن الضروري الابقاء على الروح .
كان خطابه الاول يبدو في بعض الاحيان هستيرياً تقريباً ، فان غزارة الالفاظ جعلته غير مفهوم . اما الخطيب نفسه فقد اثار انطباعاً قاسياً . وفي خاتمة الخطاب ، وبلا ترابط معه على ما بدا ، وبنبرة «كفاحية» على الرغم من ذلك ، اخذ يصرخ بشكل «لاهب» ضد فصائل العمال المسلحة ، ضد العمل الموجه الى الاعداد للانتفاضة المسلحة على وجه العموم . وانا اتذكر جيداً كيف صاح شخص من مصاطب البلاشفة باندهاش :

– الى هذا الحد !

– وسأل م . ب . تومسكي على ما يبدو لي :

– ربما نقطع ايدينا ايضا حتى يهدأ الرفيق مارتوف !

واكرر انني غير واثـــق من ان خطاب مارتوف كان في الجلسة الاولى ، وانـــا اذكره لمجرد ان ابين **الطريقة** التي تحدثوا فيها .

وبعد خطابه تحادث العمال بعبوس في مكان امام قاعة الاجتماع :

– هذا هو مارتوف ! وكان من «الايسكريين» ايضاً !

– الرفاق المثقفون يتلونون .

وتكلمت روزا لوكسمورغ بطريقة جميلة وبعاطفة وحدة ، متمكنة من سلاح التهكم تمكناً ممتازاً . وهذا فلاديمير ايليتش يسرع الآونة إلى المنبر ، ويصيح «أيها الرفــاق !» بصوت أَلثغ . بدا لي أنه يتحدث بصورة سيئـــة لكن لـــم تمرّ دقيقة واحدة حتى استغرقت ، مثلي مثل الجميع ، في حديثه . تلك كانت أول مرة أسمع فيها قضايا سياسية معقدة تعالج

على هذا القدر من البساطة . لم يكن يسعى الى الجمل البليغة ، لكن كل كلمة من كلماته كانت منظومة بجلاء ، وكان معناها من الوضوح بمكان عظيم . وصعب جداً أن أنقل الى القارئ الانطباع غير المألوف الذي أشاعه في الحضور .

كانت ذراعه ممدودة وقد ارتفعت اليـــد قليلاً ، وبدا كأنه يزن بها كل كلمة من كلماته ، وكأنه يلخص ملحوظات خصومه ، ويستعيض عنها بحجـــج خطيرة الشأن عن حقوق الطبقة العاملة وواجباتها في الانطلاق قدماً على طريقها الخاصة ، وليس الى جانب البرجوازية الليبيرالية أو متجرجرة وراءها . كان ذلك كله غير مألوف ، وبدا أن لينين لا يقوله تلقائياً ، بل بإرادة التاريخ . ان وحدة خطابه ، وكماله ، واستقامته ، وصحته ، ومجمل مظهره على المنبر – كانت هذه الأمور كلها عملاً من أعمال الفن الكلاسيكي : ان الاشياء جميعاً موجودة ، ومع ذلك ليس ثمة شيء نافل . وإذا كان هنالك أي زخرفــة فلم تكن ملحوظة بصفتها هذه ، بل كانت طبيعية ومحتومة مثل العينين في الوجه أو الخمس أصابع في اليد .

ألقى خطبة أقصر من الخطباء الذين تحدثوا قبله ، ولكنه ترك في النفوس انطباعاً أعمق . لم أكن وحدي الذي شعرت بذلك . فقد ترددت ورائي همسات تفيض حماسة :

– إن لديه شيئاً يقوله الآن .

وهذا ما حدث فعلاً . لم تكن استنتاجاته متكلفة ، بل كانت تنمو من تلقاء ذاتها ، بصورة لا محيد عنها .

ولم يحاول المناشفة اخفاء استيائهم من الخطبة وما هو أكثر من الاستياء من لينين نفسه . وبقدر ما كان يبين بصورة

مقنعة الضرورة الملحـــة التي تدعو الحزب إلى أقصى تطوير للنظرية الثورية كيما تكون الممارسة من بعد مخططة عـــلى ضوئها على أوفي صورة ، كانوا يقاطعون كلامه بمزيـد من البأس :

– ليس المؤتمر مكاناً للتفلسف !

– لا تلعب معنا دور المعلم ، فلسنا تلاميذ في مدرسة !

ان شخصاً طويل العود ملتحي الذقن يبدو أشبه ما يكون بصاحب متجر قد أبدى عدوانية خاصة . فقد وثب عن مقعدة ، وفأفأ :

– مؤ . . . مؤمرات صغيرة . . . تبيتـــون مؤ . . . مؤامرات صغير . . يرة ! أيها البلانكيون !

وهزت روزا لوكسمبورغ رأسها موافقة . وقد وجهت ملحوظة محكمة إلى المناشفة في أحد الاجتماعات التالية :

– أنتم لا تقفون موقف الماركسية ، بل تجلسون عليها ، أو بالحري تضطجعون عليها .

اجتاحت القاعة موجة حاقدة تلتهب بالغضب والانفعال ، والتهكم والضغينة . وأبانت العيون التي تعكس صورة لينين عن مائة تعبير متباين . هذه الصيحات العدائية المتوعدة لم تؤثر فيه على الإطلاق . فهو يتكلـــم في حرارة ، لكن في أناة ورويـــة . وعرفت بعد عدة أيام كـــم اقتضاه هذا الهدوء الخارجي . كان شيئاً غريباً وحزيناً أن ترى مثل هذا العداء يمكن أن يثار ضده من مثل هذه الفكرة العادية القائمة «على هدي نظرة متطورة تماماً يغدو الحزب قادراً على رؤية أسباب الخلافات في وسطه» . وتشكل من تلقاء ذاته في ذهني الانطباع

بأن كل يوم جديد من أيام المؤتمر يسبغ على فلاديمير ايليتش مزيداً من قوة ، ويجعله أكثر جرأة وأعظم ثقة . كانت خطبة تتردد أشدّ حزماً مع كل يوم جديد ، وكان العنصر البلشفي في المؤتمر يزداد صلابة وعزماً . وفيما عدا خطبه ، فقد أثرت فيّ أكثر من أي شيء آخر تلك الخطبة البليغة القوية التي ألقتها روزا لوكسمبورغ ضد المناشفة .

كانت كل دقيقة وكل ساعة من أوقات فراغه يقضيها بين العمال ، يستوضحهم عن أصغر تفصيلات حياتهم .

– ماذا عن زوجاتكم ؟ غارقات في عمل البيت حتى أعناقهنّ ؟ لكن ، هل يتدبرن أمرهن فيحصلن على شيء من ثقافة ، أو يقرأن قليلاً ؟

ذات مرة ، في هايد بارك ، راحت مجموعة من العمال الذين رأوا لينين للمرة الأولى في المؤتمر يناقشون تصرفه فيه ، فأبدى أحدهم ملحوظة مذهلة :

– فيما أعلم ، فقد يكون هنالك أشخاص آخرون مثل بيبيل وغيره في مثل ذكائه في أوروبا يقفون في صف العمال . ولكنني لا أعتقد أنكم تجدون شخصاً آخر تحبونه من النظرة الأولى مثل هذا الإنسان !

وأضاف عامل آخر ، وهو يبتسم :

– انه واحد منا حقا !

فردّ عامل ثالث :

– بليخانوف أيضاً واحد منا !

وجاء الجواب موفقاً :

– أنت تشعر أن بليخانوف يعلّمك ، متعالياً عليك ، لكن لينين قائد حقيقي ورفيق حقيقي .

ولاحظ شاب بدعابة :

– بليخانوف يضايقه الفراك .

في احدى المناسباب كنا متخذين طريقنا الى مطعم حين أوقفه أحد العمال ، من المناشفة ، وطرح عليه سؤالاً . تأخر لينين قليلاً ، بينا تابعت الجماعة طريقها . ودلف الى المطعم عبوساً بعيد خمس دقائق ، وقال :

– عجيب أن يكون مثل هذا الساذج قد وصل الى مؤتمر الحزب . فقد سألني ما هو ، في آخر المطاف ، السبب الحقيقي للخلاف ؟ وقد أجبته : «اليكه . ان أصدقاءك يريدون دخول البرلمان ، في حين نؤمن نحن أن الطبقة العاملة يجب أن تهيئ للنضال» . وأظن أنه فهم .

كان عدد منا يتناولون على الدوام طعام الغداء في ذات المطعم الصغير الرخيص . ولحظت أن فلاديمير ايليتش يأكل قليلاً – بيضتان أو ثلاث بيضات مقلوة ، قطعة صغيرة من فخذ الخنزير ، وقدح من الجعة الكثيفة السوداء . كان من الواضح أنه يلقي قليل عناية الى نفسه ، في حين أن العناية المذهلة التي يصرفها إلى العمال تزيد من الاثر البليغ في نفسي . كانت م . ف . أندرييفا مسؤولة عن العناية بغذائهم . وكان يسألها :

– ما رأيك : هل يحصل العمال على كفايتهم من الطعام ؟ كلا ؟ هِمْ هِمْ ! لعلنا نستطيع الحصول على مزيد من الساندويش ؟

وذات يوم ، وقد جاء الى الفندق الذي أنزل فيه ، لمحت أنه يتحسس الشراشف في قلق . فسألته :

– ماذا تفعل ؟

– أستوثق ما اذا كانت الشراشف جافة غير رطبة .

لم أفهم مرماه أول الأمر . فيم يريد أن يعرف ما هي عليه الشراشف في لندن ؟ وأوضح لي حين استوعب انشداهي قائلا :

– يجب أن تعنى بصحتك .

في خريف عام ١٩١٨ سألت عاملاً من سورموفو يدعى دمتري بافلوف عن أهم ميزات لينين في رأيه . فأجابني :

– البساطة . فهو بسيط مثل الحقيقة ذاتها .

قال ذلك بنغمة من أعمل الفكر كثيراً واتخذ مثل هذا القرار منذ زمن بعيد .

مما لا نزاع فيه أن أقسى نقاد المرء هم الذين يعملون تحت أمره . وقد قال غيل ، سائق لينين ، وهو شخص غني التجربة :

– لينين انسان نسيج وحده . فليس هنالك من نظير له . كنت مرة أقود به السيارة على طول شارع مياسنيتسكي حيث حركة المرور مزدحمة . ولم أكن أتقدم الا ببطء كثير ، فقد كنت أخشى أن أصدم السيارة فجعلت أنفخ في البوق وقد تملكني الاضطراب . وفتح هو الباب ، واقترب مني وقد وقف على موطىء السيارة معرضاً نفسه لخطر السقوط أرضاً ، واستحثني على السير قدماً : «لا تضطرب ، يا غيل ، بل انطلق

قدماً مثل الآخرين» . أنا سائق قديم . وأعرف أن أحداً غيره لا يمكن أن يفعل ذلك .

صعب أن أجعل القارئ يتحقق كيف كانت انطباعاته كلها تتدفق في قناة واحدة بسهولة وألفة .

فقد كانت أفكاره كلها ، أشبه بإبرة بوصلة ، منصبة باستمرار على المصالح الطبقية للعمال . ففي احدى أمسياتنا الطليقة في لندن ذهبت مجموعة صغيرة منا الى «ميوزك هول» — وهو مسرح ديموقراطي . ضحك فلاديمير ايليتش منتشياً منشرح الاسارير من المهرجين والكوميديين ، ونظر بخلو البال الى سائر الاشياء . وقد صرف اهتماماً خاصاً الى قطع الأشجار من قبل العمال في كولومبيا البريطانية . كان المنظر الصغير في الخلف يظهر معسكراً في غابة ، وعلى الأرض في المقدمة كان شابان يقطعان بالفأس جذع شجرة ثخانتها متر تقريباً في غضون دقيقة من الزمن .

قال ايليتش :

— هذا من أجل المتفرجين من دون ريب . فهما لا يستطيعان إنجاز ذلك في مثل هذه السرعة في واقع الأمر . ولكن يبدو أنهم يستخدمون البلطة هنالك أيضاً ، ويقطعون كمية من الأشجار الى قطع صغيرة لا فائدة منها . هذه هي المدنية الانكليزية !

وشرع يتحدث عن فوضوية الانتاج في النظام الرأسمالي ، والنسبة الكبيرة من المواد الخام التي تضيع هباء ، وأنهى حديثه متأسفاً لأن أحداً لم يفكر في تأليف كتاب في هذا الموضوع . لم تكن الفكرة واضحة حقاً بالنسبة الي ، ولكنني

لم أستفسر عنها فلاديمير ايليتش ، فقد جعل في هذه الأثناء يعطي بعض الملحوظات الهامة عن التمثيـل الايمائي باعتباره شكلاً خاصا من الفن المسرحي :

– انه التعبير عن موقف هجائـــي أكيد حيال الأفكار المقبولة بصورة عامة ، محاولة لقلبها من الداخل الى الخارج ، لتشويهها ، لإظهار اعتباطية الأشياء المألوفة . انه شيء معقد قليلاً ، ولكنه يبعث على الاهتمام !

بعيد سنتين في كابري ، وفيمـا هو يناقش الروايـــة الطوباويـــة مع أ . أ . بوغدانوف – مالينوفسكي ، أعلن قائلاً :

– اذا شئت أن تكتب رواية للعمال حول موضوع كيف سرق المحتالــون الرأسماليــون الأرض ، وهدروا النفط ، والحديد ، والخشب ، والفحم – فسوف يكون ذلك كتابـاً نافعاً ، أيها السنيور الماخي !

حين ودعني في لندن وعدني أن يؤمّ كابري لنيل قسط من الراحة . وقبل أن يتخذ قراراً بالمجيء لقيته في باريس في شقة لأحد الطلاب مؤلفة من غرفتين (كانت شقة طلابية من حيث حجمها حسب ، وليس من حيث النظافـة والترتيب السائدين فيها) . . . وخرجت ناديجدا كونستانتينوفنا بعدما قدمت لنا الشاي ، فبقينـا وحيدين . وكانت «زنانيـــى» قد انهارت لتوّها ، وجئت أناقش فلاديمير ايليتش تنظيم دار جديدة للنشر يمكن أن تضمّ قدر المستطاع جميع المشتغلين بحرفة

الأدب . واقترحت ان يكـــون فلاديمير ايليتش وف . ف . فوروفسكـــــي وشخص آخر محررين للدار فى الخارج ، وان يمثلهم ف . أ . دسنيتسكى – سترويف فى روسيا .

وخطر لي أن نشر مجموعة من الكتب عن تاريخ الأداب في الغرب وعن الأدب الروسي ، وكتب عن تاريخ الحضارة يمكن أن تزود العمال بمصـــــدر ثري من المعلومات لأغراض التثقيف الذاتى والدعاية .

لكن فلاديمير ايليتش رفض المشروع مشيراً الى الرقابة وصعوبة تنظيم الناس . فان اغلب الرفاق مشغولون بالعمل الحزبي التطبيقي ، وليس لهم الوقت الكافي للكتابة . الا ان دليله الرئيسي الاكثر اقناعاً لي كان كالآتي على وجـــــــه التقريب : ليس الوقت مناسبا لوضع كتب سميكة ، والمثقفون وحدهم يتغذون بالكتاب السميك ، وهم كما ترى ، يتراجعون عن الاشتراكية الى الليبيرالية . ولا نستطيع صدهم عن الطريق الذي اختاروه . نحن بحاجة الى صحيفة ، الى كراس ، وجميل لو تعاد مكتبة «زنانيى» الا ان ذلك غير ممكن في روسيا لظروف الرقابة ، ولا هنا لظروف النقـــل : يجب علينا ان نلقي الى الجماهير عشرات ومئات الآلاف من المنشورات ، ومثل هذه الكمية لا يمكن نقلها بطريـــق سري . فلننتظر موضوع دار النشر حتى أوقات أفضل .

وشرع يتحدث ، بحماسته ووضوحه المدهشين أبداً عن الدوما وعن الكاديت الذين ، كمـــا قال ، «يشعرون بالخزي لأنهم أوكتوبريون» ، «وليس أمامهم غير طريق واحدة ، الطريق الى اليمين» . ثم قدم سلسلة من الحجج حول اقتراب الحرب ،

و«لعلها لن تكون حرباً واحدة ، بل مجموعة من الحروب» ؛ وهي نبوءة سرعان ما تحققت في بلاد البلقان .

هبَّ على قدميه ، وبحركة مميزة من يده ، قد وضع إبهاميه تحت إبطي صديريته ، جعل يراوح ويغادي على مهلة في الغرفة الصغيرة ، وقد زرَّ عينيه البراقتين :

– الحرب على الأبواب . انها شيء محتوم . فقد بلغ العالم الرأسمالي مرحلة الاختمار الآخذ في التعفن ، وشرع الناس منذ الآن يسمّون أنفسهم بأدوية الشوفينية والقومية . أعتقد أننا سنشاهد حرباً أوروبية عامة . البروليتاريا ؟ هناك احتمال قليل في ان يكون البروليتاريا بوسعها أن تجد في ذاتها القدرة على منع المجزرة . وكيف يكون ذلك ؟ اضراب عمالى عام في أوروبا بأسرها ؟ هم غير منظمين بعد بصورة كافية ووعيهم الطبقي دون أن يمكنهم من ذلك . مثل هذا الاضراب سيكون بداية لحرب أَهلية ، أما نحن ، بصفتنا سياسيين عمليين ، فلا نستطيع الاعتماد على ذلك .

توقف ، وحك نعل حذائه بالأرض ، وقال في جهمة :

– لسوف تقاسي البروليتاريا كثيراً من دون ريب . لا بدَّ أن يكون ذلك قدرها لفترة أخرى من الزمن . لكن أعداءها سينهكون قوى بعضهم بعضاً ، وهذا أيضاً شيء محتوم .

اقترب مني وقال في صوت قوي ، لكن في صوت شبه مهموس ، فكأنه مشدوه :

– كلا ، لكن فكر في ذلك . فيم يعمد الناس الذين سمنوا شبعاً إلى إرغام الجياع على التقاتل ؟ أيمكن أن تسمي

لي جريمة أسخف أو أكثر اثارة للاشمئزاز ؟ لسوف يدفع العمال ثمناً باهظاً رهيبا مقابل ذلك ، ولكنهم سوف يحرزون النصر في آخر المطاف . إنها مشيئة التاريخ .

ما أكثر ما كان يتحدث عن التاريخ ، بيد أني لم أشعر أبداً فيما يقول شيئاً من العبادة الصنمية لمشيئته أو سطوته .

أهاجته كلماته . جلس ، ومسح العرق عن جبهته ، ورشف قليلاً من الشاي البارد ، وسأل بصورة غير متوقعة :

– ماذا كانت قضيتك في أميركا ؟ عرفت من الصحف موضوعها ، لكن كيف كانت نهايتها ؟

رويت له مغامراتي بصورة مختصرة .

أبداً لم أجتمع بشخص يستطيع أن يضحك من قلبه مثل لينين . غريب أن تلقى مثل هذا الرجل الواقعي القاسي ، رجل خبر الأمور جيداً ، وأحسّ بعمق بالغ حتمية الكوارث الاجتماعية الكبيرة ، العنيد والحازم في حقده على العالم الرأسمالى ، يضحك مثل طفل صغير ، يضحك حتى تفيض الدموع من مآقيه ، يضحك حتى يختنق بالضحك . لا بد أن يملك المرء ، كي يضحك على هذا الغرار ، ذهناً ليس أسلم أو أصح منه .

قال لي من خلال ضحكه :

– أوه ، أنت رجل ساخر ! لم يخطر لي في بال أن أي شيء يمكن أن يكون باعثاً على هذا القدر من السخرية .

ومسح عينيه ، وفي الحال استعاد جديته ، وقال في ابتسامة لطيفة عذبة :

– رائع أن تقابل الفشل بالسخرية . فالسخرية صفة رائعة معافاة . والحقيقة أن الحياة ماجنة ومحزنة بالقدر ذاته ، بالقدر ذاته بالضبط .

اتفقنا على أن أزوره بعد يوم واحد . لكن الجو كان سيئاً ، وبدأت أنفث كمية كبيرة من الدم في العشية ، ورحلت في الغداة .

اللقاء الثاني الذي جمع بيننا بعد باريس جرى في كابري . كان قد سيطر عليّ انطباع غريب في ذلك الحين – فكأن فلاديمير ايليتش تواجد مرتين في كابري في حالين نفسيتين متباينتين بصورة حادة .

بادرني على الفور ايليتش الاول ، عندما التقيته في المرفأ ، قائلاً في نبرة عازمة :

– أنا أعرف ، يا ألكسى مكسيموفيتش ، أنك تأمل دائما أن يغدو في المستطاع مصالحتي مع الماخيين ، رغم أني حذرتك من عبث ذلك في رسالتي اليك . فلا تبذلن أية محاولة جديدة اذن .

حاولت أن أشرح له ، ونحن في طريقنا الى مسكني وبعد ذلك أيضاً ، أنه ليس على حق مطلق . فلم تراودني النية من قبل أبداً ، ولا هي تراودني الآن ، في التوفيق بين فلسفتين متناوئتين لا أفقههما جيداً على أية حال ، يضاف الى ذلك أني كنت لا أثق في أية فلسفة منذ فتوتي ، والسبب في عدم الثقة هذه كان ، على الدوام ، التناقض بين الفلسفة وتجربتي «الذاتية» الشخصية . كان العالم بالنسبة اليّ قد بدأ لتوّه وحسب ، وهو في مرحلة «الصيرورة» ، لكن الفلسفة أنزلت

به ضربة على الرأس وطرحت عليه هذا السؤال الذي هو ف غير مكانه واوانه :

«أيَّان أنت ذاهب ؟ وفيم أنت ذاهب ؟ لماذا . . . أنت تفكر ؟»

وبعض الفلاسفة يصدرون أمرهم الصارم البسيط :

«قف !»

وبالاضافة الى ذلك كنت ادرك أن الفلسفة ، مثلها مثل المرأة ، يمكن أن تكون عارية من الجمال ، بل قبيحة ، ولكنها تتزيّن بمهارة وحذق حتى يحسبها المرء فاتنة . . انفجر فلاديمير ايليتش ضاحكاً لذلك ، وقال :

– لا بأس . هذا يجعل من الأمر مزحة . أما أن العالم بدأ لتوّه ، وهو في عملية الصيرورة – حسناً ، فكر في الأمر ملياً . ولسوف تصل من تلك النقطة الى المكان الذي كان ينبغي أن تبلغه منذ طويل زمن .

وبعد ذلك قلت له ان أ . أ . بوغدانوف ، و أ. ف . لوناتشارسكى وف . أ . بازاروف ، في نظري ، اناس كبار مثقفون بشكل ممتاز ، ومن كل الجوانب ، ولم اقابل في الحزب من يضارعهم .

– لنفرض ذلك ، فماذا يترتب عليه ؟

– في آخر المطاف اعتبرهم اناساً ذوي هدف واحد ، ووحدة الهدف المفهومة والمدركة عميقاً لا بدّ ان تطمس وتزيل التناقضات الفلسفية . . .

قال :

– اذن فالامل في المصالحة حي على اية حال ؟ ان ذلك

بدون جدوى . ابعده الى ابعد ما يمكن ، وانـــا انصحـــك كصديق ! ان بليخانوف ايضا ، في نظرك رجـــل ذو هدف واحد . اما انا فاري – وهذا سر بيننا – أنه ذو هدف آخر تماماً رغم انه مادي ، لا ميتافيزيقي .

انتهى حوارنا هنا . وأعتقد أنه لا حاجة بي إلى ذكر أني لم أنقل هذا الحوار كما جرى حرفياً . ولكنني على يقين تام بأن الأفكار مضبوطة .

هكذا انتصب فلاديمير ايليتش أمامي أحزم وأصلب منه في مؤتمر لندن . ولكنه ، هناك ، كان مضطرباً ، فقد كان ثمة أوقات هنالك جعلـــه فيها انقسام الحزب يعيش لحظات ملأى بالألم .

وهذا هو الآونة في حال نفسية هادئة ، بل باردة وساخرة ، منحياً بقسوة جميع المواضيع الفلسفية ، وهو دائماً على أهبة الاحتراس . وكان على أ . أ . بوغدانـــوف ، هذا الانسان الجذاب جداً ، ذو العريكة اللينة جداً والمغرم حتى الدرجـــة القصوى بلينين ، وان يكن مغروراً بالأحرى ، أن يصغي الى هذه الكلمات المؤلمة القارصة :

– قال شوبنهاور إن التفكير الواضح يعنـــي حديثـــاً واضحاً . ويخال لي أنه لم يقل كلمة أصدق من هذه . أنت لا توضح نفسك جيداً ، أيها الرفيق بوغدانوف . أوضح لي بكلمات مختصرة ماذا يمكن ان يهب «ابدالك» للطبقة العاملة ، وفيم الماخية أكثر ثورية من الماركسية ؟

حاول بوغدانوف أن يشرح ذلك ، ولكنه تحدث فعلاً بطريقة مشوشة مسهبة .

نصح له فلاديمير ايليتش :

– كفّ عن ذلك . قال أحدهـــم ، وأحسب جوريس : «أن ينطق المرء بالحقيقة أفضل من أن يكون وزيراً» . . . وأضيف أنا : «أو ماخياً» .

ثم استغرق في لعب الشطرنج مع بوغدانوف ، وحين خسر الشوط غلى مرجله ، بل انتابه القنوط مثـــل طفل صغير . وجدير بالذكر أن هذا القنوط الصبيانى ، مثله مثل ضحكته المذهلة ، لم يفسد اكتمال خلقه ووحدته .

كان هنالك في كابري لينين آخر – رفيق رائع ، شخص خلي الهموم يبدي اهتماماً حيوياً لا ينضب له معين بكل شيء في العالم ، ولطيف بصورة تبعث على الذهول .

ذات مرة ، في ساعة متأخرة من المساء ، حين خرج الجميع للنزهة ، قال لي ولم . ف . اندرييفا في نبرة خاليـــة من المرح ، وبأسف عميق :

– اناس اذكياء موهوبون ، فعلوا الشيء الكثير للحزب ، وبوسعهم ان يفعلوا اكثر من ذلـــك بعشر مرات ، ولكن لا يأتون معنا ! لا يستيطعون . وعشرات ومئات من مثل هؤلاء يقصمهم ويشوههم هذا النظام الاجرامي .

وقال في مرة اخرى :

– سيعود لوناتشارسكي الى الحزب ، فهو اقل فردية من ذينك الشخصين . خلق موهوب بغنى نادر ، وانـــا «اشعر بالضعف» نحوه . بحق الشيطان ما احمـــق هاتين الكلمتين : الشعور بالضعف ! أتعرف ؟ انني احبه . رفيق ممتاز ! فيه

نوع من اللمعان الفرنسي ، والخفة في تفكيره فرنسية أيضاً ، وخفة التفكير من الجمالية عنده .

استفسر بالتفصيل عن حياة الصيادين في كابري ، وعن أرباحهم ، وما هو تأثير الكهنة عليهم ، وكيف هي مدارسهم ؟ وما كان يمكن الا أن أنشده من سعة اهتماماته . واذا دلّه بعضهم على كاهن هو ابن فلاح فقير ، فقد كان يستعلم في الحال عن مدى ارسال الفلاحين أولادهم الى المعاهد اللاهوتية ، وعما اذا كان الأولاد يعودون الى قراهم بالذات حين يصبحون كهنة .

– هل تفهمون هذا ؟ ان لم تكن هذه ظاهرة عارضة ، فمعنى ذلك أنها سياسة الفاتيكان – وهي سياسة ماكرة !

لا أستطيع أن أتصور انساناً آخر ، يتفوّق حتى هذه الدرجة الكبيرة على البشر الآخرين ، يمكن ألا تؤثر فيه مع ذلك مطلقاً الطموحات الملحة ، ويصرف اهتماماً حيوياً على بسطاء الناس .

كانت فيه خلّة مغناطيسية معينة تجذب اليه أفئدة الطبقة العاملة وعواطفها . لم يكن يتكلم اللغة الايطالية ، لكن الصيادين في كابري ، الذين رأوا شاليابين والكثيرين من الروس البارزين ، منحوا لينين على الفور ، بما يشبه الغريزة ، مكانة خاصة . كانت ضحكته ساحرة – ضحكة تصدر من أعماق انسان يستطيع ، على الرغم من معرفته الجيدة بما تتصف به المخلوقات البشرية من بلاهة خرقاء ، وبالحيل البهلوانية لأصحاب الفطنة الثاقبة ، أن يسعد بما لدى «بسطاء القلوب» من سذاجة الطفولة . وقد قال عنه صياد شيخ يدعي

جيوفاني سبادارو : — وحده الرجل الشريف يمكن أن يضحك على هذا الغرار .

كنا نخرج للتجذيف في بعض الأحيان ، فوق مياه زرقاء شفافة مثل السماء ، وتعلّم لينين كيف يصطاد السمكة «باصبعه» — مستخدماً الخيط وحده من دون الصنارة . شرح له الصيادون أن السمكة يجب أن تصاد في الكلاب حين تحّس الاصبع اهتزازة الخيط :

— كوزى : درنْ ، درنْ . كابيش ؟

بعيد هنيهة صاد سمكة ، فشدّها بوساطة الخيط وهتف في سرور صبياني وفي انفعال الصياد :

— درن ، درن !

انفجر الصيادون ضاحكين ، مرحين كالأطفال ، وأطلقوا على الصياد لقب «السنيور درن-درن» . وظلوا يتساءلون بعد رحيله :

— كيف حال درن-درن ؟ ألم يقبض عليه القيصر بعد ؟

لا اتذكر متى كان غ . ف . بليخانوف في كابري : قبل فلاديمير ايليتش ام بعده .

اراد بعض المهاجرين من جالية كابري ان يتحادثوا معه — وهم الاديب ن . أوليغر ، ولورينس — ميتنر المحكوم عليه بالاعدام على تنظيمه الانتفاضة في سوتشي ، وبافل فيغدورتشيك وشخصان آخران كما يبدو لي . فرفض . وكان ذلك من حقه ، فهو رجل مريض جاء للراحة . الا ان اوليغر

ولورينتس قالا لي انه فعل ذلك بطريقة مهينة جداً لهم . واصر اوليغر ، وهو رجل عصبي ، على ان غ . ف . قال شيئاً عن «التعب من كثرة الذين يحبون الكلام ، ولكن لا يقدرون على العمل» . وعندما كان بليخانوف عندي ، لم يبد ، في الواقع رغبة في ان يرى احداً من جالية كابري — فقد رأى فلاديمير ايليتش الجميع . ولم يسأل بليخانوف عن شيء ، فقد كان يعرف كل شيء فعلا ، وعن ذلك تحدث بنفسه . وكان ، وهو الرجل الواسع الموهبة على الطريقة الروسية ، والمربى على الطريقة الاوروبية ، يحب ان يرفل بالعبارة البديعة المنمقة اللاذعة ، ولاجل هذه العبارة المنمقة اللاذعة بالذات ، كما يبدو ، شدّد بقسوة على نقائص الرفاق الاجانب والروس . وقد بدا لي ان بدائعه المنمقة ليست موفقة دائماً . ولم تبق في الذاكرة الا غير الموفقة منها * . . . وهو بشكل عام كان ينظر الى الناس نظرة تلطف ، لا كإله بالطبع ، ولكن على شبه منه قليلا . وهو ، كأديب نابغ ، ومؤسس الحزب نال احترامي العميق ، ولكن لم ينل تعاطفي . فقد كان فيه من «الارستقراطية» الشيء الكثير جداً . وقد اكون مخطئاً في حكمي . وانا غير مغرم كثيراً في الأخطاء ، ولكن لي اخطائي ايضاً ، مثل سائر الناس . بيد ان الحقيقة تظل حقيقــــة : نادراً ما التقيت باناس مختلفين اختلاف ف . غ . بليخانوف عن ف . إ . لينين . وهذا ايضاً

* بعد ذلك يضرب غوركي بعض الامثلة من عبارات بليخانوف القائمة على التورية اللفظية ، وهي تفقد قيمتهـــــا اذا ترجمت الى العربية . **المترجم** .

طبيعي ، فان الاول يوشك ان ينهى عمله بتهديم العالم القديم ، والثاني قد بدأ ببناء العالم الجديد .

كانت الحياة تمكر بنا بخبث ، حتى ان العاجزين عن الحقد الحقيقي يعجزون عن الحب الحقيقي أيضاً . هذه الحقيقة وحدها ، المشوهة الطبيعة البشرية من جذورها ؛ هذا التشطير الذي لا مفرَّ منه للروح ؛ حتمية الحب من خلال الكراهية ؛ تحكم بالانحلال على الشروط العصرية للحياة .

أبدا لم ألتقِ في روسيا ، هذا البلد الذي تُبشر فيه حتمية المعاناة باعتبارها الطريق الرئيسية للخلاص ، كما لم أعرف أبداً ، انساناً يكره ويعان ويحتقر بكل عنف وعمق مثل لينين جميع أنواع التعاسة والحزن والمعاناة .

فى رأيي أن هذه الأحاسيس ، وهذا الحقد لفواجع الحياة ومآسيها كانت ترفع لينين في عينيَّ عاليا ، وهو الذي ينتمي الى بلد كانت الروائع الأعظم فيه أناجيل كتبت فى مديح المعاناة وتكريسها ، وبدأ الشباب حياته فيه تحت تأثير كتب هي في جوهرها وصف للمآسي التافهة المبتذلة التي تسير على وتيرة رتيبة واحدة لا تتبدل . والادب الروسي هو اكثر الآداب تشاؤما في اوروبا ؛ فان جميع الكتب عندنا تؤلف في موضوع واحد هو كيف نتعذب — في الصبا ، وسن الرشد من قلة العقل ، من نير الحكم الفردي ، من النساء ، من حب القريب ، من التكوين غير الموفق للكون ، وفي الشيخوخة من وعي اخطاء الحياة ، ومن قلة الاسنان ، ومن عسر الهضم ، ومن ضرورة الموت .

وكل روسي دخل السجن شهراً «بسبب السياسة» او

عاش سنة في المنفى يرى واجباً مقدساً عليه ان يهدي لروسيا كتاباً عن ذكريات عذابه . ولم يفكر احد ، حتى هذا اليوم ، في ان يبدع كتاباً يقص فيه كيف فرح طوال الحياة . ولما كان الروسي قد تعود ان يخترع حياة لنفسه ، ولا يعرف كيف يصنعها بصورة جيدة ، فمن المحتمل جداً ان يعلمه كتاب عن الحياة السعيدة كيف ينبغي ان يخترع مثل هذه الحياة .

كان لينين عظيماً بصورة استثنائية في نظري بالضبط بسبب من هذا الشعور لديه بالعداوة اللدود الملتهبة أبداً حيال عذابات الانسانية ، وأيمانه المؤار بأن العذاب لا يشكل جزءاً من الحياة أساسياً لا مندوحة عنه ، بل هو شيء بغيض على البشر أن يقضوا عليه ، وهم على ذلك لقادرون .

وأنا أدعو هذه الميزة الأساسية في خلقه التفاؤل النضالي لانسان يدين بالمادية . وهذا بالذات هو ما اجتذبني الى هذا الانسان – الانسان ، ولنضعن خطا تحت هذه الكلمة .

فى سنتي ١٩١٧–١٩١٨ لم تكن علاقاتي بلينين على ما كنت أتمنى ، ولكنها ما كان يمكن أن تكون خلاف ذلك .

كان رجل سياسة ، وكان يمتلك رؤية ثاقبة واضحة لا غناء عنها لمدير دفة سفينة ضخمة محملة بالأعباء مثل روسيا ، بثقلها المميت من الفلاحين .

وكنت أعاني من نفور عضوي من السياسة ، وكان أيماني ضئيلاً بالقوة العاقلة للجماهير ، وخاصة للفلاحين . فالعقل من دون أفكار مرتبة لأبعد ما يكون بعد عن القوة التي تغير الحياة بصورة خلاقة . ولا يمكن أن يكون هنالك أفكار

في ذهن أي جمهور قبل أن تتحقق جماعية المصالح لجميع أفراده المنفصلين .

كانت الجماهير تتوق على مدى آلاف السنين الى الخيّر ، وهذا التوق ينتج حيوانات كاسرة من لحم هذا الجمهور ، حيوانات كاسرة تستعبده ، وتعيش على دمائه . وهكذا ستبقى الأمور الى أن يتحقق لديه أن هنالك قوة وحيدة يمكن أن تحرره من عبودية الحيوانات ، ألا وهي قوة الحقيقة التي نادى بها لينين .

حين نشر لينين عام ١٩١٧ لدى عودته الى روسيا «موضوعات»ه ، خيّل الي أنه بهذه الموضوعات يضحي على مذبح الفلاحين الروس بتلك العصبة الصغيرة ، لكن البطولية ، من العمال المثقفين سياسياً وجميع الثوريين الحقيقيين الخارجين من صفوف الانتلجينتزيا . وخطر لي أن القوة الفاعلة الوحيدة في روسيا ستنثر مثل قبضة من الملح فى المستنقع العفن لحياة القرية ، سوف تذوب دون أن تترك أثراً ، وسوف يتمّ امتصاصها دون أن تحقق أي تبدل في عقلية الشعب الروسي أو حياته أو تاريخه .

كانت الانتلجينتزيا المؤهلة ، بصورة عامة ، العلماء والتقنيون ، ثورية بطبيعتها من وجهة نظري ، والى جانب الانتلجينتزيا العمالية الاشتراكية كانت القوة الثمينة المختزنة في روسيا في اعتقادى ، ولم أكن أرى في عام ١٩١٧ أية قوة أخرى قادرة على الامساك بزمام السلطة وتنظيم القرية . لكن شرطاً واحداً ، ألا وهو الوحدة الداخلية ، كان في مقدوره أن يتيح لهذه القوة ، الصغيرة عددياً والمنفسخة

بالتناقضات ، انجاز دورها . ان أمامها مهمة ضخمة — أن تدخل النظام الى فوضى القرية ، وأن تهذب ذهن الفلاح ، وأن تعلمه كيف يعمل بصورة عقلانية ، وأن تعيد تنظيم اقتصاده ، وعن طريق هذه الأمور كلها أن تجعل البلاد تتقدم مزدهرة . هذه الأمور كلها لا يمكن تحقيقها الا عن طريق اخضاع غرائز القرية لعقل المدينة . وكنت أعتبر أن المهمة الأولية للثورة تقوم في خلق الشروط التي تؤدى الى تطور القوى الثقافية في البلاد . وللوصول الى ذلك اقترحت أن أنشىء في كابري مدرسة للعمال ، وخلال سنوات الردة بين ١٩٠٧–١٩١٣ حاولت جاهدا أن أشدد من معنويات العمال بكل وسيلة ممكنة .

ولهذا الغرض نظمت عقب ثورة شباط مباشرة «الرابطة الحرة لتطوير العلم الوضعي ونشره» وهو معهد هدف من جهة واحدة الى تنظيم معاهد الأبحاث العلمية في روسيا ، ومن جهة أخرى الى ترويج المعرفة العلمية والتقنية بين العمال بصورة واسعة ومستمرة . وكان على رأس الرابطة العلماء البارزون وأعضاء أكاديمية العلوم : ف . أ . ستيكلوف ، ول . أ . تشوغاييف ، والأكاديمي فيرسمان ، وس . ب . كوستيتشيف ، أو . أ . بتروفسكي ، وعدد آخر . ولقد وجدت الوسائل من أجلها بطاقة عظيمة ؛ وكان س . ب . كوستيتشيف قد باشر في التفتيش عن مكان لمعهد البحث الحيواني والنباتي .

وامعاناً في الايضاح أضيف أن الأثر المذلّ لتفوّق أمية القرية على المدينة ، وفردية الفلاحين ، وافتقارهم شبه الكامل للعواطف الاجتماعية قد أثقلت على معنوياتي كثيراً

خلال حياتي كلها . ان دكتاتورية العمال المتنورين سياسياً ، في ترابط حميم مع الانتلجينتزيا العلمية والتقنية ، قد كانت ، في رأيي ، الحل الوحيد الممكن للأوضاع الصعبة التي جعلتها الحرب بالغة التعقيد بصورة خاصة بأن جعلت القرية أشدّ فوضى من ذي قبل .

وكنت أختلف عن الشيوعيين بخصوص قيمة الدور الذي تلعبه الانتلجينتزيا في الثورة الروسية التي سبق أن هيأت لها هذه الأنتلجينتزيا بالذات التي ينتسب اليها جميع البلاشفة الذين ثقفوا مئات من العمال بروح البطولة الاجتماعية والذهنية الأصيلة . ان الانتلجينتزيا الروسية - الانتلجينتزيا العلمية والمهنية - كانت في رأيي ، ولا تبرح ، ولسوف تظل طويلاً حيوان الجر الوحيد الذي يجرّ الحمل الثقيل للتاريخ الروسي . وعلى الرغم من جميع الصدمات والحوافز والمثيرات التي تمّ اختبارها ، فقد بقيت عقلية جماهير الشعب قوة لا تبرح في حاجة الى قيادة تأتي من خارجها .

هذا ما تهيأ لي قبل ثلاثة عشر عاماً - وقد كنت على خطأ ، ويجب أن تنتزع هذه الصفحة من مذكراتي . ولكن «ما خطته الريشة لا يمكن للفأس أن تقطعه» ، و«نحن نتعلم على حساب أخطائنا» كما كان لينين يردد دائماً . وليعرفنّ القاريء خطئي . وقد تكون له فائدة اذا خدم كتحذير لاولئك الذين يجنحون الى استخلاص نتائج متسرعة .

وطبيعي أنه لم يكن لي ، بعيد سلسلة من حالات التخريب البغيض جداً التي اقترفها عدد من الاختصاصيين ، خيار سوى أن أبدل موقفي من المهنيين من العلميين والتقنيين . وتقتضي

مثل هذه التبدلات ثمناً – وخاصة اذا اكتهل المرء .

ان واجب قادة الشعب المخلصين صعب بصورة تفوق طاقة البشر . لكن المقاومة ضد الثورة التي يقودهـا لينين كانت تنتشر من دون ذلك أوسع فأوسع ويتعاظم تنظيمها قوة وسلطاناً . اضافة الى هذا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار حقيقة أنه مع تطور الحضارة تنخفض قيمة الحياة البشرية بصورة جلية ، وهذه حقيقة أثبتها بوضوح في أوروبا المعاصرة تضخم تقنية ابادة الشعوب واللذة في هذه الابادة .

أتحدى أياً كان أن يعلن بصراحة مقدار تأييده ومقدار استيائه من نفاق الاخلاقيين الذين يتحدثون عن قساوة الثورة الروسية وتعطشها الى الدم حين لم يبدوا ذرة من الاشفاق على الشعوب التى أبيدت خلال أربـــع سنوات من الحـــرب الأوروبية الشاملة الشائنة ، بل الاكثر من ذلـك روّجوا ، بمختلف الوسائل الممكنة ، ضرام هذه الحرب البغيضـة حتى «النهاية الظافرة» . ان «الأمم المتمدنـة» انسحقـت اليوم ، والمراءاة البرجوازية الصغيرة السوقية المتفسخة المتلاشيـة المشتركة فيما بين مختلف العروق تسود ظافرة ، وليس ثمـة مهرب من رسنها ، والشعوب تختنق حتى الموت .

أشياء كثيرة قيلت وكتبت عن قسوة لينين . ولســـت أنتوي ، بطبيعة الحال ، أن أقوم بعمل يفتقر إلى الحصافـــة بصورة مضحكة كأن أدافع عنه ضد الأكاذيـب والافتراءات . أعرف أن الكذب والافتراء وسيلة مشروعة في السياســـة البرجوازية الصغيرة ، وأسلوب مألوف في مهاجمة العدو . يستحيل أن تجد شخصاً عظيماً واحداً في العالم اليوم لم يُقذف

بشيء من الطين . هذا أمر لا تنتطح فيه عنزات .

وفضلاً عن ذلك ، فان لدى جميع الناس نزعة ليس الى اسقاط شخص بارز الى مستوى أفهامهم وحسب ، بل الى دحرجته تحت أقدامهم في الوحل الدبق الكريه الذي ابتدعوه وأطلقوا عليه اسم «الحياة اليومية» .

والحادث التالي هو بالنسبة اليّ ذكرى بغيضة منفرة . ففي عام ١٩١٩ عقد في بطرسبورج مؤتمر «لفقراء القرى» . وجاء من قرى شمالي روسيا عدة ألوف من الفلاحين أقام عدة مئات منهم في القصر الشتوى لأسرة رومانوف . وحين انفضّ المؤتمر ورحل هؤلاء الناس بدا انهم استعملوا كمراحيض ، فضلاً عن جميع حمامات القصر ، عدداً كبيراً آخر من الأوعية الشرقية وأوعية سيفر وساكسونيا الثمينة . لم تكن هنالك ضرورة تدفعهم الى ذلك ، اذ كانت جميع مراحيض القصر في حالة جيدة ، والمياه فيها تجرى على أحسن ما يرام . لا ، فقد كانت هذه الهمجية تعبيراً عن الرغبة في تعطيب الأشياء الجميلة وتحقيرها . ان ثورتين وحرباً قد أورتنى بمئات الحالات من مثل هذه الميول الانتقامية المتخلفة لدى الناس في تحطيم الجمال وتشويهه والاساءة اليه والهزء به .

ولا يجوز التفكير في أني أؤكد على التصرف الذي قام به «فقراء القرى» بسبب من موقفى المتشكك من الفلاحين . ليست تلك هي الحال . فأنا أعرف مجموعة من المثقفين الذين يعانون من هذه الرغبة المرَضّية في تلويث كل ما هو جميل ، وأورد كمثال على ذلك أولئك المهاجرين الذين لا ريب أنهم يعتقدون

أنهم ما لم يكونوا موجودين في روسيا فلن يكون فيها شيء حسن .

هذه الرغبة الخبيثة في تشويه ما هو جميل نادر هي ، في الأساس ، مثل الرغبة البغيضة في تشويه سمعة رجل نادر المثال . فكل ما هو نادر يمنع الناس من أن يعيشوا كما يطيب لهم أن يعيشوا . فالناس تواقون ، ان كان لديهم رغبات ، لا الى اجراء تبديل جوهري في عاداتهم الاجتماعية ، بل الى اكتساب عادات اضافية . وزبدة نواح الأكثرية وشكواها هي : «حذار من التدخل في نمط الحياة الذي ألفناه !» .

وكان فلاديمير لينين رجلاً عرف أكثر من اي انسان آخر كيف يمنع الناس من أن يعيشوا حياتهم التي ألفوها .

كان بغض البرجوازية العالمية له واضحاً بصورة عارية منفرة ، والبقعة الشاحبة الأكثر ازعاجاً فيه تبرز بصورة لا تخطئها العين . وكان هذا البغض المقزز بحدّ ذاته ، ينبئنا مقدار ما كان عليه فلاديمير لينين من عظمة ورهبة فى عيني البرجوازية العالمية ، وهو ملهم وقائد البروليتاريين فى العالم بأسره . جسده لم يعد يعيش ، ولكن صوته يرنّ أوضح وأوضح وبصورة أشد ظفراً في آذان العمال على سطح الكرة الأرضية ، وليس ثمة زاوية فيها إلا ويرفع هذا الصوت من ارادة الشعوب في الثورة ، وفي حياة جديدة ، وفي خلق عالم تعيش فيه شعوب متساوية . وبمزيد من الثقة والقوة والنجاح يتابع هذا العمل العظيم أولئك الذين كانوا تلامذة للينين وغدوا الآن ورثة قوته .

تلك كانت ارادة الحياة المتظاهرة فيه بوضوح ، وذلك كان حقده الفاعل على فظائع الحياة ، وهما ما جذبني اليه . أحببت اللهفة الفوارة التي يغدقها على كل عمل يأتيه . كانت حركاته خفيفة رشيقة ، وايماءاته النادرة لكن القوية تتناغم التناغم كله مع حديثه ، مقتصدة في كلماتها غنية في أفكارها . وفي وجهه الذي يحمل ملامح مغولية طفيفة تلتمع وتومض عينان ثاقبتان لمناضل لا يتسرب اليه الضنى ضد أكاذيب الحياة وأحزانها - حينا تلتمعان وتلتهبان ، وحيناً تتضيقان ، وحيناً تغمزان ، وآونة تبتسمان في سخرية ، وآونة أخرى تبرقان غضباً . وكان توهج عينيه يزيد من احتدام كلماته .

وكان يبدو في الأحايين وكأن طاقة روحه التي لا تقهر تنبعث في شرارات من خلال عينيه ، وكلماته المنطلقة في دفقات مع تلك الطاقة تتعلق مشعشعة في الهواء . وكانت كلماته تترك دائما لدى المرء انطباعاً عن الضغط المادي لحقيقة لا تقاوم .

كان شيئاً غريبا وغير مألوف أن أرى لينين يتمشى في الحديقة في بلدة غوركي لكثرة ما ارتبطت أية فكرة عنه بصورة رجل يجلس في نهاية منضدة طويلة ، يقود الرفاق في عملهم في مهارة وخبرة ، بعيني ربان يقظان ، مبتسماً مشرق الأسارير ؛ أو ينتصب على منبر وقد ألقى برأسه إلى الخلف ، يلقي كلمات متميزة واضحة على الحشد الساكن ، أمام الوجوه المتلهفة للشعب المتعطش الى الحقيقة .

كانت كلماته تحمل إلى ذهني على الدوام اللمعان البارد

لرقاقات الفولاذ . ومن هذه الكلمات كان يهب ، في بساطة مذهلة ، وجه الحقيقة المنحوت على نحو كامل .

كان الحماس جبلّة لطبعه ، ولكنه لم يكن حماس لاعب استئثاري ، بل كان يكشف في لينين عن بشاشة روحه غير الاعتيادية التي لا يتصف بها الا انسان مؤمن ايماناً راسخاً برسالته ، انسان يحس في عمق وشمول بصلته بالعالم ، وقد ادرك حتى النهاية دوره في فوضى العالم ، دور عدو الفوضى . كان قادرا على قدر متشابه من الحماس ان يلعب الشطرنج ، وان يتصفح «تاريخ اللباس» ، وان يقضي ساعات في جدل مع رفاقه ، وان يصطاد السمك ، ويسير في دروب كابري الصخرية المسفوعة بشمس الجنوب ، ويستمتع بزهور الجنيستا الذهبية ، وملاطفة اولاد الصيادين الملطخين . وفي المساء تنهد في حسد ، وهو يسمع قصصاً عن روسيا ، وعن الريف :

– انا اعرف القليل من روسيا . سيمبيرسك ، قازان ، بطرسبورغ ، والمنفى ، وهذا كل شيء تقريباً !

وكان يحب النوادر المضحكة ويضحك بكل كيانه ، و«يتفجر» بالضحك حقاً ، الى حد ترقرق الدمع احياناً . وكان قادراً على ان يعطي للفظة التعجب «حم – حم» القصيرة المميزة تلاوين لا حصر لها ، من السخرية اللاذعة ، حتى الشك الحذر ، وغالباً ما تنطق هذه «حم – حم» بالدعابة الثاقبة المتطامنة

لرجل حاد البصر كثيراً ، حسن المعرفة بسفاسف الحياة الشيطانية .

انه ، وهو الربع القامة ، المتماسك البنيان ، بجمجمته الشبيهة بجمجمة سقراط ، وعينيه البصيرتين ، كان يتخذ احياناً وقفة غريبة كوميدية بعض الشيء - يلقي رأسه الى الوراء ، ثم يميله الى كتفه ، ويحشر اصابع يديه وراء صداره عند الابطين . وكان في هذه الوقفة شيء محبب بشكل مدهش ، شيء مضحك ، شيء يذكر بديك منتصر ، ويتألق في تلك اللحظة بفرحة ، وهو الابن العظيم لهذا العالم اللعين ، الانسان الرائع الذى كان عليه ان يقدم بنفسه ضحية العداء والبغضاء ، من اجل تحقيق قضية الحب .

لم ألتق لينين فى روسيا ، أو حتى ألمحه عن بعد ، حتى عام ١٩١٨ حيث جرت تلك المحاولة الآثمة الأخيرة للاعتداء على حياته . جئت اليه حين كان قد استردّ بصعوبة امكانية استخدام يده وحين كان يستطيع بمشقة أن يحرك عنقه الذى أصيب بالطلق الناري . وحين عبرت عن استيائي أجابني كمن يطرد شيئا أناخ عليه تعبا :

- انه شجار . فما العمل ؟ كل يتصرف على مزاجه .

كان لقاؤنا ودياً تماماً ، لكنه كان بالطبع في نظرة العزيز ايليتش الثاقبة النافذة شفقة واضحة ، لأنني كنت قد «ضللت» الطريق .

قال بعيد لحظات قصيرة فى نبرة لهفى :

– من ليس معنا فهو ضدنا . الناس المستقلون عن مجرى الأحداث – هذا وهم خالص . وحتى لو سلمنا أن لمثل هؤلاء الناس وجود ، فهم الآن ليسوا ولا يمكن أن يوجدوا . فهم لا ينفعون أياً كان . هم ، حتى آخر واحد فيهم ، قد سقطوا في دوامة الأحداث الحالية التي هي أكثر تعقيدا منها في أي وقت مضى . أنت تقول انني أبسّط الحياة كثيراً ؟ وان هذا التبسيط يهدّد الثقافة بالدمار ، أليس كذلك ؟

وأعقب ذلك سخريته المميزة :

– هِمْ ، هِمْ . . .

انشحذت نظرته الثاقبة ، وتابع يقول فى صوت خفيض :

– حسناً . والملايين من الفلاحين الحاملين بنادق في أيديهم لا يهددون الثقافة في رأيك ، أليس كذلك ؟ أنت تعتقد أنه كان بامكان الجمعية التأسيسية مواجهة فوضويتهم بصورة أفضل من الملكية ؟ أنت الذي أثرت مثل هذا الهرج والمرج بخصوص فوضى الريف ينبغي أن تكون قادراً على فهم مهماتنا أكثر من الآخرين . علينا أن نضع أمام الجماهير الروسية شيئاً بسيطاً ، شيئاً يتمكنون من استيعابه . المجالس السوفييتية والشيوعية على جانب من البساطة .

– اتحاد العمال والمثقفين ، ما ؟ حسناً ، هذا ليس سيئاً . أخبر المثقفين ، فليأتوا الينا . في نظرك هم خدم مخلصون للعدالة . ما المشكلة اذن ؟ تفضلوا ، تفضلوا إلينا . فنحن بالضبط الذين أخذنا على عاتقنا المهمة العملاقة الخاصة بإيقاف الشعب على قدميه ، واخبار العالم بأسره بالحقيقة عن الحياة – نحن الذين ندل الشعب على الطريق

القويمة الى حياة بشرية ، الطريق التي تخلصه من العبودية ، والفقر ، والانحطاط .

وضحك ، وقال دون أي أثر للاستياء :

– لهذا السبب تلقيت رصاصة من المثقفين .

وحين اقتربت حرارة الحديث من درجتها الطبيعية أعلن في حيرة واكتئاب :

– أتحسبنى أعارض فكرة أن المثقفين ضروريون بالنسبة الينا ؟ ولكن ألا ترى مقدار عداوة موقفهم منا ، وكم يخطئون فى فهم الحاجات الملحة ؟ وهم لا يرون ما هم عليه من ضعف من دوننا ، ومبلغ عجزهم عن الوصول الى الجماهير . والذنب يقع عليهم اذا عملنا الكثير من الاشياء التى لا نفع فيها .

كنا نناقش هذا الموضوع في لقاءاتنا بصورة دائمة على وجه التقريب . وعلى الرغم من أن موقفه من الانتلجينتزيا قد ظل في أقواله موقف العداوة وانعدام الثقة ، فقد كان في واقع الأمر يقدر بصورة صائبة أهمية طاقة المثقفين في مجرى الثورة ، وكان يبدو أنه موافق على أن الثورة ، فى جوهرها ، كانت انفجار تلك الطاقة العاجزة عن التطور بصورة منتظمة فى الشروط المتوترة التى تجاوزتها .

أذكر مناسبة زرته فيها برفقة ثلاثة من أعضاء أكاديمية العلوم . وكان الحديث يدور حول ضرورة اعادة تنظيم واحد من أعلى المعاهد العلمية فى بطرسبورج . وبعد أن ودعهم لينين عالننى فى شىء من الرضى :

– اها ، هذا افهمه . هؤلاء رجال أذكياء . كل شيء معهم يبدو بسيطاً ، وكل شيء مصاغ بدقة . وأنت

ترى على الفور أن هؤلاء الناس يعرفون جيداً ما هم في حاجة إليه . ان العمل مع أمثالهم لمتعة بكل بساطة . وقد أحببت بصورة خاصة ذلك . . .

وذكر أحد الأسماء العظمى فى العلوم الروسية ، حتى إنه سألنى فى اليوم التالى على الهاتف :

– استوضح س . ما إذا كان سيأتى ويعمل معنا .

وحين قبل س . الاقتراح غمره سرور صادق ، فراح يفرك يديه ببعضهما بعضاً ويقول مازحاً :

– واحداً بعد واحد سنربح في صفوفنا كل أرخميدس روسي وأوروبى ، وعندها لا بدّ للعالم أن يتبدل شاء أم أبى !

فى المؤتمر الثامن للحزب قال ن . ا . بوخارين فيما قال :

– الأمة . . . انها البرجوازية والبروليتاريا معاً . ان الاعتراف بحق أية برجوازية خسيسة في تقرير مصيرها أمر غير وارد على الاطلاق .

فأجاب لينين :

– كلا ، اعذرنى . هذا مطابق للواقع . أنت تحتكم الى عملية التمايز بين البروليتاريا والبرجوازية . لكن دعنا ننتظر ونشاهد كيف تكون النتيجة .

ثم أشار الى ما جرى في ألمانيا ، والى البطء والصعوبة اللذين تتقدم بهما عملية التمايز ، وبعدما ذكر «ان زرع الشيوعية لم يتم بوساطة القوة» ، استرسل في مناقشة مسألة أهمية الانتلجينتزيا في الصناعة ، والجيش ، والحركة

التعاونية ، وأستشهد فيما يلي مما نشر في «الأزفستيا» من مناقشة المؤتمر .

«هذه المسألة يجب أن تحسم في المؤتمر الحالي فى وضوح لا لبس فيه . ليس في مقدورنا أن نبني الشيوعية الا حين تغدو أقرب تناولاً من الجماهير عن طريق وسائل العلم والتقنية البرجوازيين .

ولهذا ، فان من الضرورى انتزاع الجهاز من البرجوازية ، واجتذاب جميع الأخصائيين للعمل في هذا الخصوص . من دون الأخصائيين البرجوازيين يستحيل زيادة قوى الانتاج . وينبغي أن يحاطوا بجوّ من التعاون الرفاقى ، وبمفوضين من العمال ، بشيوعيين ؛ وينبغي خلق ظروف لا تتيح لهم الإفلات ، بل يجب أن تتاح لهم امكانية العمل بصورة أفضل مما كانوا عليه أيام الرأسمالية ، وإلا فإن هذه الشريحة التي تلقت تعاليمها من البرجوازية لن تباشر العمل . من الممستحيل أن تجعل شريحة كاملة تعمل على طريق القوة وحدها . والاخصائيون البرجوازيون اعتادوا القيام بعمل ثقافي ، وكانوا ينفذونه ضمن اطار النظام البرجوازي ، وهذا يعنى أنهم أغنوا البرجوازية بأعمال وانشاءات مادية ضخمة ، وقدموا للبروليتاريا نصيباً بائساً من هذه الثروة . ومع ذلك فقد اندفعوا قدماً بالعمل الثقافى – تلك هي حرفتهم . وبقدر ما يرون أن العمال لا يقدرون الثقافة وحسب ، بل يساعدون فى نشرها بين الجماهير ، فلسوف يبدلون موقفهم منا . وعندئذ نفوز بهم معنوياً ، فضلاً عن فصلهم سياسياً عن البرجوازية . ينبغي أن نجذبهم الى جهازنا ، ولذلك يجب أن نهيئ انفسنا لبذل

التضحيات . في تعاملنا مع الأخصائيين لا ينبغـــي أن نلتزم بنظام من المضايقات الحقيرة . يجب أن نقدم لهم أفضل شروط الحياة الممكنة . هذه هي السياسة الفضلى . واذا كنا تحدثنـا البارحة عن جعل الأحزاب البرجوازية الصغيرة أحزابا قانونية ، ونعتقل اليوم المناشفة والثوريين الاشتراكيين اليساريين ، فان ثمة خطاً مستقيماً يجتاز هذه السياســـة المتبدلـــة — استئصال الثورة المضادة واكتســاب الجهــاز الثقـــافي البرجوازى» .

ان في هذه الكلمات الرائعـــة للسياسي العظيـــم حساً أكثر واقعية وحيوية مما فى عويـــل النفـــاق البائس «للأنسانية» البرجوازية الصغيرة . ومن سوء الحظ أن كثيرين ممن كان ينبغي أن يفهموا ويقدروا هذا الاحتكام الى العمـــل الشريف بالتعاون مع الطبقة العاملة لم يفهموه أو يقدروه . لقد فضّلوا القيام بالتخريب السرى والقذر والخيانة .

بعد الغاء الرق أيضاً بقي كثيرون من خـدم البيـوت ، العبيد في الأصل ، يخدمون أسيادهم فى ذات الاسطبلات التي كان هؤلاء يجلدونهم فيها .

كنت أتحدث ولينين غالباً عن قسوة التكتيك والحيـــاة الثوريين ، فيسأل في انشداه وغضب :

— ماذا تريد ؟ أمن الممكن التصرف بصورة انسانية في نضال في مثل هذه الوحشية التي لم يسبق لها مثيل ؟ أثمة مكان لطيبة القلب أو سماحة النفس ؟ نحن محاصرون مـــن

اوروبا ومحرومون من مساعدة البروليتاريا الأوروبية التى كنا فى انتظار ثورتها ، الثورة المضادة تزحف علينا مثل دب من كل جانب . فماذا تريد؟ ألسنا على حق ؟ ألا يتعين علينا أن نناضل ونقاوم ؟ لسنا جماعة من البلهاء . ونعرف أن ما نريده لا يمكن أن يتحقق الا بوساطة أنفسنا . أتظنني كنت أجلس هنا لو كنت واثقاً من خلاف ذلك ؟

وسأل مرة ، بعيد مناقشة محتدة :

– ما هو فيصلك في الحكم على أية ضربات تكون ضرورية وأيها تكون غير ضرورية فى قتال ما ؟

لم يكن فى طوقى أن أعطي غير جواب شاعرى غامض عن هذا السؤال البسيط . وخطر لي أن من المستحيل أن أعطي جواباً آخر .

ما أكثر ما كنت أغرقه بطلبات من مختلف الأشكال ، غالباً ما كنت أشعر أن هذا العناء الذي كنت ألقيه على عاتقى من أجل أناس متباينين يجعل لينين يرثى لى . كان يسألنى :

– ألا تعتقد أنك تهدر طاقاتك على أشياء تافهة ؟

ولكنني ظللت أفعل ما خيّل لي أنه يجب ان يُفعل ، وما كنت أتوانى حين كان ذلك الرجل الذي كان يعرف من هم أعداء البروليتاريا يشزرني بنظره غاضباً . كان يهز رأسه بصورة ساحقة ، ويقول :

– أنت تعرض نفسك للشبهات في نظر الرفاق والعمال .

أشرت الى أن الرفاق والعمال ، حين تجمح انفعالاتهم ويسخطهم الغضب ، ما أكثر ما كانوا يستخفون بحياة أناس قيمين وحريتهم ، وأن هذا في رأيي لا يسيئ الى عمل الثورة

الشريف المضني من جراء القسوة البالغة فحسب ، وأحياناً كان عديم المعنى ، بل كان عملاً شريراً من الناحية الموضوعية والاستراتيجية ، ذلك أنه يمنع كثيرين من الناس الذين لهم أهميتهم من المشاركة في الثورة .

تمتم لينين فى الارتياب : «هِمْ ، هِمْ» ، وذكر لي عدداً من القضايا خانت فيها الانتلجينتزيا مصالح العمال . قال :

– الامر بيننا ، كثيرون من الناس يمضون الى الطرف الآخر ويخونوننا ، ليس بدافع الجبانة وحسب ، بل بدافع الغرور ، ذلك أنهم يخافون من أن يجدوا انفسهم في وضع مربك ، يخافون من أن تعاني نظريتهم العزيزة حين تصطدم بالواقع . ولكننا ، نحن ، لا نخاف من ذلك . ليس فى النظريات أو الفرضيات شيء من القداسة أو التكريس بالنسبة الينا ، بل هي تخدمنا كأدوات ليس غير .

ورغم هذا فأنا لا أذكر حالة واحدة جوبه فيها أي من طلباتي بالرفض من قبل ايليتش . واذا لم تكن تلبّى دائماً فلم يكن ذلك نتيجة خطئه هو ، بل نتيجة النواقص الكثيرة في آلية جهاز الدولة الروسية الاخرق ، أو لنقل الاعراض الخبيث عن التخفيف من مصير الكثيرين ، أو انقاذ حياة أناس لهم قيمتهم . قد يكون هنالك أيضاً حالات من الأذى المتعمّد الذي هو عدو سواء في الحقد والمكر . فالانتقام والخبث يفعلان غالباً عن طريق قوة العطالة ؛ ومما لا ريب فيه أن هناك أشخاصاً حقيرين عقولهم مريضة يستبد بهم عطش مرضيّ للاغتباط بمرأى عذابات جيرانهم .

أطلعنى مرة وهو يبتسم على برقية : «لقد اعتقلوني مرة أخرى . قل لهم أن يطلقوا سبيلي» .

كانت البرقية بتوقيع ايفان فولني .

– لقد قرأت كتابه . أعجبنى كثيراً . شعرت على الفور بعد قراءتي الكلمات الخمس الأولى أنه رجل يفهم حتمية الأخطاء ، رجل لا يستبد به الغضب ، أو تعصف ثورته اذا حاق به الأذى شخصياً . وأعتقد أنها المرة الثالثة التى يعتقل فيها . يحسن أن تنصح له بمغادرة القرية والا قتلوه في المرة القادمة . من المؤكد أنهم لا يحبونه هناك . هلا نصحت له . برقاً .

كانت أهبة لينين الدائمة لمساعدة الناس الذين يعتبرهم أعداء له تصعقنى ، ليس الأهبة في المساعدة وحسب ، بل الاهتمام بمستقبلهم أيضاً . وعلى سبيل المثال ، فقد هدّد جنرال ، عالم كيميائي ، بالموت .

قال لينين ، بعدما أصغى الى قصتي في انتباه :

– هِمْ ، هِمْ . أنت تعتقد اذن أنه لم يكن يعرف أن أولاده أخفوا سلاحاً حربياً في مختبره ؟ يبدو هذا شيئاً غير معقول . لكنه ينبغي أن ندع الأمر لدزيرجنسكي كيما يحلّ لغزه . ان له غريزة ثاقبة فى الوصول الى الحقيقة .

بعيد عدة أيام حدثني على الهاتف في بتروغراد قائلاً :

– سنطلق سراح جنرالك – وأعتقد أنه غدا حراً . ماذا ينتوي أن يصنع ؟

– المستحلب المتجانس .

– أجل ، أجل . . . حمض الكربوليك . حسناً . فليعمل

في غلي كربوليكه . أخبرني ان كان في حاجة الى شيء ما .

كان لينين يتحدث بنبرة ساخرة كيما يخفي سعادته التي لا يرغب في اعلانها لانقاذه حياة بشرية وسألنى بعد عدة أيام .

– حسناً ، كيف تسير أمور الجنرال ؟

في عام ١٩١٩ ظهرت في مطابخ بطرسبورج سيدة رائعة الجمال كانت تسأل بنبرة قاسية :

– أعطوني عظاماً لكلابي ! أنا الأميرة تش .

وشاعت قصة مفادها أن الأميرة ، وقد عجزت عن احتمال الخزى والجوع مدة أطول ، عقدت العزم على أن تلقي بنفسها في نهر النيفا ، لكنه يقال ان كلابها الأربعة التي حدست غريزياً نيتها البائسة ركضت وراءها وظلت تنبح وتتلوى أمامها حتى جعلتها تطوي صفحاً عن فكرة الانتحار .

رويت هذه القصة للينين . فجعل يتفحصني بنظرة جانبية ، وزر عينيه ثم أغلقهما وقال في عبوس :

– حتى لو كانت هذه القصة مختلقة ، الا أن الفكرة لا بأس بها . دُعابة عن الثورة .

صمت . ثم هبّ على قدميه ، وضرب على الأوراق فوق منضدته ، وقال متروياً :

– أجل . أولئك الناس في عسر شديد . التاريخ رابة متوحشة ، وحين ينتقم فليس ثمة ما يوقفه . ماذا يمكن أن أقول ؟ الوقت عسير على أولئك الناس . الأذكياء فيهم يعلمون

من دون ريب أنهم اقتلعوا من جذورهم ولن تقوم لهم قائمة بعد اليوم . والازدراع في أوروبا لن يرضي الأذكياء . وأنت لا تعتقد أنهم سيستوطنون هناك ، أليس كذلك ؟

– لا أحسب ذلك .

– هذا يعني أنهم ، اما أن يتخذوا سبيلنا أو يحاولوا التدخل في شؤوننا من جديد ؟

سألته :

– هل هذا ما يخال لى وحسب ، أم أنك ترثي للناس حقاً ؟

– أنا أرثى للأذكياء فقط . فليس لدينا كثرة من الأذكياء . نحن فى الغالب شعب موهوب ، لكننا كسالى عقلياً .

وذكر عدداً من الرفاق الذين تجاوزوا سيكولوجيتهم الطبقية وهم يعملون مع «البلاشفة» ، وتحدث عنهم فى حرارة مدهشة .

كان لينين رجلاً حديدى الارادة يجمع في نفسه ، الى أعلى حد ، أفضل صفات وخصائص الانتليجينتزيا الثورية – الانضباط الذاتي الذي يبلغ تعذيب الذات وتشويهها ، في حديها الأقصيين ، يبلغ النكران الزهدى للفن ، يبلغ منطق أحد أبطال ل . أندرييف : «الآخرون يعيشون حياة قاسية ، ولذلك ينبغي أن أعيش حياة قاسية» .

فى عام ١٩١٩ ، عام المجاعة الرهيبة ، كان لينين يخجل أن يأكل الطعام الذي يرسله اليه الرفاق والجنود والفلاحون

من الأقاليم . وحين كانت الرزم تصل الى شقته الكئيبة تتجهم طلعته ، ويتفاقم ارتباكه ، ويعجل فى توزيع الطحين والسكر والزبدة على الرفاق المرضى أو الذين أنهكهم نقص الغذاء . وذات مرة ، وهو يدعونى لتناول طعام الغداء برفقته ، قال لي :

– سأعطي لك قليلاً من السمك المدخن – فقد بعثوا به الى من أستراخان .

وعبست جبهته السقراطية ، ونحّى عني نظرته الحادة ، وأضاف :

– يرسلون الىّ أشياء فكانني أحد اللوردات ! كيف يتاح لي أن أمنعهم عن ذلك ؟ ان أنا رفضت ذلك ولم أقبله جرحت عواطفهم . وكل من يحيط بي جائع سغبان .

لم تكن لديه هوايات خاصة ، وكان التدخين والخمرة غريبين عنه ، فكان ينهمك من الصباح حتى الليل في أعمال صعبة معقدة ، ولا يخطر له أن يعنى بنفسه ، بل يرعى بعين ساهرة رفاهية الرفاق . كان يجلس الى منضدته في مكتبه ، ويتحدث بسرعة ويكتب دون أن يرفع الريشة عن الورق :

– صباحك سعيد . كيف حالك ؟ سوف أنتهى حالاً . هنالك رفيق فى القرية يشعر بالوحدة – من الواضح أنه منهك . ولا بدّ من رفع معنوياته . ليست الحالة الذهنية بأقل الأشياء شأناً !

جئته مرة فى موسكو . فسألنى :

– هل تغديت ؟

– نعم .
– أنت لا تزاوغ ؟
– هنالك شهود . تناولت الطعام في غرفـــة الطعام في الكرملين .
– سمعت أن الوجبات هنالـــك ليســـــت من الجودة بمكان .
– ليست رديئة ، لكن يمكن أن تكون أفضل .
وما أسرع أن سألنى عن التفصيلات : لم ليست هـــى جيدة ؟ كيف يمكن تحسينها !
وجعل يتمتم غاضباً :
– فيم لا يستحضرون طاهياً خبيراً ؟ الناس يعملون حتى الاغماء بمعنى الكلمة الحرفي ، ويجب أن يتغذوا بطعام جيد ويأكلوا أكثر . أعرف أنهم لا يحصلون الا على قليل مـــن الطعام ، وهذا أمر سيئ . . . يجب أن يحصلوا عــلى طباخ ماهر هناك . – واستشهد برأى بعض علماء الصحة عن الدور الذي تلعبه التوابل في عمليات الأكل والهضم ، فسألت :
– كيف تجد متسعاً من الوقت للتفكير فى مثل هذه الأمور ؟
فأجابني بسؤال آخر :
– في موضوع التغذية العقلانية ؟
عرفت من نبرة صوته أن سؤالي لم يأت في محله .
أحد معارفي القدامى ، ويدعى ب . أ . سكوروخودوف ، عامل آخر من عمال سورموفو ، وهو رجل رقيق القلب ، شكى لي من ارهاق العمل فى اللجنة الاستثنائية . فقلت له :

– أعتقد أن هذا العمل لا يناسبك . فهو لا يوائم مزاجك .

فوافقني الرأى حزيناً :

– انه لا يوائمني البتة .

واسترسل يقول بعد تفكير قصير :

– ولكنك تعرف أنه لا بدّ لايليتش أن يكتم عواطفه هو الآخر ، وأنا أخجل من كوني على هذه الدرجة من الضعف .

عرفت ولا أبرح أعرف عمالاً كثيرين وجب عليهم ويجب عليهم أن يطحنوا أسنانهم ، وأن يكتموا عواطفهم ، وأن يتغلبوا على «مثاليتهم الاجتماعية» العضوية في سبيل انتصار القضية التي يخدمون .

فهل وجب على لينين أيضاً أن يكتم عواطفه ؟

كان يصرف اهتماماً ضئيلاً على نفسه ، فكيف يتحدث عن نفسه أمام الآخرين ؟ كان في مقدوره أكثر من الآخرين جميعاً أن يكتم الاضطراب الخفي في روحه . وذات مرة في بلدة جوركى ، حين كان يداعب بعض الأطفال ، أعلن قائلاً :

– هؤلاء ستكون لهم حياة أفضل من حياتنا . فهم لن يعانوا التجربة التي بها مررنا . ولن يكون فى حياتهم هذا القدر من القسوة .

ومدّ بصره الى المنتأى ، الى الهضاب التى تحتضن القرية ، وأضاف متأملاً :

– ومع هذا فأنا لا احسدهم . لقد حقق جيلنا شيئاً رائعاً بالنسبة الى التاريخ . فالوحشية التي جعلت منها ظروف

حياتنا حاجة ضرورية سيتم استيعابها وتبريرها . سيتمُ فهم كل شيء ، كل شيء .

وداعب الأطفال في حنو عظيم مداعبات ذات لطف وعذوبة خاصتين .

زرته مرة ولمحت كتاب «الحرب والسلم» على منضدته .

– أجل . تولستوى . أردت أن أعيد قراءة مشهد الصيد ، ثم تذكرت أن عليَّ الكتابة الى أحد الرفاق . ليس لديَّ وقت للقراءة على الاطلاق . الليلة الماضية تدبرت أمرى فقرأت كتابك عن تولستوي .

ضحك ، وضيّق فرجتي عينيه ، واسترخى في مقعده العريض ، وأخفض صوته ، وأضاف في عجلة :

– يا له من عملاق ، أليس كذلك ؟ يا للعقل المتطور إلى درجة الروعة ! هذا فنان حقاً ، يا سيدى . وهل تعرف ما يثير الانشداه أكثر ؟ أنت لا تجد فلاحاً حقيقياً في الأدب حتى ظهر هذا الكونت على المسرح .

وزر عينيه ورنا اليَّ ، واستوضح :

– أتستطيع أن تضع أحداً فى أوروبا الى جانبه ؟

وأجاب بنفسه :

– على الاطلاق .

وحك يديه ببعضهما ، وهو يضحك راضياً .

أكثر من مرة لحظت فيه هذه السمة – هذا الفخار بروسيا . بالروس ، بالفن الروسي . كانت هذه السمة تظهر

لي أحياناً مغايرة بصورة غريبة لطبيعة لينين ، بل كانت تبدو ساذجة ، بيد أنني تعلمت أن اسمع فيها صدى حبه العميق الجذلان للشعب العامل .

في كابرى ، فيما هو يراقب الصيادين يفكون شباكهم فى عناية ، هذه الشباك التي مزقتها أسماك القرش وعقدت بين خيطانها ، ابدى هذه الملحوظة :

– رجالنا يعملون بخفة اكبر .

حين أبديت شيئا من الارتياب حول ملحوظته أعلن في شيء من الغيظ :

– هِمْ ، هِمْ . ألا تعتقد أنك تنسى روسيا وأنت تعيش على هذه الحدبة من الارض ؟

روى لى ف . أ . ديسنيتسكى-ستروييف أنه كان يسافر مرة برفقة لينين في قطار يجتاز السويد ، ويتصفح كتابا المانيا عن الفنان دورر ، فسأله بعض الألمانيين الراكبين في العربة ذاتها عن مضمون الكتاب . واتضح فيما بعد أنهم لم يسمعوا قط عن رسامهم الكبير . فأثار ذلك حماسة لينين ، فقال لديسنيتسكى مرتين فى اعتزاز :

– هم لا يعرفون فناني بلادهم ، أما نحن فنعرف .

ذات عشية في موسكو ، في شقة ى . ب . بيشكوفا ، كان لينين يصغي الى سوناتا بتهوفن يعزفها إيسياه دوبروين ، فقال :

– أنا لا أعرف شيئاً أسمى من الأباسيوناتا ، وأتمنى أن أصغى إليها يومياً . انها موسيقى فوقبشرية رائعة .

ودائماً يخطر لي في فخار – ربما كان ذلك سذاجة فيّ – ما أكثر الأشياء الرائعة التي يمكن أن يصنعها البشر !

وزرّ عينيه وابتسم ، وأضاف في شيء من الاكتئاب :

– غير أنني لا أتمكن من الاصغاء الى الموسيقي كثيرا . انها تؤثر فى أعصابك ، وتجعلك راغباً في النطـــق باشيـاء لطيفة ، سخيفة ، وفي المسح على رؤوس الناس القادرين على ابداع مثل هذا الجمال وهم يعيشون في هذا الجحيم الفاسد ؛ وهذا أنت الآن لا يجوز لك أن تمســح على رأس أي كان – فقد تُعَضُ يدك . ينبغي لك أن تضربهم على رؤوسهم ، دون أي رحمة ، رغم أن مثلنا الأعلى هو عدم استخدام القوة ضد أي كان . هِمْ ، هِمْ ، ان مهمتنا لقاسية بصورة جهنمية .

حين ألمّ به المرض ، هدّ جسده تماماً ، كتب الىّ في التاسع من اغسطس ١٩٢١ يقول :

ألكسي مكسيموفيتش !

بعثت رسالتك الى ل . ب . كامينيف . أنا منهك بحيـث أعجز عن اتيان أي عمل ولو كان طفيفاً . وأنت تبصق دماً ، ورغم هذا لا ترحلُ ! هذا طيش الى درجة مخزيـة حقــاً . فى أوروبا ، في مصح محترم ، سوف تستعيد عافيتـك وتغدو قادراً على أن تفعل اكثر بثلاث مرات . من دون ريب ، من دون ريب . اما هنا فأنت لا تتعافى أو تفعل شيئاً . ليس لك عمـل هنا سوى القلق ، القلق الذي لا غناء فيه . إرحل واسترد صحتك . لا تركب رأسك ، أتوسل اليك .

المخلص

لينين

طوال سنة ونيف ظلّ يصرُ عليّ بعناد مدهش بوجوب مغادرة روسيا . وشدهني أنه ، رغم انهماكه فى العمل ، بقي يذكر أن هنالك رجلاً مريضاً في مكان ما يحتاج الى الراحة . كان يدون رسائل على هذا الغرار الى أناس عديدين – من المرجع عشرات منها .

لقد وصفتُ سابقاً موقفه الاستثنائي من الرفاق ، واهتمامه بهم ، هذا الاهتمام الذي ينصرف حتى الى أتفه تفاصيل حياتهم . غير أننى لم ألمح قط في هذه الصفة التي يتسم بها دلالة على ذلك الاهتمام الصادر عن مصلحة ذاتية الذي يبديه أحياناً معلم ألمعي تجاه عامل خبير وشريف .

لم تكن الحال على هذا الغرار بالنسبة الى لينين . كان اهتمامه ذلك الاهتمام المخلص الصادر عن رفيق صادق ، الحب الذي يتواجد بين الناس المتساويين . واعرف أنه من المستحيل أن نجد مساوياً للينين حتى بين أعاظم الرجال في حزبه ، وكان يبدو أنه ، هو نفسه ، لا يدرك ذلك ، أو لعله على الأرجح لا يريد أن يدرك ذلك . كان في بعض الأحيان قاسياً مع الناس ، حين يناقشهم ، ويسخر منهم دون شفقة ، بل يهزأ بهم بأسلوب سام . لقد فعل هذا كله .

لكن كم من مرة ، حين يحكم على أناس كان بالأمس ينتقدهم ويعنفهم ، اتضحت فيها دلائل انشداهه الحقيقي بمواهبهم وحزمهم المعنوي ، بعملهم الحازم في الظروف البغيضة لأعوام ١٩١٨–١٩٢١ ، العمل بين الجواسيس من مختلف

البلدان والأحزاب ، بين المؤامرات التـي تكاثرت كالقروح المتقيحة على جسد البلاد التي أضنتها الحرب .

ولكن لينين نفسه ، بدا وكأنه لم يعان مـن قساوة ظروف واخطار الحياة التي هزتها حتى اسسها عاصفة الصراع الاهلي الدموية . الا مرة واحدة ، في حديث مـع م . ف . اندرييفا افلتت منه ، على حد تعبيرها ، ما يشبه الشكوى :

– ما العمل يا عزيزتى ماريا فيدوروفنـا ؟ يجـب النضال . ضروري ! شاق علينا ؟ طبعاً ! أتظنيني لا اصادف مشقة ؟ اصادف ، وما اثقلها ! ولكن انظري الى دزيرجينسكى كيف تردى ! لا حيلة لنا في ذلك ، لتكن امامنا مصاعب ، المهم ان ننتصر !

وقد سمعت منه بنفسي شكوى واحدة فقط :

– من المؤسف ان مارتوف ليس معنا ، مؤسف جداً ! اي رفيق مدهش هو ، اي انسان نزيه !

واتذكر كيف قهقه طويلا في مرح بعد ان قرأ كلمـات مارتوف :

«في روسيا يوجد شيوعيان فقط : لينين وكولونتاى» .

وبعد ان ضحك قال متنهدا :

– يا له من ذكي ! آه . . .

وقال باحترام واندهاش حقيقيين ، بعد ان ودع خارج المكتب رفيقاً «اداريا» :

– هل تعرفه منذ زمن طويل ؟ يمكن ان يكون رئيسـاً لمجلس الوزراء في اي قطر اوروبى .

وفرك يديه ، وضحك قليلا ، واضاف :

– اوروبا افقر منا بالموهوبين .

واقترحت عليه ان يزور الادارة الرئيسية للمدفعية ليرى جهازاً لضبط التسديد على الطائرات ، اخترعه بلشفي كان مدفعيا سابقاً

– وماذا افهم انا في ذلك ؟ – سأل ، ولكنه ذهب .

وفي الغرفة شبه المظلمة تجمع حول المنضدة التي وضع عليها الجهاز زهاء سبعة جنرالات عابسين ، كلهم شيوخ شيب ذوو شوارب كبيرة ، علماء ووسطهم شخصه المدني المتواضع ضاع وصار غير ملحوظ ، وبدأ المخترع يشرح تركيب الجهاز . واصغى اليه لينين دقيقتين او ثلاثاً ، وقال مصادقاً :

– حم – حم ! – واخذ يسأل المخترع بيسر ، وكأنه كان يمتحنه في المسائل السياسية :

– وكيف توصلت في وقت واحد الى العمل المزدوج للجهاز الذي يحدد نقطة التسديد ؟ وهل يجوز ربط تصويب المدفع اوتوماتيكيا باشارات الجهاز ؟

وسأل عن سعة مجال الرماية ، وعن اشياء اخرى . وشرح المخترع والجنرالات بحيوية . وفي اليوم التالي حدثني المخترع قائلا :

– كنت قد قلت لجنرلاتي انك ستأتي مع رفيق آخر ، ولم اقل من هو هذا الرفيق . فلم يتعرفوا على ايليتش ، نعم ، ومن المحتمل انهم لم يستطيعوا ان يتصوروا انه يأتي بلا ضجة ، ولا مراسيم استقبال ، ولا حراس . ويسألونني هل هو خبير بالتكنيك ، بروفيسور ؟ أهو لينين ؟ ودهشوا دهشة رهيبة ، كيف يكون هذا ؟ لا يمكن ! ثم اعذرنا ، من

أين يعرف فنوننا ؟ لقد القى اسئلة وكأنه شخص خبير بالتكنيك ! انه تضليل ! - يبدو أنهم ظلوا غير مصدقين بان لينين نفسه قد زارهم . . .

اما لينين فقد قهقه في طريق عودته من الادارة الرئيسية للمدفعية متأثراً ، وتحدث عن المخترع :

- بهذا الشكل يمكن الخطأ في تقييم انسان ! كنت اعرف انه رفيق قديم مخلص ، ولكنه من اولئك الذين لا يحلقون عالياً . الا أنه ظهر انه صالح لهذا الامر بالذات . شاطر ! وهل رأيت كيف تهاوش الجنرالات عليّ حين ابديت شكي في القيمة العملية للجهاز ! وقد فعلت ذلك عمداً ، اردت ان اعرف كيف يقدرون هم بالذات هذا الاختراع الطريف .

وانفجر ضاحكا ، ثم سأل :

- أتقول عند «ي» اختراع آخر ؟ ما الامر ؟ يجب ان لا يشتغل بشيء آخر . آه ، لو كانت لنا امكانية توفير الظروف المثالية لعمل كل هؤلاء التكنيكيين ! اذن لكانت روسيا بعد خمسة وعشرين عاماً قطرا طليعياً في العالم !

نعم ، غالباً ما كنت أسمع مدحه للرفاق ، وحتى لاولئك الذين - حسب الشائعات - لم يكونوا يتمتعون بعطفه الشخصي . لقد كان لينين يجيد الكلام في تقدير طاقاتهم حق قدرها .

وقد اشدهنى تقديره العالى لقدرات ل . د . تروتسكي التنظيمية . وقد لاحظ فلاديمير ايليتش دهشتي ، فقال :

- أجل ، أعرف أن هنالك اشاعة كاذبة عن موقفي منه . لكن ما هو صحيح هو صحيح ، وما هو غير صحيح

هو غير صحيح – وأنا أعرف هذا أيضا . فقد كان قادراً على أية حال على تنظيم الخبراء العسكريين .

وبعد صمت قصير أضاف في نبرة خفيضة ، وشيء من الأسى :

– ومع هذا فهو ليس واحداً منا . معنا وليس منا . فهو طموح . وفيه شيء من لاسال ، شيء ليس جيداً .

هذه الكلمات «معنا وليس منا» استخدمها مرتين فى حضوري ، وفي المرة الثانية بخصوص شخص بارز سرعان ما وافته المنية بعد رحيل فلاديمير ايليتش نفسه . لابد انه كان فلاديمير ايليتش يفهم الناس جيداً . مرة ، حين دلفت الى مكتبه وجدت هنالك شخصاً كان يدير ظهره ناحية الباب وينحنى في الوقت ذاته لفلاديمير ايليتش ، وكان فلاديمير ايليتش يتابع كتابته دون أن يرفع عينيه .

سألنى ، وهو يشير الى الباب :

– أتعرفه ؟

قلت انى التقيته مرتين – في موضوع «الأدب العالمى» .

– ما رأيك ؟

– شخص جاهل غير مثقف فى رأيي .

– همْ ، همِْ . انه متملق والأرجح أنه محتال . ولكنها المرة الأولى التي أراه فيها ، وقد أكون مخطئاً .

لم يكن فلاديمير ايليتش مخطئاً . فبعد عدة شهور برر هذا الرجل وصف لينين له تبريراً مطلقاً .

كان لينين كثير التفكير في الناس قلقا حسب ما ذكر :

– جهازنا متفاوت جداً . فقد تسللت اليه منذ أكتوبر

عناصر عديدة . وأصحابك المثقفون الاتقياء المحبوبون ملومون في هذا – فهذا في آخر المطاف عمل من أعمال تخريبهم الدنيء .

قال لي ذلك ونحن نتمشى في بلدة غوركى . فشرعت أتحدث عن ألكسينسكى ، ولست أدري السبب في ذلك ، فلعله كان يهيىء لاحدى حيله البذيئة في ذلك الحين .

– تستطيع أن تتصور ذلك من تلقاء نفسك . ففي لقائنا الأول أحسست بشعور من النفور العضوي ضده . ولم أتمكن من التغلب على ذلك . ان أحداً لم يولد لديّ مثل هذا الشعور من قبل . كان علينا أن نقوم بعمل ما معاً وكان عليّ أن أستخدم كل وسيلة لأكبح جماح نفسي – كان ذلك مربكاً جداً . لقد شعرت بذلك – لا أستطيع بكل بساطة احتمال هذا المنحلّ .

وهزّ كتفيه في انشداه ، وأضاف :

– ولكنني لم استطع ان اكتشف سر مالينوفسكي ، هذا النذل . ان قضية مالينوفسكي لقضية ملغزة . . .

كان بالنسبة اليّ معلماً صارماً ، «وصديقا حنونا» .

قال لى مداعباً :

– أنت شخص مبهم . فى الأدب تبدو واقعياً طيباً – أما في موقفك من الناس فأنت رومانسي . هل جميع الناس ضحايا التاريخ في نظرك ؟ نحن نعرف التاريخ ، ونحن نقول للضحايا : اقلبوا المذابح احطموا الهياكل ! أسقطوا الاوثان ! وتريد أنت أن تقنعني أن الحزب المناضل للطبقة العاملة ملتزم قبل كل شيء بتأمين رفاهية الانتليجينتزيا .

قد أكون على خطأ ، ولكنه يبدو لي أن فلاديمير ايليتش كان يحب الحديث معي . كان يقترح على الدوام :

– حين تصل – اهتف لي ، وسوف نلتقي .

وقال مرة :

– من الممتع التحدث اليك . فأنت تملك حلقة كبيرة متنوعة من الانطباعات .

كان يسأل عن موقف الانتليجينتزيا ، ويبدى اهتماماً خاصاً بالعلماء . كنت في هاتيك الفترة اعمل وأ . ب . خالاتوف في «لجنة تحسين معيشة العلماء» . كان يهتم بالأدب البروليتارى :

– ماذا سيخرج منه في رأيك ؟

قلت انى أنتظر منه شيئا كثيراً ، ولكنني أعتبر أن من الضروري أن يصار الى تنظيم «معهد ادبى عال» يضمُّ مقاعد لعلم اللغة ، واللغات الأجنبية – الغربية والشرقية ، والفولكلور ، وتاريخ الأدب العالمي ، والأدب الروسي بشكل مستقل . فقال ، وهو يزرُّ عينيه ويقهقه :

– هِمْ ، هِمْ . ما أوسع ذلك وأبعثه على الروعة ! أنا لست ضد كونه واسعاً – لكن اذا كان لابدّ أن يكون باعثاً على الروعة . . . ما رأيك ؟ ليس لدينا أساتذة من عندنا لمثل هذه الموضوعات ، والأساتذة البرجوازيون سيعلّمون نوعاً من التاريخ . لا ، أظن أن علينا أن نباشر ذلك فيما بعد . يجب أن ننتظر ثلاث أو خمس سنوات .

ومن بعد كان يشكو :

– ليس لديّ وقت على الاطلاق للقراءة !

ما أكثر ما كان يشير في كثير من التوكيد الى قيمة العمل الذي يقوم به ديميان بيدني بخصوص الدعاية . ولكنه أضاف :

– بيد أنه جاف نوعا ما . فهو يتبع القارئ بدلاً من أن يتقدمه قليلاً .

لم يكن يثق بماياكوفسكي ، بل كان يستاء منه .

– انه يصرخ ، ويبتدع نوعا من كلمات مشوّهة ، ولا يعبّر عن جوهر الأمر – وفضلاً عن هذا فهو غير مفهوم . وهو متفكك ، تصعب قراءته . أهو موهوب ؟ وموهوب جداً ؟ هم ، هم . لسوف نرى . ولكن ، ألا يخيل اليك أن الناس يكثرون من كتابة الشعر هذه الأيام ؟ هنالك صفحات عديدة منه في الصحف ، ومجلدات تظهر في كل يوم .

أبديت أن من الطبيعي أن ينجذب الشبان الى الشعر في مثل هذه الايام وبرأيي ان نظم الشعر متوسط الجودة اسهل من كتابة النثر الجيد ، فضلاً عن أن الشعر يتطلب وقتاً أقصر . يضاف الى ذلك أن لدينا كثرة من المعلمين في فن نظم القريض .

– أنا لا أصدق أن القريض أسهل من كتابة النثر . لا أستطيع أن أتصور ذلك . لا أستطيع نظم بيتين من الشعر ولو سلخت جلدي حياً . – وعبست ملامحه : – ينبغي أن ننشر بين الجماهير بأسرها الأدب الثوري القديم – جميع ما نملك هنا وما هو موجود في أوروبا .

كان روسياً عاش زمناً طويلاً بعيداً عن وطنه الأم ، ودرسه بكل يقظة وانتباه – انه يلوح من بعيد أكثر تألقاً

وجمالاً . وكان يقدّر بصورة صائبة قواه المختزنة ، ومواهب شعبه الاستثنائية ، التي لم يتمّ التعبير عنها بعد الا بصورة طفيفة ، والتي لا تزال غافية بعد بسبب من رتابة التاريخ واستبداده . ومع ذلك تومض في كل مكان مثل نجمات ذهبية على الخلفية القاتمة للحياة الخيالية في روسيا .

فلاديمير لينين ، هذا الرجل العميق العظيم من هذا العالم ، قد طواه الردى . ان وفاته ضربة أليمة على قلوب أولئك الذين عرفوه ، أليمة حقا !

لكن ظلمة الموت لا تفعل الا أن تظهر للعالم بمزيد من القوة أهميته العظيمة – أهميته كقائد الطبقة العاملة في العالم بأسره .

واذا كانت السحابة السوداء للكراهية ، والكذب والافتراء ، أشد كثافة مما هي عليه ، فإن ذلك لا شأن له على الاطلاق . ليس ثمة قوة تستطيع أن تطفىء المشعل الذي رفعه لينين عالياً في الحلكة الخانقة لعالم مجنون .

كما أنه ليس هنالك انسان سواه يستأهل بحقٍّ مثله أن يذكره العالم الى أبد الأبدين .

مات فلاديمير ايليتش . لكن ورثة فكره وارادته باقون على قيد الحياة . انهم يحيون ويكملون العمل الذي هو أكثر ظفراً من أي عمل آخر فى تاريخ البشرية .

محتويات

حكايات عن ايطاليا

الاضراب ٥
اطفال بارما ١١
النفق ١٧
الأم ٢٤
نونشيا ٣٦
بيب ٤٨

اقاصيص

مولد انسان ٦١
انزلاق الجليد ٨١
الاحازين الغليظة ١٢٥
الحب الاول ١٥٤
قصص عن الابطال ٢٠٢

صور ادبية

انطون تشيخوف ٢٦٧
ليف تولستوي ٢٩٨
فلاديمير ايليتش لينين ٣٨٢

28—381

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته ، وشكل عرضه ، وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو ، الاتحاد السوفييتي

بوسعنا بالاعتماد على كتب غوركي ان نفهم روسيا كاشقاء وكعالم قريب عزيز علينا ، بدون تغريب ، وبدون مقاومة في قرارة نفوسنا ، وهذا يمثل اسمى واجب للكاتب . . . ان يحطم الحواجز بين البشر ، وان يجعل البعيد قريبا وان يوحد بين الشعوب .

ستيفان زفايج ، المانيا



لايوجد فى تأريخ الادب العالمى الكثير من الكتاب الذين تضاهى شهرتهم شهرة غوركى . اذ صدرت مؤلفاتـــه فقط فى فترة خمسة وثلاثين عاما بعـــد الحرب (١٩٤٥-١٩٨٠) فى خارج الاتحـــاد السوفييتى بطبعات منفردة حوالى ٣٠٠٠ مرة (يتألف بعضها من ٣ و٥ و٨ و١٠ و٢٠ مجلدا) . بتعبير آخر يصـــدر فى العالم سنويا ما يربو على ٨٠ طبعـــة منفردة لاعمال الكاتب .